وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة زيان عاشور

مجلة التراث

مجلة دولية محكمة دورية

تصدر بجامعة الجلفة

العدد 23 سبتمبر 2016

ISSN; 2253-0339

الايداع القانوني,1934-2011

المجلة

مجلة التراث مجلة علمية محكمة تصدر بصفة دورية كل ثلاثة أشهر عن مخبر جمع دراسة وتحقيق مخطوطات المنطقة وغيرها بجامعة الجلفة الجمهورية الجزائرية وتعنى بنشر البحوث والدراسات الجادة في العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية التي لم يسبق نشرها وليست جزءا من رسالة ماجستير أو اطروحة دكتورة كما تأمل أن تكون واجهة ثقافيّة مشرقةً للجامعة

تنشر مجلة التراث البحوث العلمية الأصيلة للباحثين في هذه التخصصات من داخل الجامعات الجزائرية ومن خارج الجزائر مكتوبة باللغة العربية أو الفرنسية أو الإنجليزية .

التحكيم العلمي

تخضع البحوث التي تنشر في المجلة لتحكيم علمي دقيق حسب المعايير العلمية المتعارف عليها في المجلات العلمية المحكمة من طرف محكمين اثنين متخصصين في المجال وأعلى مستوى من صاحب المقال و لا ينشر المقال إلا بعد موافقة المحكمين الاثنين .

أهداف المجلة

إن هدف المجلة في الأساس هو المساهمة في إضافة جديدة في مجالات العلوم الإنسانية و الاجتماعية والعلوم الاسلامية وتوفير فضاء علمي للأساتذة والباحثين لنشر بحوثهم وتوفيرها وعرضها للفحص والدراسة والنقد والإضافة. وتهدف إلى إثراء الحركة العلميّة والإسهام في تطوير المعرفة ونشرها وذلك بنشر المقالات ذات القيمة العلمية العالية في مختلف مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية بعد مراجعتها من قبل هيئة التحرير وكذلك من بين أهدافها:

تلبية الاحتياجات البحثية لأساتذة وطلاب الدراسات العليا

تعزيز التواصل الثقافي والحضاري

اضافة مصدر علمي رصين للقارئ العربي

بيانات المجلة

رقم التسلسل الدولي : ISSN: 0339-2259

الايداع القانوني : 1934-2011

- اللغة : العربية ، الانجليزية ، والفرنسية.

- وسائل الاتصال :

هاتف المجلة :00213550443945

صندوق بريد : 3075 الجلفة 17000 الجمهورية الجزائرية

البريد الالكتروني : makhtot_labo@yahoo.fr

هيئة تحرير المجلة

مدير المجلة **رئيس التحرير**

د.لحرش أسعد المحاسن **د. بشيري عبد الرحمن**

الاخراج

أ. الطاهر حوة

الهيئة العلمية

أ.د بوزيدي كمال	جامعة الجزائر	د.سناء الباروني	جامعة جندوبة تونس
أ.د بوغزالة محمد الناصر	جامعة الجزائر	د.بن داود ابراهيم	جامعة الجلفة
أ.د عبد القادر بن حرزالله	جامعة باتنة	د.حمادي نورالدين	جامعة الجلفة
أ.د سعيد فكرة	جامعة باتنة	د.فشار عطاالله	جامعة الجلفة
أ.د خير الدين سيب	جامعة تلمسان	د.عزالدين مسعود	جامعة الجلفة
أ.عبد الستار عبد الحق الحلوجي	مصر	أ.هزرشي عبد الرحمن	جامعة الجلفة
د.عز الدين بوكربوط	جامعة الجلفة	أ.شلالي رضا	جامعة الجلفة
أ.د العوفي عبد الكريم	جامعة ام القرى	د.درماش بن عزوز	جامعة الجلفة
د.محمد ضياء الدين	جامعة بغداد	أ.صدارة محمد	جامعة الجلفة
أ.د ذياب البداينة	الأردن	د.بن حفاف اسماعيل	جامعة الجلفة
د.محمود محمد زكي	مصر	.معيزة عيسى	جامعة الجلفة
د.دهينة نصيرة	الجزائر	أ.شريط محمد	جامعة الجلفة
د.كول سعيدة	جامعة عنابة	د عزالدين كحيل	جامعة بسكرة

قواعد النشر في المجلة

- ألا يكون البحث قد نشر أو قدم للنشر في أي مجلة أو جزء من كتاب أو مذكرة أو أطروحة
- أن يلتزم الباحث بالمنهج العلمي و الموضوعية و الأصالة
- تقدم المقالات مكتوبة فيما لا يتجاوز 25 صفحه
- تخضع الأعمال المرسلة الى المجلة للتحكيم قبل نشرها
  - الالتزام بالخط traditional arabic16 والهوامش 14 تباعد عادي
  - ربط النص بالهوامش الزامي
  - ترتب الموضوعات وفق اعتبارات فنية
  - ما ينشر في المجلة يعبر عن رأي كاتبه ،و لا يمثل رأي المجلة بالضرورة

ترسل البحوث و جميع المراسلات الخاصة بالمجلة الى مخبر جمع دراسة و تحقيق مخطوطات المنطقة

و غيرها بكلية الحقوق والعلوم السياسية بجامعة الجلفة

حديث عبد الله بن مسعود ﷺ : كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير

رواية ودراية

د. عبد الرحمن بن محمد بن غنيم الحازمي

الأستاذ المساعد بجامعة شقراء – كلية التربية بعفيف

ملخص

تناولت في هذا البحث حديثًا من أحاديث النبي ﷺ ، ألا وهو (كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير ...) الحديث، وقد قسمته إلى مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة ، تكلمت في الفصل الأول عن الحديث من ناحية الرواية ، فذكرت تخريجه، وترجمة رواته ، والحكم عليه ، وفي الفصل الثاني تكلمت عن الحديث من ناحية الدراية ، فبينت الألفاظ الغريبة الواردة في الحديث، ومسألة هل كان أبو لبابة مع النبي ﷺ في غزوة بدر ، وجملة من المسائل الفقهية المتعلقة بالحديث ، وفي الفصل الثالث ذكرت جملة من الفوائد المستنبطة من الحديث ، فذكرت بعض صفاته ﷺ ، وبعض صفات صحابته ﷺ ، وبعض الفوائد التربوية، والعامة ، ثم ختمت البحث ببعض النتائج التي توصلت إليها .

Abstract

In this research, I dealt with one of the Prophet's sayings "Ahadith" (peace be upon him). This Hadith is " We were on Badr Day when every three persons were riding on one camel … " So I divided this Hadith into an introduction, three chapters and a conclusion. In the first chapter, I mentioned the narration of this Hadith, the name of whoever compiled or classified this hadith , the biography of its narrators and its verification. In the second chapter, I dealt with the knowing of this Hadith showing any unfamiliar words, discussed the question (issue) of whether Abu Lubaabah was with the Prophet (peace be upon him) in Badr Battle or not and a number of jurisprudence issues related to this Hadith. In the third chapter, I mentioned a number of benefits derived from this Hadith such as : some of the qualities of the Prophet (peace be upon him), some of the qualities of the Prophet's companions and some general and educational benefits. And then in the conclusion, I stated some research findings.

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ﷺ ، أما بعد ،،،

من أهم المهمات التي ينبغي لطلاب العلم الشرعي الاهتمام بها ، العناية بسنة النبي ﷺ ونشرها بين الناس لحاجة الناس إليها في كل زمان ومكان .

والسنة النبوية تعد منهج حياة لكل الخلق ، ولو رجع المسلمون إلى سنة نبيهم ﷺ ، ودرسوها بتأمل وتروي ، وطبقوها في واقعهم ، لعاشوا حياة سعيدة .

من أجل هذا ، أحببت أن أشارك في دراسة حديث من أحاديث النبي ﷺ ، واستخراج ما فيه من فوائد وحكم ، فوقع الاختيار على حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال : كُنَّا يَوْمَ بَدْرٍ كُلُّ ثَلَاثَةٍ عَلَى بَعِيرٍ، وَكَانَ أَبُو لُبَابَةَ وَعَلِيٌّ زَمِيلَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَكَانَ إِذَا كَانَتْ عُقْبَةُ النَّبِيِّ ﷺ قَالَا: ارْكَبْ حَتَّى نَمْشِيَ عَنْكَ ، فَيَقُولُ: (مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى عَلَى الْمَشْيِ مِنِّي، وَمَا أَنَا أَغْنَى عَنِ الْأَجْرِ مِنْكُمَا) .

أهمية البحث :

1- يقدم هذا البحث جملة من صفات النبي ﷺ .

2- يظهر هذا البحث جانبًا من صفات الصحابة ﷺ .

3- يقدم هذا البحث بعض الفوئد التي يحتاجها الدعاة .

4- يعطي هذا البحث جملة من القواعد العامة .

5- في حدود علم الباحث لم يسبق أن تناولت دراسة هذا الحديث رواية ودراية .

6- يعد هذا البحث مشاركة من الباحث في نشر سنة النبي ﷺ بين الناس .

حدود البحث :

اقتصرت في هذا البحث على حديث عبد الله بن مسعود ﷺ السابق ، مبينا ما فيه من مسائل وفوائد .

منهج العمل في البحث :

1- جمعت طرق حديث عبد الله بن مسعود ﷺ .

2- خرجت الحديث من كتب السنة المعتمدة .

3- ذكرت ما حصل من اختلاف في ألفاظ الحديث .

4- درست حال الرجال الذين عليهم مدار الحديث .

5- حكمت على الحديث .

6- بينت الكلمات الغريبة الواردة في الحديث .

7- جمعت المسائل الفقهية المستنبطة من هذا الحديث .

8- ذكرت الفوائد المستنبطة من هذا الحديث .

المبحث الأول : صفاته ﷺ : جهاده، تواضعه، عدله، زهده، قوته، حرصه على تحصيل الأجر، افتقاره لربه ، مشاركته لأصحابه، ترتيبه لأصحابه، لطفه في الحديث مع أصحابه .

المبحث الثاني : صفات الصحابة ﷺ : محبتهم للنبي ﷺ، جهادهم، تواضعهم، زهدهم، طلبهم للأجر، استجابتهم لترتيب النبي ﷺ، بعدهم عن الجدل وسكوتهم عند وضوح الحجة .

المبحث الثالث : الدروس التربوية المستفادة من الحديث : الداعية القدوة ، مشاركة المتربين في العمل ، حرص الداعية على طلب الأجر ، الجهاد والأمور الكبيرة لا تشغل الداعية عما دونها من أعمال الخير .

المبحث الرابع : قواعد عامة : لا إيثار في القربات ، أمور الدنيا مبنية على التكامل بين الناس وأمور الآخرة مبنية على التنافس ، أن الركوب لا ينافي الزهد والتقلل من الدنيا ، أن المشي فيه مزيد أجر لزيادة مشقته على الركوب ، جواز إخبار الإنسان عما يجد في نفسه من القوة والعلم ونحوهما عند الحاجة .

وأما الخاتمة فذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليهامن خلال هذا البحث .

ووضعت للبحث فهرسًا للمصادر والمراجع ، وللموضوعات.

والله أسأل أن يتقبل هذا البحث ، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به عباده ، إنه ولي ذلك والقادر عليه ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ : كُنَّا يَوْمَ بَدْرٍ كُلُّ ثَلَاثَةٍ عَلَى بَعِيرٍ ، وَكَانَ أَبُو لُبَابَةَ وَعَلِيٌّ زَمِيلَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَكَانَ إِذَا كَانَتْ عُقْبَةُ النَّبِيِّ ﷺ قَالَا: ارْكَبْ حَتَّى نَمْشِيَ عَنْكَ ، فَيَقُولُ: (مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى عَلَى الْمَشْيِ مِنِّي، وَمَا أَنَا أَغْنَى عَنِ الْأَجْرِ مِنْكُمَا) .

الفصل الأول

الحديث رواية ، وفيه مباحث : المبحث الأول

تخريج الحديث

أخرجه الإمام أحمد عن عفان[1] ، وعبد الصمد[2] ، وإسحاق بن عيسى وحسن بن موسى[3]، وأبي كامل[4] ، وأخرجه أبو داود الطيالسي[5] – ومن طريقه البيهقي[6] – ، وابن سعد[7]، وابن أبي شيبة[8]، كلاهما عن يونس بن محمد المُؤَدِّب ، والحارث بن أبي أسامة[9] – ومن طريقه أبو نعيم[10] – عن الحسن بن موسى ، وأخرجه البزار[11]، والنسائي[12] ، كلاهما من طريق عبد الرحمن بن مهدي ، وأبو يعلى[13] من طريق عفان ، والشاشي[14] من طريق حجاج بن المنهال ، وابن حبان[15] من طريق أبي الوليد الطيالسي ، والحاكم – وعنه البيهقي[16] – من طريق روح بن عبادة[17]، وأبي الوليد الطيالسي[18] ، وأخرجه البغوي[19] ، والضياء المقدسي[20]، كلاهما من طريق عفان، وعزاه ابن حجر في فتح الباري للطبري[21] .

جميعهم عن حماد بن سلمة، عن عاصم بن بهدلة، عن زر بن حبيش، عن ابن مسعود ﷺ .

جاء من طريق إسحاق بن عيسى وحسن بن موسى : كنا في غزوة بدر .

وجاء من طريق عبد الرحمن بن مهدي وعبد الصمد : كانوا يوم بدر .

وعند ابن حبان : أنهم كانوا يوم بدر بين كل ثلاثة بعير .

وعند الحاكم من طريق روح : كنا يوم بدر نتعاقب ثلاثة على بعير .

وجاء في رواية عبد الصمد : بين كل ثلاثة نفر بعير .

وعند أبي داود الطيالسي : وَكَانَ إِذَا حَانَتْ عُقْبَتُهُمَا قَالَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ ارْكَبْ نَمْشِ عَنْكَ فَقَالَ: (إِنَّكُمَا لَسْتُمَا بِأَقْوَى عَلَى الْمَشْيِ مِنِّي ، وَلَا أَرْغَبَ عَنِ الْأَجْرِ مِنْكُمَا) .

وعند الشاشي : قالا: إِنْ رَكِبْتَ حَتَّى نَمْشِيَ عَنْكَ ؟ .

ولم يذكر عفان في روايته : ارْكَبْ .

قال البزار:" وهذا الحديث لا نعلم رواه عن عاصم، عن زر، عن عبد الله إلا حماد بن سلمة ".

المبحث الثاني : ترجمة رجال الحديث وبيان حالهم

ظهر مما سبق أن مدار الحديث على حماد بن سلمة الذي يرويه عن عاصم عن زر عن ابن مسعود ﷺ ، وترجمتهم على النحو التالي :

حماد بن سلمة بن دينار البصري[22] ، أبو سلمة ، مولى تميم ، ويقال : مولى قريش ، وقيل غير ذلك ، وهو ابن أخت حميد الطويل ، وثقه أحمد ، وابن معين ، والعجلي ، والنسائي ، وغيرهم، وقال الساجي : كان حافظًا ثقة مأمونًا، وقال ابن المديني : لم يكن في أصحاب ثابت أثبت منه، وقال البيهقي : هو أحد أئمة المسلمين، إلا أنه لما كبر ساء حفظه، فلذا تركه البخاري وقال ابن حجر : ثقه عابد ، أثبت الناس في ثابت ، وتغير حفظه بأخرة ، من كبار الثامنة، مات سنة سبع وستين ، قال عبد الله بن أحمد : حدثني أبو خيثمة، قال: سمعت يحيى بن سعيد يقول: من أراد أن يكتب حديث حماد بن سلمه فعليه بعفان بن مسلم، وقال النسائي: أثبت أصحاب حماد بن سلمة ابن مهدي، وابن المبارك، وعبد الوهاب الثقفي.

عاصم بن بهدلة[23] ، وهو ابن أبي النَّجود – بنون وجيم – الأسدي مولاهم ، الكوفي ، أبو بكر المقرىء، قال ابن سعد : كان ثقة إلا أنه كان كثير الخطأ في حديثه، وقال أحمد : كان رجلًا صالحًا قارئًا للقرآن ، وكان خيرًا ثقة والأعمش أحفظ منه، وقال ابن معين : ثقة لا بأس به، وهو من نظراء الأعمش ، والأعمش أثبت منه، وقال العجلي : كان صاحب سنة وقراءة ، وكان ثقة رأسًا في القراءة، وقال يعقوب بن سفيان : في حديثه اضطراب ، وهو ثقة، وقال أبو حاتم : محله عندي محل الصدق صالح الحديث ، وليس محله أن يقال هو ثقة، و لم يكن بالحافظ، وقال أبو زرعة : ثقة، وقال ابن علية : كل من اسمه عاصم سيء الحفظ، وقال النسائي : ليس به بأس، وقال ابن خراش : في حديثه نكرة، وقال العقيلي : لم يكن فيه إلا سوء الحفظ، وقال الدارقطني : في حفظه شيء، وقال أبو بكر البزار: لم يكن بالحافظ ، ولا نعلم أحدًا ترك حديثه على ذلك ، وهو مشهور، وقال ابن قانع : قال حماد بن سلمة : خلط عاصم في آخر عمره ، قلت : و لم يُذكر حماد بن سلمة ممن سمع منه بعد الاختلاط، وذكره ابن حبان وابن شاهين في الثقات، وقال الذهبي : صدوق ، وقال أيضًا : وهو في الحديث دون الثبت ، صدوق يهم، وقال ابن رجب : كان حفظه سيئًا ، وحديثه خاصة عن زر وأبي وائل مضطرب ، كان يحدث بالحديث تارة عن زر، وتارة عن أبي وائل، وقال ابن حجر : صدوق له أوهام ، حجة في القراءة، وحديثه في الصحيحين مقرون ، من السادسة ، مات سنة ثمان وعشرين .

زِرّ – بكسر أوله وتشديد الراء – هو ابن حبيش – بمهملة وموحدة ومعجمة مصغر – ابن حُباشة[24] – بضم المهملة بعدها موحدة ثم معجمة – الأسدي ، الكوفي ، أبو مريم، قال ابن معين ، والعجلي : ثقة، وقال ابن سعد : كان ثقة كثير الحديث، وقال أبو جعفر البغدادي قلت لأحمد : فزر وعلقمة والأسود ؟ قال : هؤلاء أصحاب ابن مسعود وهم الثبت فيه، وقال ابن حجر : ثقة جليل مخضرم ، من الثانية ، مات سنة إحدى أو اثنتين أو ثلاث وثمانين وهو ابن مائة وسبع وعشرين سنة .

المبحث الثالث : الحكم على الحديث

إسناده حسن ، فيه عاصم بن بهدلة صدوق .

والحديث صححه ابن حبان كما سبق في التخريج

وقال الحاكم : " هذا حديث صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه "[25] ، وسكت عنه الذهبي ، وقال أيضًا : " هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه "[26] .

وحسن إسناده الهيثمي حيث قال : " وفيه عاصم بن بهدلة، وحديثه حسن ، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح "[27] ، وحسنه الألباني[28] ، وجود إسناده ابن حجر[29] .

الفصل الثاني

الحديث دراية ، وفيه مباحث : المبحث الأول

بيان الألفاظ الغريبة الواردة في الحديث

كُنَّا : أي أصحاب النبي ﷺ .

يَوْمَ بَدْرٍ : أي في غزوة بدر .

كُلُّ ثَلَاثَةٍ : أي من الرجال .

عَلَى بَعِيرٍ : أي نتعاقب ونتناوب على ركوبه .

أَبُو لُبَابَةَ : ابن عبد المنذر الأنصاري ، مختلف في اسمه : قال موسى بن عقبة : اسمه بشير – بمعجمة وزن عظيم – وكذا قال أبو الأسود عن عروة ، وقيل بالمهملة أوله ثم تحتانية ثانية ، وقال ابن إسحاق : اسمه رفاعة ، وكذا قال ابن نمير وغيره ، وذكر صاحب الكشّاف وغيره في تفسير سورة «الأنفال» أنّ اسمه مروان ، أحد النقباء ليلة العقبة ، يقال : مات في خلافة علي، وقال خليفة : مات بعد مقتل عثمان ، ويقال : عاش إلى بعد الخمسين[30] .

زَمِيلَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : الزَّمِيل : العديل الذي حِمْله مع حملك على البعير ، وَقَدْ زَامَلَنِي: عادَلَنِي، والزَّمِيلُ أَيْضًا : الرَّفيق فِي السَّفر الَّذِي يُعِينك عَلَى أمورك ، وَهُوَ الرَّديف أَيْضًا[31] .

فَكَانَ إِذَا كَانَتْ عُقْبَةُ النَّبِيِّ ﷺ: أَيْ جاءَت نَوبَتُه[32]، أي نوبة رسول الله ﷺ في المشي .

قَالَا: ارْكَبْ حَتَّى نَمْشِيَ عَنْكَ : أي نمشي بدلًا عنك .

وَمَا أَنَا أَغْنَى عَنِ الْأَجْرِ مِنْكُمَا : أي في الآخرة .

المبحث الثاني

مسألة : هل كان أبو لبابة مع النبي ﷺ في غزوة بدر ؟

ذكره موسى بن عقبة في البدريين وقال : " ضرب له بسهمه وأجره "[33] .

قال ابن كثير : " قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي لَيَالٍ مَضَتْ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ فِي أَصْحَابِهِ، وَاسْتَعْمَلَ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ عَلَى الصَّلَاةِ بِالنَّاسِ، وَرَدَّ أَبَا لُبَابَةَ مِنَ الرَّوْحَاءِ وَاسْتَعْمَلَهُ عَلَى الْمَدِينَة ، كَذَا قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ : – وذكر حديث ابن مسعود ﷺ –

قُلْتُ: وَلَعَلَّ هَذَا كَانَ قَبْلَ أَنْ يَرُدَّ أَبَا لُبَابَةَ مِنَ الرَّوْحَاءِ، ثُمَّ كَانَ زَمِيلَاهُ عَلِيٌّ وَمَرْثَدٌ بَدَلَ أَبِي لُبَابَةَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ "[34] .

وقال ابن سيد الناس – بعد أن ذكر الحديث – :" وَالْمَعْرُوفُ أَنَّ أَبَا لُبَابَةَ رَجَعَ مِنْ بِئْرِ أَبِي عِنَبَةَ ، وَلَمْ يَصْحَبْهُمْ إِلَى بَدْرٍ، رَدَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالِيًا عَلَى الْمَدِينَةِ "[35] .

فالذي يظهر – والله تعالى أعلم – أن أبا لبابة لم يشهد بدرًا ، لأن النبي ﷺ رده من الروحاء واستعمله على المدينة ، وأن هذا الحديث كان قبل رده ﷺ من الروحاء ، مع أن النبي ﷺ ضرب له بسهمه وأجره .

المبحث الثالث

المسائل الفقهية المستنبطة من الحديث

المسألة الأولى : جواز ركوب الرجل على بعير غيره لإرادة الغزو .

المسألة الثانية : جواز التعاقب على الدابة .

المسألة الثالثة : جواز تنازل الرجل عن حقه في الركوب .

المسألة الرابعة : جواز قسمة المهايأة – أي المناوبة – .

المسألة الخامسة : جواز ركوب ثلاثة وأكثر على الدابة إذا كانت تطيق .

الفصل الثالث

الفوائد المستنبطة من الحديث ، وفيه مباحث :

المبحث الأول : صفاته ﷺ

1- جهاده ﷺ: (ظهرت هذه الصفة فيه ﷺ في هذا الحديث من خلال خروجه مع أصحابه ﷺ للغزو) .

والجهاد ذروة سنام الإسلام ، وكان ﷺ يحث أصحابه على هذه العبادة العظيمة قولًا وعملًا ، فمن أقواله ﷺ كما في حديث أبي هريرة ﷺ قال : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَعْدِلُ الجِهَادَ ؟ قَالَ : (لاَ أَجِدُهُ) ، قَالَ : (هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ المُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ فَتَقُومَ وَلاَ تَفْتُرَ، وَتَصُومَ وَلاَ تُفْطِرَ ؟) ، قَالَ: وَمَنْ يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ ؟[36] ، وغيره من الأحاديث .

وهو ﷺ كان يخرج بنفسه في الغزوات لجهاد المشركين ، ولإعلاء كلمة الله ، فجاهد في سبيل الله حق الجهاد حتى أتاه اليقين ، وقد غزا ﷺ تسع عشرة غزوة ، وتخلف عن بعض المعارك ليس زهدًا في الأجر ، ولكن رحمة بالمؤمنين ، يقول ﷺ كما في حديث أبي هريرة ﷺ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلاَ أَنَّ رِجَالًا مِنَ المُؤْمِنِينَ لاَ تَطِيبُ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَلاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ مَا تَخَلَّفْتُ عَنْ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ)[37] .

2- تواضعه ﷺ : (ظهرت هذه الصفة فيه ﷺ في هذا الحديث من خلال ركوبه على الدابة، وتناوبه مع بعض أصحابه على الركوب) .

من الأخلاق التي عرف بها ﷺ خلق التواضع ، فكان خافض الجناح للصغير والكبير ، والذكر والأنثى ، والقريب والبعيد ، ولأهله وأصحابه ، بل حتى الصبي الصغير والجارية والعبد، وعندما ناداه رجل فقال : يا سيدنا وابن سيدنا وخيرنا وابن خيرنا ، قال ﷺ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِتَقْوَاكُمْ ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ ، أَنَا مُحَمَّدُ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، وَاللَّهِ مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ)[38] ، ومما يبين كمال تواضعه ﷺ ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما : أَنَّ اللهَ أَرْسَلَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مَلَكًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَعَ الْمَلَكِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلَكُ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللهَ عَزَّ جَلَّ يُخَيِّرُكَ بَيْنَ أَنْ تَكُونَ نَبِيًّا عَبْدًا، أَوْ نَبِيًّا مَلِكًا، فَالْتَفَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى جِبْرِيلَ كَالْمُسْتَشِيرِ، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ أَنْ تَوَاضَعْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:(بَلْ نَبِيًّا عَبْدًا)، فَمَا رُؤِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَكَلَ مُتَّكِئًا حَتَّى لَحِقَ بِرَبِّهِ[39] .

3- عدله ﷺ : (ظهرت هذه الصفة فيه ﷺ في هذا الحديث من خلال إلزام نفسه بالقيام بنفس العمل الذي يقوم به أصحابه من المشي وغيره ، وعدم تميزه عنهم) .

العدل خلق كريم ، وخلة عالية ، لا يستطيعها إلا الكبار ، وبها يطمئن كثير من المظلومين أن حقوقهم لن تضيع ، وقد كان هذا الخلق سجية من سجاياه ﷺ ، فقد كان ﷺ عدل في تعامله مع ربه عز وجل ، وفي تعامله مع نفسه ، وفي تعامله مع أزواجه، وفي تعامله مع أصحابه ، وفي تعامله مع أعدائه ، قال له رجل : يَا رَسُولَ اللهِ اعْدِلْ ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ ؟ قَدْ خِبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ)[40] ، ومما يبين تطبيق هذا الخلق حتى على نفسه ﷺ ما جاء عن أبي سعيد الخدرى ﷺ قال : بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْسِمُ قَسْمًا ، أَقْبَلَ رَجُلٌ فَأَكَبَّ عَلَيْهِ، فَطَعَنَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِعُرْجُونٍ[41] كَانَ مَعَهُ ، فَجَرَحَ بِوَجْهِهِ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (تَعَالَ فَاسْتَقِدْ[42])، فَقَالَ بَلْ عَفَوْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ[43] .

4- زهده ﷺ : (ظهرت هذه الصفة فيه ﷺ في هذا الحديث من خلال ركوبه على الدابة مع بعض أصحابه ، وهو أيضًا يمشي على قدميه في بعض الأحيان) .

الزهد هو الإعراض عن الشيء مع تيسره له ، أما من لم يتيسر له فلا يقال زاهد فيه ، وقد كان ﷺ أزهد الناس في الدنيا ، مع أنها كانت بين يديه ، ولو شاء لأجرى الله له الجبال ذهبًا وفضة ، قال ﷺ : (مَا يَسُرُّنِي أَنَّ عِنْدِي مِثْلَ أُحُدٍ هَذَا ذَهَبًا ، تَمْضِي عَلَيَّ ثَالِثَةٌ ، وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ ، إِلَّا شَيْئًا أَرْصُدُهُ لِدَيْنٍ ، إِلَّا أَنْ أَقُولَ بِهِ فِي عِبَادِ اللَّهِ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا) عَنْ

يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ، وَمِنْ خَلْفِهِ[44] ، وكان يمر الهلال ثم الهلال ثم الهلال وما أوقدت في أبيات النبي ﷺ نار ، وكان طعامهم الأسودان: التمر والماء[45].

5- قوته ﷺ : (ظهرت هذه الصفة فيه ﷺ في هذا الحديث من خلال قوله : (مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى عَلَى الْمَشْيِ مِنِّي)) .

أعطى الله سبحانه وتعالى نبيه محمدًا ﷺ قوة عظيمة لم يعطها رجل قبله ولا بعده ﷺ ، وقوته ﷺ كانت شاملة لجميع أنواع القوة الظاهرة والباطنة ، كانت قوته ﷺ الجسدية عظيمة جدًا ، بل ورد أنه أعطي قوة ثلاثين رجلًا ، قال أنس بن مالك ﷺ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدُورُ عَلَى نِسَائِهِ فِي السَّاعَةِ الوَاحِدَةِ، مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَهُنَّ إِحْدَى عَشْرَةَ ، قَالَ: قُلْتُ لِأَنَسٍ أَوَكَانَ يُطِيقُهُ ؟ قَالَ : كُنَّا نَتَحَدَّثُ : أَنَّهُ أُعْطِيَ قُوَّةَ ثَلاَثِينَ[46] ، ومما يدلك على قوته ﷺ مصارعته لركانة – وهو الرجل الشديد الذي لم يصرعه أحد من قبل – فصرعه ﷺ[47] ، وعَرَضَتْ للصحابة رضوان الله عليهم يوم حفر الخندق كُدْيَةٌ شَدِيدَةٌ[48] ، فَجَاءُوا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: هَذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضَتْ فِي الخَنْدَقِ، فَقَالَ: (أَنَا نَازِلٌ) ، ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ، وَلَبِثُوا ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ لاَ يَذُوقُون ذَوَاقًا، فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ المِعْوَلَ[49] فَضَرَبَ، فَعَادَ كَثِيبًا أَهْيَلَ[50]، أَوْ أَهْيَمَ[51] .

6- حرصه ﷺ على تحصيل الأجر : (ظهرت هذه الصفة فيه ﷺ في هذا الحديث من خلال قوله : (وَمَا أَنَا أَغْنَى عَنِ الْأَجْرِ مِنْكُمَا) ، وخروجه بنفسه للغزو) .

مع أنه ﷺ غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، إلا أنه كان أكثر الخلق حرصًا على تحصيل الأجر من الله سبحانه وتعالى ، فهاهو ﷺ يقوم حتى تنفطر[52] قدماه[53] ، وقال أنس : كان رسول الله ﷺ يُفْطِرُ مِنَ الشَّهْرِ حَتَّى نَظُنَّ أَنْ لاَ يَصُومَ مِنْهُ، وَيَصُومُ حَتَّى نَظُنَّ أَنْ لاَ يُفْطِرَ مِنْهُ شَيْئًا، وَكَانَ لاَ تَشَاءُ أَنْ تَرَاهُ مِنَ اللَّيْلِ مُصَلِّيًا إِلَّا رَأَيْتَهُ، وَلاَ نَائِمًا إِلَّا رَأَيْتَهُ[54] ، وكان ﷺ يَذْكُرُ اللهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ[55] .

7- افتقاره ﷺ لربه عز وجل : (ظهرت هذه الصفة فيه ﷺ في هذا الحديث من خلال قوله: (وَمَا أَنَا أَغْنَى عَنِ الْأَجْرِ مِنْكُمَا)) .

الافتقار إلى الله سبحانه وتعالى مقام عالٍ لا يصل إليه إلا من حقق العبودية الكاملة لله سبحانه وتعالى ، ومَنَ أعظم تحقيقًا للعبودية منه ﷺ ؟ ، كان يدعوا ربه : (اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ)[56]، وعندما عاد ﷺ من الطائف أخذ يدعوا بهذه الدعوات : (اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي، إِلَى عَدُوٍّ يَتَجَهَّمُنِي[57] أَوْ إِلَى قَرِيبٍ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي، إِنْ لَمْ تَكُنْ غَضْبَانَ عَلَيَّ فَلَا أُبَالِي، غَيْرَ أَنَّ عَافِيَتَكَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ أَوْ تُحِلَّ عَلَيَّ سَخَطَكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ)[58] .

8- مشاركته ﷺ لأصحابه : (ظهرت هذه الصفة فيه ﷺ في هذا الحديث من خلال خروجه مع أصحابه للغزو ، وتناوبه مع بعضهم على ركوب الدابة) .

على الرغم من إنشغاله ﷺ بأمور الأمة العظيمة ، إلا أنه كان دائمًا مع أصحابه ﷺ يخالطهم ويعايشهم ويوجههم ويربيهم ، ويشترك معهم في الأعمال ، يعمل كما يعملون بل أكثر ، فلم يكن يكتفي بإصدار الأوامر والتوجيهات لأصحابه .

ها هو ﷺ يشارك أصحابه في بناء المسجد ، يقول أنس – وهو يحكي قصة بناء المسجد– : وَجَعَلُوا يَنْقُلُونَ الصَّخْرَ وَهُمْ يَرْتَجِزُونَ ، وَالنَّبِيُّ ﷺ مَعَهُمْ، وَهُوَ يَقُولُ: (اللَّهُمَّ لاَ خَيْرَ إِلَّا خَيْرُ الآخِرَهْ فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ) [59] ، وشاركهم ﷺ في حفر الخندق[60] ، وشاركهم في الجهاد ، وفي غيره من أمور حياتهم .

9- ترتيبه ﷺ لأصحابه : (ظهرت هذه الصفة فيه ﷺ في هذا الحديث من خلال ترتيبه لأصحابه في ركوب الدواب ، كل ثلاثة على بعير) .

كان ﷺ إذا أراد القيام بعمل من الأعمال أو بجهاد المشركين ، رتب أصحابه حسب المصلحة ، فيضع كل رجل في المكان الذي يناسبه ، ففي غزوة بدر يرسل بسبس بن عمرو عينًا ينظر ما صنعت عير أبي سفيان[61] ، ويخرج هو وأبو بكر لاستطلاع خبر المشركين[62] ، وأيضًا بَعْثه علي بن أبي طالب والزبير وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون له الخبر عليه[63] ، وقبل القتال رتب رسول الله ﷺ المسلمين على هيئة صفوف الصلاة ، وهكذا في كل عمل أو غزوة كان ﷺ يرتب أصحابه بناء على إمكانيات الصحابي، وحسب المصلحة.

10- لطفه ﷺ في الحديث مع أصحابه : (ظهرت هذه الصفة فيه ﷺ في هذا الحديث من خلال رده على علي وأبي لبابة عندما طلبا منه أن يركب بدلًا عنهما) .

اعتاد الصحابة ﷺ من النبي ﷺ اللطف في العبارة عند التحدث معهم ، فلم يكن ﷺ يتلفظ على أحدهم بعبارة نابية ، تؤثر فيه ، بل كان يوجه بلطف ، ويعلم بلين، عن معاوية بن الحكم السلمي قال : بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللهُ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ[64]، مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي، لَكِنِّي سَكَتُّ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ ، فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللهِ، مَا كَهَرَنِي[65] وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ:(إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ)[66] ، وعندما قام الأَعْرَابِيُّ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ، قَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ : مَهْ مَهْ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (لَا تُزْرِمُوهُ[67] دَعُوهُ)، فَتَرَكُوهُ حَتَّى بَالَ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ : (إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ، وَلَا الْقَذَرِ إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ) [68] .

المبحث الثاني : صفات الصحابة ﷺ

1- محبتهم للنبي ﷺ وتقديمه على أنفسهم : (ظهرت هذه الصفة فيهم ﷺ من خلال تقديم علي وأبي لبابة النبي ﷺ على أنفسهما في الركوب) .

محبة النبي ﷺ أصل من أصول الدين ، ولا يتم إيمان العبد حتى يحب النبي ﷺ، وقد قدم الصحابة ﷺ أروع الأمثلة في محبتهم للنبي ﷺ ، فضحوا بأموالهم وأنفسهم وأهليهم في سبيل الله ، ومحبة لنبيه ﷺ ، يقول عروة بن مسعود : وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ، وَكِسْرَى، وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُحَمَّدًا، وَاللَّهِ إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً[69] إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ[70] .

2- جهادهم ﷺ : (ظهرت هذه الصفة فيهم ﷺ من خلال خروجهم مع النبي ﷺ إلى الغزو) .

عرف الصحابة ﷺ فضل الجهاد ومكانته في الإسلام ، فجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وكانوا يتنافسون في ذلك ، وضربوا للأمة أروع الأمثلة في الجهاد، ولعلي أن أقتصر على مثالين يبينان ما قاموا به ﷺ من جهاد في سبيل الله ، أحدهما جهادهم بالنفس ، والآخر جهادهم بالمال، يقول أنس ﷺ : غَابَ عَمِّي أَنَسُ ابْنُ النَّضْرِ عَنْ قِتَالِ بَدْرٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ الْمُشْرِكِينَ، لَئِنِ اللَّهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ لَيَرَيَنَّ اللَّهُ مَا أَصْنَعُ ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ، وَانْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ، قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ – يَعْنِي أَصْحَابَهُ – وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ، – يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ – ثُمَّ تَقَدَّمَ ، فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: يَا سَعْدُ بْنَ مُعَاذٍ، الْجَنَّةَ وَرَبِّ النَّضْرِ إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ ، قَالَ سَعْدٌ: فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا صَنَعَ، قَالَ أَنَسٌ: فَوَجَدْنَا بِهِ بِضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ، أَوْ رَمْيَةً بِسَهْمٍ ، وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ وَقَدْ مَثَّلَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلَّا أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ[71] ، وأما جهادهم بالمال فعن عبد الرحمن بن سمرة قال : جَاءَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِأَلْفِ دِينَارٍ فِي ثَوْبِهِ ، حِينَ جَهَّزَ النَّبِيُّ ﷺ جَيْشَ الْعُسْرَةِ ، قَالَ: فَصَبَّهَا فِي حِجْرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يُقَلِّبُهَا بِيَدِهِ وَيَقُولُ : (مَا ضَرَّ ابْنُ عَفَّانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ) يُرَدِّدُهَا مِرَارًا[72] .

3- تواضعهم ﷺ : (ظهرت هذه الصفة فيهم ﷺ من خلال ركوبهم الدابة ، وتناوبهم مع بعضهم على الركوب) .

رأى الصحابة ﷺ رسولهم ﷺ متواضعًا فأقتدوا به في ذلك ، فكانوا ﷺ قمة في التواضع وعدم الكبر ، فهذا عمر بن الخطاب ﷺ يضرب لنا مثالًا رائعًا في ذلك ، يقول طارق بن شهاب: خَرَجَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى الشَّامِ وَمَعَنَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فَأَتَوْا عَلَى مَخَاضَةٍ[73] وَعُمَرُ عَلَى نَاقَةٍ لَهُ فَنَزَلَ عَنْهَا وَخَلَعَ خُفَّيْهِ فَوَضَعَهُمَا عَلَى عَاتِقِهِ، وَأَخَذَ بِزِمَامِ نَاقَتِهِ فَخَاضَ بِهَا الْمَخَاضَةَ، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْتَ تَفْعَلُ هَذَا، تَخْلَعُ خُفَّيْكَ وَتَضَعُهُمَا عَلَى عَاتِقِكَ، وَتَأْخُذُ بِزِمَامِ نَاقَتِكَ، وَتَخُوضُ بِهَا الْمَخَاضَةَ؟ مَا يَسُرُّنِي أَنَّ أَهْلَ الْبَلَدِ اسْتَشْرَفُوكَ[74]، فَقَالَ عُمَرُ: أَوَّهْ[75] لَمْ يَقُلْ ذَا غَيْرُكَ أَبَا عُبَيْدَةَ جَعَلْتُهُ نَكَالًا[76] لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ فَأَعَزَّنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ فَمَهْمَا نَطْلُبُ الْعِزَّةَ بِغَيْرِ مَا أَعَزَّنَا اللَّهُ بِهِ أَذَلَّنَا اللَّهُ[77] .

4- زهدهم ﷺ : (ظهرت هذه الصفة فيهم ﷺ من خلال ركوبهم الدابة ، وتناوبهم على الركوب) .

من الصفات التي كان النبي ﷺ يربي عليها أصحابه ﷺ صفة الزهد ، فكان يقول لأحدهم: (كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ)[78]، ويقول لهم أيضًا : (وَاللهِ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ – وَأَشَارَ يَحْيَى بِالسَّبَّابَةِ – فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ؟)[79] ، قال الحسن : " وَاللهِ لَقَدْ أَدْرَكْتُ سَبْعِينَ بَدْرِيًّا أَكْثَرُ لِبَاسِهِمُ الصُّوفُ وَلَوْ رَأَيْتُمُوهُمْ قُلْتُمْ: مَجَانِينُ، وَلَوْ رَأَوْا خِيَارَكُمْ لَقَالُوا: مَا لِهَؤُلَاءِ مِنْ خَلَاقٍ، وَلَوْ رَأَوْا شِرَارَكُمْ لَقَالُوا: مَا يُؤْمِنُ هَؤُلَاءِ بِيَوْمِ الْحِسَابِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ أَقْوَامًا كَانَتِ الدُّنْيَا أَهْوَنَ عَلَى أَحَدِهِمْ مِنَ التُّرَابِ تَحْتَ قَدَمَيْهِ ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ أَقْوَامًا يُمْسِي أَحَدُهُمْ وَمَا يَجِدُ عِنْدَهُ إِلَّا قُوتًا ، فَيَقُولُ : لَا أَجْعَلُ هَذَا كُلَّهُ فِي بَطْنِي، لَأَجْعَلَنَّ بَعْضَهُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَيَتَصَدَّقُ بِبَعْضِهِ ، وَإِنْ كَانَ هُوَ أَحْوَجَ مِمَّنْ يَتَصَدَّقُ بِهِ عَلَيْهِ "[80].

5- طلبهم ﷺ للأجر : (ظهرت هذه الصفة فيهم ﷺ من خلال رغبة علي وأبي لبابة أن يمشيا بدلًا عن النبي ﷺ ، ومن خلال خروجهم معه ﷺ للغزو) .

كل من يقرأ في سيرة صحابة رسول الله ﷺ ورضي عنهم لا تخطئ عيناه ما كان يقوم به هؤلاء الأصحاب ﷺ من أعمال ابتغاء ما عند الله والدار الآخرة ، بل إن بعضهم كان ينافس البعض الآخر في طلب الأجر، عن أبي هريرة ﷺ : أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ[81] بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَى، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، فَقَالَ: (وَمَا ذَاكَ؟) قَالُوا:

يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلَا نَتَصَدَّقُ، وَيُعْتِقُونَ وَلَا نُعْتِقُ، فَقَالَ رَسُولَ اللهِ ﷺ : (أَفَلَا أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ؟ وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ) ، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولُ اللهِ ، قَالَ: (تُسَبِّحُونَ، وَتُكَبِّرُونَ، وَتَحْمَدُونَ، دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً) ، قَالَ أَبُو صَالِحٍ: فَرَجَعَ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلُ الْأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا، فَفَعَلُوا مِثْلَهُ، فَقَالَ رَسُولِ اللهِ ﷺ : (ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ)[82] .

6- استجابتهم ﷺ لترتيب النبي ﷺ : (ظهرت هذه الصفة فيهم ﷺ من خلال سيرهم إلى الغزو كما رتبهم ﷺ) .

خاطب ربنا عز وجل عباده المؤمنين بالاستجابة له ولرسوله ﷺ ، فقال سبحانه چۈ ۋ ۋ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۄ ۄ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ى ى ئا ئا ئە ئە ئو ئو ئۇ ئۇ چ (الأنفال: ٢٤) ففهم الصحابة ﷺ هذا الخطاب ، وطبقوه في حياتهم ، فكان لا يدعوهم ﷺ لأمر إلا بادروا بتطبيقه ، ومن هذه الأوامر التي كان يأمر بها النبي ﷺ صحابته – وكان الصحابة ﷺ يبادرون بالتطبيق – الترتيب حال الانطلاق إلى الجهاد في سبيل الله ، وفي أرض المعركة ، قال عبد الرحمن بن عوف ﷺ : عَبَّأَنَا[83] النَّبِيُّ ﷺ بِبَدْرٍ لَيْلاً[84] ، وعن أبي أسيد ﷺ قال: قال النبي ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ، حِينَ صَفَفْنَا لِقُرَيْشٍ وَصَفُّوا لَنَا: (إِذَا أَكْثَبُوكُمْ[85] فَعَلَيْكُمْ بِالنَّبْلِ)[86] .

7- بعدهم ﷺ عن الجدل وسكوتهم عند وضوح الحجة : (ظهرت هذه الصفة فيهم ﷺ من خلال صمتهم عندما بين لهم النبي ﷺ السبب الذي يجعله يمشي مثلهما) .

الجدل هو اللدد في الخصومة والقدرة عليها[87] ، والجدل الأصل أنه مذموم في كتاب الله، وقد ورد في خمسة وعشرين موضعًا في كتاب الله ، ولم يمدح الجدل إلا إذا قيد بالحسنى ، والصحابة ﷺ كانوا من أشد الناس بعدًا عن الجدل المذموم ، الذي لا يوصل إلى الحق ، لما يورثه من الضغينة والكراهية بينهم ، وإذا ظهرت الحجة وبان الدليل ، تراهم يصمتون ، ويسلمون لما جاء من الحق .

المبحث الثالث : الدروس التربوية المستفادة من الحديث

1- أثر التربية بالقدوة في نفوس الأفراد :

الإسلام كما نعلم انتشر في كثير من بلدان العالم بسبب التعامل الحسن الذي كان يتعامل به المسلمون مع غيرهم ، فأثّر هذا التعامل تأثيرًا كبيرًا في المجتمعات غير المسلمة ، ودخلوا في دين الله أفواجًا ، وأكبر مثال على ذلك انتشار الإسلام في الشرق الأقصى ، الذي سكانه يمثلون أكثر من ثلث سكان العالم ، والدعوة بالقدوة الصالحة تعتبر من أقوى الوسائل في التأثير في المدعوين ، فهي أقوى بكثير من الكلمات التي يلقيها الداعية ، ومن الأوراق التي يسطر فيها توجيهاته ، والداعية الذي يريد لدعوته النجاح فليهتم بهذا الأمر اهتمامًا بالغًا ، وليبدأ بنفسه فيصلحها ، ويزكيها ، ويرقيها في درجات العبودية ، ويركز على جوانب الإيمان ، والإخلاص لله سبحانه وتعالى ، وموافقة القول العمل ، وحسن الخلق .

2- مشاركة المتربين في العمل :

من الأمور المهمة التي ينبغي للداعية مراعاتها، مشاركته للمدعوين في ميدان العمل، فهذا مما يرفع قيمة الداعية لدى المدعوين، ويعلي من شأنه عندهم، ويشعرون أنه واحد منهم، وهذا مما يدفعهم لمزيد من البذل والهمة والحماس، وقد شارك النبي ﷺ أصحابه في بناء المسجد، وفي حفر الخندق، وفي غيرها من الأعمال، وهو من هو ﷺ في المكانة عند ربه وعند الخلق، فالواجب على الدعاة والمربين أن يقتفوا طريقه ﷺ في ذلك، ولا يكتفوا

بإصدار الأوامر والتوجيهات لمن يربونهم، فكل واحد يستطيع إصدار الأوامر، ولكن الكبار هم الذين يشاركون من يدعونهم في الأعمال .

3- حرص الداعية على طلب الأجر :

ابتغاء الأجر من الله سبحانه وتعالى مطلب كل مسلم ، لأنه الحافز للعمل ، وعلى المسلم أن لا يألوا جهدًا في الاجتهاد في العبادة ، ومسابقة أهل الفضل إلى الله ، والتنافس في الخيرات ، والمبادرة بالأعمال ، قال الحسن : " لاَ يَجْعَلُ اللَّهُ عَبْدًا أَسْرَعَ إِلَيْهِ كَعَبْدٍ أَبْطَأَ عَنْهُ "[88] ، هذا ما ينبغي أن يحرص عليه كل مسلم ، والداعية من باب أولى ، فينبغي للداعية أن يكون أكثر حرصًا على طلب الأجر ، والمنافسة في الأعمال الصالحة ، واختيار الأعمال الأكثر أجرًا .

4- أن الجهاد والأمور الكبيرة لا تشغل الداعية عما دونها من أعمال الخير :

لا شك أن القائد والداعية ، كلاهما يقوم بأعمال عظيمة ، فأحدهما يتنقل بين

جهاد أعداء الله ، وسياسة الناس ، وإدارة مصالحهم ، والآخر يتنقل بين التعليم ، والتوجيه، والإصلاح، وغيرها من الأعمال العظيمة، وهما – أي القائد أو الداعية – مع انشغالهما بهذه الأعمال الكبيرة، قد تمر بهما بعض الأعمال اليسيرة، فينبغي لهما استغلالها والاستفادة منها، ومافيها من أجر، والسلف الصالح مع كثرة انشغالهم بطلب العلم وتعليمه للناس ، إلا أنهم كانت لهم عبادات يخصون بها أنفسهم .

المبحث الرابع : قواعد عامة

1- لا إيثار في القربات :

العلماء رحمهم الله تعالى حيال هذه القاعدة على ثلاثة أقوال :

أ- فمنهم من يرى أن هذه القاعدة على إطلاقها ، بل هي من المسلمات ،

قال السيوطي : " الْقَاعِدَةُ الثَّالِثَةُ: الْإِيثَارُ فِي الْقُرْبِ مَكْرُوهٌ وَفِي غَيْرِهَا مَحْبُوبٌ ، قَالَ تَعَالَى : {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [الحشر: 9] ، قَالَ الشَّيْخُ عِزُّ الدِّينِ: لَا إيثَارَ فِي الْقُرُبَاتِ، فَلَا إيثَارَ بِمَاءِ الطَّهَارَةِ، وَلَا بِسَتْرِ الْعَوْرَةِ وَلَا بِالصَّفِّ الْأَوَّلِ ؛ لِأَنَّ الْغَرَضَ بِالْعِبَادَاتِ: التَّعْظِيمُ، وَالْإِجْلَالُ. فَمَنْ آثَرَ بِهِ، فَقَدْ تَرَكَ إجْلَالَ الْإِلَهِ وَتَعْظِيمِهِ "[89] .

وقال النووي : " وَقَدْ نَصَّ أَصْحَابُنَا وَغَيْرُهُمْ من العلماء على أنه لايؤثر فِي الْقُرَبِ ، وَإِنَّمَا الْإِيثَارُ الْمَحْمُودُ مَا كَانَ فِي حُظُوظِ النَّفْسِ دُونَ الطَّاعَاتِ ، قَالُوا : فَيُكْرَهُ أَنْ يُؤْثِرَ غَيْرَهُ بِمَوْضِعِهِ مِنَ الصَّفِّ الْأَوَّلِ ، وَكَذَلِكَ نَظَائِرُهُ "[90] .

ويستدلون بحديث سهل بن سعد ﷺ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أُتِيَ بِشَرَابٍ، فَشَرِبَ مِنْهُ، وَعَنْ يَمِينِهِ غُلَامٌ، وَعَنْ يَسَارِهِ الأَشْيَاخُ، فَقَالَ لِلْغُلَامِ:(أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أُعْطِيَ هَؤُلاَءِ؟) ، فَقَالَ الغُلاَمُ:

لاَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لاَ أُوثِرُ بِنَصِيبِي مِنْكَ أَحَدًا، قَالَ: فَتَلَّهُ[91] رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي يَدِهِ[92] .

ب- ومنهم من يرى عدم صحة هذه القاعدة ، قال ابن القيم : " وَقَوْلُ مَنْ قَالَ مِنَ الْفُقَهَاءِ: لَا يَجُوزُ الْإِيثَارُ بِالْقُرَبِ لَا يَصِحُّ ، وَقَدْ آثَرَتْ عائشة عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ بِدَفْنِهِ فِي بَيْتِهَا جِوَارَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَسَأَلَهَا عمر ذَلِكَ فَلَمْ تَكْرَهْ لَهُ السُّؤَالَ، وَلَا لَهَا الْبَذْلَ، وَعَلَى هَذَا فَإِذَا سَأَلَ الرَّجُلُ غَيْرَهُ أَنْ يُؤْثِرَهُ بِمَقَامِهِ فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ، لَمْ يُكْرَهْ لَهُ السُّؤَالُ، وَلَا لِذَلِكَ الْبَذْلُ وَنَظَائِرُهُ.

وَمَنْ تَأَمَّلَ سِيرَةَ الصَّحَابَةِ، وَجَدَهُمْ غَيْرَ كَارِهِينَ لِذَلِكَ، وَلَا مُمْتَنِعِينَ مِنْهُ، وَهَلْ هَذَا إِلَّا كَرَمٌ وَسَخَاءٌ، وَإِيثَارٌ عَلَى النَّفْسِ، بِمَا هُوَ أَعْظَمُ مَحْبُوبَاتِهَا، تَفْرِيجًا لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ، وَتَعْظِيمًا لِقَدْرِهِ، وَإِجَابَةً لَهُ إِلَى مَا سَأَلَهُ، وَتَرْغِيبًا لَهُ فِي الْخَيْرِ، وَقَدْ يَكُونُ

ثَوَابُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ رَاجِحًا عَلَى ثَوَابِ تِلْكَ الْقُرْبَةِ، فَيَكُونُ الْمُؤْثِرُ بِهَا مِمَّنْ تَاجَرَ فَبَذَلَ قُرْبَةً وَأَخَذَ أَضْعَافَهَا، وَعَلَى هَذَا فَلَا يَمْتَنِعُ أَنْ يُؤْثِرَ صَاحِبُ الْمَاءِ بِمَائِهِ أَنْ يَتَوَضَّأَ بِهِ وَيَتَيَمَّمَ هُوَ إِذَا كَانَ لَا بُدَّ مِنْ تَيَمُّمِ أَحَدِهِمَا، فَآثَرَ أَخَاهُ وَحَازَ فَضِيلَةَ الْإِيثَارِ وَفَضِيلَةَ الطُّهْرِ بِالتُّرَابِ، ... ، وَهَلْ إِهْدَاءُ الْقُرَبِ الْمُجْمَعِ عَلَيْهَا وَالْمُتَنَازَعِ فِيهَا إِلَى الْمَيِّتِ إِلَّا إِيثَارٌ بِثَوَابِهَا، وَهُوَ عَيْنُ الْإِيثَارِ بِالْقُرَبِ، فَأَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ أَنْ يُؤْثِرَهُ بِفِعْلِهَا لِيُحْرِزَ ثَوَابَهَا، وَبَيْنَ أَنْ يَعْمَلَ ثُمَّ يُؤْثِرَهُ بِثَوَابِهَا، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ "[93] ، وقال ابن نجيم : " عَنْ النِّصَابِ : وَإِنْ سَبَقَ أَحَدٌ بِالدُّخُولِ إلَى الْمَسْجِدِ مَكَانَهُ فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ ، فَدَخَلَ رَجُلٌ أَكْبَرُ مِنْهُ سِنًّا ، أَوْ أَهْلُ عِلْمٍ، يَنْبَغِي أَنْ يَتَأَخَّرَ وَيُقَدِّمَهُ تَعْظِيمًا لَهُ اهـ، قَالَ : فَهَذَا مُفِيدٌ لِجَوَازِ الْإِيثَارِ فِي الْقُرْبِ عَمَلًا بِعُمُومِ قَوْله تَعَالَى: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [الحشر: 9] إلَّا إذَا قَامَ دَلِيلُ تَخْصِيصٍ "[94] .

ت- ومنهم من فصل بين القرب الواجبة والقرب المستحبة ، قال الشيخ ابن عثيمين: " الإيثار بالقرب على نوعين: النوع الأول: القرب الواجبة: فهذه لا يجوز الإيثار بها، ومثاله رجل معه ماء يكفي لوضوء رجل واحد فقط، وهو على غير وضوء، وصاحبه الذي معه على غير وضوء ففي هذه الحال لا يجوز أن يؤثر صاحبه بهذا الماء؛ لأنه يكون قد ترك واجباً عليه وهو الطهارة بالماء، فالإيثار في الواجب حرام .

وأما الإيثار بالمستحب فالأصل فيه أنه لا ينبغي، بل صرح بعض العلماء بالكراهة، وقالوا: إن إيثاره بالقرب يفيد أنه في رغبة عن هذه القرب، لكن الصحيح أن الأولى عدم الإيثار، وإذا اقتضت المصلحة أن يؤثر فلا بأس، مثل أن يكون أبوه في الصف الثاني وهو في الصف الأول، ويعرف أن أباه من الرجال الذين يكون في نفوسهم شيء إذا لم يقدمهم الولد، فهنا نقول: الأفضل أن تقدم والدك، أما إذا كان من الآباء الطيبين الذين لا تهمهم مثل هذه الأمور فالأفضل أن يبقى في مكانه، ولو كان والده في الصف الثاني، وكذلك بالنسبة للعالم"[95] .

والذي يظهر – والله تعالى أعلم – هو عدم جواز الإيثار بالقرب، إلا إذا ترتب على عدم الإيثار مفسدة ، فهنا نقول بالجواز في المستحبات.

وأما ماذكره ابن القيم رحمه الله تعالى من الاستدلال بحديث عائشة رضي الله عنها فقد ذكر هو رحمه الله في مدارج السالكين رد الفقهاء على الاستدلال بهذا الحديث ، فقال : " وَأَجَابُوا عَنْهُ بِأَنَّ الْمَيِّتَ يَنْقَطِعُ عَمَلُهُ بِمَوْتِهِ وَبِقُرْبِهِ. فَلَا يُتَصَوَّرُ فِي حَقِّهِ الْإِيثَارُ بِالْقُرْبِ بَعْدَ الْمَوْتِ. إِذْ لَا تَقَرُّبَ فِي حَقِّ الْمَيِّتِ. وَإِنَّمَا هَذَا إِيثَارٌ بِمَسْكَنٍ شَرِيفٍ فَاضِلٍ لِمَنْ هُوَ أَوْلَى بِهِ مِنْهَا. فَالْإِيثَارُ بِهِ قُرْبَةٌ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُؤْثِرِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ "[96] .

وقال رحمه الله : " وَكُلُّ سَبَبٍ يَعُودُ عَلَيْكَ بِصَلَاحِ قَلْبِكَ وَوَقْتِكَ وَحَالِكَ مَعَ اللَّهِ: فَلَا تُؤْثِرْ بِهِ أَحَدًا. فَإِنْ آثَرْتَ بِهِ فَإِنَّمَا تُؤْثِرُ الشَّيْطَانَ عَلَى اللَّهِ، وَأَنْتَ لَا تَعْلَمُ "[97] .

2- أمور الدنيا مبنية على التكامل بين الناس وأمور الآخرة مبنية على التنافس :

أمور الدنيا وأعمالها تقوم على التكامل بين أفراد المجتمع ، كل له مهمة محددة يكمل بعضهم بعضًا ، والناس بمجموعهم تقوم حياتهم على التكامل لا على الصراع، فالمسلم يحب لأخيه المسلم مايحب لنفسه ، فهم كالبنيان المرصوص ، وكالجسد الواحد ، يكمل بعضهم بعضا ، فلا يمكن للفرد الواحد أن يصنع كل احتياجاته ، بل هو يصنع حاجة من حاجاته ، ويحتاج للآخرين الذين يكملون له هذه الحاجات ، وبهذا تقوم الحياة ، عن أبي موسى، قال: قال رسول الله ﷺ

: (إِنَّ الْأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا[98] فِي الْغَزْوِ، أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ، جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ، بِالسَّوِيَّةِ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ)[99] .

هذا فيما يتعلق بأمور الدنيا ، أما ما يتعلق بأمور الآخرة فإن الإنسان مطالب بالتنافس والمسارعة والمسابقة في الخيرات ، وطلب الدرجات العلى ، والقرب من الله سبحانه وتعالى .

قال تعالى : چ ﭫ ﭬ چ (البقرة: ١٤٨) ، ويقول جل شأنه چ ﭓ ﭔ چ (آل عمران: ١٣٣)، ويقول جل ذكره : چ ﮓ ﮔ چ (الحديد: ٢١) .

وعن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: (لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الأَوَّلِ، ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهِمُوا[100] عَلَيْهِ لاَسْتَهَمُوا، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ[101] لاَسْتَبَقُوا إِلَيْهِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي العَتَمَةِ[102] وَالصُّبْحِ، لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا)[103] .

3- أن الركوب لا ينافي الزهد والتقلل من الدنيا :

المطلوب من المسلم الزهد في الدنيا ، وعدم التعلق بها ، لأجل أن لا تضر بآخرته، والزهد في الدنيا ترك مالا نفع فيه في الآخرة ، قال ابن القيم : " الزّهْد ترك مَالا ينفع فِي الْآخِرَة "[104] ، والزهد في الدنيا لا يستلزم ترك المباحات ، من ملبوس ومركوب ومأكول وغيرها ، وإنما العبرة بحال القلب وتعلقه ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " إذا سلم فيه القلب من الهلع ، واليد من العدوان ، كان صاحبه محمودًا ، وإن كان معه مال عظيم ، بل قد يكون مع هذا زاهدًا أزهد من فقير هلوع "[105] ، وقال ابن عثيمين : " وليس الزهد أنه لا يلبس الثياب الجميلة، ولا يركب السيارات الفخمة، وإنما يتقشف ويأكل الخبز بلا إدام وما أشبه ذلك، ولكن يتمتع بما أنعم الله عليه، لأن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، وإذا تمتع بالملاذ على هذا الوجه صار نافعاً له في الآخرة، ولهذا لا تغتر بتقشف الرجل ولبسه رديء الثياب، فربَّ حية تحت القش، ولكن عليك بعمله وأحواله "[106] .

4- أن المشي فيه مزيد أجر لزيادة مشقته على الركوب :

من الأمور المقررة في الشريعة أن الشارع لا يقصد بالتكليف المشقة ، بل يريد ما فيه مصلحة للعبد في الدنيا والآخرة ، قال تعالى : چ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ چ (البقرة: ١٨٥) ، ويقول جل شأنه چ ھ ھ ھ ے ے ۓ ۓ چ (الحج: ٧٨) .

وقال ﷺ : (إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ[107] الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ)[108] ، وقد يكون من مصلحة العبد تكليفه بما فيه مشقة ، كتكليفه بالجهاد ، لكن الشارع في هذه الحالة رتب له زيادة أجر ، إذن فليس للعبد أن يقصد المشقة لعظم أجرها ، لأن الشارع لم يرغبه في هذا ، ولكن له أن يقصد العمل الذي يعظم أجره لعظم مشقته ، قال الشاطبي : " الْمَشَقَّةَ لَيْسَ لِلْمُكَلَّفِ أَنْ يَقْصِدَهَا فِي التَّكْلِيفِ نَظَرًا إِلَى عِظَمِ أَجْرِهَا، وَلَهُ أَنْ يَقْصِدَ الْعَمَلَ الَّذِي يَعْظُمُ أَجْرُهُ لِعِظَمِ مَشَقَّتِهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ عَمَلٌ.

أَمَّا هَذَا الثَّانِي؛ فَلِأَنَّهُ شَأْنُ التَّكْلِيفِ فِي الْعَمَلِ كُلِّهِ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَقْصِدُ نَفْسَ الْعَمَلِ الْمُتَرَتِّبِ عَلَيْهِ الْأَجْرُ، وَذَلِكَ هُوَ قَصْدُ الشَّارِعِ بِوَضْعِ التَّكْلِيفِ بِهِ، وَمَا جَاءَ عَلَى مُوَافَقَةِ قَصْدِ الشَّارِعِ هُوَ الْمَطْلُوبُ.

وَأَمَّا الْأَوَّلُ؛ فَإِنَّ الْأَعْمَالَ بِالنِّيَّاتِ، وَالْمَقَاصِدُ مُعْتَبَرَةٌ فِي التَّصَرُّفَاتِ كَمَا يُذْكَرُ فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَلَا يَصْلُحُ مِنْهَا إلَّا مَا وَافَقَ قَصْدَ الشَّارِعِ، فَإِذَا كَانَ قَصْدُ الْمُكَلَّفِ إيقَاعَ الْمَشَقَّةِ، فَقَدْ خَالَفَ قَصْدَ الشَّارِعِ مِنْ حَيْثُ إنَّ الشَّارِعَ لَا يَقْصِدُ بِالتَّكْلِيفِ نَفْسَ الْمَشَقَّةِ، وَكُلُّ قَصْدٍ يُخَالِفُ قَصْدَ الشَّارِعِ باطل، فالقصد إلى المشقة باطل ، فهو إذن مِنْ قَبِيلِ مَا يُنْهَى عَنْهُ، وَمَا يُنْهَى عَنْهُ لَا ثَوَابَ فِيهِ، بَلْ فِيهِ الْإِثْمُ إنِ ارْتَفَعَ النَّهْيُ عَنْهُ إلَى دَرَجَةِ التَّحْرِيمِ، فَطَلَبُ الْأَجْرِ بِقَصْدِ الدُّخُولِ فِي الْمَشَقَّةِ قَصْدٌ مناقض"[109] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : " فَكَثِيرًا مَا يَكْثُرُ : الثَّوَابُ عَلَى قَدْرِ الْمَشَقَّةِ وَالتَّعَبِ، لَا لِأَنَّ التَّعَبَ وَالْمَشَقَّةَ مَقْصُودٌ مِنْ الْعَمَلِ، وَلَكِنْ لِأَنَّ الْعَمَلَ مُسْتَلْزِمٌ لِلْمَشَقَّةِ وَالتَّعَبِ ، هَذَا فِي شَرْعِنَا الَّذِي رُفِعَتْ عَنَّا فِيهِ الْآصَارُ وَالْأَغْلَالُ ، وَلَمْ يُجْعَلْ عَلَيْنَا فِيهِ حَرَجٌ ، وَلَا أُرِيدَ بِنَا فِيهِ الْعُسْرُ"[110] .

والمشي إلى الطاعة عبادة في نفسه ، فإذا كان هذا المشي فيه مشقة ، ترتب عليه زيادة أجر ، قال ﷺ : (أَعْظَمُ النَّاسِ أَجْرًا فِي الصَّلَاةِ أَبْعَدُهُمْ فَأَبْعَدُهُمْ مَمْشًى)[111] .

5- جواز إخبار الإنسان عما يجد في نفسه من القوة والعلم ونحوهما عند الحاجة :

إخبار الإنسان عن نفسه ومدحه لها على ضربين ، ممدوح ومذموم ، فالمذموم أن يمدح نفسه على سبيل التطاول ، والتفاخر ، والتميز على الأقران ، والتوصل إلى مالا يستحق ، وشبه ذلك ، وقد جاء ذم مثل هذا الفعل في كتاب الله في أكثر من موضع ، قال تعالى : چۆ ۆ ۈ ۈ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ چ (النجم: ٣٢) ، والممدوح أن يكون في مدحه لنفسه مصلحة شرعية ، من التحدث بنعمة الله عليه، أو تنشيط غيره على مثل ما كان عليه ، وغير ذلك ، وقد جاء في هذا المعنى نصوص كثيرة ، فمن ذلك ، قوله جل شأنه على لسان يوسف عليه السلام : چ ڃ ڃ ڃ چ چ چ ڇ ڇ ڇ ڇ چ (يوسف: ٥٥) .

وقوله ﷺ: (أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ)[112] وقوله : (أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ)[113]، وغيرها كثير.

قال النسفي " وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب أو الرياء ، لا على سبيل الاعتراف بالنعمة فإنه جائز ، لأن المسرة بالطاعة طاعة ، وذكرها شكر "[114] .

وقال الشيخ ابن عثيمين : " فالأحوال إذن في مثل هذا الكلام الذي فيه ثناء المرء على نفسه أربع : الحالة الأولى: أن يريد بذلك التحدث بنعمة الله عليه فيما حباه به من الإيمان والثبات.

الحالة الثانية: أن يريد بذلك تنشيط أمثاله ونظائره على مثل ما كان عليه.

فهاتان الحالتان محمودتان ، لما يشتملان عليه من هذه النية الطيبة.

الحالة الثالثة: أن يريد بذلك الفخر والتباهي والإدلال على الله – عز وجل– بما هو عليه من الإيمان والثبات ، وهذا غير جائز لما ذكرنا من الآية .

الحالة الرابعة: أن يريد بذلك مجرد الخبر عن نفسه بما هو عليه من الإيمان والثبات، فهذا جائز ولكن الأولى تركه "[115] .

الخاتمة

في نهاية هذا البحث أحب أن أشير إلى بعض النتائج التي توصلت إليها :

1- حديث عبد الله بن مسعود ﷺ : كُنَّا يَوْمَ بَدْرٍ كُلُّ ثَلَاثَةٍ عَلَى بَعِيرٍ ..) ، حديث حسن .

2- أبو لبابة ﷺ لم يكن مع النبي ﷺ في غزوة بدر .

3- اشتمل هذا الحديث على جملة من المسائل الفقهية ، وعددها خمس مسائل .

4- أن هذا الحديث اشتمل على ست وعشرين فائدة ، وتفصيلها كما يلي :

أ- صفاته ﷺ : عشر صفات ، وهي على النحو التالي : جهاده، تواضعه، عدله، زهده، قوته، حرصه على تحصيل الأجر، افتقاره لربه عز وجل، مشاركته لأصحابه، ترتيبه لأصحابه، لطفه في الحديث مع أصحابه .

ب- صفات الصحابة ﷺ : سبع صفات ، وهي على النحو التالي : محبتهم للنبي ﷺ وتقديمه على أنفسهم، جهادهم، تواضعهم، زهدهم، طلبهم للأجر، استجابتهم لترتيب النبي ﷺ، بعدهم عن الجدل وسكوتهم عند وضوح الحجة .

ت- الدروس التربوية المستفادة من الحديث : أربعة دروس ، وهي على النحو التالي : الداعية القدوة، مشاركة المتربين في العمل، حرص الداعية على طلب الأجر، الجهاد والأمور الكبيرة لا تشغل الداعية عما دونها من أعمال الخير.

ث- قواعد عامة : خمس قواعد ، وهي على النحو التالي : لا إيثار في القربات ، أمور الدنيا مبنية على التكامل بين الناس وأمور الآخرة مبنية على التنافس، أن الركوب لا ينافي الزهد والتقلل من الدنيا ، أن المشي فيه مزيد أجر لزيادة مشقته على الركوب ، جواز إخبار الإنسان عما يجد في نفسه من القوة والعلم ونحوهما عند الحاجة .

ثبت المصادر والمراجع

(1) المسند (7/ 17، 112) حديث رقم (3901، 4010) .

(2) المرجع السابق (7/ 75) حديث رقم (3965) .

(3) المرجع السابق (7/ 111) حديث رقم (4009) .

(4) المرجع السابق (7/ 127) حديث رقم (4029) .

(5) المسند (1/ 277) حديث رقم (352) .

(6) السنن الكبرى (5/ 258) حديث رقم (10657) ، والآداب (ص: 266) حديث رقم (649) .

(7) الطبقات الكبرى (2/ 21) ، وغزوات الرسول ﷺ وسراياه (ص13) .

(8) المسند (1/ 266) حديث رقم (399) .

(9) بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث (2/ 697) حديث رقم (682)

(10) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (6/ 254) .

(11) البحر الزخار (5/ 210) حديث رقم (1813) .

(12) السنن الكبرى (8/ 109) حديث رقم (8756) .

(13) المسند (9/ 242) حديث رقم (5359) .

(14) المسند (2/ 114) حديث (639) .

(15) الصحيح (11/ 35) حديث رقم (4733) .

(16) دلائل النبوة (3/ 39) .

(17) المستدرك على الصحيحين (2/ 111) حديث رقم (2508) .

(18) المرجع السابق (3/ 25) حديث رقم (4358) .

(19) شرح السنة (11/ 35) حديث رقم (2686) ، الأنوار في شمائل النبي المختار (ص: 307) حديث رقم (400) .

(20) المنتقى من مسموعاته بمرو (مخطوط) (ق 29 / 1) .

(21) (396/10) .

(22) ينظر : تاريخ ابن معين رواية الدارمي (ص: 49) ، العلل ومعرفة الرجال رواية عبد الله (2/ 131) ، معرفة الثقات (ص:131) ، تهذيب الكمال في أسماء الرجال (7/ 253) ، شرح علل الترمذي (1/ 414) و(2/ 690، 707) ، تهذيب التهذيب (3/ 11) ، تقريب التهذيب (ص: 268) ، وغيرها .

(23) ينظر : الطبقات الكبرى (6/ 316) ، من كلام أبي زكريا يحيى بن معين في الرجال (ص: 64) ، العلل ومعرفة الرجال رواية عبد الله (420/1) ، سؤالات أبي داود للإمام أحمد (ص: 293) ، الضعفاء لأبي زرعة الرازي (3/ 885) ، معرفة الثقات (ص:239) ، المعرفة والتاريخ (3/ 197) ، الجرح والتعديل (6/ 340) ، الثقات لابن حبان (7/ 256) ، سؤالات البرقاني للدارقطني (ص: 49) ، تاريخ أسماء الثقات (ص:150) ، تهذيب الكمال في أسماء الرجال (13/ 473) ، سير أعلام النبلاء (256/5) ، من تكلم فيه وهو موثق (ص:279) ، ميزان الاعتدال (2/ 357) ، شرح علل الترمذي (2/ 788) ، تهذيب التهذيب (5/ 38) ، تقريب التهذيب (ص: 471) ، بحر الدم فيمن تكلم فيه الإمام أحمد بمدح أو ذم (ص: 80)، وغيرها .

(24) ينظر : الطبقات الكبرى (6/ 104- 105) ، معرفة الثقات (ص: 165) ، الجرح والتعديل (3/ 622) ، تهذيب الكمال في أسماء الرجال (9/ 335) ، تهذيب التهذيب (3/ 321) ، تقريب التهذيب (ص: 336) ، وغيرها .

(25) المستدرك على الصحيحين (3/ 25) .

(26) المرجع السابق (111/2) .

(27) مجمع الزوائد (6/ 87) .

(28) سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (5/ 326) حديث رقم (2257) .

(29) فتح الباري (10/ 396) .

(30) الطبقات لخليفة بن خياط (ص: 152) ، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (2/ 203) ، الإصابة في تمييز الصحابة (7/ 289-290) .

(31) النهاية في غريب الحديث والأثر (2/ 313) .

(32) المرجع السابق (3/ 268) .

(33) المغازي (ص157) .

(34) البداية والنهاية (3/ 319).

(35) عيون الأثر (1/ 287) .

(36) أخرجه البخاري (4/ 15) حديث رقم (2797) ، ومسلم (1498/3) حديث رقم (1878)

(37) أخرجه البخاري (4/ 17) حديث رقم (2785) ، ومسلم (1497/3) حديث رقم (1876)

(38) أخرجه الإمام أحمد في المسند (20/ 23) حديث رقم (12551) ، و(21/ 166، 216) حديث رقم (13529، 13596) ، والنسائي في السنن الكبرى (9/ 103) حديث رقم (10006، 10007) ، وفي عمل اليوم والليلة (ص: 249-250) حديث رقم (248-249) ، وغيرهما من حديث أنس ﷺ ، وإسناده صحيح .

(39) أخرجه الطبراني في الكبير (10/ 288) حديث رقم (10686) ، وغيره ، وإسناده ضعيف .

(40) أخرجه البخاري (4/ 200) حديث رقم (3610) ، ومسلم (2/ 744) حديث رقم (1064) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ ، وأخرجه مسلم (2/ 740) حديث رقم (1063) من حديث جابر ﷺ .

(41) وَهُوَ العُود الأصْفر الَّذِي فِيهِ شَمَاريخ العِذْق . النهاية في غريب الحديث والأثر (3/ 203)

(42) القَوَد: القِصاص . النهاية في غريب الحديث والأثر (4/ 119) .

(43) أخرجه أبو داود (4/ 182) حديث رقم (4536) ، والنسائي (8/ 32) حديث رقم (4773) ، والإمام أحمد (327/17) حديث رقم (11229) ، وغيرهم ، وإسناده ضعيف ، ويرتقي إلى درجة الحسن لغيره .

(44) أخرجه البخاري (8/ 94) حديث رقم (6444) من حديث أبي ذر ﷺ ، وأخرجه البخاري أيضًا (9/ 83) حديث رقم (7228) ، ومسلم (2/ 687) حديث رقم (991) من حديث أبي هريرة ﷺ .

(45) أخرجه البخاري (3/ 153) حديث رقم (2567) ، و(8/ 97) حديث رقم (6459) ، ومسلم (4/ 2283) حديث رقم (2972) .

(46) أخرجه البخاري (1/ 62) حديث رقم (268) .

(47) أخرجه أبو داود (4/ 55) حديث رقم (4078) ، والترمذي (3/ 300) حديث رقم (1784) ، وغيرهما ، عن محمد بن علي بن ركانة ، وحسنه الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (5/ 329) .

(48) الكُدْيَة: قِطْعة غَلِيظَةٌ صُلْبة لَا تَعْمَل فِيهَا الفَأس . النهاية في غريب الحديث والأثر (4/ 156)

(49) المِعْوَلُ بِالْكَسْرِ: الفأسُ . النهاية في غريب الحديث والأثر (4/ 344)

(50) أَيْ رَمْلاً سَائِلا . النهاية في غريب الحديث والأثر (5/ 289)

(51) أخرجه البخاري (5/ 108) حديث رقم (4101) ، من حديث جابر ﷺ .

(52) أَيْ : تتشقَّقَ . النهاية في غريب الحديث والأثر (3/ 458) .

(53) أخرجه البخاري (2/ 50) حديث رقم (1130) ، و(6/ 135) حديث رقم (4836) ، و(8/ 99) حديث رقم (6471) ، ومسلم (4/ 2171) حديث رقم (2819) ، من حديث المغيرة ﷺ ، وأخرجه البخاري (6/ 135) حديث رقم (4837) ، ومسلم (4/ 2172) حديث رقم (2820) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(54) أخرجه البخاري (2/ 52) حديث رقم (1141) ، و(3/ 39) حديث رقم (1972) .

(55) أخرجه مسلم (1/ 282) حديث رقم (373) ، من حديث عائشة رضي الله عنها .

(56) أخرجه أبو داود (4/ 324) حديث رقم (5090) ، وغيره ، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (ص: 260) ، من حديث أبي بكرة ﷺ .

(57) أَيْ : يَلْقاني بالغِلْظة وَالْوَجْهِ الْكَرِيهِ . النهاية في غريب الحديث والأثر (1/ 323) .

(58) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (14/ 139) حديث رقم (14764) ، والدعاء (1282/2) حديث رقم (1036) ، من حديث عبد الله بن جعفر ﷺ ، وإسناده ضعيف .

(59) أخرجه البخاري (1/ 93) حديث رقم (428) ، و(5/ 67) حديث رقم (3932) ، ومسلم (1/ 373) حديث رقم (524) ، و(3/ 1431) حديث رقم (1805) .

(60) سبق تخريج حديث حفر الخندق عند الحديث عن قوته ﷺ .

(61) أخرجه مسلم (3/ 1509) حديث رقم (1901) .

(62) سيرة ابن هشام (1/ 616) .

(63) المرجع السابق .

(64) الثُّكْل: فقْد الْوَلَدِ. النهاية في غريب الحديث والأثر (1/ 217)

(65) الكَهْر: الانْتِهار. النهاية في غريب الحديث والأثر (4/ 212)

(66) أخرجه مسلم (1/ 381) حديث رقم (537) .

(67) أَيْ لَا تَقْطعوا عَلَيْهِ بَولَه . النهاية في غريب الحديث والأثر (2/ 301)

(68) أخرجه البخاري (12/8) حديث رقم (6025)، ومسلم (1/ 236) حديث رقم (285)،من حديث أنس ﷺ.

(69) النُّخَامَةُ: البَزْقَة الَّتِي تَخْرُج مِنْ أَقْصَى الحَلْق . النهاية في غريب الحديث والأثر (5/ 34)

(70) أخرجه البخاري (3/ 193) حديث رقم (2731) .

(71) أخرجه البخاري (4/ 19) حديث رقم (2805) ، ومسلم (3/ 1512) حديث رقم (1903) .

(72) أخرجه الإمام أحمد (34/ 231-232) حديث رقم (20630)، وحسنه الألباني في تحقيقه لمشكاة المصابيح (1713/3).

(73) المَخاضة : الْمَوْضِعُ الذي فيه ماء . لسان العرب (7/ 147)

(74) أَيْ خرجْوا إِلَى لِقائِك . النهاية في غريب الحديث والأثر (2/ 462)

(75) أوه : كَلِمَةٌ يَقُولُهَا الرَّجُلُ عِنْدَ الشِّكَايَةِ وَالتَّوَجُّعِ . النهاية في غريب الحديث والأثر (1/ 82)

(76) نَكَّلَ بِهِ تَنْكيلا، ونَكَّلَ بِهِ، إِذَا جَعَلَهُ عِبْرةً لِغَيْرِهِ. والنَّكَالُ: الْعُقُوبَةُ الَّتِي تَنْكُلُ الناسَ عَنْ فِعل مَا جُعِلَت لَهُ جَزاءً. النهاية في غريب الحديث والأثر (5/ 117)

(77) أخرجه الحاكم في المستدرك (1/ 130) حديث رقم (207) ، وقال : " هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ " ، ووافقه الذهبي ، ووافقهما الألباني كما في السلسلة الصحيحة (1/ 118) .

(78) أخرجه البخاري (8/ 89) حديث رقم (6416) ، من حديث عبد الله بن عمر ﷺ .

(79) أخرجه مسلم (4/ 2193) حديث رقم (2858) ، من حديث المستورد ﷺ .

(80) أخرجه أبو الفضل الزهري في حديثه (ص: 582) حديث رقم (598) ، وابو نعيم في حلية الأولياء (2/ 134) .

(81) الدُّثُورُ: جَمْعُ دَثْرٍ، وَهُوَ المالُ الكثيرُ . النهاية في غريب الحديث والأثر (2/ 100)

(82) أخرجه البخاري (1/ 168) حديث رقم (843) ، و(8/ 72) حديث رقم (6329) ، ومسلم (1/ 416-417) حديث رقم (595)

(83) يُقَالُ: عَبَأْتُ الجَيْشَ عَبْأً، وعَبَّأْتُهُم تَعْبِئَة وتَعْبِيئاً، وَقَدْ يُتْرَك الْهَمْزُ فَيُقَالُ: عَبَّيْتُهُم تَعْبِيَة: أَيْ رَتَّبْتُهم فِي مواضِعِهم وهيَّأْتُهم للحَرْب . النهاية في غريب الحديث والأثر (3/ 168)

(84) أخرجه الترمذي (3/ 246) حديث رقم (1677) ، قال الألباني في ضعيف سنن الترمذي (ص: 192) : " ضعيف الإسناد " .

(85) يُقَالُ: كَثَب وأَكْثَب إِذَا قارَب ، والكَثَبُ: القُرْب . النهاية في غريب الحديث والأثر (4/ 151)

(86) أخرجه البخاري (4/ 38) حديث رقم (2900) ، و(5/ 78) حديث رقم (3984- 3985) .

(87) لسان العرب (11/ 105) .

(88) أخرجه الإمام أحمد في الزهد (1/ 221) حديث رقم (593) .

(89) الأشباه والنظائر (ص: 116) .

(90) شرح مسلم (13/ 201) .

(91) أَيْ أَلْقاه . النهاية في غريب الحديث والأثر (1/ 195) .

(92) أخرجه البخاري (3/ 130، 161) حديث رقم (2451، 2602) ، و(7/ 111) حديث رقم (5620) .

(93) زاد المعاد في هدي خير العباد (3/ 442) .

(94) البحر الرائق شرح كنز الدقائق ومنحة الخالق (1/ 375) .

(95) لقاء الباب المفتوح (35/ 28) .

(96) (2/ 284) .

(97) المرجع السابق .

(98) أي : نَفِدَ زادُهم . النهاية في غريب الحديث والأثر (2/ 265)

(99) أخرجه البخاري (3/ 138) حديث رقم (2486) ، ومسلم (4/ 1944) حديث رقم (2500) .

(100) أي : يقترعوا . النهاية في غريب الحديث والأثر (2/ 429)

(101) التَّهْجِيرُ: التَّبْكِيرُ إِلَى كُلِّ شَيْءٍ والمُبادَرَة إِلَيْهِ. يُقَالُ: هَجَّرَ يُهَجِّرُ تَهْجِيراً، فَهُوَ مُهَجِّرٌ، وَهِيَ لُغَةٌ حجازِيَّة، أرادَ المبادَرة إِلَى أوَّلِ وَقْتِ الصَّلَاةِ. النهاية في غريب الحديث والأثر (5/ 246)

(102) أي : الدخول فِي عَتَمَةِ اللّيل وهي ظلمته. والمراد صَلاةَ الْعِشَاءِ . النهاية في غريب الحديث (3/ 180)

(103) أخرجه البخاري (1/ 126، 132، 133) حديث رقم (615، 653، 654) ، و(3/ 182) حديث رقم (2689) ، ومسلم (1/ 325) حديث رقم (437) .

(104) الفوائد (ص: 118) .

(105) المستدرك على مجموع الفتاوى (1/ 163) .

(106) شرح الأربعين النووية (ص: 322) .

(107) أي يُكلّف نفْسَه مِنَ الْعِبَادَةِ فِيهِ فوْق طاقَته ، والْمُشَادَدَةُ: المُغَالَبة . النهاية في غريب الحديث والأثر (2/ 451)

(108) أخرجه البخاري (1/ 16) حديث رقم (39) ، من حديث أبي هريرة ﷺ .

(109) الموافقات (2/ 222) .

(110) مجموع الفتاوى (10/ 622) .

(111) أخرجه البخاري (1/ 131) حديث رقم (651)، ومسلم (1/ 460) حديث رقم (662)، من حديث أبي موسى ﷺ.

(112) أخرجه مسلم (4/ 1782) حديث رقم (2278) ، من حديث أبي هريرة ﷺ .

(113) أخرجه البخاري (7/ 2) حديث رقم (5063) ، من حديث أنس ﷺ .

(114) تفسير النسفي (4/ 157) .

(115) المناهي اللفظية (ص: 49- 50)

بنية الحضارة وأطروحاتها بين مثالية الحوار وواقعية الصدام

د.الكر محمد

جامعة الجلفة

تعد الحضارة مسألة خلافية بشكل واضح، فهي ليست مجرد موضوع تاريخي ينتظر بحثا و تفكيرا متجردا و خاليا من العاطفة، بل إنها موضوع ملتهب ، أراد له إعلان الأمم المتحدة للعام 2001 أن يكون كذلك على نحو عالمي ، عندما جعل من هذا العام عام حوار حضاري ، و ظلت الحضارة تثير مشاعر متناقضة لدى العديد من المراقبين ، إذ تمثل لبعض الناس حصيلة الانجاز البشري ، أي النتيجة النهائية للتقدم الحديث ، أما بالنسبة إلى البعض الآخر فهي تشكل تهديدا خارجيا يجرد الانسان من انسانيته و يجلب معه مكننة للحياة ، و تحديا "للمعتقدات " التقليدية ، و بقي الأمر على حاله منذ أول ظهور لكلمة حضارة [1]

ولا شكل أن السباق الحضاري و الحوار الحضاري يؤدي إلى النمو و الارتقاء و اكتساب قدرات إضافية للقيام بالتسخير و أداء مهمة العمران البشري ،كما يؤدي الى اكتساب الكثير من السنن التي تحكم الحياة و الأحياء و تمكن من مغالبة قدر بقدر أو سنة بسنة ولابد من الاعتراف هنا أن السبق الحضاري يشكل نوعا و لونا من ألوان الارتهان الثقافي ، و يقود إلى التفكير ضمن أطر مسبقة لحضارة الغالب ، مقارنة و مقاربة و مواجهة وحوارا وغير ذلك من ملامح هذا الارتهان على مستويات الاقتصاد انتاجا و استهلاكا ، و السياسة ، و الثقافة ـــو التربية ، و التعليم ، حيث لا يمكن تجاهل و تغييب سطوة (الآخر) بسبب سبقه و غلبته ، تلك الغلبة التي تعرض قيم الأمة المعطلة لامتحان و تحد رهيب و يزداد الارتهان الثقافي و الحضاري أكثر فأكثر ، حيث أصبح ذراع الحضارة ممتدا الى البيوت و الأسواق و الميادين العسكرية ، وعقلها و فلسفتها يشكل المناخ السائد و المؤثر في التربية و التعليم و الاعلام و الأدب و الثقافة و السياسة ، و أدواتها و مناهجها المعرفية تكاد تصبح متفردة في عالم التربية و الثقافة ، و الأمر الذي يمكن لذلك هو التوجه صوب العولمة ، و الحضور في كل المواقع للأنماط الحضارية الواحدة في محاولة لتنميط الحياة وفق الأنموذج الغالب [2]

لقد آل الخطاب المدني و الحضاري ضمن ديناميكية تطوراته المؤلمة إلى حالة انقلاب معياري ، حتى بتنا اليوم و كأننا نشهد إعادة تقييم جذرية و شاملة تمس العناصر الجوهرية لرؤيتنا الفكرية ، فأمامنا اليوم حالة انقلاب حاد في جدول القيم ،بحيث طالت هذه الانقلابات المفاهيمية الموقف من التراث و الموقف من الغرب و من واقع مجتمعاتنا المعاصرة ، بما يعني أن إبرة البوصلة الفكرية قد فقدت قوتها [3]

إن ما نعيشه اليوم في ظل التزاحم الحضاري على مواقع السيادة و السيطرة في العالم يعود الى اختلافات ايديولوجية و تراثية تعود الى تراكمات تاريخية ضاربة في أعماق الدول و الأمم على الرغم من أن ما يعيشه العالم من تطور مذهل اختصر المسافات و الأزمنة لم تشهده البشرية عبر تاريخها الطويل المليء بالأحداث و الوقائع التي لا تكاد كتب التاريخ تحمل أحداثها و معانيها و في ظل هذا العبق الوارف من ظلال التاريخ تصعد الى السطح أطروحات عديدة تراوحت بين المثالية المرجوة و الواقعية الصادمة للانسانية على الرغم من التقدم و الدعوات المتكررة في المنابر الاقليمية و العالمية الداعية للحوار و السلم العالمي و تغليب العقل و التعاون و التكاتف قصد تحقيق التعايش الانساني و العالمي هذا من جهة و من جهة أخرى تقف جبهة تحمل لواء الاقصاء و تغليب القوة و السيطرة و فرض النموذج الغربي في أسمى غطرسته على

إعتباره بر الأمان و طوق النجاة للبشرية من التخلف و الفقر و بهذا تبقى نظرة الاستعلاء قائمة و في كل هذا يطرح التساؤل :

كيف تتجلى بنية الحضارة و معانيها في ظل التأرجح بين الحوار و الصدام الحضاري ؟ و ما مدى فاعلية كل أطروحة على أرض الواقع المعاش؟

المنهجية المتبعة :من أجل الوصول الى تحقيق الغايات من دراستنا سنعتمد على جملة من المناهج التي نراها مناسبة لذلك من خلال المنهج الوصفي التحليلي لمختلف الأطروحات و الاشكاليات المطروحة في بنية و مفهوم الحضارة و مآلاتها كما سنعتمد عل المنهج المقارن في الحديث عن مختلف الرؤى الحداثية و امكانية الاستفادة منها

و لأجل ذلك سنتناول في دراستنا المحاور التالية:

أولا : الحضارة و اشكالية البنية و الماهية

ثانيا : الحضارة و أهم أطروحاتها عند المدرسة الغربية

- ديالكتيك هيجل و تقسيم الحضارات
- الحضارة باعتبارها إيديولوجية أوربية عند فرنسوا غيزو
- علل الحضارة و فلسفتها عند ألبرت شفيتسر
- جدلية التاريخ و الحضارة و مضامينها عند اسوالد اشنبغلر
- أرنولد توينبي و نظرية التحدي و الاستجابة للحضارات
- فرناند بردويل وصراع الحضارات
- فرانسيس فوكومايا و نهاية التاريخ
- صمويل هانتنغتون و صدام الحضارات

ثالثا:الأطروحات الحضارية عند العرب و المسلمين

- ابن خلدون و دورية الحضارة
- مالك بن نبي : وحدة الثقافة و الحضارة
- قسطنطين زريق : الحضارة بين الصفة و القيمة

رابعا: روجيه غارودي و مشروع حوار الحضارات

خلاصة

أولا : الحضارة و اشكالية البنية و الماهية

لا يزال الباحثين و المفكرين في جدال كبير حول تحديد ماهية و بنية المصطلحات لا سيما عند المدرسة العربية و المفكرين العرب نظير نقل و ترجمة المصطلحات دون الأخذ بأحواله و ظروفه ، كل هذا يدفعنا الى البحث في ثنايا المصطلح بمعانيه اللغوية و الاصطلاحية بين المدرستين الغربية و العربية محاولين إزالة اللبس بين الكثير من الدلالات ذات الصلة لا سيما العبارات اللصيقة بالحضارة و معانيها و التي تحوم في فلكها التاريخي أو التراثي و التي من بينها: الثقافة و المدنية

و الحقيقة أن كل خطاب فكري ينطلق من فروض أساسية ، أو مسلمات ضمنية ، تنبثق عنها التطبيقات و تتحاكم اليها الاشكاليات ، سواء سميت بفروض أساسية ،أو قيمة مركزية ،أو بارادايم ، أو إبستميا، أو ما يشابها من الاصطلاحات الأنتروبولوجية ، و التي يعبر عنها في العلوم الشرعية بمصطلح الأصل أو الكلي ، و منه قولهم "أصول المذهب "

و قد أشار الامام ابن تيمية في ملاحظة بديعة إلى دور استكشاف الكليات و المبادئ التاريخية في الاستيعاب و الاطمئنان العلمي كما يقول رحمه الله : "فإن معرفة أصول الأشياء و مبادئها ....، من أعظم العلوم نفعا ، إذ المرء لم يحط علما بحقائق الأشياء التي يحتاج إليها يبقى في قلبه حسكة "

وقال في سياق آخر : " من لم يعرف أسباب المقالات ، و إن كانت باطلة ، لم يتمكن من مداواة أصحابها ، و إزالة شبهاتهم "[4]

إن الحضارة من أكثر المفاهيم التي يكتنفها اللبس و الغموض و يعتريها التداخل ، فيصادف الباحث الكثير من المفاهيم و الدلالات التي لا تتعارض من حيث زوايا النظر أو الغايات فحسب بل كما قال الدكتور : نصر محمد عارف " أصبح المفهوم يطلق على أشياء و عمليات و نظم و أنساق و أفكار متعارضة في عناصرها و مكوناتها أيضا " مما جعل الحاجة ماسة فعلا لتحديد الظاهرة و الإحاطة بجوانبها و أبعادها

ولعلنا نجد ذلك نابعا عن قلة وعي بالظاهرة و التسرع في تحديدها بتغليب جانب التميز و الخصوصية الحضارية ارتكازا على مفهوم الهوية و العناصر الثقافية الذاتية ، أو بتغليب مفهوم الشمولية الحضارية ارتكازا على الفطرة و العولمة و وحدة الجنس و المصالح البشرية ، هذا من جهة ، و من جهة أخرى قد ترجع علل اللبس و الغموض الى ما ارتآه الدكتور صبحي الصالح * رحمه الله حين قال : لتنوع المدارس الاجتماعية ، و الانثروبولوجية بين فرنسية و ألمانية و أنجلو-ساكسونية أثرا بالغا في زيادة اللبس و الغموض لدى تحديد اللفظ الاصطلاحي الدال دون سواه على الحضارة "و سواء أرجعنا عوامل الغموض في الدلالة الى القصور المنهجي ، أو التسرع في تحديد الظاهرة ، أو أرجعناه الى أسباب تاريخية تتعلق بالفعل و رد الفعل بين ظاهرة النهضة العربية الاسلامية و بداية صياغتها للمفاهيم و الحضارة الغربية الغالبة و انتاجهم للمفاهيم ، كما يشير إلى ذلك الدكتور صبحي الصالح فإن الحاجة لرفع اللبس تبقى ماسة[5]

فالتقدم عندهم هو اللحاق بركب الغرب ، و المدنية الغربية تعد غاية لهم ، و هؤلاء يقعون في محاذير فكرية و تاريخية و عملية ، فهم مضطرون بحكم منطقهم إلى الغاء الذات و التنكر للتاريخ و التقليد التلقائي للآخر ، سعيا للتطابق معه ، و هكذا تجد أكثرهم يعمل في الاتجاه المعاكس لمصالح أمته ، بينما البعض الأخر انطلق من الخصوصية الذاتية و احتموا بالتميز فأعطوا للحضارة صبغة إنجاز ماضوي أو مشروع للحقيقة فأبعدوا الحضارة عن صفتها الزمنية التاريخية ،فيقعون في الانكفاء و الانغلاق على الذات و عدم القدرة على الاستفادة من خبرات الأمم و تاريخ الشعوب غير الاسلامية ،كما يقعون على المستوى النفسي في الاستعلاء بالذات و التحقير للآخر ، و ينقلون البحث في الحضارة من المستوى التاريخي المتحرك ، إلى مستوى المبادئ الساكنة و إن الهوة بين الفريقين لكبيرة ، فالتغريب لدى الفريق الأول تمدن ، و التراث ماض بلا رجعة ، و محاولة الوقوف عنده تخلف و انحطاط ؟ بينما عند الفريق الثاني ، تمدن الاتجاه الأول هو الجاهلية و التقليد و التخلف و إذا كان من الضعف المنهجي أن نختار لفظا فنجعل منه مفهوما أساسيا في الدراسة دون الرجوع به إلى جذوره اللغوية ، فإن من القصور المنهجي كذلك أن نقف باللفظ عند هذه الجذور ، دون استيعابها و تجاوزها إلى معاني وثيقة الصلة بالأصل ، مجردة من خصوصيات مكانها و زمانها مدمجة في الاهتمامات المعاصرة [6]

<< لقد جاءت كذلك الحاجة إلى التمييز بين الثقافة و الحضارة بالاعتماد على الاشتقاق و الاترحال المفاهيمي من عصر إلى أخر ، تبعا لغلبة الإطار الايديولوجي أو التصور السياسي و الاجتماعي العام ، إذ كانت الثقافة و الحضارة تشتركان في الانفصال عن الطبيعة المعاشة ، فانهما تتميزان حسب الذهنية الغالبة في العصر مثلا كانت الثقافة في القرن الثامن عشر تدل على" القيم الفردية " بكسب الفضائل و تطوير الملكات و استعمال العقل ، لكن من جراء الصراع السياسي بين

الأمم ابتداءا من القرن التاسع عشر ، انتقلت الثقافة إلى مفهوم " القيم الجماعية " لتدل على عبقرية الأمة و لتكون بمثابة المعيار الايديولوجي في شحن الضمائر و تهييج الارادات دفاعا عن الهوية ، كذلك إذا كانت الثقافة خاصية ألمانية في الاعتزاز بالقيم الوطنية و الخصوصية التراثية ، فإن الحضارة كانت خاصية فرنسية في الاعتزاز بالقيم الكونية و الفلسفة العالمية ، بهذا المعنى ، لم تكن الثقافة و الحضارة مجرد كلمتين في القاموس بل كانتا في أتون التجارب التاريخية ، تتلونان بها و تندمجان في رهاناتهما [7]>>

لقد نبه نصر محمد عارف الى الغموض الذي وقع فيه المفكرون العرب عندما أقدموا على تعريب الكلمات الأوربية حيث رأى : أن هناك اضطرابا واضحا في الفكر العربي عند تعامله مع مفهومي cultureو Civilization حيث قدم للمفهومين الأوربيين ثلاثة ألفاظ عربية و هي " الثقافة " و "الحضارة " و " المدنية " فمن ترجم Cultureالى ثقافة ترجم Civilization الى حضارة و من ترجم Culture الى حضارة ترجم Civilization الى مدنية و في كل حالة يختلف تعريف المفهوم العربي عن الآخر ، ففي الحالة الأولى تكون الثقافة هي الجانب الفكري من الحياة الانسانية ، و تكون الحضارة هي الجانب المادي منها ، و في الحالة الثانية تكون الحضارة هي الجانب الفكري ، و تكون المدنية هي الجانب المادي منها [8] >>

و في هذا الإطار يضيف الأستاذ محمد شوقي الزين أنه بناءا على تصنيف نصر محمد عارف يضع نفسه في الحالة الأولى التي تأخذ بالزوج ثقافة /حضارة ، خلا لعبد الرحمن بدوي مثلا الذي ينتمي إلى الحالة الثانية التي تأخذ بالزوج حضارة / مدنية ، خصوصا مع ترجمته لكتاب ألبرت شيفتسر " فلسفة الحضارة " لأن المنطوق "ثقافة " لا بد منه في كل الأحوال ، بينما الزوج حضارة / مدنية هو في نظري رديف لا غير ، يعود إلى العلة الاشتقاقية بين "الحضر" (تحضر) و المدينة "تمدن" و في الخلاصة التي تتوج محاولته الجريئة يكتب نصر محمد عارف ما يلي : " من خلال العرض السابق لمفاهيم الحضارة و الثقافة و المدنية ، نلاحظ مدى ما حدث للبناء المفاهيمي العربي المعاصر من تشويه وعدم تحديد و خلط للدلالات و المعاني ، مما يفقد الكلمات و الألفاظ ماهيتها و دورها كوسيلة للتواصل الفكري و الحوار و نقل المعاني و الدلالات ، بحيث أدى تعدد مصادر التعريف بأي من هذه المفاهيم و اختلاط الأصول و الماهيات ، أدى إلى نوع من حوار في الجماعة العلمية العربية ، حيث لم تعد الألفاظ بإزاء معاني محددة ، و إنما يختلف المعنى و الدلالة من ذهن إلى أخر ، ومن ثم فإن أطراف الحوار لا يقفون على أرضية واحدة ، و إنما كل منهم تقع على ذهنه ظلال للمفهوم مخالفة لتلك التي وقعت على ذهن الطرف الواحد ، و من ثم فلن يصلوا إلى اتفاق حقيقي ، و هذا ما يلاحظ في واقعنا الثقافي من إعادة و تكرار مناقشة القضايا عينها بعد مضي قرن من الزمان ....كل ذلك لعدم وضوح إطار المفاهيم المتداولة ، و هذا الأمر يستلزم إعادة بحث و تنقية المنظومة المفاهيمية و المتداولة في إطار الجماعة العلمية العربية " [9] و في هذا الإطار هناك عوائق ضمنية تلتصق بالذهنية العربية و التي من بينها و أهمها :

- عائق النزعة التوحيدية و يخص الهوس العربي في جميع الأذواق و الدلالات في وحدة قسرية دون تنوع أو اختلاف .
- عائق التصفية و التقنية الذي يرتبط بالعائق السابق حيث أن قهر التنوع و الاختلاف من شأنه تطهير الكلمات من الشوائب العالقة بها فهو يبتغي الوحدة النسقية و الايديولوجية بلا مدلولات آتية من اللغة أو السياقات الأخرى
- عائق الدقة اللامتناهية : الحديث بتعابير من قبيل الدقة ، الوضوح ، المنهجية ، المرجعية ، التأصيل ، الخصوصية مثلما أن الكلمة لا تختزل دائما الى دلالتها المعجمية لأن المسألة هي قضية سياق تداولي و تطور تاريخي و تلقي معرفي[10]

و إنه لا أدل على فهم معاني المصطلحات التي جئنا على ذكرها من (الحضارة – الثقافة – المدنية) الى معانيها اللغوية التي يجب أن تأخذ في سياقاتها التاريخية لا الترجمة الحرفية للمعنى دون دراية و ادراك لمعانيه و تاريخه في سياقه العربي و الغربي

جاء في لسان العرب

الحضور نقيض المغيب و الغيبة : حضر ، يحضر ، حضورا و حضارة فالحضر خلاف للبدو و الحاضر خلاف البادي و الحاضرة خلاف البادية و هي المدن و القرى و الريف ، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار و مساكن الديار التي يكون لهم بها قرار فهو مقصور على الاقامة في الحضر[11]

و جاء في معجم الأعلام ، أن الحضارة من الفعل حضر أي أقام بالحضر ، و قولنا تحضر البدوي أي تشبه بأخلاق الحضر أي تعني التخلق بأخلاق أهل المدن في جميع المظاهر الثقافية ، فالحضارة في تجذرها و أصلها اللغوي تركز على الجانب السوسيولوجي ، و كأن اللغة في طياتها تشير الى أن الحضارة مفهوم اجتماعي منذ نشأته حيث أنها لا تقوم لها قائمة إلا بوجود علاقات متبادلة بين الناس[12] .

أما الدلالة الأجنبية للألفاظ الحضارية

أ – لفظة (Culture) و تكتب في الألمانية (Kultur) ،ترجع إلى الأصل اللاتيني cultureالذي يعني من حيث الأصل حرث الأرض و زراعتها ، و يعرض الدكتور محمد نصر عارف التطور المعرفي في دلالة اللفظ نختصره هنا لأهميته قال : لم يتغير المعنى الأصلي طوال العهدين اليوناني و الروماني ثم عكس شيشرون اللفظ بذات المعنى تقريبا على زراعة العقل و تنميته ، فأطلق على الفلسفة mentis cultureثم أطلق اللفظ في فرنسا على الطقوس الدينية cultes ، و في عصر النهضة الأوربية اقتصر المفهوم على مدلوله الفني و الأدبي ، و استعمل فولتير الكلمة بمعنى تنمية العقل و غرسه بالذوق و الفن و تزيينه بالمعرفة

ب– لفظة Civilisation: يعود أصلها الى الجذر اللاتيني Civitesبمعنى مدينة و civisبمعنى ساكن المدينة أو civilisبمعنى ساكن المدينة أو مايتعلق به أو citizenو هو ما يعرف بالمواطن الروماني المتعالي على البربري ، و يرجع اشتقاق Civilisationالى القرن الثامن عشر ، و قد كان للفظة معان تختلف عن تلك التي ساعد شبينجلر و توينبي و آخرون على منحها لها [13]

بينما يرى بروس مازليش في كتابه الحضارة و مضامينها و قد سبقت الاشارة اليه أن الأمر يتطلب تفسيرا بشكل أساسي يتمحور حول دواعي عدم ظهور مفهوم الحضارة –في مقابل كون الفرد "متحضرا " أو كونه " همجيا " –إلا في أواخر القرن الثامن عشر ، وهذا يجرنا إلى طرح تساؤل أخر : متى حدث تجسيد هذا المفهوم و لماذا وقع في ذلك الوقت بالذات ؟ و يعلن لوسيان فيبفير (Lusien Febver) في مقاله الذي نشره في مجلد بعنوان : الحضارة : الكلمة و الفكرة " Civilization :Le mot et l' idée" عن عدم وجود أي استعمال لهذا المصطلح قبل العام 1766 في أي نص فرنسي يذكر و مع ذلك ترى المفاهيم الأساسية للتاريخ جين ستاروبينسكي على نحو مقنع أن الاستعمال الأول الذي يحمل معنى مقبولا غير قانوني ظهر –على ما يبدو– في العام 1756 من لدن فيكتور ريكوتي (أب الثورة السياسية الفرنسية) في كتابه : صديق الانسان (L'Ami des hommes) و أود أن أبني تحليلي لوعي متغير على هذه الحقيقة بالذات

صحيح أن الأمر محير ، و لكن وفق روبرت مازليش لم يتم الانتباه الى مقاصد ميرابو في استعمال الكلمة أو السياق الذي طرحه فيه ، و في واقع الأمر لم يستعمله إلا ثلاث مرات في سياق كتاب يتألف في أكثر من 500 صفحة ، ففي أول

ظهور له قيل لنا « إن الدين من دون أدنى شك هو القيد الأول للبشرية و الأكثر نفعا لها ، و إنه الباعث الرئيس للحضارة » ، كما ورد الاستعمال الثاني بعد صفحات عديدة و قيل لنا إن الترف يجلب زيادة في الفقر و نقصا في السكان «من هنا يمكن للمرء رؤية كيف أن الدائرة الطبيعية من الهمجية الى الانحطاط بواسطة الحضارة و الثراء » و هنا يتم تحذيرنا من سقوط الحضارة في غياهب الانحطاط ، أما الاستعمال الأخير ، فيقول إنه " في الشؤون المالية يمكن رؤية شبح الهمجية و الاضطهاد و هما يثقلان كامل الحضارة و الحرية " و ماذا سنصنع بميلاد هذا المجسد ؟ إن كتاب صديق الانسان لميرابو الذي كان أحد الفيزيوقراطيين (أصحاب المذهب الطبيعي في الاقتصاد) ، و لا بد من رؤية كتابه و فكرته عن الحضارة في سياق تركيزه على الزراعة ، كما كان متأثرا بمونتيسكيو بشكل كبير ، و لا بأس إذا ما علمنا أن ميرابوا أطلق العنان لمفهوم جديد تبنى لاحقا حياة خاصة به في هذا العالم ، و على الرغم من أن القاموس Dictionnaire de Trévoux الذي نشر في العام 1743 ، يتحدث عن الحضارة باعتبارها " مصطلحا قانونيا " يشير إلى مجتمع ما حيث يحل المجتمع المدني محل القانون العسكري ، بيدا أن مورابي كان ينقصه توسيع المصطلح ليشمل الاشارة أيضا إلى مجموعة من الناس الذين كانوا مهذبين ، و نظيفين و متخلقين و فضلاء في حضورهم الاجتماعي ، و في غضون عقد أو يزيد ، اكتسح معنى الحضارة أوربا و أصبح مألوفا في التفكير التنويري ، هذا التفكير الذي أسقط الدين بشكل متزايد ليصبح معلمنا مؤلها للعقل بتعبير ستاروبينسكي كما شكل جزءا من فكرة التقدم و أصبح المرحلة الثالثة في التاريخ الفرضي (Conjectural history) و من ثم تحديده للمرحلة الأخيرة في الحركة الانسانية انطلاقا من التوحش الى الهمجية و منها الى الحضارة ، و عندما قدم صموئيل بوفندورف في عمله (حول قانون الطبيعة و الأمم) في العام 1672 تفسيره الجوهري لتطور البشرية انطلاقا من الهمجية ، لم تكن متاحة لديه الكلمة المفتاح لنقطته النهائية ، هذه الكلمة موجودة الآن ، إنها الحضارة [14]

كما تعد الظاهرة الصناعية في أوربا من أهم العوامل التي جعلت من Civilisation تعبر عن نمط حياة المدينة التي يميزها التخصص في العمل و الصناعة الفنية و البحث العلمي الذي يعد المقياس الأعلى للمكانة الاجتماعية و السعي المتواصل للتجمع و إقامة دولة و تنظيم السياسة و الاقتصاد على ركائز علمية تكنولوجية [15]

على الرغم من وجود معان مشتركة على العموم بين الألفاظ الحضارية العربية و الأوربية فإنه مما لا يخفى أن هذه الألفاظ تحمل تاريخيتها معها ، فقد رأينا كيف تمثل مدينة الرسول(صلى الله عليه و سلم) عاملا أساسيا في تحديد معنى المدنية ، بينما تمثل نزعة التعالي بالنفس و التحقير للغير و الظاهرة الصناعية في أوربا عوامل لتحديد معنى Civilisation وهذا ما أشار اليه بروس مازليش في كتابه كما أشرنا سابقا الى تاريخية المصطلحات في أوربا ،كما أن اختيار مدرسة بعينها يحل المشكلة ، ذلك أن المشكلة ليست في مجرد مصطلحات ، بل في مدلولات تحمل تاريخا مليئا بالتراكمات المعرفية

مفهوم الحضارة اصطلاحا

و في هذا ترتبط الحضارة بالتاريخ الانساني عبر العصور و الأزمنة وقبل التطرق لأهم الأطروحات عند المدارس و المفكرين الغربيين و العرب و المسلمين على حد سواء وجب إعطاء المفهوم تعريفا من حيث المصطلح و لو بشكل موجز و في هذا تقول موسوعة السياسة أن الحضارة : " هي مجموعة المنجزات الفكرية و الاجتماعية و الصناعية التي يحققها مجتمع معين في مسيرته لتحقيق الرقي و التقدم " بينما أوضحت الموسوعة أن البعض يركز على استخدام المصطلح من الناحية الثقافية ، بينما يركز البعض الأخر على استخدامه مصطلحا للتقدم العلمي و التكنولوجي

و يعرفها ديورانت 1981 في موسوعته " قصة الحضارة " بأنها : نظام اجتماعي يعين الانسان على الزيادة من انتاجه الثقافي ، و تتألف الحضارة من عناصر أربعة : الموارد الاقتصادية ، و النظم السياسية ، و التقاليد ، و متابعة العلوم و الفنون . بالرغم من تحديد ديورانت لمكونات الحضارة الأربعة ،إلا أنه حدد تقدمها بالانتاج الثقافي [16]

كما يرى الأستاذ عبد الكريم بكار أن الحضارة في مفهومها العام هي مجموعة النظم و الأساليب و الأدوات التي اتخذها الانسان في تحسين ظروف معيشته ، و من الواضح أن بني البشر ، لم يطمئنوا الىشيء مما أنتجوه ، إلا بعد أن لمسوا ثماره و فوائده ، و بعد ذلك صاروا الى الاكثار منه ، فصار ذا قيمة تراكمية ، و كل هذا نابع في الأساس مما توفره حياة المدنية من الاستقرار ، و ما تفرضه الكثافة السكانية من أساليب في تنظيم الحركة اليومية [17]

و يمكن عرض الخصائص العامة للحضارة على النحو التالي :

- الحضارة صفة لصيقة للمجتمع البشري، بغض النظر عن نمطها الذي تمتاز به إن كان بدائيا أو متطورا، و إن كان طابعها المميز دينيا أو زراعيا أو صناعيا، فهذا لا يمنع ظهور الحضارة بوصفها نتيجة حتمية للتجمع البشري
- الحضارة لا بد أن يكون لها وسط بشري تشيع بين أفراده ، و تزدهر بعملية ديناميكية فيما نسميه بالتحضر
- الحضارة مركب كلي تتضافر الوحدات فيه فيما يسمى بالسمات الحضارية التي تكون كل مجموعة منها تعرف باسم النمط الحضاري

و توضح التعريفات السابقة ، أن هناك ترابطا بين الحضارة و التاريخ ، فالحضارة التي تعني ذلك الكل المركب لسلوك المجتمع من مؤسسات و عادات و تقاليد اعتاد المجتمع عليها في تنظيم و تسيير حياته ، ترتبط بالتاريخ الذي صهر مكونات الحضارة في مجتمع ما بتتابع العصور ، و قد فسر الفلاسفة و السياسيون علاقة الحضارة بالتاريخ بمختلف معتقداتهم السياسية . [18]

ثانيا : الحضارة و أهم أطروحاتها عند المدرسة الغربية

لقد كان مصطلح حضارة يعني لدى البعض إنجازا أوربيا فريدا من نوعه ، إذ يمكن أن تتوق إليه شعوب قليلة جدا أو أن تنسخه جزئيا ، غير أن بعض الغربيين أنزلوها إلى مرتبة حضارية من الدرجة الثانية على الرغم من امتلاك هذه الشعوب الأخرى حضارات أمر يقره الجميع ، فثمة تغييرات و نسبا مختلفة ممكنة في النزعة الشمولية و النسبية[19] التي تباينت بين المفكرين و العلماء الغربيين في رؤيتهم للحضارة و اشكالاتها و أطروحاتهم المختلفة

-ديالكتيك هيجل و تقسيم الحضارات

عندما نتحدث عن فكر هيجل ، فإنما نتحدث عن أهم الفلاسفة الذين ارتبطت بهم فلسفة التاريخ ، فقد كشف عن جوهر جديد للتاريخ " الفكر هو أساس التاريخ" ، بحيث يستند منطق التاريخ عند هيجل إلى الديالكتيك ، و الديالكتيك هو الجدل أو المحاورة و تبادل الحجج بين طرفين ، دفاعا عن وجهة نظر معينة ، و في فكر هيجل يعني : التناقض و التعاكس الخلاق ، فالكائنات تفضي ما عندها ، و تفرغ مخزونها باستمرار خلال عمليات الديالكتيك ،و نجد جوهر التطور عند هيجل هو صراع المتناقضات [20] فهو يرى أن كل عصر يمثل وحدة مشكلة وأن لكل فترة أساسية في تاريخ الحضارة ملامحها السياسية و الاقتصادية و الأخلاقية و الاجتماعية و الدينية حيث أن موضوع التاريخ ليس هو الأفعال الجزئية للأفراد ، و إنما موضوعه ذلك الصراع بين العوامل و القوى المتعارضة و وعي الروح لذاتها بل تحقيقها ذاتها من خلال هذا الصراع [21] و يقسم هيجل الحضارات إلى مراحل ،فيبدأ بالمرحلة الأولى من الحضارات الشرقية " الفرعونية ، الفارسية ، الهندية ....إلخ التي تتميز بخاصية أن المواطنين جميعا في كل مجتمع كانوا عبيدا للحاكم للذي كان عبدا لنزواته

، و المرحلة الثانية تمثلها الحضارات " اليونانية و الرومانية " ، حيث إننا نجد أن نطاق الحرية قد اتسع بحيث أصبح المواطنين أحرارا، و في نهاية تحليله يصل الى الأمم الجرمانية التي قد وصلت الى الوعي بأن الانسان هو حر [22]

-الحضارة باعتبارها إيديولوجية أوربية عند فرنسوا غيزو

في القرن الذي تلا رحلات كوك و فورستير و ماكارتني، أصبح خطاب الحضارة معلقا في سماء اوروبا و في مستعمراتها و من سيتبعها ، حيث في العام 1827 بدأ فرنسوا غيزو بتقديم سلسلة من المحاضرات في السربون و تم نشرها بعد مرور عام في كتاب ترجمت عنوانه على هذا النحو : تاريخ الحضارة في أوربا

(The History of Civilization in Europe) و يتساءل الناس : هل الحضارة خير أم شر ؟ فيجيب غيزو بأنه "مقتنع بأن هناك في الحقيقة مصيرا عاما للبشرية ، نقل الحضارة برمتها ، و بناء على ذلك ، تبرز ضرورة كتابه تاريخ عام للحضارة ....إن هذا التاريخ أعظم من كل شيء إلى درجة أنه يضم كل شيء " و لكن ليس هذا هو التاريخ الذي يتعهد غيزو بكتابته ، لأن تاريخه يقتصر على أوربا ، فإن رؤيته لتاريخ واحد للحضارة بقيت ضمنية في فكرة التقدم و طبيعته الإلهية ، و بتعبير غيزو ، " تبدو فكرة التقدم و التنمية بالنسبة إلى الفكرة الأساسية التي تشتمل عليها كلمة حضارة ، و متوسلا بأصل الكلمة ، يحدد " غيزو " معناها بكونها " إتقان الحياة المدنية ، و تنمية المجتمع تنمية مناسبة كما يقال لعلاقات الناس فيما بينها " و أين نجد هذه التنمية في شكلها الأسمى ؟ و حسب رأيه نجدها في أوربا لا سيما في فرنسا و إن السمة المحددة للحضارة الأوربية هي تعدديتها بما أنه لا توجد قيمة أو مؤسسة ، عكس ما نجده في حضارات أخرى و فيها استندت الحضارة الأوربية في تاريخها إلى ثلاثة مصادر ، أما الأول فهو مصدر الرومان و ارثها من مؤسسات بديلة ، و أما المصدر الثاني فيتجلى في المسيحية و فكرتها القائلة بتفوق القانون الأخلاقي على القانون التشريعي و فصلها الملازم بين السلطتين الروحية و الدنيوية و المصدر الثالث في جوهره يستمد من النظام الاقطاعي الذي تجاوز الهمجية التي أعقبت نهاية السلطة الرومانية ، و أسس فكرة ألمانية للحرية و الشخصية الفردية و أن تقلبات هذه العناصر الثلاثة و اختلاطها التي يخوض فيها غيزو ضمنت التنوع الذي يميز الحضارة الاوربية ، و يعلن غيزو " و هو يردد قول ميرابو العابر : أنه " في كل وقت و في كل البلدان ، كان الدين يدعي لنفسه المجد في عملية تحضر الناس " [23] كما لم يكتفي بهذا بل رأى في المسيحية الخلاص و انتقد بذلك الاسلام نظير مزجه بين السلطتين الروحية و الدنيوية مما يؤدي حسبه الى الظلم و الى حالة ثابتة تهوي فيها الحضارة في كل مكان و هو ما حدث في عصر الأنوار حسب قول غيزو و هنا نقول أن الحضارة الغربية أخذت مأخذ العلمانية و فصل الدين عن الدولة نظير الظروف التي عرفتها و هذا ما سنعود عليه لاحقا لتبيان معايير الحضارة و فق النظرة الغربية بالاضافة الى الحقد الدفين على الاسلام و المسلمين في عداء واضح و نكران لحضارة قائمة

علل الحضارة و فلسفتها عند ألبرت شفيتسر (1875-1965)

يعد شفيتسر من بين المفكرين الذين انتبهوا إلى الشرط الانساني المعاصر ، ليس من موقعهم كأكاديمين في مدارس أومعاهد ولكن في احتكاكهم المباشر بالواقع ، كان فليسوفا اعتنى بدراسة الأديان الشرقية خصوصا البوذية و الهندوسية و مصلحا دينيا ،تحصل على جائزة غوته سنة1928 و على جائزة نوبل للسلام سنة 1952 ، هذه السيرة المقتضبة تصور شخصا ساعدته في تشكيل فكرة عن موقع الانسان في الحضارة المعاصرة بالتدليل على أمراض هذه الحضارة و عاين سقوطها المروع مع الحربين العالميتين ، قدم لوحة شاملة حول مآل هذه الحضارة و استخلص قائلا : " فلما بحثت في ماهية الحضارة و طبيعتها تبين لي في ختام المطاف أن الحضارة في جوهرها أخلاقية " فهذه العبارة واضحة و مدوية تبين إلى أي حد مشكلة الحضارة أو مشكلة الثقافة هي مشكلة أخلاقية بامتياز بالمعنى الذي ينظر له شيفتسر ، كما ينخرط شفيتسر في

التصور الألماني المعروف الذي ينبذ الحضارة في أبعادها المادية المبتذلة و يعلي من شأن التكوين الذاتي بالمعنى الذي رأيناه مع البيلدونغ ، لكن يعود شفيتسر ليجعل الأخلاق الأس و الأساس ، فوق العقل و الجمال معا : " إذا أوعز الأساس الأخلاقي تداعت الحضارة حتى لو كانت العوامل العقلية و الخلاقة ، أيا كانت قوة طبيعتها ، تعمل عملها في اتجاهات أخرى " و كما أن الموقف تجاه الحياة هو جوهر الأخلاق في فلسفة شيفتسر الحضارية و يعبر عن ذلك بقوله " الواقع أن كل تقدم إنساني يتوقف على التقدم في نظريته في الكون ..... و افتقارنا إلى حضارة حقيقية مرجعه إلى افتقارنا إلى نظرية في الكون ، و حينما يتهيأ لنا الوصول إلى نظرية قوية ثمينة في الكون ، نجد فيها اعتقادا قويا ثمينا ، هنالك فقط يكون في وسعنا إيجاد حضارة جديدة ... الفكرة الرئيسية في نظريتي في الكون هي أن علاقتي بوجودي و بالعالم الموضوعي إنما تتحدد بتمجيدي للحياة " ، كما حدد أساسيات فلسفة الحضارة و التي تشتغل كثنائيات مترابطة و منسجمة : التصور / السلوك ، المعرفة /الأخلاق ، النظر / العمل ، المعنى / القيمة ، يأتي الخلل عندما تنهار الوحدة الوطيدة بين حدي المقولة ، و عندما تكون العلاقة بين المادي و الروحي غير قائمة على الاعتدال بل على التفريط من جانب و الافراط من جانب آخر ، كما يعبر عن حال الحضارة

<< نحن نعيش اليوم في ظل انهيار الحضارة ، و هذا الوضع ليس نتيجة الحرب، و إنما الحرب مجرد مظهر من مظاهره ، و لقد تجمد الجو الروحي في وقائع فعلية ينعكس أثرها عليها انعكاسا له نتائج مدمرة من كل ناحية ، و هذا التفاعل بين ما هو مادي و ما هو روحي قد اتخذ طابعا مضرا كل الاضرار ... لقد انحرفنا عن مجرى الحضارة لأننا لم نقم بالتفكير الجدي في معنى الحضارة >> فمن الواضح أن المنطلق الفلسفي عند شفيتسر هو منطلق معياري يبحث في إخفاق الأخلاق عن تدبير الحضارة اليوم [24]

-جدلية التاريخ و الحضارة و مضامينها عند اسوالد اشنبجلر (1880-1936)

يطرح اشبنغلر جدلية العلاقة بين التاريخ و الحضارة ، ليستطيع من خلال منجزات الحضارة في التاريخ أن يعالج رفعة الحضارة و تدهورها كما يرفض اشبنغلر المنهج التاريخي لدى المؤرخين ، و هو في نظره دراسات غير متعمقة ، فلا يوجد تماثل في تاريخ الحضارات بالكامل ، " لكل حضارة إمكاناتها الجديدة الخاصة بها للتعبير عن ذاتها " الحضارة في جوهرها لها مميزاتها الخاصة التي لا تتماثل مع الحضارات الأخرى ، ففي صيرورة التاريخ عند اشبنغلر نستطيع أن نرى ثلاث مراحل للحضارة " النشأة ، النضج ، الشيخوخة " ، و يقسم الطبقات داخل الحضارة إلى طبقتين " النبلاء " و الكنهوت أي الفلاحون ، فنشأة الحضارة كانت بظهور طبقة النبلاء ، أما الفلاحون فهم موجودو ن قبل الحضارة ، لذا بشر بانحلال الحضارة الغربية لأنها تخلت عن تركيبة الحضارة الرئيسية و هي طبقة النبلاء[25] ، كما يرى شبنجلر أ، أزمة الحضارة الغربية تكمن في مشكلة المدنية ، حيث يعتبر المدنية الطور الحرج من أطوار الحضارة فيتساءل ما هي المدنية ؟ إنها نتيجة منطقية جوهرية تحقق مكتمل و نهاية لتطور الحضارة ، ذلك أن لكل حضارة مدنيتها الخاصة ، فالمدنية هي المصير المحتوم للحضارة ، و المدنيات تشكل نهاية لا يستطيع أن تقف أمام تحققها إرادة أو عقل ، و مع ذلك تبلغها الحضارات مرة بعد أخرى ، مدفوعة بضرورة باطنية [26]

-أرنولد توينبي*[27] و نظرية التحدي و الاستجابة للحضارات (1889- 1975)

لعل أشهر الفلاسفة و المفكرين من خلال بحثهم و كتابتهم عن الحضارة و التاريخ هو أرلوند توينبي الذي جعل الحضارة محور الدراسات التاريخية فهو يتمتع بقدر عال من الموضوعية و الحياد في نظرته الى الحضارات المختلفة[28] ، حيث استمد توينبي مصادره الفكرية من المدرسة، والقراءة المتصلة وكثرة الترحال، والتجربة والحياة الخصبة بالعمل. أما مؤلفاته فكثيرة،

أشهرها: «دراسة التاريخ» Study of History في 12 مجلداً (1934-1964)، و«الحضارة في الميزان»، و«الوحدة العربية آتية من النيل إلى النيجر»، و«تاريخ البشرية»، و«فلسطين جريمة ودفاع»، و«العالم والغرب».

أسس نظرية من أهم نظريات فلسفة التاريخ، تسمى «نظرية التحدي والاستجابة» Challenge and Response متخذاً المجتمع لدراسة التاريخ وليس الأمة، وقد حدد عدد الحضارات عبر التاريخ بثلاثين حضارة دون تحيز لواحدة أو نكران لأخرى، وعدّ إحدى وعشرين حضارة أتمت نموها، وخمس مجمدة، والأربع الأخيرة حضارات مجهضة لم يبق منها إلا سبع حضارات قائمة كمجتمعات حية هي: الأرثوذكسية المسيحية، الأرثوذكسية الروسية، الإسلامية، الهندوسية، الصينية، الكورية، اليابانية، الغربية. [29] كما أحصى 650 مجتمع بدائي لم ترتق جميعها إلى الحضارة و تمر هذه الحضارات في تصوره بثلاث مراحل متعاقبة " النشوء، النضج، الأفول [30]

ثم أوضح كيف نشأت الحضارات وانهارت في ضوء نظريته «التحدي والاستجابة». أما العلاقة بين قطبي هذه النظرية فتتخذ إحدى صور ثلاث:

أ- قصور التحدي يجعل الطرف الآخر عاجزاً عن استجابة ناجحة.

ب- التحدي البالغ الشدة يحطم روح الطرف الآخر.

ج- التحدي الذي يكون على درجة معقولة يستثير الطاقات المبدعة، فهذه وحدها الاستجابة الناجحة، ومن هنا طرح قانون «الوسط الذهبي» في نظريته، مؤكداً أن الظروف الصعبة تتحدى الإنسان فتستثير همته وقوى الإبداع لديه، وتستحثه على التحضر، وقد يكون مصدر التحدي البيئة الطبيعية أو الظروف البشرية، وقد يحول الرفاه دون قيام الحضارة، الأمر الذي جعله يرفض نظرية البيئة الجغرافية كمؤثر أوحد لتكوين الحضارات، مبيناً ظهورها في بيئات مختلفة. [31]

و تتجلى نزعة توينبي الدينية من خلال تفسيره للحضارات ، حيث يرد الحضارات إلى الأديان ، ذلك أن الامبراطوريات في نظره ليست مقياسا للحضارة ، بل العكس إنها تمثل بداية مرحلة إنهيار الحضارة ، إذ تلجأ الأقلية المسيطرة إلى التوسع حين تفقد مقومات الإبداع [32]

كما رفض نظرية الأجناس في مبدأ الحضارات، إذ إن البشرية بألوانها أسهمت في الحضارات، ماعدا العرق الأسود، وهناك عناصر بيضاء لم تسهم بقيام أي حضارة. ورفض نظرية هيغل (1770-1831) Hegel، التي يقول فيها بتفوق البروسيين (الجرمان) على شعوب العالم. وخالف كارل ماركس (1818-1883) Karl Marx في نظرته المادية للتاريخ بينما يعطي توينبي الأولوية للعوامل الفكرية الروحية. وصُدم بانتصار الثورة البلشفية (1917م) واعتبر الشيوعية مذهباً مرعباً، كما انتقد التقسيم الثلاثي للتاريخ (قديم، وسيط، حديث)، ويعد ذلك كالذي يؤلف كتاباً عن جغرافية أوربة، ويسميه جغرافية العالم، ويرى أن من أسباب انهيار الحضارات وجود أقلية مسيطرة فقدت قدرتها على الإبداع وأخذت تحكم بالقهر، وفقدان التماسك الاجتماعي بسبب انشقاق بعض الخارجين أو سخط المحكومين.

آراؤه في الحضارة الإسلامية

عدّ توينبي الحضارة الإسلامية باقية حية وسليمة الجوهر، ولن يجرفها تيار الحضارة الغربية، ولن تتحجر، على الرغم من استعمارها والنكبات التي حلت بها، لأنها تملك مقومات بقائها كالاتساق بين الفكر والعمل من حيث المساواة. أما الحضارة الغربية، فقد واجهها وحللها وحاسبها وأسف لاعتداء هذه الحضارة على الشعوب ونهب خيراتها، وانتحال إنجازاتها الحضارية والعلمية، ومن ثم التعالي عليها بدلاً من التعايش معها.

ويتفق مع أوزوالد شبنجلر (1880-1936) Oswald Spengler صاحب كتاب «أفول الغرب» Decline of West، في أن الحضارة الغربية تمر بأزمة حرجة، ولكن توينبي يرى أن هذه الأزمة روحانية وليست مادية، رافضاً بذلك اعتقاد شبنجلر وابن خلدون بأن الحضارات مثل الكائنات الحية تخضع للتطور العضوي ثم تنتهي إلى الموت، فهو يرى أن موت الحضارات ليس حتمياً طالما أن هناك مجتمعاً محتفظاً بالاستجابة الإبداعية creative response، وصاغ نظرته للتاريخ قائلاً: «عجلة التاريخ ليست آلة شيطانية تبتلي الناس بعذاب سرمدي، ولكن هناك إيقاع أساسي يتمثل في التحدي والاستجابة، والانسحاب والعودة، والنكسة والنهضة»[33].

فرناند بردويل و صراع الحضارات :

يفسر بردويل*[34] علاقة التاريخ بالحضارة قائلا " نستطيع عبر عصور متباينة تجتازها حضارة من الحضارات و تغيرات بطيئة فيها ، و نقلات لها من الارتقاء و التدهور و الخضوع و الاذعان و الرفض و المقاومة و الاستسلام أن نستخلص صياغا أو وصفا يعبر عن تقييم و تفسير نهائي يرد إليها ، بمالها وصف نهائي و وجهها الخاص فإن لكل مظهر من مظاهرها حلقة في سلسلة تاريخية يتعاقب بعضها إثر بعض " [35]

في كتابه الضخم " الحضارة و الرأسمالية " يقرأ بردويل تاريخ البشر من خلال الأشياء الصغيرة ، و في عرضه لتاريخ الحضارات القديمة و العلاقات القائمة فيما بينها ، يصف حضارات الشرق الأدنى الهند و الصين بأنها كانت همجية و متوحشة جراء الحروب الداخلية و الخارجية من قبل المغول ، و رأى أن الحضارة الاسلامية التي بالكاد كانت متحضرة ، فالعرب عاشوا في قبائل ، و لم يكن لهم كالتالي كانت موجودة في الحضارة الغربية ، و قد وصف الحضارة الإسلامية بأنها أقوى الحضارات في العالم القديم إلا أنه أعاد سبب الفتوحات الاسلامية للسيطرة على خيرات الحضارات المجاورة لا لنشر دين التوحيد ومن خلال قراءته لتاريخ الحضارات القديمة و تطورها التاريخي عبر التقدم و التدهور و النمو و التبعية ، نجد انحيازه للحضارة الاوربية " الأنا " التي ينتمي إليها مقابل الآخر حضارات العالم ، و لعله واضح في كتاباته تحامله على الاسلام و هو بهذا يتفق مع هانتنغتون .

كما يرى أن الحضارات عاشت و تعيش صراعا دائما ، فدروس التاريخ تؤكد أن الحضارات الأقوى المنتصرة تتغلغل غالبا في الحضارات الأضعف و تستعمرها ، و يعطينا بردويل مثالا عن هذا الانقلاب الحضاري بالقول : " إن أوروبا نجحت في غزو و إحتلال أمريكا في القرنين الخامس عشر و السادس عشر ، لكن مع أواخر القرن العشرين أمريكا تنقلب على أوربا ، و صدام الحضارات عند بردويل يعني مبررا لوجودها ، فالبحر المتوسط يدين لحضاراته بحروبه و كذلك بمبادلاته المتعددة التي تمت بين الحضارات ، و يؤكد بردويل أن الصراع إذا كان حتميا فهو مثمر ، و لو لا وجود تلك الصراعات لما تقدمت الحضارات عبر التاريخ [36]

أولا: فرانسيس فوكوياما[37] * :

لم تكن أطروحات فوكوياما وهانتغتون السياسية هي ألأولى من نوعها بوصفها مرشدا لسياسة الولايات المتحدة الأمريكية الخارجية، إلا أنها الأكثر شهرة والأضخم إنتاجا، حيث قام المفكران قبل كتابة أطروحاتيهما الفكرية " نهاية التاريخ" و " صدام الحضارات" بكتابة دراسات تم ممارستها في السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية.

انطلق فوكوياما من فرضية أساسية وهي: هزيمة الإيديولوجيات السياسية التي لا تكتسب الصفة العالمية، كالإيديولوجيا الصينية والإسلامية، وقد جادل في أطروحته سقوط الإيديولوجيات الاشتراكية التي تكتسب الصفة العالمية، وهي محور رئيس في أطروحته بعد إسقاط الإيديولوجيات الفرعية كافة، والتي لا تحمل الصفة العالمية من وجهة نظره، وعرض في

أطروحته التناقض في أنظمة الحكم عبر تاريخ الإنسانية من الملكيات والأرستوقراطيات، إلى الحكومات الدينية الخاضعة لرجال الدين، إلى الدكتاتوريات الفاشية والشيوعية[38]، ويحدد النظام الديمقراطي الليبرالي ، نظاما للحكم في نهاية التاريخ الذي بقي ثابتا حتى نهاية القرن العشرين، إذا كيف يفسر فوكوياما سقوط الإيديولوجيات السياسية الأخرى؟

يرى فوكوياما الإسلام بوصفه إيديولوجيا يكاد أن لا يكون له جاذبية خارج المناطق التي كانت في الأصل إسلامية الحضارة، "وإن كان بوسع الإسلام أن يكسب من جديد ولاء المرتدين عنه، فهو لن يصادف هوى في قلوب شباب برلين، أو طوكيو، أو موسكو، رغم أن نبليون نسمة يدينون بدين الإسلام" أي خمس تعداد سكان العالم " فليس بوسعهم تحدي الديمقراطية الليبرالية في أرضها على المستوى الفكري، فالإسلام أمام الثورة الليبرالية التي تلت الحرب الباردة في فكر فوكوياما، هو أيديولوجيا فرعية لا تكاد أن تصحو في مناطقها التي انتشرت بها، بل يرى فوكوياما بأن العالم الإسلامي أشد عرضة للتأثر بالأفكار الليبرالية على المدى الطويل من احتمال أن يحدث العكس، ويعيد فوكوياما سبب انتشار " الأصولية الإسلامية" إلى الخطر الملموس من جانب القيم الغربية الليبرالية على المجتمعات الإسلاميةالتقليدية[39].

ثانيا: صمويل هانتنغتون[40] * 1927، 2008:

لم يمكن هانتنغتون أول من كتب عن فلسفة " الصدام الحضاري"، فقد تنبأ أرنولد توينبي في مقاله بعنوان " الصراع بين الحضارات"، المنشورة في مجلة هاربر بعددها الصادر في إبريل 1947، والتي نشرت فيما بعد مع مقالات أخرى عدة في كتابه " الحضارة في الميزان "، تتنبأ بأن الأمر الذي سوف يشغل مؤرخي المستقبل مؤرخي المستقبل هو " صدام الحضارة الغربية بسائر الحضارات الأخرى"، كما أن المؤرخ برنارد لويس Bernard Lewis تحدث عن الصدام الحضاري بين الغرب والعالم الإسلامي في مقالته " جذور السخط الإسلامي"، واصفا العالم الإسلامي بالرجعي والغوغائي " ينبغي أن يكون من الواضح أمامنا أن الحركة الكونية تتجاوز بكثير مستوى القضايا والسياسات والحكومات، هذا ليس أقل من صراع حضارات" توينبي يرى صدام الحضارات يحدث بين الحضارة الغربية وأي حضارة أخرى، وربما يكون الصدام بين حضارات عدة، وليس فقط بين حضارتين، أما برنارد لويس فيرى الصدام أنه صدام بين حضارتين: الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية، إن فكر برنارد لويس متحامل على الحضارة الإسلامية ، ويصورها بأنها تحمل في قيمها صفة العداء نحو الغرب الكافر.

ويؤكد إدوارد سعيد أن أطروحة هانتنغتون "صدام الحضارات" مستمدة من برنارد لويس في مقالته المذكورة سابقا، إن كان هانتنغتون استلهم فكرة صدام الحضارات من لويس أو من توينبي، فقد كانت فكرته الرئيسة في أطروحته للنظام العالمي الجديد هي الاختلافات الثقافية بين الحضارات العالمية، التي تؤدي إلى الصدام الحتمي بين الحضارات.

هانتنغتون والحضارات العالمية:

ينطلق هانتنغتون في أطروحته من فرضية رئيسة وهي: الثقافة والهوايات الثقافية، التي على المستوى العام هويات حضارية، هي التي تشكل أنماط التماسك والتفسخ والصراع في عالم ما بعد الحرب الباردة، وقبل أن يعرف هانتنغتون الحضارة، يعرض تعريفات عدة لمفكري وعلماء التاريخ الذين كتبوا في تاريخ الحضارات الإنسانية، من بينهم ماكس فيبر، و إميل دور كرهايم، و أرنولد توينبي، وفرناند بردويل وغيرهم.

ويعرف هانتنغتون الحضارة بأنها: "الكيان الثقافي الأوسع، القرى والمناطق والجماعات العرقية والقوميات والجماعات الدينية..... كلها لديها ثقافات محددة وعلى مستويات مختلفة من التمايز الثقافي"، وباختصار شديد يعرف هانتنغتون الحضارة في خاتمة أطروحته بأنها: "مقابل البربرية" ويضرب مثالا " ثقافة قرية في جنوب إيطاليا قد تختلف عن ثقافة قرية

في شمالها، ولكنهما تشتركان في ثقافة إيطالية عامة تميزهما عن القرى الألمانية ، والمجتمعات الأوروبية، بالتالي ستشترك في ملاح ثقافية تميزها عن المجتمعات الصينية أو الهندية.

ويضيف قائلا: الحضارة هي أعلى تجمع ثقافي من البشر و أعرض مستوى من الهوية الثقافية يمكن أن يميز الإنسان عن الأنواع الأخرى، والحضارة تعرف: "بكل العناصر الموضوعية العامة مثل اللغة والتاريخ والدين والعادات والمؤسسات والتحقق الذاتي للناس"، من خلال تعريف هانتنغتون للحضارة يقر بفرضية "أن لكل حضارة حدود جغرافية معروفة المعالم جيدا، وهي من وجهة نظر هانتنغتون حدود الصدام الحضاري"، إن تعريف هانتنغتون للحضارة ينبع من الحدود الجغرافية في الأساس، ثم تابع تعريفه من التعريفات الموضوعية للحضارة، إلا أنه يعتمد على التعريف الجغرافي، ليكون منسجما مع أطروحته.

ويقسم هانتنغتون حضارات العالم إلى سبع حضارات رئيسة، بالإضافة إلى احتمال قيام الثامنة وهي: الروسية الأرثوذوكسية، الصينية، اليابانية، الهندية، الإسلامية، الغربية، الأمريكية اللاتينية، الإفريقية"احتمال"، واستند هانتنغتون إلى "الثقافات" بوصفها أساسا في تقسيم العالم إلى أنماط حضارية، والتي بدورها تقود إلى حتمية صدام الحضارات[41]

واختار "الدين" أساسا للمجموع الحضاري، في حين أن الفضاء الديني لم يحدد نوع الثقافة، لأن هناك فضاء الدولة الوطنية، وفضاء الأقاليم المتجانسة الاقتصادية وفضاء الأنظمة السياسية.

لقد أدرك بعض المؤلفين أمثال هنتغتون و كابلان الأمر من منطلق ديني بشكل أكبر ، لقد كان ذلك واضحا في أطروحة " صدام الحضارات " التي تحاول أن تبرهن تعريف الصراعات السياسية المعاصرة بشكل متزايد على طول خطوط ثقافية ، و يعتمد ما ذكره هنتغتون على افتراض أن التقارب الديني و الثقافي سيؤدي دورا أكبر في تحديد التعاون و الخلاف داخل العالم عقب الباردة مقارنة بالاعتبارات الاستراتيجية [42]

ويصنف علي ليلة أطروحة هانتنغتون ضمن نظريات الصراع في علم الاجتماع، والتي ترى أن الصراع يعتبر من العلميات الاجتماعية التي تلعب دورا محوريا في بناء المجتمع، إما لفض التناقضات الاجتماعية كما هي الحال عند كارل ماركس، أو لأن الصراع بين الوحدات الخارجية، أيا كان مستواها، يؤدي بطبيعته إلى تأكيد التماسك الداخلي للجماعة، وفي هذه الحالة فإن أطروحة هانتنغتون إلى جانب أنها تستهدف إعادة بناء العلاقات الدولية، فهي تصور الصراع الذي يؤدي وظيفة بناء الولايات المتحدة من الداخل.

هانتنغتون والنظام العالمي الجديد:

يعتمد هانتنغتون في أطروحته على "الصراع" أو "الصدام" بوصفها أسسا جديدة للصراع في المستقبل مبنية على الاختلاف الثقافي والديني لعالم ما بعد الحرب الباردة، والذي تفردت الولايات المتحدة الأمريكية فيه بالهيمنة العالمية، وبذلك يستبدل هانتنغتون الحدود السياسية للدول القرومية في قضايا الصراع بحدود امتداد الحضارات، ويصف هانتنغتون النظام العالمي بعد سقوط الاتحاد السوفيتي بأنه متعدد الأقطاب، " في عالم ما بعد الحرب الباردة ولأول مرة في التاريخ أصبحت السياسة الكونية متعددة الأقطاب متعددة الحضارات"، وكان النظام العالمي أثناء الحرب الباردة مقسم إلى ثلاثة أجزاء،وهي: الكتلة الشرقية، والكتلة الغربية، ودول عدم الانحياز.

ويعارض هانتنغتون والأطروحات الفكرية السائدة لتفسير النظام العالمي الجديد، و أهم تلك الأطروحات هي أطروحة فوكوياما "نهاية التاريخ"، ويعتبرها غير قادرة على تفسير النظام العالمي الجديد، ويستشهد هانتنغتون بفكر توماس كون Tomas Kohn في كتابه "بنية الثورات العلمية"، حيث يؤكد توماس أن التقدم الفكري والعلمي يؤديان إلى حذف نموذج

قديم و إحلال نموذج أكثر قدرة على تفسير العلاقات الدولية بطريقة أكثر مقبولية، ويرى كون أن التقدم التاريخي في العلوم كافة يؤدي إلى تطور العلوم"إن التنافس بين قطاعات المجتمع العلمي هو العملية التاريخية الوحيدة التي تفضي عمليا، دائما و أبدا، إلى رفض نظرية كانت موضوع قبول وتسليم في الماضي و إقرار نظرية أخرى".

وانتقد هانتنغتون أربع أطروحات فكرية تمحورت أفكارها حول تفسير النظام العالمي الجديد، وهي:

-أطروحة نهاية التاريخ: ينتقد هانتنغتون أطروحة فوكوياما الذي انتابه الشعور بالفرح بعد نهاية الحرب الباردة، وتصور وجود عالم منسجم خال من الصراعات الكونية، وخطأ أطروحة فوكوياما كما يراها هانتنغتون: "وهم التوافق سرعان ما تبدد بسبب تضاعف الصراعات العرقية، وبروز أشكال جديدة من التحالفات والصراعات في العالم"

- أطروحة عالمان" نحن" و "هم": وهي موجودة قبل نهاية الحرب الباردة، ويقسمون أنفسهم على أساس: شرق وغرب، وشمال وجنوب، المركز والمحيط، والمسلمون يقسمون العالم إلى دار السلام ودار الحرب، وينتقد هانتنغتون هذه الأطروحة لكونها لا تعكس الواقع بشكل مطلق، حيث يعتبرها تحمل القصور في النظام العالمي الجديد، لأنه لا يوجد منظور ثقافي وحيد[43].
- الواقعية: وهي التي تعتمد على الدولة بوصفها لاعبا رئيسيا في العلاقات الدولية، هانتنغتون لا يدحض الواقعية في تحليل النظام العالمي الجديد كما فعل فوكوياما في أطروحته، وبالرغم من انتقاده لها إلا أنها تفترض إدراك جميع الدول لمصالحها بالدرجة نفسها، بالإضافة إلى فقدان السيادة الكاملة لدى الدولة في ظل المؤسسات الدولية، والتدخل الدولي في الشؤون الداخلية للدول.
- الفوضى:يسهم في رسم صورة رابعة لعالم غارق في الفوضى، هانتنغتون يؤيد نصف الفكرة ويرفض نصفها الآخر، حيث يعتبر أن العالم قد يغرق في فوضى وصراعات، لكن هذه الصراعات لا تكون شاملة العالم" قد يكون العالم في حالة فوضى لكنه ليس دون نظام بالكلية"[44].

ثالثا:الأطروحات الحضارية عند العرب و المسلمين

لا ينكر أحد بأن العرب و المسلمين اهتموا بالظاهرة الحضارية ، لا سيما بعد مجيء الاسلام ، لقد كف العرب أن يكتفوا بحياة الترحال و الانزواء و كل هذا من الحدث الحضاري و هو الاسلام ، لقد حصل شيء من الارتداد في المنظور العربي و الاسلامي للحضارة ، حيث أن المتأمل في القرآن يجد مفهوما عن الحضارة بالمعنى الذي يتداول في زماننا الحاضر ، فالنصوص القرآنية التي تناولت قصص الأقوام المنصرمة التي كانت تمثل نسبة من التحضر توضح لنا كيف أن القرآن وصفها بأحوالها المختلفة [45]

تختلف الرؤية العربية و الاسلامية للحضارة و الثقافة عن الرؤية الغربية لاعتبارات تاريخية و إرهاصات نظرية يتوجب دائما أن نضعها نصب الأعين ، حتى و إن كان هناك بعض التماثل كما سنرى ذلم مع ابن خلدون ، و إذا كان هذا الزوج المفهومي تهيأ في أوربا في ظروف تاريخية معروفة (عصر الأنوار ، الثورة الفرنسية ، عصر العلم و التصنيع) و شهد تحولات في المضمون حسب الاختلاف في الهياكل و الارتقاء في العقليات و الاستعمالات في السياسة و الاجتماع ، فإن هذا الزوج له رؤية مغايرة في الفكر العربي الإسلامي ، حيث يتطرق صاعد الأندلسي إلى الأمم السابقة للبحث في تاريخها عن صنائع و روائع ، فإن مقولة الحضارة غير موجودة إسما حتى و إن وجدت رسما " قال صاعد و وجدنا هذه الأمم على كثرة فرقتهم و تخالف مذاهبهم طبقتين : فطبقة عنيت بالعلم فظهرت منها ضروب العلوم و صدرت عنها فنون المعارف ، و طبقة لم تعن بالعلم عناية تستحق بها السمة بعد من امتثاله ، فلم ينقل منها فائدة حكمة و لارويت بها نتيجة فكرة "

كان ينبغي انتظار ابن خلدون لتكتسب الحضارة مفهوما مستقلا أتوقف عنده باقتضاب فالحضارة بالمعنى الخلدوني هي غاية البداوة و لاحقة عليها ، و تنحصر في الطابع المادي من صنائع و ابتكارات و في الطابع العوائدي من آداب و لياقات و بالتالي لا يختلف هذا المفهوم عن التصور الشائع في الغرب الأنواري " و الحضارة إنما هي تفنن في الترف و إحكام الصنائع المستعملة في وجوهه و مذاهبه من المطابخ و الملابس و المباني و الفرش و الآنية و سائر عوائد المترل و أحواله " فالحضارة في تصوره هي كل مازاد عن الحد، كل ما تجاوز في العدة و التعداد و أصبح من قبيل الهدر و التبذير " و السبب في ذلك أن الحضارة هي أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران زيادة بتفاوت الرفه و تفاوت الأمم في القلة و الكثرة تفوتا غير منحصر " كما يضع دورة حياتية للدول و الأمم فصل في مقدمته هذا الأمر و ربطه بأجيال [46].

مالك بن نبي : وحدة الثقافة و الحضارة

كثيرة هي الدراسات التي خصصها مالك بن نبي لمفهوم الحضارة باعتبارها " مجموعة الشروط المعنوية و المادية التي تتيح لمجتمع ما أن يقدم الضمانات الاجتماعية لكل فرد فيه ، فعندما أقول هذا فذلك يعني أن الحضارة و ظيفة في جانبيها : الارادة الحضارية ، الإمكان الحضاري " [47]

و يضيف مالك بن نبي أنه يجب علينا أن نتثبت من أمر تعريف الحضارة من وجهة نظر الانسان و هي الوجهة التي لا نريد تناول الموضوع من زاويتها ، لأن الحضارة يجب أن تحدد من وجهة نظر وظيفية : فهي مجموع الشروط الأخلاقية و المادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده و في كل طور من أطوار وجوده

و لكن إذا كانت هذه الارادة ملازمة لجوهر الحضارة ذاته ، و متضمنة في معطياتها الأصلية ، في شكل إحسان أو صدقة أو زكاة .....الخ فإن قدرتها تتشكل بصورة تدريجية ، لأنها لا تكون في البداية سوى معطى مضمر [48] في هذا يضع بن نبي الجانب المعنوي في الارادة و الجانب المادي في الامكان ، و هي ثنائية تترجم ببساطة العلاقة بين الذات و الشيء أو الانسان و الصناعة و العلاقة بينهما ، في نظره ، هي علاقة عكسية ، كما لا يمكن الحديث عن الحضارة بمعزل عن إرادة توجه إمكانا ماديا و إنتاجيا يتخذ صيغة النمو الاقتصادي و التنمية الاجتماعية ، و يتفادى بن نبي أخذ الحضارة في شكلها الهيكلي كفكرة إنسانية أو وحدة تاريخية ، بل يأخذها في طابعها الوظائفي و النمو هو معيار هذه الوظيفية التي تضطلع بها الحضارة لأنه لا ينطبق فقط على الأجزاء التي تركبها ، أي الأفراد الذين يحيون في مجتمع معين ، بل و أيضا على النسق العام الذي يشكلها أي نمو الحضارة بالذات في مسارها الزمني و المكاني، و كما يطرح سؤالا محويا كيف نصنع الحضارة ؟ و هنا يتعلق الأمر بايجاد الأفكار الضرورية لتوجيه الوسائل المتراكمة ، أو كيفية تنمية القدرات الذاتية و الذهنية و الارادية في سبيل حسن استعمال الأدوات و الامكانات لتكون الوسيلة و ليس الغاية، ولتكون المؤشر و ليس المعيار

في حين نجد أن الفكرة الدينية تتربع على عرش هرمي يضع الروح في القمة و العقل في الوسط و الفطرة في السطح ، فهي تفسر بشكل هندسي عملية إنشاء الحضارة و نموها و أفولها و لكن دائما من موقع إيديولوجي يعتني بالفصل بين المكونات (الروح ، العقل ، الغزيرة) [49]

لقد رأى بن نبي أن الصيغة الصادقة بالنسبة لأي ناتج حضاري تنتهي إلى ثلاثة أعمدة ذات علاقة وظيفية:

حضارة = إنسان + تراب + وقت

و تحت هذا الشكل تشير الصيغة الى أن مشكلة الحضارة تتحلل الى ثلاث مشكلات أولية[50] كما أشرنا في المعادلة

قسطنطين زريق : الحضارة بين الصفة و القيمة

وهنا يمكن إعتبار كتاب زريق " في معركة الحضارة " كمسح تاريخي في غاية الدقة و التمكن ، بوصفه مؤرخا اشتغل على هذه المادة و الفرع كالمحارب المواظب و يمكن استجلاء ذلك بقراءة بعض مؤلفاته و أشهرها " نحن و التاريخ " 1955 ، أود هنا ايراد فكرته عن الحضارة بالاعتماد على مؤلفه الشهير الذي نشره سنة 1965 حيث يزاوج بين الماهوي و الوظيفي أو بين جوهر الفكرة و وسائل تجلياتها فهو يتأرجح بين دلالتين متساوقتين لأن إحداهما تؤدي إلى الأخرى : الدلالة الوصفية و الدلالة التقيمية و يتضح من أفكاره أن الحضارة و الثقافة عنده مترابطتان كارتباط الجسد الاجتماعي بالروح الفكرية التي تنعشه[51]

رابعا : روجيه غارودي و مشروع حوار الحضارات

لعل الدعوة إلى حوار الحضارات هي من الخصائص التي ميزت النصف الثاني من القرن العشرين ، حيث أدرك العالم أن البشرية لا تستطيع أن تتحمل حروبا عالمية جديدة ، بعد أن شهد ما جلبته الحربان العالميتان من ويلات لم ترافقها حلولا للمشاكل ،وفي هذا قدم المفكر الفرنسي " روجيه غارودي " في كتابه " من أجل حوار الحضارات " الذي حاول من خلاله توجيه نقد قاس لسلوك الغرب في علاقاته بالأمم و الحضارات غير الغربية [52]

إنه يدعو الغرب إلى أن يعيد النظر إلى ذاته و إلى الآخر الحضاري من خارج محيطه الغربي ، و الانفتاح عليه ، بل و الأكثر من ذلك يطالب الغرب بأن يتعلم من الحضارات الأخرى ، و يعتبر أن من الواجب أن نتعلم من الحضارات الأخرى ، بصورة أساسية المعنى الحقيقي لعلاقة المشاركة الانسانية " التي تجد كل فاعلية ذاتها ، و هي تنهض بعبء من أعباء المجتمع المسؤول ....إن الحضارات اللاغربية تعلمنا بادئ ذي بدء أن الفرد ليس مركز كل شيء ، و أن فضلها الأعظم يرجع إلى أنها تجعلنا نكتشف الآخر و كل الآخر دون فكرة مبيتة تضمر التنافس و السيطرة "[53] و من شروط الحوار الحقيق حسب غارودي

- أن تحتل الحضارات غير الغربية في الدراسات مكانة متساوية في الأهمية
- أن ينظر إلى الفلسفة نظرة جديدة (نظرة تكيف مع الحضارة)
- أن يحتل علم الجمال مكانة ذو أهمية مثل العلوم و التقنيات
- أن يكون هناك فن تخيل المستقبل و التفكير في الغايات و الأهداف

و هذه العناصر في نظر غارودي يمكن أن تؤسس لحوار حقيق بين الحضارات و لانتشار فكرة المشروع أقام غارودي مراكز لمشروعه العملاق في سويسرا و اسبانيا و أقام شبكة من العلاقات مع الجاليات ذات الأصول الاسلامية في أوربا ، وقد منحته الحكومة الاسبانية برجا من ابراج قصور قرطبة و خصصته لمشروع غارودي الكبير [54]

و عمليا فرضت الحضارة الأوربية و الغربية نفسها و شروطها على الأخرين ،و أصبح التاريخ الحديث لهؤلاء الآخرين أيضا – و بشكل مركزي – مسألة مرتبطة بتعودهم على تلك الحضارة باعتبارها ناقلة للحداثة ، و هذا صراع مستمر في كل أنحاء العالم اليوم و على هذه الخلفية ، انطلق نداء مع نهاية الألفية من عدد من المناطق غير الغربية ، وإن كان جلها من الشرق الأوسط ، من أجل "حوار الحضارات " وهذا يطرح قضيتين أما أولهما فهي قضية إمكانية ظهور حضارة عالمية جديدة في حال تجاوز الحوار ، بالاضافة الى قضية العولمة و العالمية و علاقتهما بحوار الحضارات [55] و مسألة فرض الأنموذج الأمريكي على العالم بأسره

و مما سبق تظهر أبعاد الحضارة في معانيها الاصطلاحية حيث يختلف تقييم الحضارة بين الاصطلاح الغربي و العربي و يختلف الوضع الاجتماعي و النفسي ، و تختلف كذلك الغاية المقصودة من دراسة الحضارة بين المفكر الغربي و المفكر المسلم العربي ، فالغربيون و هم مقبلون على دراسة الحضارة ، ثلاثة إتجاهات و هي :

- الاتجاه الوصفي التقريري
- الاتجاه التاريخي و الانتروبولوجي
- الاتجاه التحليلي الفلسفي

بينما تقييم الحضارة في الفكر الاسلامي ينظر اليه على الأصعدة التالية :

- الحضارة بين المبدأ و المنتهى
- الحضارة بين دلالتي الحضر و الحضور
- الحضارة كمعنى وظيفي [56]

خلاصة

لقد حاولنا من خلال هذه الدراسة البحث في دلالات و معاني و بنية الحضارة و التي أصبحت محل إهتمام الدارسين أفرادا و مراكز و منظمات و دول على حد سواء ، و ذلك لما للمصطلح من أهمية و ارتكازية في العلاقات الدولية لا سيما مع الدعوات الاقصائية المتعالية من برج عاجي ، تعمد إلى النظر بدونية إلى الآخر و ترى في نفسها أنها مركز الحضارات و الأمم و بخاصة إذا ما عرفنا أن الكثير من الدراسات و بخاصة المتقدمة منها و التي انبت على إثرها الكثير من القرارات الاستراتيجية في سياساتها الخارجية و أقصد هنا الولايات المتحدة الأمريكية و كتاب ساموبل هانتغتون في كتابه صدام الحضارات و معاداته الصريحة للأمة و الحضارة الاسلامية بالاضافة الى دراسات فرانسيس فوكوياما و حديثه عن نهاية التاريخ و تجلى هذا فيما صدر عن الرئيس الأمريكي الذي أعلن –مباشرة عقب أحداث 11 سبتمبر –بأنها حرب صليبية باسم الحضارة الغربية و هنا تبرز واقعية صدام الحضارت و مثالية الدعوات التي تبناها الكثير من المفكرين و المراكز و المنظمات و الدول و وصل الأمر إلى إعلان الأمم المتحدة 2001 عام حوار الحضارات و الذي نراه قريبا من المثالية التي تجانب الواقع المعاش حتى و إن أثمر في بعض من جوانبه

قائمة الهوامش و المراجع :

[1] بروس مازليش ، الحضارة و مضامينها (ترجمة : عبد النور خراقي). . عالم المعرفة "سلسلة كتب ثقافية شهرية" يصدرها المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب. الكويت: وحدة انتاج المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، 2014 ، ص 14

[2] بدران بن مسعود بن الحسن ، الحضارة الغربية في الوعي الحضاري الاسلامي المعاصر أنموذج مالك بن نبي . الجزائر: دار بن مرابط، ص ص (15-16)

[3] إبراهيم بن عمر السكران ، مآلات الخطاب المدني . الرياض : دار الحضارة للنشر و التوزيع ، 2016 ، ص 19

[4] – إبراهيم بن عمر السكران، مرجع سابق ، ص ص (22-23)

* – هو صبحي إبراهيم الصالح من مواليد طرابلس لبنان 1926 ، حاصل على دكتوراه في الأداب ، كان عضوا بمجمع اللغة العربية في القاهرة و المجمع العلمي بالعراق و أكاديمية المملكة المغربية ، كما كان أمينا عاما لرابطة علماء لبنان

[5] – يونس ملال ، السنن الالهية في نهوض الحضارة و نكوصها في ضوء نصوص الكتاب و فق التاريخ " الجانب الفكري أنموذجا "، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في العلوم الاسلامية تخصص أصول الدين ، كلية أصول الدين بجامعة الجزائر ، 2001/2000، ص ص (11-12)

[6]– نفس المرجع الأنف الذكر ، ص 16

[7] – محمد شوقي الزين ، الثقاف في الأزمنة العجاف فلسفة الثقافة في الغرب و عند العرب. الجزائر : منشورات الاختلاف ، 2014 ، ص ص (35-36)

[8] – نصر محمد عارف ، الحضارة ، الثقافة ، المدنية : دراسة لسيرة المصطلح و دلالة المفهوم ، عمان : المعهد العالمي للفكر الاسلامي ، 1994 ، ص 49 نقلا عن محمد شوقي الزين ، مرجع سابق ، ص 36

[9] – نفس المرجع الآنف الذكر ، ص 63

[10] – محمد شوقي الزين ، مرجع سابق ، ص ص (37-38)

[11] حضر http://www.lesanarab.com/kalima/

[12] – جمال بروال ، الدورة الحضارية بين فكر مالك بن نبي و أزوالد اشبنجلر ،مذكرة ماجستير في فلسفة الحضارة بجامعة الحاج لخضر باتنة بقسم العلوم الانسانية كلية العلوم الانسانية و الاجتماعية و العلوم الإسلامية ،2013 ، ص 4

[13] – يونس ملال ، مرجع سابق ، ص 26

[14] – بروس مازليش ، مرجع سابق ، ص ص(23-25)

[15] – صبحي الصالح ، الاسلام و مستقبل الحضارة ، ص 20 نقلا عن يونس ملال ، مرجع سابق ، ص 26

[16] –يحي سعيد قاعود ، أطروحات فوكوياما و هانتنغتون و النظام العالمي الجديد –دراسة تحليلية مقارنة –، الرياض : مركز البيان للبحوث و الدراسات ، 1436 ، ص ص (36-37)

[17] – عبد الكريم بكار ، تجديد الوعي –الرحلة إلى الذات – ، دمشق : دار القلم ، 2005 ، ص 133

[18] – يحي سعيد قاعود ، مرجع سابق ، ص 38

[19] – بروس مازليش ، مرجع سابق ، ص 35

[20] – يحي سعيد قاعود ، مرجع سابق ،ص 38

[21] –مسعود بعيش ، فلسفة الحضارة بين مالك بن نبي و روجيه غارودي ، أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الفلسفة بكلية العلوم الانسانية و الاجتماعية بجامعة الجزائر ، 2006 ، ص

[22] – يحي سعيد قاعود ، مرجع سابق ، ص ص (64-65)

[23] – بروس مازليش ، مرجع سابق ، ص ص (63-65)

[24] – محمد شوقي الزين ، مرجع سابق ، ص ص (37-38)

[25] – يحي سعيد قاعود ، مرجع سابق ، ص ص (55-56)

[26] – أزوالد شبنجلر ، تدهور الحضارة الغربية ، الجزء الأول .مكتبة الحياة : بيروت ، 1964 ، ص 87 نقلا عن مسعود بعيش ، مرجع سابق ، ص 21

[27] * – أرنولد جوزيف توينبي Arnold J.Toynbee، مؤرخ إنكليزي، من أشهر فلاسفة التاريخ في القرن العشرين، نشأ بين والدين متعلمين، كان والده موظفاً، أما والدته فقد حصلت على الإجازة في التاريخ.

اهتم توينبي بالحضارة الهيلينية، ودرس الأدبين اللاتيني واليوناني في جامعة أكسفورد (1907-1911)، وأتقن اللغات اللاتينية واليونانية والفرنسية والألمانية والإيطالية واليونانية الحديثة وألم بالتركية والعربية. عُين في جامعة لندن أستاذاً للدراسات البيزنطية والإغريقية (1919-1924)، ثم صار مديراً للمعهد الملكي للشؤون الدولية في لندن (1925-1946). سافر حول العالم وحاضر في الكثير من الجامعات الأوربية والأمريكية. مات في لندن.

[28] – يحي سعيد قاعود ، مرجع سابق ،ص 57

[29] – http://www.arab-ency.com/ar/البحوث/توينبي-أرنولد-جوزيف الموسوعة العربية تاريخ الدخول 2016/04/19 على الساعة 18.25

[30] – يحي سعيد قاعود ، مرجع سابق ،ص 58

[31] – http://www.arab-ency.com/ar/البحوث/توينبي-أرنولد-جوزيف الموسوعة العربية تاريخ الدخول 2016/04/19 على الساعة 18.25

[32] – مسعود بعيش ، مرجع سابق ، ص 24

[33] – http://www.arab-ency.com/ar/البحوث/توينبي-أرنولد-جوزيف الموسوعة العربية تاريخ الدخول 2016/04/19 على الساعة 18.25

[34] – فرناند بروديل (1902-1985) هو أحد أشهر المؤرّخين الفرنسيين خلال القرن العشرين، بل وأحد أبرز المؤرّخين الذين عرفهم العالم حتّى اليوم. وهو أحد مؤسّسي المدرسة الفرنسيّة الجديدة لكتابة التاريخ المعروفة باسم "مدرسة الحوليّات" التي رأت النور في ثلاثينات القرن الماضي.

ولد بروديل في عام 1902 في قرية صغيرة في منطقة "اللورين" الفرنسيّة الواقعة آنذاك تحت الاحتلال الألمانيّ، وحصل في يوليو 1923على شهادة التبريز المرموقة. ظلّ بروديل مرتبطاً جدّاً بأصوله الفلاحيّة، وكان يُردد دائماً: "أنا مؤرّخ من أصل فلاحيّ". مارس بروديل مهنة تدريس مادّة التاريخ أوّلاً في الجزائر، التي كانت لا تزال في ظلّ الاستعمار الفرنسيّ، وذلك خلال سنوات 1924-1932، في مدينة قسنطينة، ثمّ في العاصمة الجزائر.

نال بروديل شهادة الدكتوراه عن أطروحة موضوعها "البحر الأبيض المتوسط والعالم المتوسطيّ في عهد فيليب الثاني"، وهو عنوان كتابه الشهير الذي يُعتبر أحد أهمّ الكتب التاريخيّة الصّادرة في القرن العشرين، والذي نقل إلى لغات عديدة.

historyinarabic.blogspot.com هيثم مزاحم فرناند بروديل: مؤرّخ الحوليات وفيلسوف الحضارات مجلة التفاهم تاريخ الدخول 2016/014/20 على الساعة 18.00/

[35] – فرناند بردويل ، تاريخ و قواعد الحضارات ، (ترجمة : حسين شريف) . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1999 ، ص 30

[36] – يحي سعيد قاعود ، مرجع سابق ،ص 63

[37] *– يوشهرو فرانسيس فوكوياما Yoshihiro Francis Fukuyama مفكر أمريكي من أصل ياباني ولد في 1952 في الولايات المتحدة، ويعتبره البعض أكبر فلاسفة الاجتماع في أمريكا، ويعمل أستاذا للاقتصادا السياسي في جامعة جونز هوبكنز johns Hopkins؛ وكان والده يحمل شهادة دكتوراه في علم الاجتماع، هاجر إلى أمريكا ليعمل في مجال التدريس.

لقد بدأ حياته العملية بعد حصوله على درجة الدكتوراه في فلسفة العلوم السياسية من جامعة هارفرد Harvard University، وعمل في الثمانينيات في وزارة الخارجية الأمريكية نائبا لمدير إدارة التخطيط السياسي، وشارك في هذه الحقبة ضمن الوفد الأمريكي المرسل للمحادثات المصرية الإسرائيلية، ركز بعد ذلك على الكتابة والعمل الأكاديمي، إلا أن ذلك لم يمنعه من العمل السياسي، وعين في المجلس الاستشاري لإدارة الرئيس السابق جورج بوش الابن. ومن خلال استعراض مؤلفات فوكوياما يتبين أنه ألف كتب عدة، وعشرات المقالات والدراسات الأكاديمية، ويمكن رصد أهم كتاباته على النحو التالي:

- نهاية التاريخ وخاتم البشر 1992.
- الفضائل الاجتماعية وتحقيق الازدهار 1995.
- رأس المال الاجتماعي والاقتصاد العالمي 1997.
- مستقبلنا بعد البشري، عواقب ثورة التقنية الحيوية 2002.
- بناء الدولة النظام العالمي ومشكلة الحكم والإدارة في القرن الحادي والعشرين 2004.
- أمريكا على مفترق الطرق ما بعد المحافظين الجدد 2006.

والآن يكتب فوكوياما كتابا جديدا مكونا من مجلدين، صدر المجلد الأول بعنوان "أصول النظام السياسي 2011"، وهذه الكتب بالإضافة إلى الدراسات، سوف نناقش ما جاء بها من أفكار من خلال الفصول اللاحقة للدراسة.

[38] – يحي سعيد قاعود ، مرجع سابق ،ص ص (114-115)

[39] – نفس المرجع الآنف الذكر ،ص ص (115-116)

[40] صمويل فيلبس هانتغتون Samuel Phillips Huntington مفكر أمريكي من أصل يهودي، كان من أكثر السياسيين نفوذا، ومن أبرز ثلاثة مفكرين في الخمسين سنة الماضية في الولايات المتحدة الأمريكية، خلافا لاثنين من معاصريه وهم هنري كيسنجر وزبيغو برجنسكي وهم صديقاه المقربان منه، كان باحثا ومحاضرا في جامعة هارفرد Harvard University، وعمل مستشارا لمجلس الأمن القومي في الفترة 1977، 1978 في إدارة الرئيس كارتر، كما يعد هانتنغتون واحدا من رواد العلوم السياسية المقارنة، فقد عني بالمقام الأول بدراسة السياسات

المقارنة بين دول الجنوب والمجتمعات ما بعد الصناعية، وكان رئيسا للجمعية الأمريكية للعلوم السياسية، وله مكانة في الدراسات الاستراتيجية، فقد كان رئيسا لأكاديمية هارفارد للدراسات الدولية والإقليمية، وعمل مديرا لمعهد أولين Olin للدراسات الأمريكية والمعني بالشؤون الخارجية، وكان يعمل في مجلس تحرير ذي ناشيونال إنترست the national interest إحدى الدوريات التابعة لتيار المحافظين الجدد.

إن أعمال هانتنغتون العلمية كبيرة فقد ألف 17 كتابا، وعلى الرغم من أنه محاضر ممل للغاية إلا أنه كاتب ماهر فعلا، عالج موضوعات شديدة الأهمية بأسلوب جذاب، و أثر تأثيرا كبيرا في العلوم السياسية،هذا بالإضافة لمئات المقالات والدراسات الفصلية التي نشرت له في المجلات والصحف.

ويمكن رصد أهم كتاباته العلمية على النحو التالي:

- الجندي والدولة 1957.
- النظام السياسي في المجتمعات المتغيرة 1968.
- الموجه الثالثة للديمقراطية 1991.
- صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي 1996.
- من نحن؟ التحديات التي تواجه الهوية الأمريكية 2004.

[41] – نفس المرجع الآنف الذكر ، ص ص (172-175)

[42] – سكوت هيبارد ، السياسة الدينية و الدول العلمانية (مصر و الهند و الولايات المتحدة الأمريكية) (ترجمة : الأمير سامح كريم). . عالم المعرفة "سلسلة كتب ثقافية شهرية" يصدرها المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب. الكويت: وحدة انتاج المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ،يونيو 2014 ، ص 43

[43] – يحي سعيد قاعود ، مرجع سابق ،ص ص (176-178)

[44] – نفس المرجع الآنف الذكر ، ص ص (178-179)

[45] – إدريس هاني ، حوار الحضارات ، المركز الثقافي العربي ، ط1 ، 2002 ، ص 94 نقلا عن مسعود بعيش، مرجع سابق، ص 25

[46] – محمد شوقي الزين، مرجع سابق ، ص ص (139-142)

[47] – مالك بن نبي ، مجالس دمشق محاضرات 1971-1972 .دمشق : دار الفكر ، 2005 ، ص ص (67-68)

[48] – مالك بن نبي، القضايا الكبرى ، الجزائر : دار الوعي ، 2013 ، ص 43

[49] – محمد شوقي الزين، مرجع سابق ، ص ص (142- 146)

[50] – مالك بن نبي ، مشكلات الحضارة . الجزائر : دار الفكر ، 2004 ، ص 50

[51] – محمد شوقي الزين ، مرجع سابق ، ص ص (149-156)

[52] – زكي الميلاد، المسألة الحضارية (كيف نبتكر مستقبلنا في عالم متغير) . القاهرة: المركز الثقافي العربي ،1999 ، ص 67 نقلا عن مسعود بعيش ، مرجع سابق ، ص 282

[53] – روجيه غارودي ، حوار الحضارات (ترجمة : عادل العوا) باريس : منشورات عويدات ، ص ص (190-191) نقلا عن مسعود بعيش ، مرجع سابق ، ص 282

[54] – مسعود بعيش، مرجع سابق، ص 291

[55] – بروس مازليش ، مرجع سابق ، ص 117

[56] –يونس ملال ، مرجع سابق ، ص ص (29-43)

مسار تمويل التنمية الريفية في الجزائر منذ الاستقلال إلى غاية 2012

أ. الاخضاري بن صالم
أ. شرفاوي مصطفى
جامعة الجزائر03

مقدمة:

تعتبر عملية تنمية الريف الجزائري من أهم التحديات التي واجهت الحكومات المتعاقبة منذ الاستقلال إلى يومنا هذا، وبإتباع سياسات متنوعة فرضتها الظروف التي مرت بها الجزائر مع العلم بأن عدد سكان الريف الجزائري في تزايد مستمر حيث يبلغ عددهم حسب آخر الإحصائيات 13970.00نسمة" [1]، موزعين على 979 بلدية من أصل 1541 منها 562 بلدية في الشمال و287 بلدية في الهضاب و130 بلدية في مناطق الجنوب ،وتعتبر بلدية ريفية كل بلدية يقل معدل التمدن فيها عن 50 % والكثافة السكانية فيها أدنى من متوسط الكثافة في المنطقة التي توجد فيها (الشمال،الهضاب،الجنوب) .وبالنسبة لعدد العائلات الريفية فهو يبلغ 1.750000 عائلة وفئة الشباب نسبة 70%تتجاوز أعمارهم 30 سنة ،ونسبة 50 % إناث،و50 % ذكور،و4563 تجمع سكاني"[2] ،يضاف إليها إمكانيته الطبيعية المتنوعة ،من أرضي زراعية وثروة حيوانية متنوعة وموارد مائية مما يكسبه مكانة إستراتيجية من أجل تحقيق التنمية وبالتالي يصبح لديه أهمية اقتصادية وبيئية واجتماعية وسياسية ومن هذا المنطلق نطرح الاشكالية التالية :إلى أي مدى ساهمت السياسات الاقتصادية المتنوعة في توفير الموارد المالية قصد تفعيل برامج التنمية الريفية بالجزائر ؟ وهل حققت أهدافها المرسومة؟

ولكي نجيب عليها سنستعرض أهم المراحل التي مرت بها التنمية الريفية وذلك بالتركيز على أهم مواردها التمويلية

أولا: المرحلة الاشتراكية (التسيير الذاتي والثورة الزراعية 1963 1988)

وهي تعرف بمرحلة التنمية الزراعية والتي تعرف بأنها: " مجموعة من السياسات والإجراءات المتبعة لتغيير بنيان وهيكل القطاع الزراعي مما يؤدي إلى أحسن استخدام ممكن للموارد الزراعية المتاحة ، وتحقيق الارتفاع في الإنتاجية وزيادة في الإنتاج الزراعي ، بهدف رفع معدل الزيادة في الدخل الوطني وتحقيق مستوى معيشي مرتفع لأفراد المجتمع"[3] ،وعرفتها المنظمة العربية للتنمية الزراعية على أنها :" استخدام الموارد المتاحة لإحداث زيادة متوالية في الإنتاج الزراعي ، حيث تتمثل هذه الموارد في الموارد البشرية الموارد المالية، الموارد الطبيعية والتكنولوجيا الزراعية"[4]وهي تتطلب التخطيط السليم المبني وفق أسس علمية وبتوفير الدعم المالي والفني والتكنولوجي لتحسين نوعية المنتجات الزراعية، وفتح مناصب شغل وتمكين المزارع من المحافظة على علاقته بالأرض والتمسك بها وعدم تركها عرضة للضياع والإهمال، وبناء على هذا نجد أن الحكومة الجزائرية في هذه المرحلة كان شغلها الشاغل هو كيفية استغلال الأراضي الزراعية وخاصة المستثمرات الأكثر غنى في البلاد و التي تركها المعمرون الفرنسيون حيث عملت على إسناد مهمة تسييرها للفلاحين في إطار ما يعرف بالتسيير الذاتي الذي تم تبنيه سنة 1963بموجب المرسوم 63/65 [5]"،كما أنشأ الديوان الوطني للإصلاح[6]"، الزراعي الذي أسندت له مهمة تسيير قطاع التسيير الذاتي بشكل مركزي لتحقيق التنمية الزراعية ، و الهدف من تبني نظام التسيير الذاتي هو العمل على امتصاص نسبة

البطالة المرتفعة خاصة في الريف والنهوض بالقطاع الزراعي لتحقيق الاكتفاء الذاتي والأمن الغذائي وحماية الأراضي الزراعية من الإهمال والضياع، ورد الاعتبار للفلاح الذي عانى الظلم والجور من المعمرين الفرنسيين، و تحسين مستواه المعيشي وظروفه الاجتماعية والثقافية والصحية ، خاصة وأن أغلب السكان من الريف يعانون من الفقر بنسبة مرتفعة .

ولعل من أهم أسباب ارتفاعه معدلاته في المناطق،الريفية هو افتقار سكان الريف للأصول الإنتاجية المتطورة خاصة في المجال الزراعي وعدم توفر إمدادات الري الثابتة بالإضافة إلى ظاهرة التصحر وقساوة المناخ والجفاف و الكوارث الطبيعية وعدم تمكنهم من الوصول للأسواق وقلة الخدمات التعليمية والصحية وندرة المياه النقية،وعدم توفر قنوات الصرف الصحي والحرمان من السكن وعدم تحقيق الاكتفاء والأمن الغذائيين والحرمان من العيش بحرية وأمان[7]"،وتميزت هذه المرحلة بنمط التخطيط المركزي بهدف التحكم في حركية الموارد الطبيعية والبشرية من أجل الوصول إلى تحقيق التنمية الشاملة.وذلك رغم من قلة الإمكانيات المادية نقص الإطارات الفنية المؤهلة بسبب رحيل جل الكوادر الفرنسية العاملة في الجزائر مباشرة بعد الاستقلال، فتبنت هذا النظام للتحكم في العقار الفلاحي وبسط هيمنة الدولة عليه وهوا يقوم على المبادئ التالية:

أ- هو نظام يكرس التوجه الإيديولوجي للدولة وفق المبادئ الاشتراكية القائمة على الملكية العامة أو الجماعية لوسائل الإنتاج.

ب- تبني نظام لامركزية التسيير أي أن الفلاحين هم من يقومون بتسيير مزارعهم .

بالإضافة إلى هذا النمط التنظيمي نجد أن السلطة تبنت أسلوب التخطيط، فكانت البداية بالمخطط الثلاثي الأول 1967-1969 الذي ركز بنسبة كبيرة على القطاع الصناعي حيث بلغ نصيبه5.40 مليار دينار بينما نصيب الاستثمارات الفلاحية بلغ 1.26 مليار دينار وهذا يدل على أن السلطة فضلت القطاع الصناعي على حساب القطاع الفلاحي كما أنها أعطت أولوية للقطاع العام على القطاع الخاص تبعا للتوجه الاشتراكي الذي تبنته عقب الاستقلال.

ثانيا: مرحلة الثورة الزراعية

والتي تزامنت مع المخطط الرباعي الأول1970-1974غيرأن القطاع الزراعي لم يخصص له غلاف مالي كبير، بل تم التركيز على بناء قاعدة صناعية كبرى حيث ظهرت مدن وأقطاب صناعية كبرى في الشمال ، مما أدى إلى ارتفاع نسبة الهجرة من الريف إلى المدينة ، وذلك بالرغم من وضع قانون الثورة الزراعية والذي يهدف إلى إعادة بناء المجتمع الريفي وإعادة النظر في ملكية الأراضي الزراعية من خلال عملية التأميم للأراضي الزراعية التي كانت خاضعة لنظام التسيير الذاتي وكذا تأميم الملكيات الخاصة ، كما أن الحكومة وضعت برنامجا لبناء القرى الاشتراكية وذلك لتحديث الريف الجزائري ليساير التغييرات التي تحدث على مستوى داخلي وخارجي بالإضافة إلى تثمين النشاط الزراعي والرعوي، ومر تطبيق الثورة الزراعية بالمراحل التالية:

- المرحلة الأولى من 17 يونيو1972إلى30 أفريل 1973 .
- المرحلة الثانية وهي المرحلة التي تم فيها إنشاء 312 تعاونية تحضيرية و793 تعاونية زراعية للاستغلال المشترك وإنشاء 1364 تعاونية زراعية للإنتاج على مساحة تقدر ب 788 ألف هكتار والتي استفاد منها 50 ألف متعاون ليصل عددها 1974إلى 1748 موزعة على 53.674 عائلة على مساحة 788.284 هكتار.

❖ المرحلة الثالثة والتي بدأ تطبيقها في 08 نوفمبر1975 وتم فيها تنظيم القطاع الرعوي وتربية الماشية وتحسين المستوى المعيشي لمربي الماشية وصغار الرعاة.

وبالنسبة للسكن الريفي فتشير الإحصائيات أن عدد السكنات الريفية التي تم إنجازها في الفترة الممتدة من 1967 إلى سنة 1969 بلغ عددها 2373 سكن بتكلفة تقدر ب 125 مليون دينار خلال المخطط الثلاثي الأول وكان تمويل إنجازها على عاتق الخزينة العمومية بنسبة 100% ، والمخطط الرباعي الأول (1970 -1974) يعد البداية الفعلية للحركة التنموية في الجزائر في كافة المجالات وعلى كل المستويات للنهوض بالمجتمع الجزائري، بتخصيص مبلغ 305 مليون دينار جزائرية لإنجاز 40000 سكن ونظرا لكثافة البرامج التنموية المسطرة وتعددها فالخزينة العمومية لوحدها لم يكن بمقدورها تغطية نفقات إنجاز السكن بصفة عامة والريفي بصفة خاصة،فصارت تساهم بنسبة 50% لمدة 30 سنة بمعدل فائدة 1% والصندوق الوطني للتوفير و الاحتياط يساهم بنسبة 50% لمدة 20 سنة بمعدل فائدة 4.75 % وفي المخطط الرباعي الثاني (1974 - 1977) ارتفعت نسبة مساهمة الخزينة العمومية في تمويل البرامج السكنية إلى75% لمدة 40 سنة والصندوق الوطني للتوفير والاحتياط ، أصبح يساهم بنسبة 25 % لمدة 20 سنة وبمعدل 4.75 % وقدتم إنجاز 24 ألف سكن فقط وذلك في إطار مشروع ألف قرية والذي لم ينجز منه سوى 34 قرية في أواخر سنة 1976 ، لتنجز سنة 1979 إلى 131قرية تتوفر على جميع متطلبات الحياة من خدمات صحية وتعليمية وإدارية وبريدية وصرف صحي والتزود بالماء الشروب والربط بالكهرباء"[8].

ولكن ما يؤخذ على مشروع القرية الاشتراكية هي عدم تطابقها مع مواصفات المجتمع الريفي الجزائري خاصة فيما تعلق بطبيعة العائلة التي تتسم بالتوسع والامتداد والزواج المبكر وكثرة المواليد ويضاف إليها طبيعة النشاط الممارس أو في الريف .وبالتالي فهي تتطلب وضع تصاميم هندسية تراعي هذا البناء العائلي الذي من حيث عدد الغرف والطبيعة الجغرافية والمناخية للمناطق الريفية من الشمال إلى الهضاب إلى الجنوب ، و نجد أن التخطيط المركزي وتدخل الدولة في وضع خطط التنمية وتمويلها قيد المبادرة الفردية بسبب التوجه الإيديولوجي الاشتراكي آنذاك،و تطبيق الثورة الزراعية واجهته عدة عراقيل وصعوبات انعكست سلبا على سياسة التنمية الوطنية عموما والتنمية الريفية خاصة فالمبادئ التي قامت عليها هذه الثورة كالأرض لمن يخدمها بقيت مجرد شعارات،كما أنها افتقدت للصرامة من حيث التنفيذ والمتابعة والرقابة، مما أنجر عنه تعرض الوحدات الإنتاجية والتعاونيات للخسارة والإفلاس ، وانتشار تصرفات وسلوكات سلبية في أوساط العمال كالرشوة والاختلاس وسوء التسيير وخدمة المصالح الشخصية على حساب المصلحة العامة، مما جعل الريف يعاني من حدة الفقر الريفي وارتفاع نسبة الهجرة الريفية نحو المدينة.وتم وضع التعاونيات والوحدات الإنتاجية تحت وصاية البنك ،وأدى ذلك إلى ارتفاع فاتورة الاستيراد بالنسبة للمواد الغذائية خاصة مادة القمح ،وبالتالي فلا التسيير الذاتي ولا الثورة الزراعية ساهما في الحد من ظاهرة الهجرة الريفية ولا في تنمية الريف ،فهذا التوجه الاشتراكي منح أفضلية كبيرة للقطاع الصناعي على حساب القطاع الزراعي، مما أنعكس بالسلب على المستوى المعيشي في الريف. وكذلك محدودية المستوى المعرفي للمجتمع الريفي وعدم تقبله للأفكار الاشتراكية التي لا تتفق مع عاداته وتقاليده المرتبطة بالعائلة الكبيرة والعامل الديني، فهو لم يكن جاهزا ذهنيا وفكريا ومعرفيا لتقبل الأفكار التي طرح التوجه الاشتراكي.

مما دفع بالسلطة القائمة في تلك الفترة إلى إعادة النظر في هيكلة القطاع الفلاحي جعله يساير ويواكب التغييرات التي بدأ يعرفها العالم في مطلع الثمانينات وأواخر التسعينات لتحقيق الأمن الغذائي والتحرر من التبعية الاقتصادية.

ثالثا ::مرحلة الإصلاحات الأولية للاقتصاد الفلاحي (1979-1999):

وفيها الوضع لم يتغير بالرغم من إنشاء بنك الفلاحة والتنمية الريفية سنة منذ 1982 وهذا يتجلى من خلال فشل السياسات التي اتبعتها الدولة آنذاك ومن بينها:

أ- السياسة الاستثمارية والتي أعطيت فيها الأولوية للصناعة على حساب الزراعة،بالإضافة إلى تهميش الريف وحرمانه من المشاريع والبرامج الاستثمارية التي تنعشه وتحركه، مما أدى إلى ارتفاع نسبة الهجرة الريفية نظرا لقلة فرص العمل والتغطية الصحية والاجتماعية.

ب- السياسة التسعيرية والتي تعني تغطية فارق السعر بالنسبة للمحاصيل الزراعية التي تنتجها المستثمرات الفلاحية ودعم أسعار المعدات والآلات الفلاحية المستوردة من الخارج، فكان ذلك على عاتق الخزينة العمومية وبنك الفلاحة والتنمية الريفية.كما أدى انخفاض أسعار النفط في سنة 1986حيث وصل سعر البرميل إلى 21.7 دولار تسبب في أزمة اقتصادية واجتماعية خانقة ، وتزامن ذلك مع ارتفاع فاتورة الغذاء في السوق العالمية"[9].

وهذه الأزمة الاقتصادية العالمية أدت إلى تعطيل سير أهم المشاريع التنموية في تلك الفترة كما أن المؤسسات الاقتصادية المنتجة أصابها شلل تام أدى إلى ارتفاع نسبة البطالة بسبب تسريح العمال، وارتفاع المديونية الخارجية بسبب الاعتماد في تغطية الطلب الوطني من المواد الأساسية خاصة الغذائية على الاستيراد.ولتدارك الوضع عملت الحكومة على إعادة تنظيم وهيكلة المستثمرات الفلاحية الكبرى لتسريع وتيرة الإنتاج الفلاحي الذي عرف ركودا كبيرا نظرا لضعف التمويل وسوء التخطيط والتسيير حيث تم تحويل المستثمرات الاشتراكية إلى مستثمرات فردية وجماعية ،ومنح حق الانتفاع الدائم على الأراضي في إطار قانون 87- 19" [10]، كما تم إرجاع جزء من الأراضي المؤممة في إطار الثورة الزراعية إلى مالكيها ،وكان الهدف منه هو تنظيم المستثمرات الفلاحية عوض المزارع الاشتراكية تحقيق استغلال أمثل للأراضي الفلاحية مع العمل على تنظيمها قانونيا وإداريا قصد إشباع الحاجيات الأساسية للمواطن وتنمية الاقتصاد الوطني وتحقيق الأمن الغذائي مع تفعيل مبدأ اللامركزية في التسيير من خلال هياكل الدعم والمساندة للترقية الفلاحية ولكن مع بداية التسعينات وبالانتقال من فترة الأحادية والتوجه الاشتراكي إلى نظام تعددي بعد تبني دستور 1989 ، والتوجه إلى اقتصاد السوق ، وجدت الجزائر نفسها تحت طائلة المديونية وتحت رحمة صندوق النقد الدولي من جهة، وتدهور لوضع الأمني من جهة أخرى مع فشل سياسة التعديل الهيكلي للقطاع الفلاحي الذي ارتكز في المناطق الريفية وارتفاع في نسبة الهجرة الريفية والفقر الريفي وبالرغم من إنجاز ما يقارب 215009 سكن ريفي من الفترة الممتدة من 1995 إلى سنة 2000 وهذا ما سنوضحه من خلال الجدول"[11] التالي:

السنوات	عدد السكنات الريفية المنجزة
1995	48087
1996	32523
1997	26751
1998	33946
1999	39209
2000	34493

المجموع	215009

ولكن تدهور الوضع الأمني ،أدى إلى عدم استغلال هذه السكنات ،وشغورها بسبب هجرة أصحابها، مما عرضها للإهمال والتخريب .ومع بداية استتباب الأمن عملت الدولة على وضع مجموعة برامج وخطط قصد رد الاعتبار للريف الجزائري حيث تبنت المخطط الوطني للتنمية الفلاحية والذي توسع ليشمل الريف و أصبح يعرف بالمخطط الوطني للتنمية الفلاحية والريفية.

رابعا : مرحلة المخطط الوطني للتنمية الفلاحية والريفية:

حيث بدأ في سنة 2000 بالمخطط الوطني للتنمية الفلاحية أي بعد مجيئ الرئيس عبد العزيز بوتفليقة سنة 1999، وهو عبارة عن برنامج طموح هدفه تنويع وتكثيف مجالات الاستثمار الفلاحي وتنظيمها ودعمها بالآليات القانونية والمالية والبشرية اللازمة لها قصد تحسين بصفة سريعة من دور القطاع الفلاحي في مساهمته في تلبية وتغطية الاحتياجات الغذائية للبلاد"[12] والتعريف بأهمية الاستثمار في خلق مناصب الشغل والتخلص من البطالة وتحسين نوعية و جودة المنتوج الوطني، وتحقيق الاكتفاء الذاتي ، والتخلص من التبعية الغذائية وتثمين المنتوج المحلي والوطني،فما هي أهم البرامج التي تضمنها؟عملت الجهات الوصية على مختلف مستوياتها على تبني سياسة التوجيه والإرشاد و شمل المخطط الوطني للتنمية الفلاحية البرامج التالية"[13]:

1) البرامج الخاصة بتطوير وتأهيل المستثمرات الفلاحية ودعمها بالتكنولوجيات الحديثة و تربية المواشي وهي تشمل:

- ❖ برنامج تكييف أنظمة الإنتاج حسب خصوصية كل منطقة وحسب نوعية التربة.
- ❖ برنامج تكثيف الإنتاج وتحسين الإنتاجية في مختلف الشعب للمحافظة على الموارد الوراثية للبذور والشتلات لتحصين نوعية المنتوج والذي يغطي الطلب الوطني وينافس باقي المنتجات الفلاحية في الأسواق العالمية.
- ❖ برنامج تثمين الإنتاج الفلاحية وذلك عبر مختل المراحل التي يمر بها من تكييف إلى تحويل إلى تخزين فتسويق.
- ❖ برنامج دعم الاستثمار على مستوى المستثمرة الفلاحية من حيث التكوين والتأطير الذي يتم وفق أسس حديثة متطورة خاصة لدى فئة الشباب الذي يمارس النشاط الفلاحي.

2) البرامج التي تهدف إلى المحافظة على الطبيعة وحماية التربة وهي تشمل:

- ❖ البرنامج الوطني للتشجير من خلال تنويع أصناف الأشجار خاصة المثمرة منها مثل أشجار الزيتون والتين والمشمش والتفاح و الأصناف الغير مثمرة لحماية الثروة الغابية التي تعرضت للإهمال والتصحر بسبب غياب وسائل الرقابة الردعية مع الأخذ في الحسبان خصوصية كل منطقة من حيث المناخ والتضاريس ونوعية التربة.

❖ برنامج استصلاح الأراضي في الجنوب لتشجيع الفلاحة الصحراوية وتوظيف التكنولوجيا الحديثة خاصة في مجال إنتاج الحبوب كالقمح وإنتاج الطماطم الصناعية في أدرار وبسكرة ووادي سوف ، للتخلص من التبعية الغذائية، وخلق مناصب شغل وتحسين المستوى المعيشي لسكان الجنوب.

❖ برنامج استصلاح الأراضي عن طريق الامتياز لضمان استغلال عقلاني للعقار الفلاحي خلال مدة معينة مع المحافظة على نوعية التربة وحمايتها من التصحر و الانجراف وزيادة مساحة الأراضي الخصبة وتوفير موارد الري بشكل عقلاني، وتثبيت السكان في مناطقهم الريفية بتوفير مناصب شغل خاصة لهذه المناطق، وفي هذا الإطار تم برمجة 120 مشروعا في المناطق الجبلية والسهبية والصحراوية لفائدة سكان الريف وفئة الشباب المتخرجين من المعاهد الفلاحية المتخصصة بهدف استصلاح مساحة تقدر ب 137000 هكتار وقد تم وضع مشاريع الامتياز تحت وصاية العامة للامتياز GCA وبالتنسيق مع مديريات المصالح الفلاحية والولايات المعنية .

❖ برنامج تطوير مناطق الرعي ومناطق الهضاب العليا، وحماية السهوب لتوفير العلف وحماية مادة الحلفاء وإنشاء مناطق إنتاج تخفف من معاناة السكان نتيجة تنقلهم بحثا عن مراعي في مناطق الشمال ،وتطبيق مشروع تثبيت المروج الصغيرة .برنامج حماية وصيانة وتطوير الواحات والمحافظة على الواحات من التصحر ، و حماية واحات النخيل التي تساهم في تنمية الاقتصاد الوطني ، لما توفره من مداخيل من العملة الصعبة جراء عملية التصدير إلى الخارج و توفير مناصب شغل قارة ودائمة لأبناء الجنوب. مع تشجيع الاستثمار الوطني والأجنبي وتقديم التسهيلات الإدارية والمالية اللازمة وتحفيز المستثمرين وتوسيع المساحات الزراعية، واستخدام التكنولوجيات الحديثة في مجال التلقيح الاصطناعي لتوفير نوعية ذات جودة عالية من التمور وتوفير الطاقة الكهربائية والشمسية اللازمة لأشغال الري والسقي .

و للتكفل الفعلي بعالم الريف والإحاطة بمختلف مشاكله واحتياجاته تم توسيع هذا المخطط وأصبح يعرف بالمخطط الوطني للتنمية الفلاحية والريفية PNDAR،وفي هذا السياق تم إنشاء دائرة وزارية تعرف بالوزرة المنتدبة للتنمية الريفية لوضع تصور ورؤيا إستراتيجية لتحقيق التنمية الريفية في إطار متكامل ومتناسق.كما تم تحديد أهم المحاور التي تبنى عليها التنمية الريفية وهي على النحو التالي:

أ- إقامة شراكة محلية واندماج متعدد القطاعات في الأقاليم الريفية ، للتخلص من النظرية القطاعية أو الأحادية لعملية التنمية الريفية والذي ظلت مقتصرة لمدة على القطاع الفلاحي ومتجاهلة باقي الجوانب الأخرى والمرتبطة بالإنسان في حد ذاته باعتباره يؤثر ويتأثر بالتنمية الريفية وهو الطرف الفاعل فيها والمستفيد من نتائجها .

ب-دعم وتنويع النشاطات الاقتصادية المنتجة والمبدعة والتي لها قيمة فنية، تساهم في تحسين الدخل الفردي للمواطن الريفي ، وتبعث في الوسط الريفي الديناميكية والفعالية، وتدعم الميزة التنافسية بين أفراد المجتمع الريفي لتقديم الأجود والأفضل في المجال الاقتصادي .

ج- العمل على تثمين موارد وثروات الإقليم واستغلالها استغلالا عقلانيا للمحافظة عليها و المحافظة على التوازن البيئي وتجانب كل مظاهر التلوث البيئي.

ح- العمل على الجمع بين الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والبيئية والإدارية وتنسيق الأعمال والبرامج التنموية قصد تحسين الإطار المعيشي لسكان الريف.

وما تجدر الإشارة إليه تم صياغة وبلورة إستراتيجية التنمية الريفية انطلاقا من المعاينات الأربع التالية:

1- المعاينة الأولى مرتبطة بتزايد عدد سكان الريف ونسبة 70% شباب تقل أعمارهم عن 30 سنة، مما يتطلب وضع رؤيا وتصور يجعل هذا التزايد لا يؤثر على النسيج العمراني للمدن من خلال إنشاء مناطق ريفية مهيأة ومزودة بكافة المرافق الضرورية وإنشاء أقطاب نشاطات ريفية تضمن الاستقرار وعدم النزوح أو الهجرة.

2- المعاينة الثانية مرتبطة بمؤشر التنمية الريفية المستدامة الذي ارتفع من 0.31% في سنة 1998 إلى 0.58 % في سنة 2005.

3- المعاينة الثالثة تتعلق بحاجة الريف إلى توفير مناصب شغل دائمة بهدف التخلص من الأعمال الموسمية المتقطعة والغير منتظمة، خاصة أن نسبة الشباب هي الأكثر من خلال إطلاق مشاريع استثمارية توفر مناصب شغل .المعاينة الرابعة، وتتمثل في وجود إختلالات في التنمية بين مختلف الأقاليم الريفية من حيث عدد المشاريع الموجهة والإعتمادات المالية المخصصة لها، ووجود نظرة أحادية للتنمية الريفية وذلك بالتركيز على الجانب الاقتصادي المرتبط بالقطاع الفلاحي وعدم الاهتمام بباقي الجوانب المتعلقة بالصحة والسكن والتعليم وإمدادات الكهرباء والماء وشبكات الصرف الصحي وهي التي تعكس مؤشرات التنمية الريفية"[14].

وقد تم إطلاق مشروع التنمية الريفية المندمجة أو المشروع الجواري للتنمية الريفية المندمجة "[15]،الذي يعنى بالمناطق الريفية. وهو عبارة عن أداة تدخل متميزة في المنطقة الريفية مبني على أساس مسعى تساهمي يشجع الاندماج من القاعدة، يدخل في إطار الإستراتيجية الوطنية للتنمية الريفية والهدف منه بعث المجال الريفي من خلال سياسة التجديد الريفي، وهذه السياسة قائمة على إشراك الفاعلين الحقيقيين في عملية التنمية الريفية وهم سكان الريف والمنتخبين المحليين والهيئات الإدارية الوصية التي تتشكل من الولاة ورؤساء الدوائر ومديريات المصالح الفلاحية وفروعها وخلايا التنشيط الريفي وكذلك المؤسسات البنكية وعلى رأسها بنك الفلاحة والتنمية الريفية وأجهزة الرقابة المالية" .والمخطط التالي يوضح لنا المراحل التي يمر بها المشروع الجواري للتنمية الريفية المندمجة[16]، وعليه فسياسة التجديد الريفي، تهدف إلى عصرنة القرى والقصور، وتنويع الأنشطة الاقتصادية في الوسط الريفي حسب خصوصية كل وسط وحسب مقوماته الطبيعية وقدراته البشرية، وإرثه التراثي، وهي تقوم على الركائز التالية[17]:

والمخطط يوضح لنا الإطار المرجعي لمراحل المشروع الجواري للتنمية الريفية"[18]

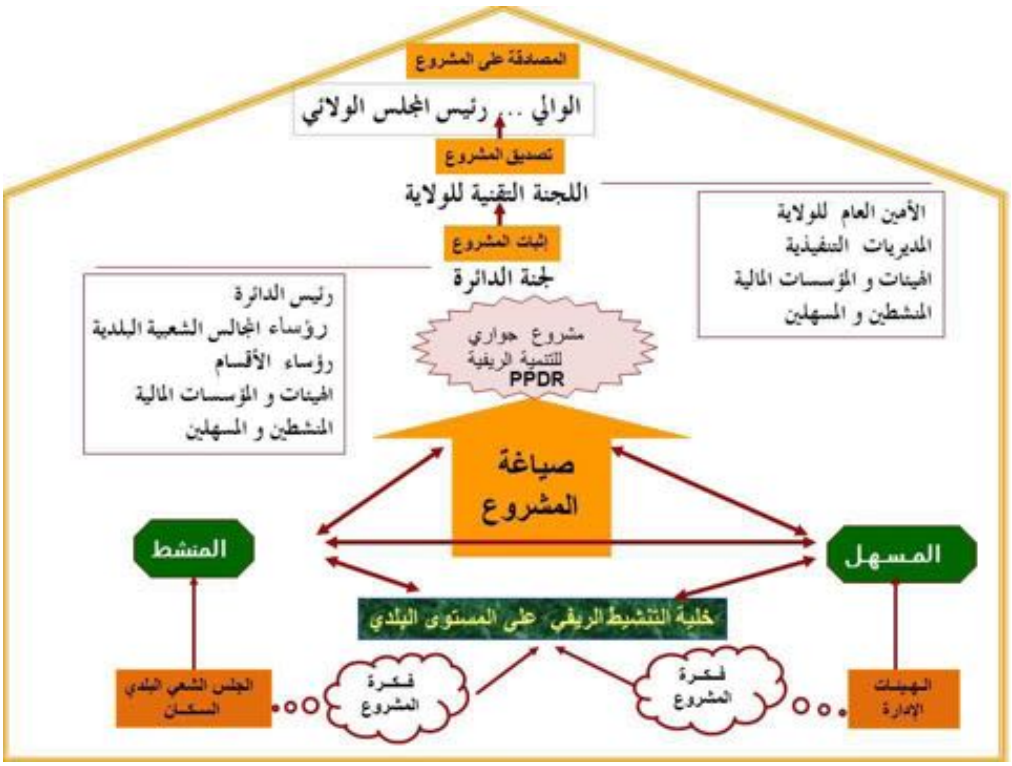

1- لا توجد أقاليم بلا مستقبل وتوجد فقط أقاليم بلا مشاريع أي أن الوسط الريفي يمكن تغيير نمط الحياة فيه إذا ما طبقت خطط محكمة واضحة المعالم والأهداف، وتتطلب إرادة حقيقية وقرار شجاع وحكيم، يجمع بين المادة والإنسان في مكان وزمان محددين.

2- ضرورة مراعاة الاستدامة في وضع مختلف برامج التنمية الريفية المندمجة مما يضمن حقوق الأجيال اللاحقة ، في جو من التعاون والتضامن والتنسيق والثقة بين المؤسسات الفاعلة والمتدخلة،في مسار العملية التنموية، بالإضافة إلى تشجيع القدرات والطاقات المحلية على الابتكار الذي يحمي البيئة ولا يهددها.

3- ضرورة تحسيس المواطن الريفي بدوره في العملية التنموية لكونه فاعل ومستفيد منها و بإقناعه بمدى فعالية التنمية الريفية بفضل مشاركته في الاقتراح والمبادرة، والتخطيط والتعاون والتضامن .

4- يجب التكفل الجيد والعقلاني بالإقليم الريفي من حيث خصوصيته الطبيعية ونوعية بنائه الاجتماعي وطبيعة النشاطات الاقتصادية السائدة فيه بغرض تطويرها وتنويعها.

5- التخلص من الوسائل التقليدية في الإنتاج وإدخال التقنيات والتكنولوجيات الحديثة، في مجال الإنتاج والاتصال، وتبادل الخبرات وتعزيز دور التوعية والتوجيه والإرشاد والإعلام و الانفتاح على العالم الخارجي وفق ما يخدم مصلحة الإقليم.

6- ضرورة التخلص من ثقافة الاتكال على المركز في مختلف الخدمات والمبادرات واعتماد مبدأ اللامركزية في اتخاذ القرار والتخطيط والتمويل وتفعيل المشاركة للمنتخبين المحليين والموظفين والمواطنين.

وقد تدعمت سياسة التجديد الريفي بآليات قانونية وذلك ابتداء من سنة 2008 وذلك بعد صدور القانون رقم 08 - 16 مؤرخ في أول شعبان عام 1429 ه الموافق ل03 غشت 2008 المتضمن قانون التوجيه الفلاحي الذي حددت فيه المحاور الكبرى للتنمية الفلاحية والريفية والتي تتمثل في المحاور التالية[19]:

1) أدوات التوجيه الفلاحي ،والتي تشمل مخططات التوجيه الفلاحي ومخططات و برامج التنمية الريفية وأدوات التأطير العقاري للتحكم في العقار الفلاحي وتنظيمه وعدم التلاعب به واستغلاله استغلالا عقلانيا في نشاطه الأصلي دون تغييره وتشجيع نظام الاستغلال عن طريق الامتياز .

2) محور متعلق بكيفيات وشروط استغلال المراعي وتهيئتها والمحافظة عليها وحمايتها من كل أشكال التعرية والتصحر والعمل على تجديدها بصفة دورية.

3) محور يتعلق بالتدابير الهيكلية الخاصة بالإنتاج الفلاحي لتثمينه وترقيته لتغطية الطلب الوطني على الغذائي ودخول المنافسة في الأسواق العالمية وفق معايير الجودة العالية، والعمل على تحقيق الأمن الغذائي .

كما أكد على أهمية الثروة الحيوانية ، وحماية الصحة الحيوانية والنباتية لتحقيق الأمن الصحي للأغذية ذات المصدر الحيواني أو النباتي، مع تفعيل دور المخابر والبياطرة في عمليات المعاينة والمراقبة مع استخدام التكنولوجيات الحديثة .بالإضافة إلى ضبط المنتجات الفلاحية والتحكم فيها وتنظيمها، لتحقيق التوازن بين العرض والطلب وحماية مداخيل الفلاحين، والحفاظ على القدرة الشرائية للمستهلك وتسقيف الأسعار بما يخدم المنتج والمستهلك والعمل تحفيز الفلاحين ومنحهم إعفاءات ضريبية وتسهيل عمليات النقل والتخزين والتسويق ،وتأمين المستثمرين من الأخطار والكوارث التي قد تهدد نشاطهم أو منتجاتهم،وتقديم التعويضات ، وكذلك الاهتمام بالتأطير والتكوين والإرشاد الفلاحي،في إطار برنامج تقوية القدرات البشرية وتعزيز دور أجهزة الرقابة على مختلف المستويات، و تنظيم المستثمرات والتعاونيات وفق التشريعات والنظم المعمول بها، وتنظيم النشاط المهني للفلاحين من خلال الجمعيات والتعاونيات والغرف الفلاحية و التعاضديات.

4) محور يتعلق بمصادر التمويل التي حددها المشرع في الدعم المالي للدولة المتمثل في المخصصات المالية الموجهة للصناديق التي والقروض البنكية خاصة بنك الفلاحة والتنمية الريفية.وقد حددت تعليمة رئيس الحكومة أهم المشاريع التي يتضمنها التجديد الريفي بصورة جماعية أو فردية فالجماعية شملت ما يلي:

1- بناء 394.238سكن ريفي في إطار المخطط الخماسي 2009/2005 و40.593 في إطار برنامج الجنوب و63.300 في إطار برنامج الهضاب"[20].

2- إنجاز قاعات العلاج، وإنجاز ملاعب رياضية جوارية وتوصيل الكهرباء الريفية و الفلاحية وشق الطرق وفتح المسالك الريفية.

أما الفردية فتتمثل في:إنجاز الآبار،وغرس الأشجار المثمرة وتهيئة المنابع المائية وتربية الأغنام والأبقار والدواجن والنحل وإنشاء وتأسيس وحدات للصناعات الغذائية والتكفل بالصناعات التقليدية وترقية المرأة الريفية وإدماجها في العملية التنموية وإنشاء وحدات لتجميع الحليب والملبنات، وتنفيذ برنامج التجديد الريفي مر بمرحلتين ابتداء من سنة 2007 والتي عرفت بالمرحلة النموذجية وفي سنة 2008 بدأت عملية الترسيخ ليوسع ابتداء من سنة 2009 ،ففي المرحلة التحضيرية والنموذجية

سمح بتجسيد 2323 مشروعا جواريا استفادت منه 277.634 أسرة على مستوى 2654قرية تابعة ل872 بلدية حيث تم استحداث مناصب شغل وصل عددها إلى 98.265 منصب"[21].ولعل الشيء المهم الذي تغير في هذه المرحلة هو الانتقال من التنمية الفلاحية المرتبطة بممارسة النشاط الزراعي إلى التنمية الريفية المندمجة مع إدراج الاستدامة في مختلف البرامج التنموية من أجل ضمان مستقبل الأجيال اللاحقة .وقد خصص غلاف مالي يقدر ب1000 مليار دينار جزائري خلال المخطط الخماسي 2010 /2014 من أجل النهوض بالقطاع الفلاحي بمعدل 230 مليار دينار جزائري لكل سنة، موزعة على النحو التالي:42 مليار لسياسة التجديد الريفي و أي بنسبة 18%و160 مليار لسياسة الدعم الفلاحي و28 مليار لتقوية القدرات البشرية بنسبة 13% "[22].،أما بالنسبة للتمويل الدولي فقد استفادت الجزائر من قروض ومنح مالية من طرف الصندوق الدولي للتنمية الزراعية IFAD بقيمة 65.558 مليون دولار لتمويل خمسة مشاريع لفائدة الشباب [23]"، وذلك من خلال التركيز على زيادة الفرص المتاحة لفقراء الريف للحصول على التمويل الريفي والتصدي لمشكلة البطالة المنتشرة بين شباب المناطق الريفية وتحسين إدارة واستغلال الأراضي والموارد المائية ، والحد من التعرض للتغيرات المناخية التي من نتائجها الجفاف والتصحر وانجراف التربة وربط صغار منتجي المحاصيل غير التقليدية بالأسواق المحلية والدولية.

وما يمكن قوله عن التنمية الريفية في الجزائر هو أنها لا تزال تحتاج إلى مزيد من تظافر وتكاتف الجهود لتحقيق أهدافها المرجوة ألا وهي خدمة الإنسان بالدرجة الأولى لأنه يعد محور العملية التنموية وجوهرها بصفته طرف فاعل يؤثر فيها ويتأثر وهي لا تقتصر على الجانب الاقتصادي والمرتبط كما رأينا بنسبة كبيرة بالنشاط الزراعي وقضية تحقيق الأمن الغذائي بل تتعداه إلى الجوانب السياسية والإدارية والبيئية والاجتماعية والثقافية،كما أن العامل التمويلي فهو بحاجة إلى ضرورة تنويعه تجديد مصادره على مستوى محلي بتوفير موارد محلية غير مرتبطة بالتمويل المركزي الذي يتسم بطابع السنوية وصعوبة الإجراءات الإدارية وتسلسلها مما يعطل عملية سير مختلف برامج التنمية الريفية ويقيد من تدخل الوحدات المحلية فيها مما يساهم في إضعاف اللامركزية ويحد من المشاركة المحلية الفاعلة والمؤثرة بمعناها الواسع ويدعم المشاركة الصورية التي تخدم أطرافا وجهات معينة على حساب الغالبية ، وحسبما توصلنا إليه فضعف الموارد المحلية للبلديات وعجزها هو الذي فرض ضرورة تدخل السلطة المركزية وتحكمها في تمويل التنمية الريفية عن طريق الصناديق المتخصصة ، بل تعدته إلى درجة وضع واقتراح المشاريع والبرامج دون إشراك واستشارة سكان الريف والمنتخبين المحليين ، باعتبارهم الفاعلين الحقيقيين

المراجع المعتمدة:

[1] – المنظمة العربية للتنمية الزراعية، الكتاب السنوي للإحصاءات الزراعية العربية، المجلد 30،2010، ص35.

[2] – وزارة الفلاحة والتنمية الريفية ، مسار التجديد الفلاحي والريفي ،2012، صwww.mddr.gov.dz.

[3] ––عزام البلاوي، التنمية الزراعية إشارة خاصة للدول العربية، معهد البحوث والدراسات العليا، 1631 ، ص22 .

[4] – رفعت لقوشة، التنمية الزراعية قراءة في مفهوم متطور، المكتبة الأكاديمية القاهرة، مصر 1666 ، ص11 .

[5] – نوال يوسف ،المرجع السابق ص 79.

[6] –فوزية غربي، الزراعة الجزائرية بين الإكتفاء والتبعية، أطروحة دكتوراه في الإقتصاد،2008،ص 105.

[7] – المنظمة العربية للتنمية الزراعية، دراسة اتجاهات ومؤشرات الفقر في الدول العربية ، السودان ،2009،ص6.

[8] – محمد السويدي ، المرجع السابق،ص109.

[9] – فوزية غربي، المرجع السابق،ص.101.

[10] –القانون رقم 19/87 المؤرخ في 1987/11/08 والمتضمن لكيفية إستغلال الأراضي الفلاحية التابعة للأملاك الوطنية الخاصة وتحديد حقوق المنتجين وواجباتهم.

[11] – مجلة دفاتر إقتصادية العدد السادس السنة الرابعة كلية العلوم الإقتصادية والتجارية والتسيير، جامعة زيان عاشور،مارس2013 ،ص 38.

[12] –الجزائر،وزارة الفلاحة والتنمية الريفية، مسار التجديد الفلاحي والريفي ،2012،ص03.

[13] – الجزائر،وزارة الفلاحة والتنمية الريفية،المخطط الوطني للتنمية الفلاحية ، نظام الدعم عن طريق الصندوق الوطني للضبط والتنمية الفلاحية، مارس 2000،ص 10.

[14] – وكالة الأنباء الجزائرية، ، لقاء مع الرئيس بوتفليقة في 2006/09/17.

[15] – الجزائر،الوزير المنتدب المكلف بالتنمية الريفية،أداة بيداغوجية للمشروع الجواري للتنمية الريفية،2007،ص 11

[16] – وهو مأخوذ من الموقع الإلكتروني www.minagri.dz.الخاص بمسار التجديد الريفي ص16

[17] – الوزير المنتدب المكلف بالتنمية الريفية، أدة بيداغوجية لشرح سياسة التجديد الريفي،2007 www.minagri.dz.

[18] – مأخوذ عن المطبوعة الخاصة بمسار التجديد الريفي www.minagri.dz ص12.

[19] – الجزائر،وزارة الفلاحة والتنمية الريفية القانون رقم 08 ــ 16 مؤرخ في أول شعبان عام 1429 هــ الموافــق ل 03 غشت 2008 ، يتضمن قانون التوجيه الفلاحي.

[20] –الهادي قطش ، أطلس العالم والجزائر، دار الهدى ، الجزائر .

[21] –رئيس الحكومة، تعليمة رقم 01 مؤرخة في 27 جانفي 2008 ،المتعلقة ببرنامج التجديد الريفي 2008/2007.

[22] – الجزائر، وزارة الفلاحة والتنمية الريفية،مسار التجديد الفلاحي والريفي،عرض وآفاق،ماي 2012،ص28.

[23] –إيفاد وجامعة الدول العربية، العمل معا في البلدان العربية،www.ifad.org.

" أنواع جريمة اختطاف الأطفال و دوافع ارتكابها "

أ.حمزة الدامي

جامعة عنابة

ملخص

ظاهرة اختطاف الاطفال تعتبر من اخطر اشكال العنف ضد الطفل. وما تمدنا به تقارير الامن و احصاءات الدرك الوطني وما تطلعنا عليه مختلف الجرائد اليومية ، يظهر بأن جريمة اختطاف الاطفال اصبحت ظاهرة في غاية الخطورة و يقف من وراء ارتكابها عدة اغراض ، كما تتنوع الجهات الخاطفة و تتعدد اساليب الخطف .

ويذكر ان جرائم الاختطاف غالبا ما تنتهي بجرائم ابشع ، كالقتل و التنكيل الجسدي و الاعتداء الجنسي و حتى سرقة الاعضاء و المتاجرة فيها ، و هذه الحالات تخفي الطابع الاجرامي للجهة المختطفة و التي تستعمل السلاح كوسيلة لزرع الخوف و الهلع عند اولياء الضحية ، او تستخدم الحيلة والخداع . اذ نميز نوعين من الاختطاف ضد الاطفال الصنف الاول هو الاختطاف من قبل شخص مجهول او اجنبي عن الاسرة ، و الصنف الثاني هو الاختطاف من قبل احد افراد الاسرة .

اما من ناحية الهدف من الاختطاف نجد ان الطفل يقع ضحية الشخصية السايكوباتية والشاذة للخاطف و تعتبر من اكثر حالات الاختطاف ،بالإضافة الى الدوافع الاخرى التي يختطف من اجلها الطفل مثل استغلالهم في التسول ، او لغرض التبني او لطلب الفدية وغيرها من الاغراض الاجرامية المخالفة للقوانين والمعايير الاجتماعية .

Summary

The Phenomenon of Child abduction is one of the most serious forms of violence committed against children . It is provided with reports and statistics of the national security police , and is informed by various newspapers that the crime of child abduction has become a very dangerous phenomenon standing behind several factors diverse methods and actors .

Note that the abductions often end with the most horrendous crimes, such as murder , physical mutilation, sexual violence as well as theft and trade of human organs ; which conceals the criminal nature of the abductor provided using weapons along with fraud and treachery as a mean to instill fear and panic among the parents of the victim . in fact there are two types of kidnapping against children; the one commited by an unknown stranger, and the other commited by a member of the family.

As for the goals of kidnapping , one finds that the child is a victim of divergent psychopathic kidnapper , regarded as one of the most cases of abduction ; However , there are other purposes for the abduction such as children exploitation in begging , adoption , getting ransom in addition to other criminal purposes in violation of the law and social norms .

الكلمات المفتاحية: اختطاف – أطفال – جريمة – عنف – سيكوباتية – تبني – فدية – ضحية .

مقدمة

الجريمة ظاهرة اجتماعية متغلغلة في المجتمع منذ القدم ، حيث تعتبر تعديا و انحرافا و خروجا عن الاعراف و القيم المجتمعية السوية . و مع تقدم العصور بدأت الجريمة تتطور و تتعدد اساليب ارتكابها . وان الجهود التي تقوم بها الحكومات في اطار القضاء النهائي عليها يعد مهمة شبه مستحيلة ، لان الجريمة ظاهرة مصاحبة لتطور أي مجتمع ، و لا يخلو منها أي مجتمع

على الاطلاق . و كما قال "اميل دوركايم" ان الجريمة ظاهرة طبيعية مصاحبة للتطور الاجتماعي . و نحن نعلم كمختصين في علم الاجتماع ان التغير الاجتماعي لأي مجتمع تصادفه عدة مشكلات اجتماعية منها الجريمة .

ومن صورها نجد جريمة اختطاف الاطفال و التي لا تعتبر حديثة في حد ذاتها ، بل اساليب ارتكابها هي التي استفادت من تطور الجريمة و تعدد اشكالها بتطور المجتمعات و في ظل التقدم التكنولوجي لوسائل الاعلام و الاتصال التي بات يعتمد عليها المجرمون في تطوير اساليبهم الاجرامية.

واصبحت جريمة اختطاف الاطفال من الظواهر الاجرامية التي تهدد استقرار و امن المجتمعات ، وبالتحديد الأسر . كونها تقع على صغار السن و على مختلف الجنسين ، فيما تتعدد دوافع الخاطفين وتتنوع اساليبهم، اذ نجد ان هذه الظاهرة الاجرامية قد انتشرت في المجتمع الجزائري بصفة رهيبة . و لتحليل الموضوع يجب ان نطرح عدد من التساؤلات :

ما هو مفهوم الاختطاف ؟

ما هي طبيعة و خصائص جريمة اختطاف الاطفال ؟

ما هي ابرز الانواع التي تتميز بها ؟

ما هي الدوافع التي تقف وراء الجريمة ؟

ما ابرز سمات الخاطف ؟

1- تعريف الاختطاف

- الاختطاف في اللغة : اسم مشتق من المصدر خطف ، و الخطف هو الاستلاب ، و قيل الاخذ بسرعة .

قال الطبري: الخطف: السلب و منه الخبر الذي روي عن النبي - صلى الله عليه و سلم - : انه نهى عن الخطفة.

اذا فالاختطاف هو اخذ الشيء و استلابه بسرعة ، و يسمى استراق السمع من الشياطين اختطافا لأنهم يأخذونه ، فعلى هذا يصح ان تسمى سرقة الشيء بسرعة خطفا او اختطافا في اللغة. قال ابن منظور : اختطفه اي استرقه .[1]

- و يعني اختطاف طفل خارج بيته خلال فترة زمنية طويلة ، و ذلك بهدف طلب فدية ، او القيام باعتداء سادي او جنسي و حتى قتله .

- يتحقق فعل الاختطاف عندما :

1- يختفي الطفل مدة يوم الى يومين .

2- عندما يتم نقل الطفل لأزيد من 80 كلم من نقطة الاختطاف في بعض الاحيان .

3- عندما يقتل الطفل.

4- عندما يكون الطفل محل مقايضة و طلب فدية.

5- عندما يتضح من ان الخاطف له نوايا للاحتفاظ بالطفل و عدم تسليمه .

وهو الاخذ بالقوة و بدون تصريح لطفل في بيت او سيارة ، و لمسافة تزيد عن 7 امتار ، و ابعاد طفل لأكثر من ساعة ، و ذلك بالتأثير عليه عن طريق التحيل و الكذب . و يكون ذلك من قبل شخص لا ينتمي للأسرة ، و قد يكون الخاطف معروفا من قبل الاولياء او الطفل . ويكون ذلك في لحظة قصيرة اين يختطف الطفل حتى قبل ان يتفطن الاولياء لاختفائه . وقد يكون الاختطاف مصحوبا بجريمة اخرى و ذلك عندما يريد الخاطف اخفاء الضحية و طمس معالمها ، و يتم ذلك بعد الاعتداء الجنسي ثم القتل .[2]

2- تعريف الطفل

كلمة طفل مأخوذة من مادة طَفلَ. و بالبحث عن معنى طفل في المعاجم اللغوية تبين ان : طفل ، الطَفل : البنان الرخص ، المحكم . و الطَفل ، بالفتح الرخص الناعم ، و الجمع طِفَال و طِفَال ، و طفل الليل اي اقبل و دنا بظلامه .

و الطفل و الطفلة: الصغيران. و الطِفلُ ، بكسر الطاء ، الصغير من كل شيء عينا او حدثا فالصغير من الناس او الدواب ، طفل .

قال ابو الهيثم ، الصبي يدعى طفلا حين يسقط من بطن امه الى ان يحتلم .

و العرب تقول جَاريةُ طِفلةُ . اذا كانت صغير .

و قوله عز وجل ((هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)) سورة غافر الآية (67).

طِفلا هنا في موضع اطفال يدل على ذكر الجماعة ، و كأن معناه ثم يخرج كل واحد منكم طفلا و كلمة طِفل تطلق على الذكر و الانثى و الفرد و الجمع .

و ذكر في مختار القاموس ان " الطِفل بالكسر ، الصغير من كل شيء ، و الجمع اطفال .

و نخلص مما سبق بأن الطفل هو المولود حتى البلوغ ، و الجمع أطفال .

و الطفولة هي المرحلة من الميلاد الى البلوغ .[3]

3- تعريف الجريمة

تزايدت الدراسات المعاصرة حول الجريمة و السلوك الاجرامي و المجرم و اعتمدت تعريفات الجريمة اساسا على طبيعة السلوك الاجرامي و المجرم و اعتبر كثير من العلماء ان التعريف القانوني للجريمة غير مرض بالنسبة للأغراض العلمية .

إلا ان "هرمان مانهيم" قد ذهب الى ان الجريمة سلوك اجتماعي معادي .

و ذهب كل من "موريس و ركلس " الى ان الجريمة نسبية زمنية و مجتمعية ، لان المجتمع هو الذي يحدد ما هو صواب و ما هو خطأ ، فمثلا (جريمة العملة) قد تجرم تهريبها بعض المجتمعات و قد لا تجرّمه البعض الاخر و قد تجرم الرشوة في بعض الدول و قد لا تجرم في البعض الاخر .

و على ضوء ما سبق يبين لنا ان المجتمعات البشرية تعرضت و تتعرض لموجات تغيير متلاحقة في كافة جوانب الحياة و ان الافعال الاجرامية تتغير بتغير الثقافات و تتنوع بتنوع تلك الثقافات .

و عن تعريف الجريمة لدى علماء الاجتماع ظهرت ثلاث اتجاهات :

الاتجاه الاول : يرى ان الجريمة هي جميع انماط السلوك المضاد للمجتمع .

الاتجاه الثاني : يرى ان الجريمة هي جميع الافعال الاجرامية او المخالفة و الخارجة على المعايير الاجتماعية و التي تُخضع للعقاب كل من يرتكب ضررا على المصلحة الاجتماعية .

الاتجاه الثالث : يركز على معايير السلوك الذي يرتبط مباشرة بقضية الضبط الاجتماعي و ما يحتويه من معايير تحكم سلوك الافراد .[4]

4- تعريف الجريمة من المنظور الاجتماعي

هي كل فعل يتعارض مع ما هو نافع للجماعة و ما هو عدل في نظرها. أوهي انتهاك العرف السائد مما يستوجب توقيع الجزاء على منتهكيه. كما تعد انتهاكا و خرقا للقواعد و المعايير الأخلاقية للجماعة. و هذا التعريف تبناه الأخصائيون الأنثروبولوجيون في تعريفهم للجريمة في المجتمعات البدائية التي لا يوجد بها قانون مكتوب.[5]

5- تعريف الشخص الغريب (L'étranger)

يعرف "بودرو" و اخرون مصطلح الغريب في مجال جريمة الاختطاف على انه شخصية لم يقابلها الضحية اطلاقا قبل الاعتداء او الاختطاف .

و هو كل شخص لا ينتمي للأسرة و يدعى " بالشخص الخارج عن الاسرة "

« une personne hors famille » ، مثل جليسة الأطفال صديق العائلة ، معارف او أصدقاء ،الأعمام ، الاخوال ، الاجداد ، الجيران.[6]

6- تعريف الدافع

يعرّف الدافع على أنه : مثير داخلي يحرك سلوك الفرد ويوجهه للوصول إلى هدف معين. ويعرّف الدافع أيضا على أنه : القوة التي تدفع الفرد لأن يقوم بسلوك من أجل إشباع وتحقيق حاجة أو هدف .

ويعتبر الدافع شكلا من أشكال الاستثارة الملحة التي تخلق نوعاً من النشاط أو الفعالية .[7]

7- تعريف الاتجار في البشر

يعد الاتجار في البشر نوعا من العبودية الحديثة ، و هي في واقع الامر جريمة ضد الانسان ذاته و امتهان لكرامته و آدميته بصورة تفوق كونها جريمة ضد الدولة و المجتمع .

و تدخل جريمة الاتجار في البشر ضمن مفهوم الجريمة المنظمة ، حيث تقوم بها عصابات احترفت الاجرام و جعلت الجريمة محور نشاطها الذي تمارسه ، و مصدر دخلها و اجرها الذي تتقاضاه . فهذه العصابات تمارس انشطتها الاجرامية كعمل ووظيفة و مهنة ، تهدف من ورائها الى توفير نفقات نقدية ضخمة و سريعة الحركة تقبل التنقل عبر وسائط متعددة و مختلفة ، بعضها تقليدي و الاخر مبتدع و ان كان في النهاية مخالفا للقانون و العرف و الاخلاق . و يمثل الاتجار في البشر ثالث مصدر للتربح من الجريمة المنظمة بعد تجارة المخدرات و السلاح ، حيث يحصد من وراءها بلايين الدولارات سنويا . ففي تايلاند على سبيل المثال ، تمثل عائدات الدعارة من 10 الى 14 % من اجمالي الناتج المحلي .

و في اليابان تحقق هذه التجارة 400 مليون دولار سنويا ، اي ما يعادل 4 تريليون ' ين ' ياباني . و الاتجار في البشر جريمة ذات طبيعة خاصة باعتبار ان موضوعها سلعة متحركة و متجددة هي فئة خاصة من البشر يعانون من الفقر الشديد و البطالة و عدم الامن الاجتماعي ، و هم في الغالب من النساء و الاطفال . و من ثم فان لهذه الجريمة اثار اقتصادية و اجتماعية و اخلاقية مدمرة . و سوق هذه السلعة يتجاوز الحدود الاقليمية للدول ، فهي بمثابة تجارة عابرة للدول : فهناك دول عارضة لهذه السلع ، اي الدول المصدرة و هي عادة دول فقيرة اقتصاديا ، و تعاني من مشكلات اجتماعية و اقتصادية و اخلاقية متخلفة عن المشكلة الام و هي مشكلة الفقر. [8]

الجانب النظري لجريمة اختطاف الاطفال

يمكن تفسير جريمة اختطاف الاطفال من خلال نظرية النشاط الروتيني

اسقاط النظرية على جريمة اختطاف الاطفال

تعد نظرية النشاط الروتيني من اشهر نظريات علم الجريمة المعاصرة ، و انطلقت من ان الجريمة تمثل جزءا مهما من الحياة اليومية للأفراد و ذلك بسبب التفاعلات الاجتماعية .و عند حدوث تغير في انماط التفاعلات الاجتماعية فإن معدل الجريمة

سيزداد . وقد استندت هذه النظرية الى ثلاثة ابعاد اساسية لحدوث الفعل الاجرامي: 1-توفر الارادة الاجرامية 2-وجود ضحية مناسبة 3-غياب الحراسة القادرة او غياب اعين الامن.

و يرى (Cohen وFelson) ان هناك العديد من التغيرات التي ادت الى ظهور انواع جديدة من الانشطة الروتينية للفرد ، و يرى الباحثان ان الروتين يمثل النشاطات اليومية التي يمارسها الفرد بشكل روتيني دون التفكير بها سواء كانت محصلتها ايجابية او سلبية .

و امن اهم ما تشير اليه هذه النظرية ان جملة الانشطة الروتينية السابقة تفصل الفرد عن مترله او اسرته او ممتلكاته ، و هذا يعطي المجرم صاحب الارادة الاجرامية الفرصة المناسبة او الموقف المناسب لارتكاب الجريمة سواء كانت تعديا على الفرد او على الممتلكات. ويرى اصحاب هذه النظرية ان الارادة الاجرامية تتوافر بغياب الحراسة القادرة التي تتيح الفرصة للمجرم او تجعله في الموقف المناسب.

و يمكن تفسير جريمة اختطاف الاطفال من خلال هذه النظرية التي نجد ان الخاطف في معظم الحالات يكون في محيط الضحية او قريبا منه و بالتالي نستطيع ان نسقط عليه نظرية النشاط الروتيني ، و نظرا لتواجد المجرم او الخاطف بالقرب من الضحية او في محيطها يُمَكّنه ذلك من معرفة الانشطة الروتينية لأفراد اسرة الضحية و اقاربها و اصدقائها ، مع معرفته الكبيرة بسلوك الضحية و عاداتها و اماكن تواجدها اثناء اوقات اللعب او الطريق التي يسلكها اثناء العودة من المدرسة اِن كان بمفرده ،و الاوقات التي يكون بها منفردا . و بالتالي معرفة ادق تفاصيل الضحية و اسرته كذلك.

مما يمكّنه من استغلال ذلك في ارتكاب جريمته في ظل غياب الحراسة القادرة اذا كان في مكان لا تصله اعين من يحرسه او من يستطيع الانتباه الى تواجده في ذلك المكان المتوارى عن الانظار ، مع وجود الضحية المناسبة فالخاطف يلجأ عادة الى الاطفال نظرا لسهولة التأثير عليهم و ذلك باستعمال اساليب التحيل بكسب ثقة الطفل مثلا .

اما اذا اختار الخاطف اسلوب العنف فتكون ضحيته غير قادرة على المقاومة نظرا للبنية الفيزيولوجية للطفل مقارنة مع البنية الفيزيولوجية للخاطف. و بالتالي تسهل السيطرة على الضحية حتى اذا ارادة المقاومة . و هذا ما نعني به بوجود الضحية المناسبة . في ظل توفر الارادة الاجرامية للخاطف و المتمثلة في الدافع من اختطاف ذلك الطفل .[9]

التاريخ الاجتماعي لظاهرة الاختطاف

1- تاريخ الاختطاف في المجتمعات البدوية

ان خطف النساء و البنات كثير الوقوع بين البدو ، و من لا يزال على سنتهم من الحضر في بلاد حوران و شرقي الأردن و لا يمر شهر إلا و يسمع خبر كهذا بينهم ، و يقولون (فلانة خطفت فلان) و لا يقولون فلان خطف فلانة ، لان اكثر الخطف يكون برضاء الطرفين ، و كثيرا ما يخطفون ذات الزوج ، و قد يقع الخطف جبرا .

1.1- الخطف الجبري

وهو ان يترصد الخاطف بالمرأة التي يعشقها و يرغب في الزواج بها دون رضاها و عند ما تسنح له الفرصة يسحبها جبرا ، او بالتهديد وإشهار السلاح و يهرب بها الى ابعد العشائر، و يعيش معها ريثما يتمكن من مصالحة ذويها. و بهذا النوع من الخطف يتحتم على اولياء المخطوفة في عرفهم ان يستعملوا ما لهم من حقوق الانتقام كما يجري في امر الزنا الجبري ، و اما الزوج فليس له حق الانتقام بل له ان يستوفي مبلغا من المال يعادل مهر زوجته ، و ذلك عند وقوع الصلح .

2.1- الخطف بالرضا

و هذا الخطف يكون نتيجة التعارف بين الرجل و المرأة ، و تبادل الحب بينهما و تقرير كيفية الزواج اذا رفض اولياء المرأة السماح لهم بالزواج من بعضهما ، فعندئذ يقرر الطرفين الخطة التي يجب السير عليها ، و يضربان موعدا للالتقاء ، حيث يكون برفقتهما شخصان من الاصدقاء ، فيذهبون معا الى اقرب العشائر ، و يترلون عند شيخها ، و يعرضون عليه امرهم ، فيقوم الشيخ اولا باستجواب المخطوفة ، و عندما يتأكد رضائها بالزواج من خاطفها ، و يتحقق من الصديقين من ان لا زوج لها ، يستدعي إمام العشيرة ، و يكلفه بعقد نكاحها ، وإذا لم يكن للعشيرة إماما يجري العقد بذبح رأس غنم يذبحه الخاطف قائلا : " اللهم حلل لي هذه الانثى ، كما حللت لنا هذه الشاة " وبعد ذلك يخلي لها الشيخ خيمة من مضارب العشيرة و يزفهما فيها كعروسين ، و بعد ذلك يقوم الشيخ بجميع الوسائل لعقد الصلح بين الخاطف وأولياء العروس ،حتى ولو اقتضى الحال ان يدفع بدل الصلح من ماله الخاص ، باعتبار ان عمله هذا يعتبر نوعا من البر والإحسان الممتاز.

و المعروف ان اولياء المخطوفة و عشيرتها يثورون فور علمهم باختطاف ابنتهم ، و يطاردون اقارب الخاطف ، و يعتدون على اموالهم و املاكهم في غضون الثلاثة ايام و ثلث اليوم ان لم تمنعهم بعض العشائر الحيادية من القيام بذلك . إلا انهم عندما يتحققون ان الخطف وقع برضاء ابنتهم ، يسكن غليانهم ويتدخل العقلاء بالصلح بين الطرفين ، و يكون بدل الصلح غالبا مقدارا من المال اكثر من المهر المعتاد.[10]

2- ظهور الاختطاف عن طريق الزواج

برزت ظاهرة الاختطاف منذ القدم في مختلف المجتمعات. اذ كان يقع الاختطاف بمختلف الاشكال و لدوافع متعددة ، حيث كان الزواج من ابرز دوافع الاختطاف و نذكر عددا من هذه المجتمعات التي تقع فيها اختطافات حيث كانت هنود قبائل ((كومانوش)) القاطنة في امريكا الشمالية يطبقون الزواج عن طريق الخطف بين حين و اخر . و يقال ان احدى الوسائل التي كان يعتمدها هنود قبائل ((لويزينيو)) قرب كاليفورنيا في الزواج كانت مرتكزة على استعانة الرجل الذي يرغب بامرأة ما ، ببعض رفاقه لخطفها عنوة حتى من بيت ذويها. و قد كان ذكور قبائل ((اهت)) يخطفون النساء حتى من داخل عشيرتهم .

و في الاعراف المتعلقة بالزواج في ((التبت)) انه عندما يرغب الرجل في قبائل ((بورانغ)) بالزواج من فتاة معينة يعمد الى مراقبة تصرفاتها و حركاتها ، و عندما يجد الفرصة المناسبة يأتي اليها مصحوبا بواحد او اثنين من رفاقه لخطفها و اخذها بالقوة اثناء وجودها لوحدها ، حيث يضعها في مترل ثان بعيد و منعزل و يقدم اليها الغذاء الجيد و الكساء المناسب و يبقى بجانبها لإغوائها و اكتساب قلبها .

ان الزواج عن طريق الخطف هو ظاهرة مطبقة ايضا في كثير من مناطق الارخبيل الماليزي و عدد من الدول العربية .

من الشائع و المتعارف عليه عموما في (بالي) لدى الطبقات الدنيا ، ان يقوم العاشق بخطف الفتاة التي يهيم بها سواء حصل على موافقتها ام لا . في كل هذه الحالات يجب على الخاطف ان يدفع غرامة لوالد الفتاة ، مع ان هذه الغرامة تكون اكبر اذا تزوج الفتاة عنوة .[11]

3- اختطاف الاطفال بهدف العبودية

عرفت كل الحضارات والأمم السابقة ظاهرة اختطاف الاطفال لاستغلالهم في عديد المجالات و الاهداف فقد استعمل الاطفال المختطفون عبيدا كباقي الفئات العمرية من الرجال و النساء .

فالرق كان موجودًا لدى الفراعنة. إذ كان الملوك والكهنة وقواد الجيش المصري القديم يتخذون أسرى الحرب عبيدًا لهم ، يستخدمونهم فيما تحتاج إليه الدولة الفرعونية من أعمال كبناء الجسور والمعابد والأهرامات . و نجد ان هناك العديد من المجتمعات التي اتبعت هذا النمط من استغلال الاطفال كعرب الجاهلية و الاغريق و الرومان .

و نتطرق لظاهرة اختطاف الاطفال عند عرب الجاهلية كعينة من هذه المجتمعات حيث لم يختلف الحال لدى العرب قبل الإسلام عن غيرهم من الأمم بالنسبة لظاهرة اختطاف الاطفال و بيعهم كعبيد ، فقد كان مألوفًا أن تتخذ القبائل المنتصرة من أطفال ونساء القبائل المهزومة عبيدًا وجواري.

وكان بعض مشاهير مكة المكرمة مثل عبد الله بن جدعان من تجار الرقيق. كما تذكر كتب التاريخ أن عددًا من مشاهير الصحابة رضوان الله عليهم كانوا عبيدًا قبل الإسلام .

منهم زيد بن حارثة رضى الله عنه الذي " اختطف " و هو " صغير " ، وباعه الخاطفون في سوق عكاظ ، حيث اشتراه حكيم ابن حزام ثم وهبه لعمته السيدة خديجة رضى الله عنها.

وكذلك " اختطف " بعض قطاع الطرق سلمان الفارسي رضى الله عنه أثناء رحلته إلى الشام ، وباعوه لبعض يهود يثرب قبل هجرة النبي – صلى الله عليه وسلم – إليها .

وكان " بلال بن رباح "وعمار بن ياسر رضي الله عنهما وذويهما عبيدًا بمكة المكرمة في الجاهلية ، وتعرضوا لتعذيب مروع من سادتهم لإجبارهم على ترك الإسلام .

وكانت " ثويبة " إحدى مرضعات الرسول – صلى الله عليه وسلم – مولاة لعمه " أبي لهب " وكانت حاضنته " أم أيمن " جارية لأبيه عبد الله بن عبد المطلب قبل مولده ، وانتقلت ملكيتها إليه بعد وفاة أبيه[12].

انواع و دوافع اختطاف الاطفال

من خلال القراءات و الدراسة الميدانية في مجال البحث اتضح ان هناك نوعين تتميز بهما ظاهرة اختطاف الاطفال و هما :

النوع الاول

اختطاف الطفل من قبل احد افراد الاسرة

اصناف خاطفي الاطفال و دوافعهم

و يقع هذا النوع من الاختطاف من قبل احد افراد اسرة الضحية اي الطفل المختطف و قد يكون (احد الوالدين إما الاب او الام ، حيث يمثل الوالدين اكثر فئة تقوم بعمليات الاختطاف الأسري ضمن هذا النمط) بالإضافة الى باقي افراد اسرة الضحية .

و عندما يكون الخاطف هو احد الابوين فإن دافع اختطاف الطفل يكون الانتقام من الطرف الاخر حيث يتميز هذا النوع من الاختطاف بأنه يأخذ وقتا طويلا في تنفذه او قد يكون مدة قصيرة لأن الارجح و الغالب هو طول المدة لان المنتقم يبقى لسنوات يترصد فريسته ، و في هذه الحالات غالبا ما يكون الاطفال عرضة لها .

و يكون الهدف هنا هو تحقيق هدف و طمع نفسي و هو الثأر من احد الوالدين باختطاف الطفل.[13]

و الاختطاف الانتقامي و هو الذي يكون في حالة الطلاق او في حالة الزواج المختلط ويكون هذا الزواج بين شخصين من مجتمعين مختلفين أو من ديانتين مختلفتين أو من بلدين مختلفين،

وفي مثل هذا النوع من الزواج تختلط الأفكار وتظهر بعض الخلافات وتطفو على ساحة هذا الزواج عراقيل بسبب اختلاف الثقافة وذلك ما يسبب الكثير من المشكلات ، والتي قد تؤدي إلى الفشل ، فيسعى احد الوالدين الى اختطاف الطفل انتقاما من الطرف الاخر.[14]

النوع الثاني

اختطاف الطفل من قبل غرباء

اصناف خاطفي الاطفال و دوافعهم

1- الشاذون جنسيا الذين يميلون لممارسة الجنس مع الاطفال Les pédophiles

الاشخاص الذين ينتمون الى هذه الفئة يمثلون اغلبية اصناف الخاطفين . كما يبدو ان الاشخاص الذين يفضلون ممارسة الجنس مع الاطفال ، يتجهون لشريحة الاطفال لأنهم اكثر سهولة من البالغين و ذلك لإمكانية اغرائهم و خداعهم بكل سهولة بواسطة استعطافهم و تمكينهم مما يحبون و يفضلون . وعندما يتمكن المعتدي من اختطاف الطفل و اخفائه في المخبأ المخصص لذلك يقوم بالاعتداء الجنسي على الطفل [15]

والاعتداء الجنسي على الطفل هو استخدام الطفل لإشباع الرغبات الجنسية لذلك الخاطف. وهو يشمل تعريض الطفل لأي نشاط أو سلوك جنسي ، ويتضمن غالبا التحرش الجنسي بالطفل من قبيل ملامسته أو حمله على ملامسة المُتحرش جنسيا

ومن الأشكال الأخرى للاعتداء الجنسي على الطفل المجامعة وبغاء الأطفال والاستغلال الجنسي للطفل عبر صور الخلاعة والمواقع الإباحية.[16]

2- الاستغلاليون Les profiteurs

و هم الاشخاص والجهات الذين يستغلون الاطفال لأغراض ربحية او تجارية ، و يتمثل ذلك ببيع الاطفال ليتم استغلالهم في الانشطة الإباحية او من اجل بيعهم لجهات معينة من اجل التبني . او من اجل استغلالهم في التسول ، حيث تنتشر ظاهرة التسول بالأطفال في الدول الفقيرة و الغنية على حد سواء فالفقر و انعدام وسيلة الحصول على ما يسد رمق الحياة ، دفع ببعض الاشخاص الى استغلال الاطفال المختطفين في التسول وذلك لاستمالة وإثارة شفقة المارّة ، مستغلين في ذلك بكاء ذلك الطفل المختطَف الذي يبكي على والدته او اسرته ليظن المارّة ان الطفل يبكي من اجل الجوع و الاحتياج . حيث يكثر تواجد المتسولين حول اماكن العبادة مستغلين خشوع المصليين لإثارة الشفقة في نفوسهم عبر اطلاق عبارات التوسل و التودد ، و تنتشر هذه الظاهرة في محيط المساجد خاصة يوم الجمعة مستغلين في ذلك القيمة الروحية و الدينية لهذا اليوم بالنسبة للمسلمين مع الاعداد الكبيرة من المصلين خاصة اثناء اداء صلاة الجمعة .

3- السيكوباتيون المحرومون من الابناء

حيث يحاول هؤلاء الاشخاص اختطاف الاطفال ، لأنهم لم يتمكنوا من تربية او انجاب أطفال او لأن اطفالهم قد ضاعوا ، لذلك يحاولون ان يعوضوا حرمانهم من الابناء باختطاف طفل . و جل اصحاب هذه الفئة هم من النساء . و يكون الدافع من وراء الاختطاف في هذه الحالة هو التبني.

و نعني باختطاف الاطفال لغرض التبني الحصول على اطفال بأي طريقة و تأمين انتقالهم عبر وسطاء الى كنف عائلة جديدة مقابل نفقات معينة .

ان التبني قد يضمن للعائلة التي لا ترغب بالإنجاب او التي لا تستطيع الانجاب ولدا ترعاه ، وقد تضمن للطفل بيئة و تربية افضل ، و لكن هذه الحاجة الانسانية قد فتحت باب رزق واسع لفئة التجار و السماسرة تحت غطاء وكالات التبني ، او القيام بخدمات اجتماعية انسانية ، بحيث خرجت عن اطارها الانساني و دخلت حيز الاستغلال التجاري اللاشرعي ، فأصبح السماسرة يتقاضون مرتبات مرتفعة غير قانونية مدعين انها مصاريف و نفقات تدفع لأم الطفل او نفقات وكالات التبني.

اما هذه الظاهرة التي حُولت عن مسارها الانساني كان لابد من توضيح كيفية حدوث هذه الجرائم و كيف استطاعت بعض الجماعات اللعب على الثغرات القانونية لممارسة تجارتها بالأطفال، و التشديد على ضرورة تقنين عملية التبني بدقة متناهية تجنبا للوقوع في فخ الاستغلال . حيث يعتمد التجار على مصادر متعددة لتأمين الاطفال للتبني .

هناك اطفال يُختَطفون و يقال انهم ايتام ليتم بيعهم من اجل التبني ، و قد عثر على الكثير من الاطفال المفقودين في الهند كأطفال تم تبنيهم في مناطق بعيدة .

كما ان بعض السماسرة يقومون باختطاف الاطفال حديثي الولادة ، و خاصة من الاطفال غير المرغوب فيهم .

اما طريقة عمل هؤلاء السماسرة فقد تتنوع بين مظهر قانوني يخفي عملا غير شرعي و آخر غير شرعي اطلاقا .

اما عن المظهر القانوني فهو عن طريق الحصول على ترخيص من الدولة بإنشاء مركز تبني ، حيث اشارت " اليونيسيف " بأن هناك بعض المراكز التي تدعي حماية الاطفال و تبنيهم ، و من ثم تقوم بتسويقهم بطريقة مستترة ، و ان الادعاء بحماية الاطفال عن طريق ارسالهم الى حياة افضل هو اكثر الامور المثيرة للجدل في هذا المضمار .

اما المظاهر غير الشرعية . فهي عبارة عن عصابات تقوم باختطاف الاطفال ، و ان هذه العصابات تنشط ابان الكوارث الطبيعية حيث تتشرد العائلة و قد عاش العالم هذه التجربة في العام 2005 حين ضرب المد البحري شرق آسيا .

و قد ورد تقرير اليونيسيف بعد المد البحري الذي ضرب اقليم " اتشيه " الاندونيسي يفيد ان الاطفال الايتام او المتشردين قد اصبحوا عرضة لعصابات المتاجرة بالبشر ، و اشار مكتب اليونيسيف في ماليزيا انه تلقى رسالة قصيرة عبر الهاتف النقال تفيد عن عرض لبيع 300 طفل يتيم من " اتشيه " تتراوح اعمارهم بين ثلاث و عشر سنوات .

كما نشطت عصابات الخطف و الاتجار بالأطفال على اثر موجات المد التي ضربت اندونيسيا و الهند و تايلاند و سريلانكا و ماليزيا و دول اخرى حتى افريقيا بتاريخ 26 ديسمبر 2004 . مما دفع الجمعية الانسانية الالمانية ((تيرا ديس هوميس)) ، الى تحذير الألمان من الإقدام على تبني اطفال من منطقة جنوب شرق آسيا .

و لم يكن لبنان بعيدا عن هذه المأساة ابان الحرب الاهلية الطويلة و التي اندلعت بدءا من العام 1975 ، اذ مازالت آثارها الكارثية تتداعى حتى اليوم ، اذ ورد في منتدى مرمريتا ان هناك اكثر من 400 شخص هولندي يبحثون عن اصولهم اللبنانية حتى اليوم ، و يتساءلون ما اذا كانوا ضحية بيع الاطفال .[17]

احصائيات عن اختطاف الاطفال في الجزائر

يوضح العنف الموجه ضد الطفل حسب طبيعة الجريمة خلال شهري جانفي وفيفري من سنة 2013 حيث تشير الاحصائيات الرسمية لمديرية العامة للأمن الوطني الى ان جنحة الضرب والجرح العمدي احتلت الصدارة ب 552 حالة أي بنسبة 57 % ، تلاها التعدي الجنسي ب 276 حالة أي بنسبة 28 % ، سوء المعاملة ب 90 حالة أي بنسبة %

9، الاختطاف أو التحويل ب 54 حالة أي بنسبة 6 % ، الضرب والجرح العمدي المفضي للوفاة بحالة واحدة (01) أي بنسبة 0 % والقتل العمدي بحالتين اثنتين(02)أي بنسبة 0 % .

احصائيات عن اختطاف الاطفال في امريكا

رسم بياني يوضح نسبة عائلات المختطفين الأطفال في امريكا حسب نوع العلاقة لسنة 2002

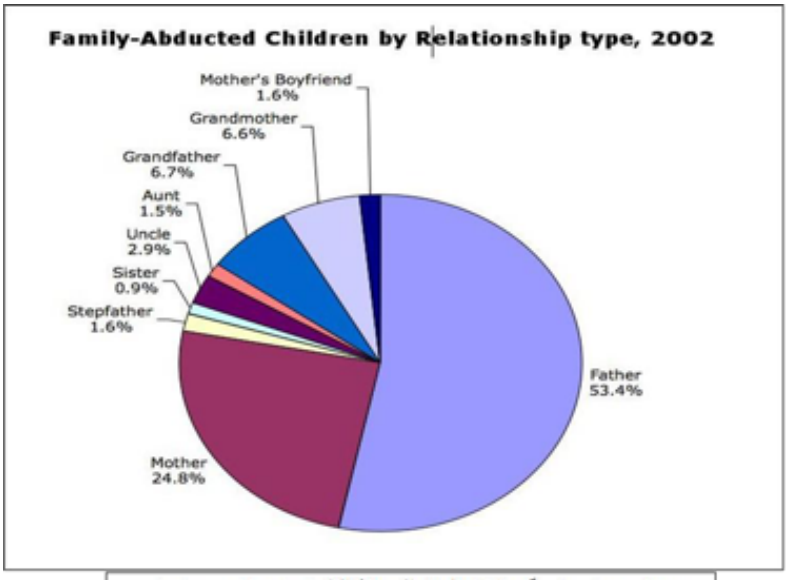

رسم بياني يوضح نسبة عائلات المختطفين الأطفال في امريكا حسب نوع العلاقة لسنة 2002

المصدر: HTTP://ORIGINS.OSU.EDU/ARTICLE/CHILD-KIDNAPPING-AMERICA/PAGE/0/1PAULA FASS , CHILD KIDNAPPING IN AMERICA, [19]

رسم بياني يوضح نسبة عائلات المختطفين الأطفال من قبل احد فراد العائلة حيث تصدر الأب المرتبة الاولى في ما يخص اختطاف الابناء بنسبة 53.4 %، يليها الأم بسبة 24.8 % ، ثم الجدة ب 6.6 % فالعم بسبة 2.9 % ، يليها زوج الأم و اصدقاء الأم ب 1.6 % ثم العمة ب 1.5 % ثم الأخت بنسبة 0.9 % .

رسم بياني يوضح أعمار الأطفال الذين اختطفوا من قبل أفراد الأسرة في امريكا لسنة 2002

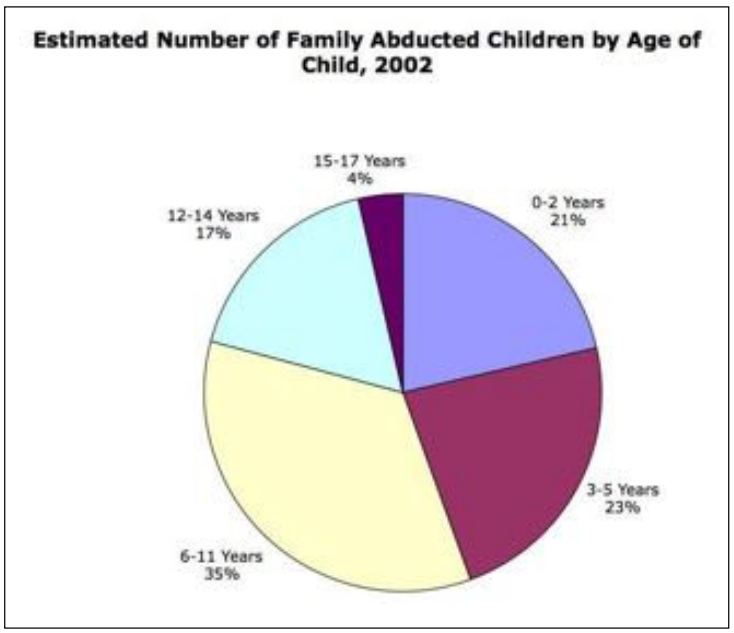

[20] المصدر: HTTP://ORIGINS.OSU.EDU/ARTICLE/CHILD-KIDNAPPING-AMERICA/PAGE/0/1PAULA FASS , CHILD KIDNAPPING IN AMERICA,

رسم بياني يوضح أعمارهم بين الأطفال الذين اختطفوا من قبل أفراد الأسرة اذ نجد ان الأطفال ضمن الفئة العمرية بين 6 الى 11 سنة نسبتهم 35 %، اما فئة 3 الى 5 سنوات ب 23 % تليها الفئة العمرية من 0 الى سنتين بنسبة 21 %، ثم فئة 12 الى 14 سنة ب 17 %، واخيرا الفئة من 15 الى 17 سنة بنسبة 4 %.

جريمة الاختطاف من الجانب القانوني

خصائص جريمة الاختطاف

1- الاختطاف من الجرائم المستمرة

تنقسم الجرائم الى صنفين من حيث الزمن الذي تتم فيه، فإذا كانت لا تستغرق إلا زمنا قصيرا هو الزمن اللازم لتمام الفعل، او الافعال المكونة لها فإنها تكون جريمة وقتية اي ذات وقت محدد قصير نسبيا بحسب ما تعارف عليه الناس بشأن تمام الافعال. فإذا اخذ شخص سلاحا وطعن به اخر فإن فعل الطعن لا يستغرق إلا زمنا قصيرا هو زمن الحركة المادية التي يتم بها فعل الطعن، وسواء كان الفعل هو طعنة واحدة او طعنات متتابعة. وإذا مد الشخص يده الى متاع شخص آخر، فأخذه على سبيل السرقة او الغصب او نحو ذلك فإن ذلك الاخذ لا يستغرق زمنا قصيرا هو زمن الحركة او الحركات المادية التي تم بها ذلك الفعل. ولذلك فإنها تسمى جرائم وقتية لأن الزمن اللازم لاكتمال الفعل المكون لها لم يستغرق إلا وقتا قصيرا.

وإذا نظرنا للعناصر المكونة لجريمة الاختطاف نجد ان الفعل المكون لها (النشاط) يتكون من عنصرين، أولهما: انتزاع المخطوف من الحيز الاجتماعي الذي يتواجد فيه. وثانيهما: نقله الى حيز اجتماعي اخر غير الذي خطف منه. فيمتد تحقق هذه العناصر المادية فترة من الزمن طالما لم يتوقف الجاني عن النشاط الذي يجرمه القانون وهو (ابعاد المجني عليه)، وطالما كان الخاطف مسيطرا اثناء الجريمة خلال هذا الوقت فإن الجريمة مازالت مستمرة و لم تنتهي احداثها بعد لأن الخاطف لازال يحتجز الضحية لديه.[21]

2- الاختطاف من الجرائم المركّبة

الجريمة المركبة وهي التي يقوم ارتكابها على جريمة اخرى اي تكون متبوعة بجريمة اخرى. وإذا نظرنا الى جريمة الاختطاف وما قد يصاحبها من جرائم نجد ان معظمها يكون مقترنا بجرائم اخرى قد تكون هي الدافع الرئيسي من وراء جريمة الاختطاف، فمثلا قد يقترن بالاختطاف اغتصاب او هتك العرض، كما قد يؤدي الاختطاف الى ايذاء المجني عليه (ضرب– جرح – تهديد)، وبذلك يكون هذا الايذاء مصاحبا ومقترنا بجريمة الاختطاف، وقد يقترن بالاختطاف جريمة قتل، كما في الحالة التي يتم فيها قتل المجني عليها بعد اختطافها. وقد يحدث ان يتم احتجاز شخص بعد ان يتم اختطافه للمساومة عند طلب فدية مثلا او لتنفيذ مطالب معينة قد يسعى اليها الخاطفون، وغير ذلك من الجرائم التي قد تصاحب جريمة الاختطاف.[22]

ونظرا لانتشار جريمة الاختطاف في الجزائر وتحديدا اختطاف الاطفال نجد ان المشرع الجزائري وضع عددا من المواد القانونية الخاصة بجريمة اختطاف الاطفال.

المادة 293 مكرر1: يعاقب بالسجن المؤبد كل من يخطف او يحاول خطف قاصر لم يكمل ثماني عشرة سنة (18) سنة، عن طريق العنف او التهديد او الاستدراج او غيرها من الوسائل. وتطبق على الفاعل العقوبة المنصوص عليها في الفقرة الاولى من المادة 263 من هذا القانون، إذا تعرض القاصر المخطوف الى تعذيب او عنف جنسي او إذا كان الدافع الى الخطف هو تسديد فدية او إذا ترتبت عليه وفاة الضحية.[23]

الخاتمة

ان ما خلصت اليه الدراسة ان جريمة اختطاف الاطفال مرتبطة ارتباطا وثيقا بالمحيط الاجتماعي للضحية ، و ذلك ما يُوجد ظروف القيام بعملية الاختطاف كما يبين ذلك عدد من نظريات علم الجريمة المعاصرة و يجب ان نؤكد على ان التنشئة الاجتماعية السليمة التي تبدأ دائما من الاسرة كأول مؤسسة من مؤسسات التنشئة الاجتماعية ، هي افضل ضابط لسلوك الفرد ، والإنسان يتعلم السلوك الاجتماعي من محيطه و من جماعة اصدائه فإن صلحت هذه التنشئة صلح الفرد و ان انحرفت انحرف الفرد و بالتالي نقول أن الأسس الصحيحة للتربية يتلقاها الفرد منذ مراحل عمره الاولى ، اذ نرى ان جل المجرمين لديهم عيوب في التنشئة الاجتماعية من طفولتهم و ذلك ما يبرر سلوكهم المنحرف في الكبر ، و تبدأ الانحرافات في الشخصية الى ان تصل الى مرحلة الإجرام ، اذن يجب على كل مؤسسات المجتمع ان تهتم بالتنشئة السليمة حتى تتجنب الانحراف و الجريمة. يجب ان تكون هناك اجراءات احتياطية و وقائية تكون بالتنشئة السليمة و الآمنة للأولياء لأن الوقاية تبدأ من الأسرة أولا و ذلك ب :

- توعية الطفل بعدم الوثوق في دوافع الغرباء الذين يأتون لمحادثته.
- توضيح معنى كلمة " الغرباء " ، فالطفل في مراحله العمرية المبكرة يعرف أن التعامل مع الغرباء غير آمن لكنه لا يعرف من هم هؤلاء الغرباء ، فيفترضون خطأ أن الكلمة تُطلق على سيئ المظهر وهو ما يتعارض مع العديد من عمليات الاختطاف حيث يكون الخاطف غالباً حسَن المظهر وقد يكون من الأقارب المحيطين بالطفل. تعليم وتنبيه الطفل لبعض الحيل أو الكلمات التي يمكن أن يتفوه بها الغريب على انها قد تكون مقدمة أو حجة ليتمكن من خطفه وتشجيع الطفل على اللعب مع الاصدقاء، إذ أن المختطفين غالباً ما يختطفون الأطفال المنفردين.
- تعليم الطفل كيفية رد الفعل المناسب إذا ما تعرض لمحاولة اختطاف وذلك عن طريق الصياح أولاً ثم الهروب فإن صياحه سيلفت نظر الناس إليه فيخاف الراغب في اختطافه.

- العمل على التخطيط الهندسي والمدني الاجتماعي السليم عند بناء الأحياء السكنية وذلك بتوفير فضاءات امنة ومحروسة تكون وسط الحي حتى لا يغيب الطفل عن الانظار مع تفعيل دور اجهزة الامن داخل الاحياء السكنية حتى يتم التدخل سريعا.

- تنظيم حملات تحسيس في المدارس و المساجد ووسائل الاعلام بمختلف انواعها و غيرها من الاماكن لتوعية المواطن و الطفل خصوصا .

- العمل على تطبيق نظام " إنذار الاختطاف " المعروف عالميا ب ALERTE ENLEVEMENT حيث يتم إنذار كل الجهات المعنية لحظة التبليغ عن اختطاف الطفل ، من خلال نشر صوره وبث الخبر عبر وسائل الإعلام المرئية والمسموعة و حتى في الانترنت عبر مواقع التواصل الاجتماعي مباشرة بعد التبليغ عن الحادث مع العمل على تعديل النصوص العقابية المتعلقة بجرائم اختطاف الاطفال لتكون اكثر ردعا لمرتكبي هذه الجرائم .

الهوامش

1- حسن بن ناصر الاسلمي،جرائم الاختطاف و الاغتصاب من المنظور الفقهي و القضائي http://theuaelaw.com/vb/showthread.php?t=4268

2- Merlene L.Dalley , L'enlèvement d'enfants par un étranger au canada , Services nationaux des enfants disparus,p 6-7

3- منتصر سعيد حمودة،حماية حقوق الطفل في القانون الدولي العام و الاسلام،دار الجامعة الجديدة،الاسكندرية ،مصر،2007، ص16

4- محمد على سكيكر ، العلوم المؤثرة فى الجريمة و المجرم ، مكتبة المدينة ، ط1 ، مصر، 2013، ص 13-14

5- إحسان محمد الحسن ، علم اجتماع الجريمة ،دار وائل للنشر ،الأردن ، ط1 ،2008 ،

6- Merlene L.Dalley , L'enlèvement d'enfants par un étranger au canada , Services nationaux des enfants disparus,p7-8

7- فريال أبو عواد ، البنية العاملية لمقياس الدافعية الأكاديمية ، مجلة جامعة دمشق – المجلد 25- العدد (2009 (4+3 ، ص 434

8- سوزي عدلي ناشد ، الاتجار في البشر بين الاقتصاد الخفي و الاقتصاد الرسمي ،منشورات الحلبي القحوقية،ط 1،بيروت،لبنان،2008.

9- Encyclopedia of criminological theory , cohen,laurence and mercus : routine activity theory,p 03,04

10- محمد الخطيب: المجتمع البدوي، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة- الطبعة الأولى، دمشق/سورية 2008، ص 120،121

11- ادوارد ويستر مارك، موسوعة تاريخ الزواج،المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع،لبنان،ط1،2001،ص 724،725،727،729

12- حمدي شفيق،تاريخ الاستعباد ،موقع صيد الفوائد ، http://www.saaid.net

13- جريمة الاختطاف ، منتدى الحقوق و العلوم القانونية http://www.droit-dz.com/forum/showthread

14- فؤاد زاديكه، انواع الزواج في العالم http://www.fouadzadieke.de

15- Merlene L.Dalley , L'enlèvement d'enfants par un étranger au canada , Services nationaux des enfants disparus,p 8

16- وسامْ، التحرش الجنس بالأطفال ، منتدى الاسرة ص 2
17- بسام عاطف المهتار،استغلال الاطفال،منشورات الحلبي الحقوقية،بيروت ، لبنان ، 2008، ص 37-38-39-40
18- موقع المديرية العامة للأمن الوطني ،http://www.dgsn.dz/
19- PAULA FASS , Child Kidnapping in America, http://origins.osu.edu/article/child-kidnapping-america/page/0/1
20- PAULA FASS , Child Kidnapping in America, http://origins.osu.edu/article/child-kidnapping-america/page/0/1
21- عبد الله حسين العمري ، جريمة اختطاف الاشخاص ، المكتب الجامعي الحديث ص 35-36-37
22- عبد الله حسين العمري ، جريمة اختطاف الاشخاص ، المكتب الجامعي الحديث ص 39-40
23- الجريدة الرسمية الجزائرية،المطبعة الرسمية،العدد 7،فيفري 2014،ص 6 .

حملة اللورد إكسموث على مدينة الجزائر سنة 1816 في عيون رحّالة محلي وقنصل أجنبي

- دراسة مقارنة -

أ. بلعمري فاتح

جامعة المسيلة

كثيرة هي الحملات الأوروبية التي تعرضت لها مدينة الجزائر أثناء العهد العثماني (1519-1830)[1]، ولهذا الأمر مبررات عدّة، في مقدمتها سيطرتها على البحر الأبيض المتوسط، خصوصا حوضه الغربي بفضل رجال بحريتها حينذاك، وفرضها العديد من الشروط والقوانين والتي بموجبها يتم المرور في هذه الرقعة البحرية بسلامة أو التعرض للأسر والحجز لكل من لا يراعي تلك البنود.

وبقدر ما شنت الدول الأوربية هجمات فردية أو جماعية على دار الجهاد[2]، كانت هذه الأخيرة في نظرهم مدينة الرعب وعش العفاريت[3]، بقدر ما دافعت المحروسة[4]، عن نفسها طيلة ثلاثة قرون وأزيد.

ولعلّ من أهم هذه الحملات الأوربية على "مدينة الجزائر"، حملة اللورد إكسموث[5] (LORD EXMOUTH) في نهاية أوت سنة 1816م، والتي هي محور هذا الموضوع. فمن محاسن الصدف التاريخية أن تزامنت هذه الحملة مع وجود شخصين مهمين في مدينة الجزائر، قدما وصفا لهذه الحملة، إنهما رحّالة محلي (أي جزائري)، وآخر رجل دبلوماسي أجنبي، وكل واحد منهما دوّن أخبار هذه الحملة من عدة زوايا. وهنا تكمن الإشكالية، فمن يكون هذان الشخصان؟ اللذان حضرا وشاهدا حملة اللورد إكسموث وكتبا عنها؟وما مدى صدق كل واحد منهما في سرد الحقائق ونقل الأخبار؟ فأين اختلفا وأين اتفقا في ذكر أنباء الحملة ؟وكيف كان سيرها ونتائجها؟ وما هي العوامل والأسباب التي تحكمت فيهما وفي إبداء آرائهما؟ هذا ما سنحاول الإجابة عليه، حتى نستطيع الوصول إلى التصور الحقيقي للحدث من حيث أسبابه، سيره ونتائجه.

وفي هذا المقام نحمد الله تعالى أن وجدنا من أسلافنا من يسّر الله له طريق الكتابة والتدوين حتى نقف على نتائج المقارنة بما كتبوه هم مع ما كتبه الغير، وأملنا في ذلك خدمة الحقيقة التاريخية لا غير.

I- التعريف بالشخصين "الرحّالة المحلي والقنصل الأجنبي":

أ- الرحّالة المحلي: عبد الرحمن بن إدريس بن عمر الأكبر التنلاني التواتي:

هو عبد الرحمن بن إدريس بن عمر الأكبر بن عبد القادر بن أحمد بن يوسف التنلاني ينتهي نسبه إلى سيدنا عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، وكنيته أبو زيد، كان عالما ماهرا في أصول الفقه والتفسير وكان حافظا للمسائل، ولد بتوات[6] 1181هـ، وتتلمذ على يد شيوخ فطاحل منهم: محمد بن عبد الرحمن بن عمر، محمد بن أحميد الزجلاوي وعبد القادر بن شقرون.[7]

لم يكتف "عبد الرحمن بن إدريس" بالعلم المقدم له بتوات فرحل إلى فاس، وترك مجموعة من الفتوى، ومن أهم مؤلفاته: الرحلة أي رحلة عبد الرحمن بن إدريس التنلاني التواتي الجزائري إلى الجزائر العاصمة. لقد كان عبد الرحمن كاتبا ومدرّسا

تخرج على يديه مجموعة من العلماء، سواء أتعلق الأمر بمنطقة تمنطيت، جرارة أو تيديكلت....أو غيرها من مناطق ولاية أدرار حاليا، كما كان له تأثير خارج هذه المنطقة وخاصة فيما كان يعرف بالسودان الغربي، أو غرب إفريقيا حاليا.[8]

تعتبر رحلة عبد الرحمن بن إدريس وثيقة ذات درجة كبيرة من الأهمية، ليس فقط في سرده حادثة حملة اللورد إكسموث على مدينة الجزائر سنة 1816 م، بل تتعدى هذا إلى ذكر بعض الحقائق عن المدن والقرى التي مر بها هذا الرحالة منذ انطلاقه في رحلته من قصر تنلان بأدرار إلى غاية وصوله إلى مدينة الجزائر العاصمة وهي: (قصر ملوكة، أدرار، تيميمون، المنيعة، متليلي، وادي ميزاب (مليكة)، الأغواط، الجلفة، المدية، والجزائر العاصمة)[9].

لقد توفي "عبد الرحمن بن إدريس" في جمادى الثانية من عام 1233هـ، الموافق لسنة 1817 بمدينة سوى[10]، وهو في طريق العودة من الحرمين الشريفين[11]، فرحمه الله تعالى على هذا العالم الجليل والرحالة النبيل الذي ترك لنا ما دّونه يراعه عن حملة اللورد إكسموث. ولا يفوتني في هذا المقام أن أقر باهتمام المؤرخين الغربيين في كثير من الأحيان لكتابنا المحليين ومؤرخينا بعدم الدقة والموضوعية في نقل الأخبار و المبالغة في العديد من الأوقات، فهل هذه حقيقة أم بهتان؟ هذا ما أودّ أن أعرف خباياه واقف على أصله بمقارنة نص "عبد الرحمن بن إدريس "بما كتب وليم شالر" القنصل الأجنبي. فمن يكون هذا الأخير؟

ب- القنصل الأجنبي: وليام شالر: "WILLIAM SHALLER"

لقد كان "وليام شالر" قنصلا للولايات المتحدة الأمريكية في الجزائر ما بين سنوات 1816-1824م وألّف عن عمله الدبلوماسي هذا كتابا، هو بمثابة تقرير شاهد عيان على هجوم إكسموث ويوميات قنصلية احتفظ بها[12]، وقد اقترح في كتابه: مختصر الجزائر "Sketches of Algiers" المطبوع عام 1826م في بوسطن استعمار الجزائر من طرف أوروبا، وبالتحديد بريطانيا حيث قال:« ...إن بريطانيا يجب أن تعتزم على استعمار واحتلال هذا القسم من إفريقيا...» ، وأوضح بأن أية مصاريف ستكلفها الحملة على الجزائر ستعوضها الخزينة الجزائرية، والتي قال بأنها تحتوي على مبلغ خمسين مليون دولار.[13]

ومما زاد من خطورة الأمر وأهميته، أن كتاب شالر ترجم في الحين إلى الفرنسية بعنوان هو: " Aperçu Historique sur l'état d'Alger"، ثم وضع في متناول وزارة الحربية الفرنسية، وبعد عام واحد فقط من صدوره، أعلنت فرنسا الحصار على الجزائر (1827)[14]، وإنّي أعتقد أن السلطات الفرنسية ترجمت ما جاء في كتاب شالر إلى عمل ميداني لا يقل أهمية عما كتبه آخرون من أبنائها وفي مقدمتهم الجاسوس بوتان[15]، من هذه الزاوية بالذات برهن "شالر" على أنه ملاحظ ومدوّن من الطراز العالي، ترك مادة تاريخية عالية القيمة عن الجزائر وعن حملة إكسموث البحرية عام 1816م[16].

وبما أن محور الحديث لهذا الموضوع هو "حملة اللورد إكسموث" كما دونها كل من "عبد الرحمن بن إدريس التنلاني التواتي ، ووليم شالر"، فإني اهتديت إلى وضع عناصر حتى تسهل عملية المقارنة من حيث ما ذكر الرحّالة المحلي بما كتب القنصل الأجنبي.

II- ذكر أخبار الحملة:

1- نزول سفن الإنجليز مع وصفها:

يذكر الرحالة المحلي "عبد الرحمن بن إدريس" نزول سفن الإنجليز بمياه الجزائر ويقول:"...يوم الأحد من شهر تاريخه عند العصر نزلت سفن عدو الله بدر لنكليز قرب الجزائر في البحر، وهي أربعون سفينة، وكل سفينة فيها مائة مدفع كبير، كل

مدفع عمارته قنطار بارود، ونزلوا بعيدا عن المدينة، بحيث لا تصلهم الرمية من الجزائر، وأقاموا يومهم ذاك وغدهم كذلك"[17]، في حين القنصل الأمريكي لم يصف الأسطول وقوته بقدر ما ذكره دون تفاصل فقال: "...وصل الأسطول المشترك إلى الجزائر في صباح يوم 17 أغسطس [18].

وفي هذا الشأن بقدر ما اختلف الرحّالة المحلي في ذكر عدّة وعتاد الأسطول صمت القنصل الأمريكي عن هذا،ويمكننا أن نسجل دقة وموضوعية عبد الرحمن بن إدريس بما كتب، لأنه ذكر ذلك وقال: "...إن ما قلته بعضه مشاهدة، وبعضه بطريق الخبر من الثقاة..."[19]، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن القنصل الأمريكي قلل من شأن قوة هذه الحملة ، وعدم قدرتها على احتلال البلد فذكر: "...نوع القوة ليس من شأنه احتلال البلد..."[20]، ونجده متناقضا فيما بعد في شأن هذا الخبر.

لكن ما غاب عن الرحّالة المحلي بأن الأسطول كان مشتركا (بين الإنجليز والهولنديين) و يواصل ذكره القنصل الأمريكي، الذي حمّل مسؤولية نشر خبر الحملة للصحف الفرنسية، وهذا ما خالفه تماما الرحالة المحلي.

2- تبديل الأعلام السوداء بالبيضاء :

يقول عبد الرحمن بن إدريس الرحّالة المحلي في هذا الإطار: "...في صبيحة ضحى الثلاثاء، بدلوا جميع أعلام سفنهم، وجعلوها بعد أن كانت سوداء من الأعلام البيض، وهي أعلام صلح وعافية، بخلاف السود فهي أعلام الحرب..."[21]، غير أن القنصل شالر يفنّد هذه الحادثة ويذكر: "...إن الجزائريين يتظاهرون بالاعتقاد بأنهم فوجئوا بالأسطول البريطاني الهولندي الذي كان يحمل عالم الصلح وغدر بهم..."[22]، ولعلّ الرحّالة المحلي في هذا الأمر كان صادقا، وهذا ما يدحض قول القنصل الأمريكي شالر لأن في مكاتبة إكسموث لداي الجزائر بعد انتهاء الحملة ما يثبت المكر والحيلة والخديعة حيث يقول: "...إن ملاقاة الأقران ومحاربتهم يكون بالقوة، ويكون بالشجاعة، ويكون بالمكيدة والحيلة، كما قيل الحرب خداع..."[23]، ولعل لإخفاء القنصل الأجنبي أمر خديعة تبديل الأعلام السوداء بالبيضاء اعترافا منه بقوة بني جلدته وإظهاره لحسن تنظيمهم وتفوقهم. والمتتبع لرسالة القائد إكسموث يقف على حقيقة استعمال الأسطول للحيل والخديعة حيث يعترف فيقول: "...وكما ينبغي لأمثالك أن يكون فيهم فضل جماعة، فكذلك ينبغي لهم أن يكونوا أهل مكر وخديعة، بل هذا أولى بهم وأكد في حقهم، ولو كنت متصفا بذلك ما توصلت أن لما فعلته بك وبمدينتك..."[24]، فمن الراجح أن قنصل أمريكا "وليام شالر" أخفى أمر تبديل الأعلام، وإلا كيف نفسر دخول الأسطول إلى ميناء الجزائر دون تعرضه لأذى؟.

3- ذكر مكاتبة الانجليز لداي الجزائر:

لقد قدّم الرحّالة المحلي كل الكتاب (الرسالة) الذي بعث به قائد الأسطول إلى داي الجزائر وفيه يقول: "...إعلم أني جئتك ناصحا ومصلحا...عندي ألفين قلاع جئتك منها بأربعين...وإن أبيت عن الصلح فنعم...وشاور على هذا نفسك وكبراء دولتك وأجّلتك ساعتين..."[25]، في حين لمح القنصل الأجنبي إلى هذه المكاتبة دون ذكر التفاصيل حيث قال: "...لما وصل الأميرال إكسموث إلى الجزائر، بعث بإنذار حكومته وطالب بردٍ في ظرف مدة محددة..."[26]، ولعله في هذه المسألة بالذات بانت دقة وموضوعية الرحّالة المحلي عن القنصل الأجنبي في ذكر كل تفاصيل الإنذار مع تحديد المدة الزمنية (ساعتين) والتي بقيت مبهمة عند القنصل الأجنبي.

4- بلوغ الكتاب صاحب الجزائر والسبب في عدم الجواب عليه:

يتحدث الرحّالة المحلي، رجل الدين وشيخ الزاوية عن هذا الأمر ويوضح السبب فيه فيقول: "...بلغ الكتاب صاحب الجزائر ووجد أكابر البلد ورؤساء الجند مفترقين في الجنانات لأن هذه الواقعة وقعت في فصل الخريف، وعادة البلد أن كل من عنده جنان يكون سكناه فيه ذلك الوقت، فتعطل الجواب على النصراني..."[27]، وبالمقابل فإن القنصل شالر يتهم داي الجزائر بالتصرف غير السليم وبقلة التصميم والحزم، وأن هذا لا يليق بشخصه، كما أنه أعاد رسول الأميرال البريطاني دون جواب على إنذاره..."[28]، ودون تحيز ولا مبالغة فإن عبد الرحمن بن إدريس كان محقا في نقل الخبر وقدم مبرراته المنطقية والواقعية والتي أثبتتها المصادر والقرائن، غير أن القنصل الأمريكي يبدوا جليا أنه كان متحاملا ومتعصبا في حكمه أيضا، دون إدراكه لمبرّرات عودة رسول الأميرال إلى سيده دون جواب، ولعل لهذا الأمر قراءة أخرى وتساؤل جدير بالطرح، لماذا كان اختيار هذا الزمان بالذات من طرف بريطانيا للهجوم على مدينة الجزائر؟ لو لم تكن مطلعة على الأوضاع داخل المدينة وعلى الحياة الخاصة بأكابر جندها و رؤسائها أيام فصل الخريف، وهذا ما يفتح مجال شك المؤرخ والباحث معا؟.

5- دخول سفن العدو مرسى الجزائر وعدم تعرضها لأذى:

يتمادى القنصل الأجنبي في تحميل مسؤولية هزيمة الجزائريين إلى الباشا أولا حيث يقول: "...سمح الباشا أيضا في نفس الوقت للأسطول المشترك بأن يختار المواقع الملائمة لقصف المدينة...دون أن تخطر في باله مقاومة..."[29]، ثم يبدي رأيه في دفاع المدينة ويقول: "...لو سدّد الجزائريين نيران مدافعهم بإحكام في بداية المعركة إلى بوارج عدّوهم التي يستطيعون إصابتها بسهولة لكان من المرجّح أن تنزل بها خسائر كبيرة..."[30]، غير أن الحقيقة التاريخية عكس ذلك تماما، وهذا ما أدلى به الرحّالة المحلي " عبد الرحمن بن إدريس" الذي يقّر بدخول سفن الأسطول إلى مرسى الجزائر، والمدافعين هناك أرادوا أن يضربوه بالمدافع فحلف عليهم القايد سمي "علي" وهو قايد المرسى الذي قال: "...لا مدّ أحدكم يده للضرب إلاّ قطعتها له..."[31]، ويذكر بأن في الأمر وقوع رشوة من طرف الانجليز لهذا القايد بحوالي 50 قنطارا، أو "25" أو "15" دون أن يؤكدها.

إن المتتبع لنهاية قايد المرسى، كيف أزهقت روحه من طرف الباشا عمر [32]، يتأكد بأن هذا الأخير لم يكن على علم بدخول سفن الأسطول ميناء الجزائر، والشيء الوحيد الذي اتفقا عليه كل من الرحّالة المحلي والقنصل الأجنبي، هو أن الأسطول رسى في الميناء دون أية مقاومة تذكر. غير أن الرأي الذي ينفرد به " عبد الرحمن بن إدريس" و لم يذكره "وليام شالر" هو ضرب الأسطول لمصدر الماء الذي يزود المدينة للشرب والتطهر بثلاثة مدافع وقعت على الساقية"[33]، وكان ذلك منذ بداية استقراره بالميناء، وفي هذا الأمر أعتقد أن الباحث والمؤرخ يستطيع أن يتخذ رأيه فيما كتب الرّحالة المحلي.

6- قصف المدينة:

لقد كان الرّحالة المحلي " عبد الرحمن بن إدريس" أكثر دقة من نظيره القنصل الأمريكي وليام شالر، لأنه حدّد بداية المعركة إلى غاية نهايتها، ثم ذكر المدة التي استغرقتها حيث يقول: "...ثم والى على المدينة بالبارود، وذلك بعد العصر، وقبل العصر، فلم يواليه عليها حتى قرب نصف الليل، ومدة ذلك على التحقيق إحدى عشر ساعة غير سدس..."[34]، بينما وليام شالر يذكر بأن المعركة كانت في صالح الانجليز منذ البداية لأنهم أكثر تنظيما وشجاعة وخبرة عكس الأتراك المتصفين بالجرأة والجهل والغرور [35]، وإني أعتقد في هذا الشأن أن هذا القنصل أبدى تحاملا وكرها للعثمانيين بسبب حكمه المسبق، ومن زاوية أخرى قلّص مدّة المعركة إلى تسع ساعات راحت الجزائر بعدها تطلب الصلح[36].

وإن كانت مدة المعركة في رأيي قد تفوق التسع ساعات، لأن بدايتها كانت قبل العصر، وكلمة قبل تعني طول المدة "بساعة أو ساعتين" إلى غاية منتصف الليل، وعلى هذا الأساس فلعلها تكون من الثانية زوالا إلى قرابة منتصف الليل إلاّ عشر دقائق.

ومما زاد تميز الرحّالة المحلي وانفراده بالموضوعية والدقة هو ذكره لعدد الكور التي سقطت على المدينة (إحدى وأربعين ألف كورة)[37]، دون أن يذكرها هذا القنصل وليام شالر ولو بمجرد إشارة، أمّا فيما يخص حرق جميع سفن أسطول الجزائر التي لم يتعرض لها القنصل شالر، فإن عبد الرحمن بن إدريس يؤكد هذه الحادثة ويذكر عدد السفن المحرقة وهي 14 سفينة كبار جدا، 13 أحرقت حتى لم يبقى لها أثر والرابعة عشر بقي شيء منها[38]، ومن هذه الواقعة أيضا تأكد لنا بأن الرحّالة المحلي كان يتحرى الأمانة في نقل خبره والدقة في وصفه لما حدث، والتي اكتفى القنصل شالر فيها بقوله: "...الأسطول دمّر..."[39]، دون توضيح وتدقيق.

مما زاد في تأثير نفسية الرحالة المحلي عبد الرحمن بن إدريس هو حالة السكان في تلك الليلة والتي يصفها بعدة أوصاف تنمّ عن صدقه ونبل إحساسه فهي عنده ليلة شابت فيها الولدان، أسقطت فيها الحوامل، إشتدّ فيها البكاء والعويل، عظم فيها الكرب والهم والغم [40]،...وبالموازاة فهذا ما لم نجد له أثرا على الإطلاق عند الدبلوماسي شالر، بل بالعكس من ذلك تماما يصرح بأن تخريب وكر القرصنة لم يكن ضمن مخطط الحكومة البريطانية [41]، ولعل الصفة التي نعت بها مدينة الجزائر أظهرت عدائه الشديد ومقته الدفين لها.

7- شروط الصلح:

بحكم أن القنصل الأمريكي شالر كان قريبا من الداي "عمر باشا[42] "، فقد أكد على امتعاض الداي من شروط الصلح، إلاّ أنه ذكر ثلاثة شروط تخص هذا الصلح، فيها ما اختلف مع الرحّالة المحلي وفيها ما اتفق معه، وهذه الشروط عند شالر هي: [43]

أ- إطلاق سراح جميع العبيد المسيحيين. ب- إعادة مبلغ 350.000 دولار كان ملك نابولي وسردانيا قد دفعاه فدية لرعاياهم الذين أطلق سراحهم في شهر أفريل الماضي. جـــ- تنازل الإيالة عن استرقاق رعايا الدول المسيحية في المستقبل، غير أن نظيره عبد الرحمن بن إدريس يحدد عدد الأسرى بـــ 1332 أسير، ويذكر مبلغ الفداء بعدد الأسرى (1100 أسير في شهر أفريل الماضي)، كل أسير بألف ريال (دورو الكبير)، والشرط الثالث الذي يذكره هذا الشيخ التنلاني هو أن يطلق صاحب الجزائر للإنجليز وهران وعنابة يكيلون منها الزرع، ولا يدخل الأتراك بين النصارى وأرباب الزرع.[44]

ومن هذا فمحور الاتفاق بين الرحالة المحلي والقنصل الأمريكي هو إطلاق سراح الأسرى وإرجاع مبلغ الفداء، ونقطة الاختلاف بينهما هي في الشرط الثالث الذي لم نجد له ذكرا في نص المعاهدة، غير أنّ السؤال الذي يطرح نفسه، ما الداعي الذي جعل الرحالة المحلي يذكر هذا الشرط، وما السرّ في سكوت القنصل الأمريكي عنه؟ والجواب هو أنه من المرجح أن يكون هذا شرطا سريا، إذا ما علمنا أن إنجلترا كانت دائما المنافس الأول والغريم اللدود لفرنسا، هذه الأخيرة التي استأثرت بتجارة الحبوب خصوصا في الناحية الشرقية ببايلك قسنطينة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد دلنا القنصل الأمريكي شالر ببعض قرارات مؤتمر فينا (1815) والتي تقضي بتحريم استرقاق رعايا الدول المسيحية، وإجبار الجزائر على تطبيق ذلك.

8- عقد الصلح:

اتفق كل من الرحالة المحلي والقنصل الأجنبي على أن الصلح وقع والجزائر قبلت بكل الشروط، غير أنّ الرحّالة المحلي ينفرد بتحديد مدة هذا الصلح، بين خمس أشهر وسنة وخمس سنين، لكنه أكدّ أنّ القاضي المالكي في تلك الفترة هو الذي أخبره بوقوعه سنة، وعلى هذا الأساس فمصدر معلومات هذا الرحّالة المحلي في الغالب كانت من صديقه القاضي (سيدي الحسن بن سيدي الحاج مصطفى) [45]، حتى أنّ المتتبع لذكر معلومات هذا الرّحالة يقف على عبارات عدة تدّل على تدوين ما قيل له عن ثقة أو عكس ذلك، إذ يقول: "...ما بلغني تحقيق ذلك عن ثقة..."[46]، في حين القنصل الأمريكي شالر يضيف في هذا الشأن أنّ هولندا عقدت مع الجزائر شروط صلح هي نفسها مع انجلترا بقيادة البارون فاندر كابيلان، ويصف أيضا فرح الانجليز بهذا الانتصار، وتوزيعهم للنياشين وزيادتهم لمعاشات وأجور رجال بحريتهم...[47]، لكن من أين للقنصل شالر بهذه الأخبار؟ وعلى غالب الظن أنّ أنباء انتصار الانجليز على الجزائريين كانت متداولة، ولعلّ من بين أهم المصادر التي استقى منها شالر معلوماته هي من موظفي قنصلية بريطانيا في الجزائر حينها، ومن المؤكد أنها معلومات صحيحة دلت على سعادة الانجليز بهذا الانجاز دولة وشعبا.

أمّا في ما يخص خروج سفن الأسطول من مرسى الجزائر وانتظار وفود الأسرى، فقد أوردها الرحّالة المحلي وزاد على هذا تأكيد أخذهم لمبلغ الفداء، وهذا ما لم يطلعن عليه القنصل الأمريكي شالر إطلاقا. وأني أرى موضوعية الرحالة المحلي وتتبعه للحدث بدقة أكثر من نظيره القنصل الأجنبي وليام شالر.

9- نتائج المعركة:

إنّ ما يذكره الرحّالة المحلي عن خراب مدينة الجزائر دلّ على أنه أكثر دقة وتوضيحا من القنصل الأجنبي وليام شالر، فهو يقدم الواقعة بأرقامها[48]، إذ يقول في بعض منها: (...500 دار خربت، برج الفنار خرب، وفاة 341 رجلا من المسلمين، 47 أكلهم البارود والكور، مات من النصارى 300 رامي...وفيما يخص إعادة بناء ما تهدم وترميم المنشآت فهو يصف هذه العملية وصفا يبّن على أنه عاش الحدث إذ يقول: "...يحمل الحطب الأخضر لطبخ الجير 500 جمل، جميع القبائل التي حول الجزائر يعطون ثلاثة أيام، وضع ألف بغلة لحمل الحجر والجير، 70 معلما للبناء، 1400 خديم، ولكل خديم 7 مزنات، وللمعلم 12 مزنات، وأول عمل قاموا به هو إصلاح سور المرسى، والاهتمام بإعادة بناء المسجد الكبير المنسوب للمالكية وهذا ما لم يصفه بوضوح شالر بتاتا.

دون مبالغة ولا تحيز، فقد أظهر " عبد الرحمن بن إدريس" التنلاني التواتي على أنّه ناقل للخبر من الصنف العالي، بذكره المنشآت المتضررة بأمكنتها وسرده للواقعة بتفاصيلها مع تأكيده على مصدر الخبر، بعضه مشاهدة وبعضه الآخر من الثقاة وعلى رأسهم شيخ القرّاء "سيدي عبد السلام الجبلي المغربي"[49]، وكذا القاضي المالكي السالف الذكر. وما زاد يقيني الكبير بصدق معلوماته ودقته فيها هو ذكره لتحطم روضة سيدي عبد الرحمن الثعالبي بالإضافة إلى هدم قبة مسجد الحنفية الذي عند سوق الحوت وقال:"...حسبت فيه أربعة عشر فرمة..."[50]، وهذا إنّ دلّ على شيء فإنما يدلّ على وقوفه على آثار الحملة وتأثره بها وبمخلّفاتها.

رغم بقاء الرحّالة المحلي في مدينة الجزائر 37 يوما فقط، إلاّ أنه أثبت خبر سير الحادثة ونتائجها بدقة متناهية فاقت وصف وليام شالر الذي لم يتأثر للحدث كثيرا إذ ما قورن برحالتنا المحلي، وفي اعتقادي هذا راجع إلى عامل الروح الوطنية العالية وكذا الصدق والأمانة في نقل الخبر اللتان اتصفا بهما عبد الرحمن بن إدريس.

وللحقيقة التاريخية يسرد عبد الرحمن بن إدريس كيفية موت قايد [51]، المرسى على يد الباشا عمر، ثم يصف حالة الخوف والرعب والهم والغم التي كان عليها سكان المدينة وقتها، وتوقف البيع والشراء فيها وانعدام الأمن في جميع الطرق المؤدية

لها وشيوع خبر خرابها واستيلاء النصارى عليها، غير أنّ الله تعالى هو الذي حال بينهم وبين أخذهم المدينة على حد ذكره، كما يزودنا ببعض المعارف التي تخص دفاع المدينة ناحية البحر بواسطة المدافع المركبة على سور المرسى، وعلى برج الفنار، وعلى ساحل البحر جهة عين الرباط، واستعمال الأسطول الانجليزي لخديعة ومكيدة حراس المدينة حتى وصوله إلى سور المرسى[52].

وللتأكيد على أنّ الرحّالة المحلي كان حاضرا في مواقع عدة تخص حملة اللورد إكسموث على مدينة الجزائر سنة 1816، هو ذكره بأنّ دار الباشا عمر ضربت بكورة وزنها 151 رطلا، أي 75.5 كلغ تقريبا، وقد حضر هو وزن هذه الكورة ويذكر تأثيرها بوفاة 11 نفسا من حشم الباشا، وتخريب مقدار دويرة من داره (قصر الداي)[53].

بقدر ما اختلف الرحّالة المحلي عن نظيره القنصل الأجنبي في عناصر مهمة تخص نتائج المعركة، والتي تبين من خلالها، أنّ عبد الرحمن بن إدريس ملاحظا دقيقا وواصفا أمينا بقدر ما اتفق معه على أنّه لو استأنف قصف المدينة لجلى عنها الأتراك ولأصبح من الممكن احتلالها، وهنا نسجل تناقض وليام شالر مع نفسه بخصوص نوع القوة الذي ليس من شأنه احتلال المدينة كما قال في البداية.

لقد اشترك كل من الرحالة المحلي والقنصل الأمريكي في ذكر عمليات الترميم وإعادة بناء المنشآت المتضررة التي عقبت نهاية المعركة، لكن ينفرد الرحالة المحلي بذكر التفاصيل أكثر من القنصل الأجنبي شالر، والذي يوجه أصابع الاتهام لفرنسا بنشر وإذاعة خبر الحملة، غير أنّ الرحالة المحلي يزودنا بذكر مكاتبة كل من مللك المغرب (مولاي سليمان) [54] ويهود مدينة ليفورنة "Levourne" لداي الجزائر يعلمانه بشأن حملة اللورد إكسموث على مدينة الجزائر [55]، وعلى غالب الظن أن كلا الخبرين يكون صحيحين.

10- وصف عمر الباشا:

لقد قدم القنصل الأمريكي شالر وصفا دقيقا [56]، لشخص داي الجزائر حينها (عمر باشا) ينّم عن ملازمته له وكثرة ملاقاته، كما قدم نبذة عن حياته وكيفية وصوله إلى الجزائر، ومن ثم إلى سدّة الحكم فيها، وهو في هذا يفوق الرحالة المحلي الذي اكتفى بتقديم شجاعته وقت المعركة بالذات، وهو يستقبل الكور بصدره ووجهه مناديا: ياعباد الله، الجنة مفتوحة لكم أبوابها[57]...،وإني أعتقد أنّ ملازمة القنصل شالر لداي الجزائر في عدة مرات ولقائه به في مناسبات كثيرة بحكم منصبه كقنصل ورجل دبلوماسي جعله يقدم على وصفه وصفا يتضح من خلاله معرفته الدقيقة به، مع استعانته بمصادر أخرى ساعدته على تتبع مراحل الحياة لهذا الشخص، وفي نفس هذا الإطار نقول أنه لو كان الرحالة المحلي قريبا من داي الجزائر، أو أتيحت له الفرصة لملاقاته مرات عدة لكان وصفه له أدق من وصف شالر، وإن كان هذا التخمين لا يغير من حقيقة الأمر شيء، ولقد برهن القنصل الأمريكي على أنه ملاحظ متميز في شخص داي الجزائر وجامع لأخباره وحياته أكثر من الرحالة المحلي، الذي اكتفى بالثناء عليه، ولهذا مبرراته المنطقية والواقعية، غير أنّ دقة وموضوعية الرحّالة المحلي ظهرت جلية في عدة مصادر ومراجع وإحالات[58].

III- استنتاجات:

ومن خلال ما تقدم عن الشخصين الرحّالة المحلي والقنصل الأجنبي في كتابتهما عن حملة اللورد إكسموث على مدينة الجزائر سنة 1816 نخلص إلى النتائج التالية:

- لقد اتضح أنّ الرحّالة المحلي " عبد الرحمن بن إدريس" كان صادقا في سرد أخبار الحملة من حيث أسبابها، سيرها ونتائجها بالتفصيل والتوضيح دون اهتمام القنصل الأجنبي بسرد التفاصيل.

- لقد اتفقا كل من الرحّالة المحلي والقنصل الأمريكي في نقاط منها:

أ- ذكر مكاتبة الإنجليز لداي الجزائر وعدم رد هذا الأخير عليهم.

ب- دخول سفن الأسطول لميناء الجزائر دون تعرضها لأذى.

جـــ- في بعض شروط الصلح، بعد انتصار الإنجليز (خصوصا الشرط الأول والثاني).

د- في بعض آثار ونتائج المعركة (الحملة)...

- ولقد اختلفا في أمور عدة ولعلّ من أهمها:

أ- قضية تبديل الأعلام السوداء بالبيضاء التي يقرّ بها الرحالة المحلي وينكرها القنصل الأجنبي.

ب- نزول سفن الإنجليز ميناء الجزائر مع وصفها وصفا دقيقا من طرف الرحالة المحلي.

جـــ- الاختلاف بينهما في ذكر الشرط الثالث في توقيع الصلح.

د- في ذكر بعض آثار الحملة وصداها المحلي والأوربي.

هـــ- في وصف عمر باشا داي الجزائر، والذي أعطى ترجمة حياته وسيرته ووصفه هو القنصل الأمريكي شالر عكس الرحالة المحلي...

خلاصة:

- كلا المصدرين مهمين في حديثهما عن حملة اللورد إكسموث على مدينة الجزائر سنة 1816م ، فيهما من الاتفاق كما فيهما من الاختلاف في ذكر تفاصيل الحملة و آثارها و بعض نتائجها .
- لقد تحكّمت عوامل عديدة و ظروف كثيرة في تدوين أخبارالحملة عند كل من الرحالة المحلي عبد الرحمن بن إدريس التنلاني و كذا القنصل الأمريكي وليام شالر.
- كتابة التقارير الرسمية و الرحلات الدبلوماسية تختلف في صياغتها عن كتابة الرحلات الخاصة و العادية ، و لذلك ظهر هذا الفرق بين كل من وليام شالر كقنصل و عبد الرحمن بن إدريس كرحالة .
- الحقيقة الواجب ذكرها في هذا الشأن أنّ بعض الكتاب و الرحالة العرب لا تنقصهم الموضوعية و الدقة في نقل الأخبار من أمثال عبد الرحمن بن إدريس التنلاني التواتي.
- وجدنا ما ذكره كل من الرحالة المحلي والقنصل الأجنبي فيه من الفائدة التاريخية ما يهم الباحثين والمؤرخين عن حملة اللورد إكسموث على مدينة الجزائر.

الهوامش والمراجع:

(1)- مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 115.

(2)- دار الجهاد: من بين أهم التسميات التي أطلقها العرب والمسلمون عموما على مدينة الجزائر إبان العهد العثماني.

(3)- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، طبعة خاصة، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص 321.

(4)- المحروسة: تعتبر هذه التسمية لصيقة بمدينة الجزائر في العهد العثماني، خصوصا من طرف المؤرخين والكتاب العرب والمسلمين (أحمد أبوراس الناصر، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ج2، تح، م.و.أ.إ.ث. وهران، 2008، ص 25.

(5)- اللورد إكسموث: "Lord Exmouth" إسمه إدوارد بيلاّو "Edward Pellew". ولد يوم 19 أفريل من سنة 1757 بإنجلترا، توفي عام 1833م عن عمر يناهز 76 سنة، قام بحملة على مدينة الجزائر برفقة الهولندي الأميرال فان كبيلان Van Cappelin في نهاية أوت 1816.

انظر: وليم سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1980، ص 160.

(6)- توات: إقليم يقع جنوب غرب الصحراء الجزائرية، ويقع ضمن امتداد أدرار، تيميمون، عين صالح، الأولى (أدرار) كانت تعرف باسم منطقة توات، والثانية (تيميمون) باسم منطقة القورارة والثالثة (عين صالح) باسم منطقة تيديكلت.

انظر: فرج محمود فرج، إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، دكتوراه الدور الثالث في التاريخ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص 1.

(7)- عبد الرحمن بن إدريس التنلاني التواتي، رحلته ضمن كتاب ثلاث رحلات مغاربية ويليه مجموع رحلات جزائرية، تحقيق مصطفى ضيف ومحفوظ بوكراع، طبعة خاصة، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص ص 223-224.

- وعبد الرحمن بن إدريس التنلاني التواتي، الرحلة، تحقيق حساني مختار، حوليات جامعة الجزائر، العدد 16، ج1، 2006، ص 201.

(8)- نفسه ، ص 202.

(9)- "سوى": واحة في غربي الفيوم دون فزان السودان، وهي آخر جنوب مصر.

انظر: إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص ص 128-129.

(10)- عبد الرحمن بن إدريس التنلاني، المصدر السابق، تحقيق حساني مختار، ص 201.

ونفس المؤلف، المصدر السابق، تحقيق مصطفى ضيف ومحفوظ بوكراع، ص 226.

(11)- نفسه ، ص 226.

(12)- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 281.

(13)- نفسه ،ص281.

(14)- احميدة عميراوي، الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني، مذكرات تيدنا أنموذجا، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2003، ص ص 25-26.

(15)- للجاسوس بوتان كتاب مهم انظر:

- Boutin (y), Reconnaissance de Villes, forts et batteries d'Alger, Pub, par G.Esquer, Lib.Ancienne, H. Champion, Paris, 1927.

(16)- أحميدة عميراوي، المرجع السابق، ص 25.

(17)- عبد الرحمن بن إدريس، المصدر السابق، ص 244.

(18)- وليام شالر، المصدر نفسه، ص 156.

(19)- عبد الرحمن بن إدريس، المصدر السابق، ص 257.

(20)- وليام شالر، المصدر السابق، ص 158.

(21)- عبد الرحمن بن إدريس، المصدر السابق، ص 245.

(22)- وليام شالر، المصدر السابق، ص 169.

(23)- عبد الرحمن بن إدريس، المصدر السابق، ص 256.

(24)- المصدر نفسه، ص 257.

(25)- نفسه، ص 246.

(26)- وليام شالر، المصدر السابق، ص 156.

(27)- عبد الرحمن بن إدريس، المصدر السابق، ص 246.

(28)- وليام شالر، المصدر السابق، ص 156.

(29)- نفسه، ص 156.

(30)- نفسه، ص 158.

(31)- عبد الرحمن بن إدريس، المصدر السابق، ص 247.

(32)- نفسه، ص ص 253-254.

(33)- نفسه، ص 247.

(34)- نفسه، ص 247.

(35)- وليام شالر، المصدر السابق، ص 157.

(36)- نفسه، ص 157.

(37)- عبد الرحمن بن إدريس، المصدر السابق، ص 247.

(38)- نفسه، ص 248.

(39)- وليام شالر، المصدر السابق.

(40)- عبد الرحمن بن إدريس، المصدر السابق، ص 254.

(41)- وليام شالر، المصدر السابق، ص 158.

(42)- الداي عمر باشا:حكم الجزائرمن 7 أفريل 1815م إلى 1817م ، لم يكن يعرف القراءة ولا الكتابة لكن كان يتمتع بصفات الحاكم ، كان في الأربعين من عمره ، قوي البنية موفور الحيوية ، اتّسمت أعماله بالعدل والحلم.انظر: أبو العيد دودو،الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان 1830 – 1855م، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،1989م، ص 64

(43)- وليام شالر، المصدر السابق، ص 157 .

(44)- عبد الرحمن بن إدريس المصدرالسابق، ص 249.

(45)- سيدي الحسن بن سيدي الحاج مصطفى: لقد عاصر هذا القاضي العديد من العلماء ومنهم محمد بن القاضي و الشيخ محمد بن المصطفى وسيدي السعيد بن محمد ويبدوأن المدة التي قضاها في القضاء كانت قصيرة انظر: نورالدين عبد القادر صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، نشر كلية الآداب الجزائرية، 1965، ص ص 194- 195 .

(46)- عبد الرحمن بن إدريس، المصدر السابق، ص 250.

(47)- وليام شالر، المصدر السابق ص، ص 157-158.

(48)- عبد الرحمن بن إدريس، المصدر السابق، ص ص 253-254.

(49)- سيدي عبد السلام الجبلي المغربي : يبدو من خلال التسمية أنه من المغرب، وقد كان من قراء صحيح البخاري بالجامع الكبير في مدينة الجزائر والتي كانت عادة دأب عليها علماء المدينة طيلة الفترة العثمانية انظر: عبد الرزاق بن حمادوش، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تقديم وتحقيق وتعليق ابوالقاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ،الجزائر، 1983، ص ص216-218.

(50)- عبد الرحمن بن إدريس، المصدر السابق، ص 253.

(51)-نفسه، ص ص253-254.

(52)- نفسه، ص254.

(53)- نفسه، ص 255.

(54)- مولاي سليمان : هو أبوالربيع سليمان بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل بن الشريف، كان سلطانا مغربيا من سلالة العلويين وهو ابن السلطان محمد الثالث، حكم ما بين 1797 - 1822 وقدم مساعدة للجزائر بعد حملة اللورد اكسموث تمثلت في مركبين من نوع كربيط وبلاندرة وأموالا انظر: أحمد الشريف الزهار، مذكرات الحاج احمد الشريف نقيب أشراف الجزائر1168-1246 ه/1754-1830 م، تحقيق أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص 127.

(55)-عبد الرحمن بن إدريس، المصدر السابق، ص255.

(56)-وليام شالر، المصدر السابق، ص ص 160-162.

(57)-عبد الرحمن بن إدريس، المصدر السابق، ص 256.

(58)- شونبيرغ ، نظرات على الاحتلال الأخير والتاريخ الحديث للجزائر، ترجمة أبو العيد دودو ضمن كتاب الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1989، ص ص 65-66.

انظر: عبد الجليل التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، منشورات مركز الدراسات والبحوث، تونس ،1985، ص ص 144-145 و عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج3، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، ص 318.

الوضع الجيوبوليتيكي للجزائر ودوره في بلورة توجهات السياسة الخارجية -السياسة الخارجية إتجاه مالي والنيجر أنموذجا-

د.بن غربي ميلود
جامعة الجلفة

مقدمة

على الرغم من تدهور قومية الدول العظمى واضمحلال إيديولوجياتها ، وما فرضته في الوقت ذاته الأسلحة النووية من قيود كبيرة على استخدام القوة، فإن المنافسة القائمة على الأرض مازالت تسيطر على الشؤون الدولية، حتى وإن أصبحت اليوم تتخذ أشكالا أكثر تمدنا في هذه المنافسة، لا يزال الموقع الجغرافي يشكل نقطة الانطلاق في تحديد الأولويات الخارجية للدولة القومية كما هو الشأن في الجزائر وباقي دول العالم بطبيعة الحال ، وهو ما سنحاول التطرق إليه من خلال التعرض للحالة الجزائرية برصد وضعيتها الجيوبوليتيكية وتأثيرها في إختيارات السياسة الخارجية لاسيما إزاء دول الجوار الجنوبية . وهذا عبر الإجابة على الإشكالية التالية :كيف أثر الموقع الجيوغرافي على صنع قرارات السياسة الخارجية الجزائرية إتجاه كل من مالي والنيجر ؟

أولا :السياسة الخارجية الجزائرية في إطارها الإقليمي والدولي

يظل حجم الرقعة الوطنية واحدا من أهم معايير المكانة والقوة إذ أن الدول القومية مازالت تكون الوحدات الأساسية للنظام العالمي [1]. وعليه ينبغي لعملية ممارسة السياسة الخارجية الجزائرية الاقليمية والدولية <<أن تكون حساسة للحقيقة التي تفيد بأن الجغرافيا السياسية تظل اعتبارا حاسما في الشؤون الدولية، يقال أن نابليون قد قال يوما أن معرفة جغرافية الدولة يعني معرفة سياستها الخارجية. إلا أن فهمنا لأهمية الجغرافيا السياسية يجب أن يكيف نفسه لحقائق القوة الجديدة[2]>>

1/ دور صناع القرار في بلورة توجهات السياسة الخارجية الجزائرية

السياسة الخارجية هي الإستراتيجية التي يعمد صانع القرار في وحدة دولية ما إلى إنتهاجها، إتجاه أطراف النظام الدولي ووحداته الأخرى، لتحقيق أهداف محورها هو المصلحة وهذا التعريف يحدد مجموعة من المضامين للسياسة الخارجية أهمها:

1- السياسة الخارجية تتعلق بسياسة الوحدة الدولية إتجاه الوحدات الدولية الأخرى، وقد اتسع مفهوم السياسة الخارجية ليضم سلوكيات وحدات دولية بجانب الدول كالمنظمات الدولية وحركات التحرير الوطني .

2- السياسة الخارجية عملية مخططة وليست عفوية، تتمثل في إستراتيجية يحولها صانعوا القرار في وحدة دولية إلى برنامج.

3- محورية دور صانعي القرار في كل وحدة دولية في صنع سياستها الخارجية يتطلب دراسة عملية صنع السياسة الخارجية وتحديد المشاركين في تلك العملية، وكيفية صنعها والمتغيرات المؤثرة فيها ونوعية السلوك الخارجي للوحدة الدولية.

4- السياسة الخارجية وسيلة ، وليست غاية بحد ذاتها لتحقيق أهداف محورها المصلحة [3]

بما أن السياسة الخارجية عملية مخططة لخدمة مصلحة فإنها تتأثر بأمرين:

- الثوابت: وهي تؤدي للتواصل.
- المتغيرات: وهي تنبع من تغير العنصر البشري القائم على عملية صنعها والتغيير في موازين القوى والعلاقات بين أطرافها[4].

والملاحظ إن السياسة الخارجية الجزائرية تعتبر أحد المجالات التي تندر فيها الدراسات العلمية، وقد يعود إلى أن الكثير من الباحثين يتجنبون الخوض في هذا المجال بحجة ندرة المعلومات ، والتي يقع الكثير منها في نطاق العمل البيروقراطي السري، مما يصعب معه التوصل إلى تحليل متكامل لها، ومن ثم فإن البعض يعتقد أن الاقتراب من هذا المجال يعد مغامرة محكوم عليها بالفشل، ومع التسليم بصحة جزء من هذه الحجة فإن الإستسلام لهذا التصور قد يجعل علم السياسة الخارجية جامدا، ومن ثم لا يمكن تطوير هذا العلم هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الإستسلام لهذا قد يصيب المتخصصين في ذاك المجال في الجزائر بالإحباط، حيث يصعب عليهم استثمار هذا العلم من أجل خدمة الوطن.

تحدد الظروف البيئية الداخلية والدولية خطوط السياسة الخارجية الجزائرية ومعناها، فالعلاقة بين بيئة الجزائر الداخلية وبين سياستها الخارجية علاقة عضوية ومباشرة ، وكذلك فإن العلاقة بين أمن الجزائر واستقرارها وبيئتها الاقتصادية والاجتماعية والحضارية علاقة تشابك وتداخل وتفاعل باتجاهات مختلفة مع شعوب ودول الجوار.

2/ أساليب ممارسة السياسة الخارجية الجزائرية

1- مد الجسور مع كافة الدول والقوى في العالم.
2- التعامل مع الآخرين بحسن النية وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى وعدم السماح لهم بالتدخل في الشؤون الداخلية للجزائر.
3- عدم الانخراط في المحاور أو أحلاف.
4- عدم الاستعداء وإثارة الأزمات والتعامل بإيجابيه معها في حال حدوثها ومنع تصعيدها بالمماطلات والحملات الدعائية.
5- حل النزاعات بالمفاوضات والحوار وتجنب الحلول العسكرية.
6- المبادرة للمصالحات وتنقية الأجواء بين الدول العربية والإفريقية.
7- العمل على كل ما من شأنه تعزيز العمل العربي والمغاربي المشترك.
8- الالتزام بالمواثيق والأعراف الدولية وبمبادئ الشرعية وميثاق الأمم المتحدة واحترام حقوق الانسان والتعددية السياسة والديمقراطية وحق الشعوب بالعيش في سلام وأمان و طمأنينة لتكريس الجهود للتنمية والازدهار[5]

3/تأثير الموقع الجغرافي للجزائر في بلورة توجهات سياستها الخارجية

يعد الموقع الجغرافي للجزائر أحد العوامل الهامة التي تؤثر في جغرافيتها السياسية لتأثيره على اتجاهات سكانها، وعلى السلوك السياسي لحكوماتها وعلى علاقتها بجيرانها وغيرهم من الوحدات السياسية المختلفة على الساحة الدولية.

لاشك أن مساحة الدولة كما هو الشأن بالنسبة للجزائر التي تقدر مساحتها بـــ 2381741 كلم^2 الأولى من حيث المساحة في إفريقيا وفي الوطن العربي وكذلك في البحر الابيض المتوسط، له ميزة إستراتيجية خاصة وميزات اقتصادية عامة فالدولة ذات المساحة الكبيرة تتصف بمميزات عسكرية تجعل غزوها واحتلالها صعب للغاية، مثال على ذلك الصين التي حاربت التوسع الياباني خلال الثلاثينيات من القرن العشرين ، ونجحت بفعل عوامل مختلفة أهمها مساحتها الكبيرة،

وكذلك الأمر بالنسبة لروسيا التي وقفت صامدة أمام غزو نابليون، وفي تاريخ لاحق أمام غزو هتلر(6) وحتى في الجزائر لم تتمكن فرنسا من احتلال الجنوب وتتغلغل فيه إلى بعد مضي عدة عقود من احتلال العاصمة الجزائرية سنة 1830 .

كذلك تتميز المساحة الكبيرة بإمكانيات تجنب الضغط السكاني وتوزيعه على أقاليم متعددة إذا ما كانت الظروف الإنتاجية تسمح بذلك، بالإضافة إلى أن المساحة الكبيرة تعد بآفاق مستقبلية في مختلف المجالات الاقتصادية[7].

وفي مقابل هذه الايجابيات فإن الحجم الكبير قد يصعب الإشراف المباشر لسيادة الدولة في كل أجزائها الواسعة ويتطلب ذلك خطوط اتصال كثيرة سريعة لتتمكن السلطة السياسية من مراقبة أقاليمها ومن الأمثلة على ذلك ضعف النفوذ الصيني في أقاليمها البعيدة مثل منغوليا وتركستان الصينية (سنكيانخ)[8] وكذلك ضعف الجزائر في مراقبة حدودها الجنوبية لاسيما مع مالي والنيجر. فالجزائر تمتد بين دائرتي عرض 19°و17° شمال خط الاستواء وهو امتداد واسع بين المنطقة المعتدلة الرطبة في الشمال والمنطقة الصحراوية الجافة والمدارية في الجنوب، وهذا يعني تعدد أشكال المناخ فيها، وهي تمتد بين خطي طول 9° غربا و12° شرقا وهو امتداد واسع حيث أن الفرق بين شرق الجزائر وغربها يفوق الساعة[9] ويمر بالجزائر خطين أساسيين هما مدار السرطان 23.5° شمال مدينة تمنراست، وخط طول الصفر (خط غرينتش) بالقرب من مدينة مستغانم[10] ومع ذلك فإن التوقيت المحلي للجمهورية الجزائرية لا يتطابق مع توقيت غرينتش.

هذا ويمتد الشريط الساحلي في الشمال على مسافة 1660كلم من تونس شرقا إلى المغرب غربا، كما تقدر الحدود البحرية الجزائرية بـــ 12 ميل بحريا شمال الساحل كمياه إقليمية وما بين 32و52 ميلا بحريا كنطاق للصيد البحري ويبلغ طول الحدود البرية الجزائرية حوال 6385 كلم تتوزع كالتالي بـــ 965 كلم مع تونس، 982 كلم مع ليبيا، 965 كلم مع النيجر، 1376 مع مالي، 463كلم مع موريتانيا، و42كلم مع الصحراء الغربية، 1601كلم مع المغرب. وعلى الرغم من المشاكل والنزاعات الحدودية كما حدث في حرب الرمال مع المغرب في عام 1963 فإن الجزائر تمكنت من الاتفاق مع جيرانها على رسم الحدود المشتركة وكان من بين ذلك مع تونس اتفاق على رسم الحدود بين البلدين في 1970/06/06 ومع المغرب في 1972/06/15 ومع موريتانيا في 1983/12/13 ومع مالي في 1983/05/08 ومع النيجر في 1983/01/05[11] فبعد ما كانت الجزائر تعمل على تأجيل تسوية قضايا حدودها خلال فترة الاحتلال الفرنسي فقد سعت منذ نيلها الاستقلال السياسي في بداية الستينات من القرن العشرين إلى جعل قضية الحدود أهم الأهداف الأساسية لسياستها الخارجية قصد إيجاد حل لهذه المسألة على أساس القواعد والمبادئ القانونية التي تكرس مبدأ المحافظة على الحدود الموروثة عن الاستعمار[12] وقد دشنت الجزائر المستقلة مواقفها المرتبطة بحدودها بمجموعة من التصريحات السياسية لكبار مسؤوليها قبل بلورتها في منظمة الاتحاد الإفريقي ومن هذه التصريحات إعلان الحكومة الجزائرية عام 1962 أن حدود الدول الجديدة ينبغي أن تظل قائمة تبعا لما خططته القوى الاستعمارية التي أعقبتها هذه الدول فإلى جانب الاتحاد الإفريقي الذي نشطت الجزائر إلى التحرك فيه لتأكيد موقفها من مسألة الحدود الموروثة وتكريس هذه المواقف على اساس مبدأ التوارث الدولي وعدم قابلية المعاهدات ذات الصلة بالأنظمة الحدودية والإقليمية للمراجعة فإنها كانت كذلك أكثر نشاطا في سعيها بالدفع بالدول المجاورة إلى ابرام معاهدات واتفاقيات تعاون وحسن الجوار معها تراعي موقفها المبدئي من قضية الحدود[13].

ثانيا: السياسة الخارجية الجزائرية اتجاه كل من مالي والنيجر

إن استيطان الدور الجزائري في الفضاء الجيوسياسي العربي والإفريقي خصوصا مع تنامي الازمات والتهديدات الأمنية في منطقة الساحل يدعو إلى محاولة التأمل في ما مدى توظيف الجزائر لمقاربة الدور RoleApproach كمحدد مهم في

العلاقات الدولية، إذ أن إدراك الدور كمعطى استراتيجي في العلاقات الدولية يتحدد بعناصر الصراع والاستقرار التي تمثل عنصر القوة والتأثير في العمق الاستراتيجي وهو معطى مهم في علم الجغرافيا السياسية[14]فالدور هو مفهوم صانعي السياسة الخارجية لماهية القرارات والالتزامات والقواعد والأفعال المناسبة لدولتهم والوظائف التي يجب عليهم القيام بها في عدد من الأطر الجغرافية الموضوعية، وعلى هذا الأساس لا ينشأ الدور الإقليمي إلا عندما تسعى الدولة إلى القيام به وصياغته صياغة واعية ومدروسة.[15]

هذا الدور الذي تسعى الديبلوماسية الجزائرية الإضلاع به خصوصا في الدول الإفريقية الحبيسة حبث تأخذ هذه الدول – التي لا تطل على بحر – في إفريقيا شكل قوس أو زاوية قائمة شبه متصلة في وسط القارة ابتداء من مالي حتى ليسيتو و مرورا بأوغندا وتمتد الدول الشمالية المحبوسة امتدادا عرضيا من الشرق إلى الغرب تشترك اثنين منهما بحدود طويلة مع الجزائر هما مالي والنيجر.

1/ السياسة الخارجية الجزائرية اتجاه دولة مالي

علاوة على الجزائر فإن لدولة مالي مخرجان على المحيط الاطلسي واحد عبر السنغال (بري وحديدي)طوله 1888كلم إلى ميناء دكار، والآخر عبر بوركينا فاسو إلى ميناء أبيدجان في ساحل العاج ويتسم هذا المخرج بارتفاع تكلفة النقل لتكرار إعادة التفريغ والشحن، ووقعت مالي وغينيا والصين اتفاق في عام 1968 لمد خط سكة حديد إلى ميناء كوناكري في غينيا لخدمة مالي، ولكن لم يتم عمل شيء في هذا الخصوص بعد، وعندما يتم إنشائه سيصبح مخرجا بحريا ثالثا لدولة مالي على الأطلسي وتخرج بوركينا فاسو عن طريق ميناء أبيدجان في ساحل العاج ، وتمتلك الدولتان خط السكة الحديد العابر لهما وتقومان بتشغيله تشغيلا مشتركا، ويسمى خط سكة حديد أبيدجان – النيجر على أمل توصيله بعد ذلك إلى ميامي عاصمة النيجر، وبالتالي يصبح للأخيرة منفذ بحري سهل عن طريق ميناء أبيدجان[16]وتخرج النيجر حاليا عن طريق مناء ليجوس في نيجيريا، وكذلك عن طريق ساحل العاج [17] والراجح أن توجه الجزائر لإنشاء الطريق السيار شمال جنوب وربطه مباشرة بميناء شرشال على البحر الأبيض المتوسط أحد المشاريع الكبرى الواعدة سيفك العزلة عن تلك الدول ويكرس تحقيق المصالح القومية المشتركة مع الجزائر.

هذا وعلى اثر ثورات الربيع العربي ظهرت أولى الحركات الجهادية الطوارقية على يد زياد ات غالي الذي أعلن عن مشروعه في إقامة الخلافة الإسلامية ، و تطبيق الشريعة وفق مفهومه بعد ما شن حربا على حركة تحرير ازواد ، و على قوات الجيش المالي بعد تحالفه مع فروع القاعدة في الصحراء الكبرى. أدركت فرنسا لعبة الدومينو التي تلعبها الجماعات الارهابية في مالي فإن سقطت مالي في ايديها ستسقط دول أخرى إن عاجلا أو آجلا، وعليه فقد كان هدفها من تدخلها العسكري الذي أتى بعد تفويض من الامم المتحدة لدرء أي عدوان مماثل على دول الجوار المغاربي المنكشفة على اثر ثورات الربيع العربي .[18]أتى القرار الفرنسي نتيجة محاولات الحركات الاسلامية فرض واقع جديد تمثل في الزحف جنوبا باتجاه باماكو، وهو ما يعني السيطرة بشكل كامل على مالي بل على دول الجوار بالكامل، وهو الامر الذي دفع دول غرب إفريقيا المعروفة باسم إيكواس و تضم 15 دولة للانخراط في الحملة الفرنسية .[19]كما كانت الجزائر بدورها قد ساندت الحملة

وقد أثرت هذه الحملة على الجزائر بإعلان كتيبة الموقعون بالدم لزعيمها المختار بن مختار عن احتجازها لرعايا غربيين في مجمع عين أم الناس لإنتاج الغاز بالقرب من الحدود الليبية في بداية عام 2013 ، حيث

أفرزت حصيلة تحرير رهائن المقدر عددهم ب 685 عـاملا جزائريـا و 107 اجانـب مـن النخبـة العسـكرية الجزائرية على قتل 32 إرهابيا من جنسيات مختلفة علاوة على 23 رهينة .[20] و هـو مـا يؤكـد أن جماعـات " القاعدة في المغرب الاسلامي" التي تنشـط في منطقـة الصـحراء الكـبرى و السـاحل لا تقـوم فقـط بالأعمـال الارهابية ، وإنما تشارك في كل أشكال الاتجار غـير المشـروع و اللصوصـية و الجريمـة المنظمـة الـتي تتجلـى في الهجمات ضد الاهداف العسكرية و المدنية ، و كذلك خطف الرهـائن ولا شـك أن جماعـات مـن هـذا النـوع تشكل خطرا دائما لذلك تحث حكومات الدول الأوروبية رعاياها بتجنب منطقة الصحراء الكبرى .[21]

إن ظهور هذا النوع من الجماعات الصغيرة التي تتمتع بحركية عاليـةو قـدرة علـى التـدمير بغـض النظـر علـى كمها العددي يقتضي تعاونا أمنيا وعسكريا بين الجزائرو الدول الإفريقية خصوصـا دولـة مـالي ، امـا التعـاون الدولي كالذي تقوم به فرنسا لتكوين وحدات متخصصة في الجيـوش الإفريقيـة فـلا يسـتطيع وحـده تعـويض ذلك العجز .[22]و حتى و إن نجحت الدولة الفرنسية في القضاء على ذلك الكيان الارهابي في شمال مالي .

2/ السياسة الخارجية الجزائرية اتجاه دولة النيجر

تعد الدول الإفريقية المحاذية للجزائر دول فاشلة حيث يتجلى فشلها في انهيار مؤسساتها السياسية والعسكرية والاقتصادية لذلك أصبح المشهد العام للبيئة الأمنية في هذه الدول المنهارة يحوي العديد من التهديدات والمخاطر على الأمن القومي الجزائري لعل أبرزها تنامي التهديد الارهابي وتجارة السلاح وتجارة المخدرات والهجرة الغير شرعية علاوة على التهريب بكل أشكاله[23] وتعتمد الاستراتيجية الجزائرية على أبعاد صلبة وأخرى لينة، فشقها الصلب يقوم على إحاطة الحدود الجزائرية الجنوبية بدرع أمني ذو جاهزية عالية للتعامل السريع مع مختلف التهديدات الأمنية والتي تحاول اختراق الداخل الجزائري، أما الشق اللين للإستراتيجية فيقوم على مقاربة الجوار والحل السياسي للازمات المندلعة في هذه الدول، وذلك في إطار دبلوماسية السلام التي تنتهجها الجزائر في سياستها الخارجية إزاء هذه الدول[24] إلى جانب المساهمة في التنمية المدمجة والمتعددة الأشكال للمنطقة الحدودية المشتركة، كون التكفل باحتياجات وانشغالات المناطق الحدودية يجب أن يشكل محور استراتيجيات التنمية بواسطة تشجيع المبادلات التجارية وإنجاز مشاريع اجتماعية وصناعية تسمح بفك العزلة عن تلك المناطق[25] وتعد مكافحة الإرهاب هاجسا مشتركا لكل من الجزائر والنيجر خصوصا وأن الشريط الحدودي الذي يربط هذين البلدين طويل، وفيما يخص العلاقات الثنائية يبقى التضامن من بين أهم جوانب التعاون بين البلدين فيما لا تعكس المبادلات التجارية القدرات ونوعية العلاقات القائمة بين هذين البلدين[26].

فقد قامت الجزائر سنة 2010 بمسح الديون النيجيرية بقرار من رئيس الجمهورية، وهي لم تدخر جهدا عندما يتعلق الأمر بمساعدة هذا البلد وفي هذا الخصوص منحت الجزائر العديد من الهبات والمساعدات الإنسانية من مواد غذائية وأدوية إلى النيجر[27] كما ساهمت الجزائر في تكوين الإطارات النيجيرية حيث أن النيجر من البلدان الإفريقية التي استفادت من أكبر عدد من المنح التكوينية التي تشهد ارتفاعا من سنة إلى أخرى، وفي مجال التعاون تجتمع اللجنة المختلطة الجزائرية – النيجيرية بصفة منتظمة وكذلك اللجنة الثنائية الحدودية التي تترأسها وزارتي الداخلية في البلدين والتي تتمثل مهمتها في المبادرة بأعمال تعاون بين المناطق الحدودية الجزائرية –النيجيرية وتقييمها، وفيما يخص ترحيل الرعايا النيجيريين إلى وطنهم الأصلي فقط تمت مباشرة تلك العمليات بطلب من الحكومة النيجيرية ، وهي تجري تحت مراقبة المنظمات الدولية المعنية بالهجرة[28]

الخاتمة

لا تتمتع الجزائر بموقع استراتيجي هام فحسب في جنوب المتوسط و شمال إفريقيا،بل هي أكبر دول هاتين المنطقتين من حيث المساحة و أكثرها تنوعا و ثراءا في الموارد و الإمكانيات الإقتصادية والحضارية و الثقافية،و هو مايعد حافزا لصناع القرار فيها لبلورة دور ريادي و محوري للجزائر على الساحتين الإقليمية والدولية ،ولكن كان دائما ذلك من خلال إحترام مبادئ الشرعية الدولية والقانون الدولي وبما يحقق مصالح الشعب الجزائري ويحافظ على الوحدة الترابية للجزائر،وما يؤسس لتحقيق الإستقرار والسلم والإزدهار في المنطقة والعالم . وهو ما يفسربكل تأكيد ركون السياسة الخارجية الجزائرية وإنخراطها الفاعل من أجل دعم الشرعية في كل من مالي والنيجر والعمل على إستتباب الأمن والتنمية فيهما .

الهوامش:

1- زبغنيو بريجنسكي: رقعة الشطرنج الكبرى الأولوية الأمريكية ومتطلباتها الجيوستراتيجية. ترجمة أمل الشرقي. الأهلية للنشر والتوزيع. عمان. 1999. ص 55.

2- المرجع نفسه. ص 54.

3- هويدا شوقي أبو العلا أحمد: دور الدين في السياسة الخارجية مع التطبيق على السعودية وتركيا. المكتب العربي للمعارف. القاهرة. 2015.ص15.

4-المرجع نفسه. ص16.

5- أمين مشاقبة وآخرون: السياسة الخارجية الأردنية واقع وتطلعات وثائق المؤتمر الأول. دار الحامد (عمان. أبريل 1999). ص110.

6- عدنان صافي: الجغرافيا السياسية بين الماضي والحاضر. منشورات مركز الكتاب الاكاديمي عمان. 1999.ص119.

7- المرجع نفسه، ص119.

8- المرجع نفسه.ص119.

9- راجع مادة "الجزائر الموقع و الأبعاد "على الموقع الالكتروني "نبراس المعرفة". تاريخ الدخول 2016/06/08 متاح على الرابط الجزائر_الموقع_الابعدforum.edu63.thretads/0103

10- ibed

11- بن غربي ميلود: موقف الجزائر من نزاع الصحراء الغربية في ظل المتغيرات الإقليمية والتحديات الوطنية. مؤسسة كنوز الحكمة. الجزائر.2011.ص39.

12- محمد رضوان: منازعات الحدود في العالم العربي مقاربة سوسيو تاريخية وقانونية لمسألة الحدود العربية. إفريقيا الشرق. الدار البيضاء. 1998.ص89.

13- المرجع نفسه. ص91.

14- قوى بوحنية: " الجزائر هواجس الأمن الإقليمية في البحث عن مقاربة اقليمية جماعية ". مجلة السياسة الدولية. مؤسسة الأهرام. القاهرة. العدد 202 يناير 2016. المجلد 56. ص80.

15- المرجع نفسه.ص80.

16- محمد محمود ابراهيم الديب: الجغرافيا السياسية منظور معاصر .الطبعة السادسة. مكتبة الانجلو المصرية. القاهرة. 2005.ص204.

17- المرجع نفسه. ص205.

18- مادي إبراهيم كانتي : " التدخل العسكري في مالي " . في مجلة أفاق إفريقية (القاهرة) الهيئة العامة للاستعلامات. المجلد 11 . العدد 38 . . ص 111 - 213

19- الدراسة نفسها . ص 111 – 112.

20- مسعود هدنة و مصطفى زارو : " الجزائر تعلن انتهاء عملية عين ام الناس بمقتل 23 رهينة و 32 مسلحا". على الموقع الالكتروني: العربية نت . تاريخ الدخول: 2016/06/04. على الساعة:11:00. متاح على الرابط : http://www.alarabiya.net/articles/2013/01/18/261141.htm

21- مصطفى المرابط و آخرون : تكلفة عدم إنجاز الاتحاد المغاربي . الدار العربية للعلوم . بيروت . 2011 . ص 30.

22- المرجع نفسه . ص 31.

23- راجع مقال كرد الواد مصطفى:" إستراتيجية الجزائر في التعامل مع التهديدات الأمنية الناجمة عن أزمات دول الجوار الجنوبي". على موقع "صوت سطيف". تاريخ الدخول 2016/07/07. على الساعة 09:00 . متاح على الرابط

إستراتيجية_الجزائر_في_تعامل_مع_التهديدات_الامنية_الناجمة_عن_أزمات_دول_الجوار_الجنوبيswatsetif/v/6600

ibid-24

25- فاطمة الزهراء حمادي: " الجزائر تراهن على ترقية تجارة المقايضة لتأمين حدودها الجنوبية". صحيفة الفجر (الجزائر). بتاريخ 2012/03/02.

26- راجع مقال :ق.و." بدأ أمس زيارة دولة إلى الجزائر تدوم ثلاثة أيام الرئيس النيجيري يزور مركب الشركة الوطنية للسيارات الصناعية بالرويبة ". صحيفة النصر (الجزائر). 2015/01/26.

27- و.أ.ج. "الجزائر تمنح 30 طن من المساعدات الإنسانية إلى النيجر ".صحيفة الخبر الجزائر في 2015/08/03.

28- ق.و." بدأ أمس زيارة دولة إلى الجزائر تدوم ثلاثة أيام الرئيس النيجيري يزور مركب الشركة الوطنية للسيارات الصناعية بالرويبة "المذكورة سابقا.

أدب المرأة وخصوصية الإبداع
- اشتغال متميّز على اللّغة -

أ. بوغنجور فوزية
جامعة وهران1

مقدمة

تعتبر كتابة المرأة واحدة من المنجزات النصية التي ثار حولها الكثير من الجدل ليس نقديا وأدبيا فحسب، بل تجاوزه إلى حقول سياسية اجتماعية تهتم بمقاربة نضال المرأة والمنظومة الحقوقية التي تؤطّر وضعيتها الثقافية والاجتماعية، ولعلّ الإشكالات التي تطرح في مقاربة هذه الكتابة هو -تحديدا- هذا الارتباط بالسياق الخارجي للمنجز النسوي، حيث تتوسّل المقاربة النقدية لهذا المنجز مقولات خارجة عن نطاق الأدب والنقد الأدبي، ما يجعل رهان أيّ قراءة هي تجاوز هذا الإرث "النقدي/اللانقدي" الذي رهن هذا النص منذ بداياته.

بدايات الكتابة النّسوية وتطورها:

شكّلت الأوضاع الاجتماعية للمرأة في أوروبا أرضية خصبة لظهور ما بات يعرف بالأدب النسوي، إذ كان ردّ فعلٍ على سنوات من الاضطهاد الطويل الذي عاشته المرأة، وترافقت دعوات التحرر التي تبنتها الحركات النسائية المنادية بحقوق المرأة في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن الماضي مع ظهور كتابات لنساء مبدعات، عبّرت عن هموم المرأة واهتماماتها، وغلبت عليها تيمات بعينها بدت أنها تمثّل الهاجس الأكبر لما تكتبه هؤلاء النساء، والتي تدور في معظمها حول الاضطهاد والمعاناة الذين يسببهما الرجل، وقد لفت تكرار هذه التيمات نظر النقاد إليها، ورأوا أنها ارتبطت بهذه النصوص وأضحت السمة الغالبة عليها، إنها تميّز هذا الأدب وتنحو به ليفارق النص المعتاد الذي يقدمه الرجل الكاتب.

تحوّل ورودُ هذه التيمات من شكلها العفوي وغير الواعي إلى شكلها الواعي والمقصود، إذ أصبحت تمتلك الإصرار على إثبات الذات والانتصار لها، وأضحت شيئا فشيئا تتحول إلى قضية والتزام، وبدا تمايزها ومفارقتها لكتابة الرجل جليا – على الأقل في مضامينها – لاسيما مع تنامي الدعوات التي تبنتها رموز الحركة النسائية في أوروبا وأمريكا، فرأت أن التحوّل الذي طرأ على وضعية المرأة من ارتقاء مهني وتعليمي ومشاركة في الحياة السياسية ليس كافيا، ذلك أن الحريات التي نالتها المرأة لم تشمل تحررها على صعيد الجنس/النوع، فقد ظلت المرأة – حسبهم – أسيرة للنظام "البطريركي" الذي يفرضه الرجل في جميع مجالات الحياة بدءا من الأسرة وانتهاء إلى المؤسسة والمجتمع، ونمت -بموازاة مع ما يُكتب- دراساتٌ نقدية اشتغلت على ما تبدعه المرأة، وسلّطت الضوء على خصوصياته، وتطوّرت نحو الحديث عن نظرية خاصة بالأدب النسوي، وتحوّل هذا الأدب نفسه إلى وسيلة للنضال حينا، بل إلى التطرّف في أحايين أخرى كثيرة نظرا لارتباطه أساسا بحركات نضالية.

وإذا تكلمنا عن المجتمع العربي فإن الأمر لم يختلف عمّا كان في أوروبا، إذ ارتبط الأدب النسوي في عمومه بالتطوّر الحاصل في نضال المرأة وما تتبناه الحركات النسوية، فلم يكن مستقلا عنها، وإنما اتخذ المنحى نفسه الذي سارت عليه تلك الحركات، فبدأت مطالبها بسيطة ومحدودة تتعلق بتعليم المرأة وتحقيق قدر من الاحترام والحقوق المكفولة لها شرعا، إلى أن سارت نحو المطالبة بالمساواة الجزئية، ثمّ الكلية مع الرجل، ووصلت في حدودها القصوى إلى التطرّف في طلب

المساواة المطلقة لاسيما فيما يتعلّق بالتّشريعات والقوانين، وامتدّ جدل المطالبة إلى خروج بعض الحركات النسوية العلمانية عن اللامعقول رغم طبيعة المجتمع العربي وخصوصياته، وذلك تأثرا بالمجتمعات الغربية وحركاتها التحررية.

لم تكن كتابات المرأة في منأى عن المعترك النضالي لهذه الحركات، بل ارتبطت بها وسايرت تطوّرها، بدأت بعد الحرب العالمية الأولى وبداية النهضة مشارِكةً للرجل، واشتغلت مثله في مستويات الإبداع كافة، وإن كان ذلك بشكل نسبي وتطور بطيء ومحدود، فقد كان همّ المرأة إثبات وجودها من خلال الكتابة وقدرتها على ذلك، و لم يكن رهانها الاختلاف عن السائد وهو كتابة الرجل، بل كانت تتمثّله وتسير على خطاه، مع تطوّر مطالب الحركات النسوية في بداية الستينات ظهرت روائيات عربيات خضن تجربة الكتابة بشكل مغاير، وأثرن بكتاباتهن إشكاليات عديدة، يتداخل فيها الفني المتعلّق بخواصها كنص أدبي مع الاجتماعي والسياسي، وأثارت تحفّظاتٍ وجدالا كبيرا يتنوّع هو الآخر بين تثمين انفتاح هذه الكتابات وجرأتها وتمرّدها، وبين انتقاد انحرافها وابتذالها.

إشكالية إبداع أم إشكالية مصطلح:

تتأرجح مقاربة النص الذي تكتبه المرأة في الغالب بين إشكالين رئيسين، يتعلّق الأول بمضمون وتيمات النص المُنجز، ويتعلّق الإشكال الثاني بالمصطلح أو التسمية الأنسب لتوصيف هذا المُنجز، فالإشكال الأوّل يُثار انطلاقا من المعايير التي يستعملها النقاد في دراساتهم لهذا النّص، إذ يغلب على هذه الدراسات توصيفات تستعير المفاهيم السيكولوجية بدل المفاهيم النقدية الجمالية، فنجد مصطلحات: "الجسد" و"الرغبة" و"الكبت" و"البوح" ... ويصبح فعل الكتابة حالة من التنفيس والإفراغ أو بالأحرى لحظة استشفاء من عقد نفسية، يقول الناقد الجزائري الأخضر بن السايح: "من خلال النصوص الروائية النسوية، خاصة المغاربية منها، يثبت أنّ البوح والانغلاق على الذات ظاهرة جلية في الرواية النسوية التي تحسن الإصغاء للجسد والذات .. وتبقى عملية السرد نوازع ورغبات وهواجس تجعل نصّ المرأة مفتوحا على الداخل في شبه دوائر حلزونية معتمدة على طاقة الذات التخييلية، يؤطّرها الجسد في بناء وتوطيد الجسور العبورية بين الداخل والخارج"[1].

إنّ هذه التعابير تبدو جاهزة ومُقولبة وصالحة للاستعمال كلّما تعلّق الأمر بنصٍ تكتبه المرأة، وغيرُ واضح إن كان منطلق ذلك الاستهانة بقيمة ما يُبدع فنيا ممّا يؤدّي إلى استسهال مقاربته، أم أنّ الأمر مبالغة في الحرص على تثمين ما تكتبه المرأة، غير أنّ هذا الحرص رغم توسُّمه بمبدأ المدح والثناء واستعمال التعابير الفضفاضة والجاهزة لم يخدم الهدف، و لم يُؤت ثماره، إنّما يُنبئ في حقيقته عن نظرة استعلائية تعتبر هذه الكتابة قاصرة، ووظيفة النقد ليس تقويمها بل إسعافها بالمديح والثناء.

في أفضل الحالات نجد هذه الدراسات تنحى بهذا الأدب إلى المنحى النضالي فتسمه بالثورة، متمثّلة الصورة الأثيرة للمرأة، وهي صورة "الضحية" و"المضطهدة" من قبل الذكر والمجتمع والمؤسسات ... ويصبح فعل الكتابة في الأدب النسائي محتكِما أو محكوما بهاجس قضية المرأة، يدافع عنها، ويرافع باسمها، ويطالب بحقوقها، وفي ذلك تقول نازك الأعرجي عن الكتابة النسوية: "إنّها كل ما تكتبه المرأة على خلفية وعي متقدم، ناضج، ومسؤول لجملة العلاقات التي تحكم وتتحكم في شرط المرأة في مجتمعها، ويكون جيّد التحديد، والتوصيف والتنقيب في هذه العلاقات، ويلتقط بالقدر نفسه النبض النامي لحركة الاحتجاج معبراً عنها بالسلوك والجدل، بالفعل والقول، وتعي كاتبته القضايا الفنية والبنائية واللغوية الحاملة للقدرات التعبيرية المثلى عن حركة التيارات العميقة المولّدة للوعي النسوي الجمعي، والوعي الاجتماعي الكلّي المحيط والمشتبك معه في صراع حي متجدّد وبالغ الحيوية"[2]. وتعتبر رشيدة بن مسعود مساهمة المرأة في الكتابة "وسيلة من

وسائل تحرّر المرأة وإغناء وعيها وتعميق تجربتها في الحياة"[3]، ويرى آخرون من أمثال حسين المناصرة أن "الكتابة النسوية كتابة تتخذ موقفاً واضحاً ضد الأبوية وضد هذا التمييز الجنسي، أي أنها كتابة مؤدلجة، أما الكتابة الأنثوية فهي التي تبدو وقد همشها النظام الاجتماعي والثقافي السائد بحجة وقوعها في زوايا التابو التي يجب على المجتمع أن يحاصرها، وبالتالي يمنعها –وبكل السبل– من أن تبرز هويتها بوجهه، بوصفها نوعاً من الكتابة له خصوصيته ومفرادته، حاله حال غيره من أنواع الكتابة الإبداعية"[4]، وسواء ألبس هذا الأدب لبوس النضال والثورة، أو وُزِن بميزانٍ فضفاضٍ مُقولبٍ وجاهز، فإنّه في الحالين يضيِّع هذا الأدبُ فرصته في إبراز جماليته وإثراء متونه من خلال مقاربة نقدية موضوعية كانت كفيلة برفده وخدمته وتطويره في حال أُتيحت له الفرصة.

في تتبعنا للإشكالات التي يلاقيها النص المنجز من قبل المرأة، يبرز تعدّد المصطلح وعدم توافق النقّاد، ما يُقرِّر أنّ هذا الأدب لا يزال يُبحث له عن مصطلح يُجمع عليه الدارسون، فقد كثرت التسميات، فنجد من يُطلق عليه اسم "الأدب المؤنّث" و"أدب الأنثى" و"أدب المرأة" و"الكتابة النسوية" و"الكتابة النسائية"، ولعلّ هذين المصطلحين الأخيرين هما الأكثر تداولا وشيوعا، أو هما آخر ما تداوله النقّاد أو أغلبهم، ويبدو أنّ الاختيار ليس قائما في الحقيقة على أسس موضوعية، وإن اجتهد كلّ ناقد في تعليل اختياره، وهو ما أشار إليه محمد معتصم بقوله: "بالتأكيد لهذا التقسيم والتمييز تأثيره على طرائق الكتابة، ومنها على الخصوص هذه الملاحظة المثيرة فالكتابة النسوية تصل في بعض الحالات إلى الدرجة الصفر في التعبير الأدبي ويصبح الخطاب فيها خطابيا وتبدو شخصية الرجل مبتورة مهزوزة تعبر عن القسوة والقمع وتختزل كلّ الصّور السالبة للمجتمع، وقهر المرأة، بينما الكتابة النسائية أو كتابة المرأة لا تتدخل الفكرة والوعي الإيديولوجي لدى الكاتبة في بناء الحكاية أو بناء الشخصية الروائية والقصصية (السردية)" [5]، فيما يفضّل آخرون أمثال حسين المناصرة مصطلح "الكتابة النّسوية" على مصطلح "الكتابة النّسائية" لما في المصطلح الأول من بعد لغوي يوازي مصطلح الكتابة الذكورية"[6]، وإن كنّا نتفق معه في اختيار مصطلح "الكتابة النسوية" لصحة النسبة وأوّليتها على النسبة "النسائية"، إلاّ أنّنا نردّ السبب الرئيسي الذي ساقه والمتعلّق بكون "النّسوية" مقابل للذكورة، فلو كان الأمر كذلك لكان استعمال مصطلح "الأنثوية" أولى لتحقيقه للتقابل التام، و لكنّنا نردُّ من الأساس اعتباره الكتابة النسوية مقابلا للكتابة الذكورية[7].

في كتابات نقدية أخرى نجد أنّ "الكتابة النسوية" أو"النسائية" هما توصيف واحد في مقابل توصيف آخر هو "كتابة الأنثى"، ويبدو أنّ هذا التفريق التفتت إليه الناقدات أكثر من غيرهن لحساسية ما، تتعلق بتسمية "الأنثى" نفسها، فنازك الأعرجي ترفض مصطلح "الكتابة الأنثوية"، "لأن الأنوثة كمفهوم تعني ما تقوم به الأنثى وما تتّصف به وتنضبط إليه، فلفظ الأنثى يستدعي على الفور وظيفتها الجنسية وذلك لفرط ما استخدم اللفظ لوصف الضعف والرقة والاستسلام والسلبية"[8]، بينما مصطلح "الكتابة النسوية" يقدم "المرأة والإطار المحيط بها: المادي والبشري والعرفي والاعتباري، في حالة حركة وجدل"[9]، وحملت هذه الحساسية الكثير من الناقدات والمبدعات على رفض تصنيفهن بالأساس، فرفضت غادة السمان هذا التصنيف متسائلة: "لماذا اعتبار كلّ ما هو نسائي غير إنساني؟ لماذا هناك هواجس نسائية، أما الهواجس الرجالية فتُقلب هموما إنسانية رحبة"[10]، وتقول هدى وصفي: "إنّ قهر المرأة أنشأ أدبا يسمّى "بالأدب النسائي"، وأراد الرجل أن يجعل المرأة تقف عند بابه، فسمّى كلّ إبداع المرأة بهذه التسمية، وبالتالي نظر إلى ما تكتبه المرأة باعتباره أدبا دونيا أو أقل"[11]، ويبدو أنّ هاجس "الصفة الإنسانية" دفع بتلك المبدعات والناقدات إلى رفض تصنيف ما تكتبه المرأة في خانة خاصة، وبدا هذا التصنيف على أنّه تكريس لدونية المرأة، انطلاقا من تحديدها وتأطيرها ضمن "فئة" خاصّة، في مقابل "العام" و"الشامل" و"الإنساني" ممثّلا في الرّجل، وقد شكّل قصور الخطاب النقدي عن مواكبة هذا الأدب والتنظير

له سببا رئيسيا في رفض المبدعات لهذا التصنيف، إذ عانين من الظلم طوال عقود – حسب بثينة شعبان – فظللن "متحمسات لرفض تصنيفهن بأنّهن كاتبات نساء، مفضلات أن يوصفن – ببساطة – بأنّهنّ كاتبات، على أمل أن ينلن بهذا معالجة أكثر جدّية وموضوعية، والحقيقة أنّ بعض النقاد العرب يتعاملون مع الأعمال التي وضعتها النّساء بأحكام مسبقة، معتبرين أنّ العمل يحمل طابع السيرة، وأنّه يعالج موضوع الحبّ والزّواج والأطفال والافتقار إليهم"[12].

ظهر إشكال التصنيف هذا في فترة متقدمة في التسعينات، ولكن مع انفتاح النقد على ما يُبدع من طرف المرأة، وتكريس الجهود التنظيرية وتنوّع الدراسات النقدية الأكاديمية، بدا أن هذه الإشكالية مع ما تحمله من حساسية قد خفّت أو تلاشت، وأصبح وصف "الأنوثة" ميزة، وأصبح المصطلح الأنسب حسب البعض، لأنّه يكفل التعبير عن هويّة المرأة وتفرّدها، تقول زهرة جلاصي: "النّص الذي يُعرّف نفسه كنصٍ مؤنّث، هذا النّص الذي لا يمتلك تصنيفا مسبقا أو مكونات نظرية محدّدة، لأنّه لا يوجد إلاّ في ممارسة فعل الكتابة، ولا يكتسب صفة المؤنّث إلاّ بواسطة طاقته الكامنة، تلك التي يُسائلها التحليل، قد تحتاج إلى قانون افتراضي مؤقت، متعدّد الآليات لرصد المختلف فيه، فهو مختلف في عدوله عن منزلة النّص المحايد"[13]، هذا "العدول" و"التفرّد" و"التميّز" و"الاختلاف"سيثير إشكالات أخرى تتعلّق بسؤال الخصوصية والاختلاف.

تيمات الأدب النّسوي وسؤال الخصوصية:

تمتاز الكتابة النّسوية حسب رشيدة بن مسعود بخصوصية، وهي "ليست طبيعية ثابتة، بل هي ظاهرة توجد أساسا في الواقع الاجتماعي/ التاريخي الذي عاشته المرأة، وفي ضوء هذا الفهم نجد خصوصية الأدب النّسوي بالتمركز حول الذات، ورفض السلطة الذكورية، والبحث عن الحرية"[14]، لقد أدركت المرأة المبدعة أنّ هاجس "الإنسانية" الذي شغلها طويلا نتيجة انشغالها بمطلب المساواة مع الرّجل/المبدع، قد فوّت عليها أهمّ إنجاز كان بإمكانها تحقيقه، ألا وهو اكتسابها لهويّتها الخاصة، وبناء ذاتها المتفرّدة، فبدأت مرحلة أخرى في كتابتها تحذوها الرغبة في الاختلاف عن الآخر/ المبدع، فأضحت المرأة "تؤمن بما يمكنها أن تضيفه من تميّز، قد يكون "استنطاقا لجانب من المسكوت عنه في الثقافة العربية، وهو الموقف الإيجابي للمرأة"[15].

اتّجه الأدب النسوي للاستحواذ على حيّز كبير من اهتمام النقاد وانشغالهم، وسعت المرأة المبدعة تنشد الاختلاف، فجعلته هدفا وغاية، بل أضحى مطلبا في حد ذاته، ورهانًا وشرطًا يحسم تميّز النص، ولكن ليس باعتباره اختلافا مرتبطا بحساسية إبداعية فنية، وإنّما باعتباره اختلافا ناتجا عن ملمح الأنثى المرتبط بانتمائها الجنسي وتحديدا جسدها، وراحت الكثير من المقاربات النقدية، ومرّة أخرى استسهالا لهذه الكتابة تختزل المرأة وكتابتها ووعيها وتعبيرها في جسدها، إنّها هويّتها، إذ أضحت "الكتابة بالجسد" هي ما تُكسب الذات النّسوية هويتها، حين تتخذ من الكتابة وسيلة لجعل ذاتها متحققة داخل النسق الذكوري العام، "فهي لا تكتب من أجل السيطرة على الرجل كما يفعل هو بواسطة القانون والآداب ... فهي ترمي من الكتابة والكلام كل شروخ جسدها وتموجاته"[16]، كما يعتبر نور الدين أفاية أنّ للجسد معنى داخل النسق الخاص للأنثى بوصفه إعلانا للكتابة، بحيث يقول: "المرأة لا تكتب على الورق فقط لأنها تتألق في الكتابة على جسدها، على اعتبار أنّ التمويه، ومختلف أشكال إبراز ذاتها، بمثابة نقش على الجسد"[17]، لقد خرجت المرأة من صورة نمطية التصقت بها طويلا، وعملت على تشييئها، فإن كانت في نظر الرّاوية الشعبي أسيرة تركيبها الطبيعي، ووسيلتها في الحياة، "إغراء جمالها، وسحر بشرتها، ولون عينيها، وشعرها الطويل الفاحم، وقامتها الممشوقة التي تشبه عود

الخيزران"[18]، فإنّها في مقولات النقد الحديث جسد "بإغوائه" و"تمويهه" و"تحرّره" و"انفتاحه" و"انعتاقه"...، وأصبح الجسد وببساطة "موضوع النّص ومنبع معطياته ومنتجه ومتلقيه في الآن نفسه"[19]، وساقت هذه القراءات النقدية معجما من الألفاظ المتصلة بالجسد للتعبير عن أثر النّص الذي تكتبه المرأة، عن علاقتها بمتلقيه، وعن أدواتها الفنية، وألفاظ هذا المعجم لا تخرج عن "اللذة" و"الغواية" و"الإغراء"[20]. "إن المرأة بأساليب التمويه التي تلصقها بجسدها تكتب مباشرة على جسدها، تعطي عناية خاصة لفتحات جسدها، عينها وفمها، إنها ترسم ورسمها تكثيف لرغبتها، والرجل تتولد لديه حساسية خاصة نحو هذه الرموز"[21].

لم تعترض الكاتبات والناقدات على هذا "التشييئ" الجديد، والقوالب الجاهزة التي صنّفت ضمنها كتاباتهن، بل راحت الكثيرات يغرقن في إبراز ذلك ومجاراته، وأضحت تيماتٌ بعينها تستحوذ على معظم كتاباتهن، لقد استدعين التراث بأيقوناته التي تحيل إلى ماضٍ من "القهر" و"الظلم" في شبه بكائية تراجيدية تستميل هوى المتلقي[22]، فكانت "تجربة القتل غسلاً للعار، ووأد البنات، والسبي واستعباد النساء، وتحويل الجسد للمتعة في سياق الجواري، وإجبار المرأة على الزواج، واختزالها في عذريتها، ومطالبتها بإنجاب الصبي، وإدانتها لإنجاب البنت، وهجرها، وضربها، وتطليقها، وحجبها ..."[23]، موضوعا حاضرا ومفتاحا لكثير من النّصوص النّسوية، لم يستدعه لا السياق الموضوعي ولا الشرط الفني، بل عين الكاتبة على النقّاد تبغي إعجابهم، وعينها الأخرى على "الآخر" يغريها امتياز الترجمة وتحقيق الجدارة هناك.

لا يعني هذا الحديث ردّ كلّ مظاهر الاختلاف ورفضها، بل ما نرفضه هو جعل الاختلاف مطلبا وغاية، تتوسّل القفز على المحرم وتكسير التابوهات وإثارة المسكوت عنه، واحتراف الغواية حدّ الفجاجة إذ تصل بالنّص إلى حدود الكتابة البرونوجرافية/ الإباحية (pornography)، ولكن في مقابل هذا الإسفاف الذي أضر بالكاتبة النّسوية، وأعطى المبرّر للمتحاملين عليها، في مقابل ذلك تتفتح نصوص سردية نسوية تماثل رقة المرأة وشاعريتها، تمتح من الخاص الفردي للمرأة – دون إسفاف–، لتزيد متعة تنصتنا على حميمياتها وأفكارها وهواجسها العميقة، إذ استطاعت هذه النّصوص أن تروي عطش المتلقي لاغتراف شيء مختلف – انتظره طويلا –، ينبع اختلافه من فطرة كاتبته ودواخلها، إنّ هذا الاختلاف في تلقف التفاصيل، والتقاط الدقائق وفق رؤية مغايرة هو ما شرّع لهذا الأدب اكتساب تميّزه وإثبات حضوره كإضافة تثري/ولا تنفي الكتابة السائدة/كتابة الرجل.

لغة الأنثى وفيض البوح:

لقد خضعت اللّغة هي الأخرى لإكراهات كثيرة، واتهمت بالتحيّز للرجل، فاعبرت وليدة ثقافة احتكرها الرجل وحده، وجعل "كلّ البنى والأنساق الرمزية الحاكمة لعمليات التعبير والتحليل تنهض على رؤية الرجل وحده للعالم"[24]، إذ نادى المشتغلون على أدب المرأة إلى "تطهير اللّغة من كلّ تحيّز من أجل إرساء معالم جديدة للغة محايدة"[25]، وقد أغفل هؤلاء أنّ اللّغة "محايدة في مستوياتها المتعينة، ولكنها تصطبغ بالأطر العرفية والاجتماعية للأفراد"[26]، فينبغي أن نفرّق بين اللّغة كمعجم حيادي وبين اللّغة كاستعمال ثقافي متحرك وقابل للانحياز"[27].

اتُهمت اللّغة العربية بالتحيّز ضد المرأة، وتعرّضت لقراءات وإكراهات غير مقنعة، ولا تستند إلى منطقٍ سوى محاولتها تكسير اللّغة، في تقليد واضح، وترديد لصدى مقولات حفل بها النقد النسوي الغربي[28]، يقول نصر حامد أبو زيد: "يجعل (التمييز ضد المرأة) من الاسم العربي المؤنث مساويا للاسم الأعجمي من حيث القيمة التصنيفية"[29]، ويستشهد بإلحاق "تاء التأنيث" بالاسم المؤنث، ومنعه من "التنوين" تماما كالاسم الأعجمي، وفي هذه التسوية تمارس اللّغة نوعا من الطائفية العنصرية لا ضدّ الأغيار فقط بل ضدّ الأنثى"[30]، إذ تعاملها "معاملة الأقليات"[31]، ويكفي القول أنّ "تاء

التأنيث" قد تلحق بالاسم الذي يطلق على المذكر، ك"حمزة" و"عكرمة"، ولو شئنا لقلنا إنّ اللّغة تحتقر الـذكور الـذين تلحق بأسمائهم تاء التأنيث و..، فهذه القراءات لا ضابط لها، مثلها مثل قراءة حسن عباس الذي بالغ في إطلاق العنـان لاستنتاجاته وتوجيهها كيفما اتفق، يقول: "فألف المد التي ينتهي بها الضمير "أنا" يترافق نطقها مع رفع الرّأس المصـاحب لحسّ الشموخ الذي يملأ وجدان الإنسان العربي الأوّل الذي أنتج اللّغة، ويتماشى مع رغبته في الاستعلاء على الآخر الذي ينتهي ضميره المخاطب بالتاء المكتومة، التي لابد من تحريكها ليظهر صوتها، فاستتبِعت بالفتحة التي تساوي نصف ألف في "أنت"، ممّا يعني إبقاء الآخر في حالة أدنى من حالة الأنا ... ويبلغ الاستعلاء أضعافه عند مخاطبة الأخرى، التي تتضـاعف آخريتها لأنّها آخر، ومن جنس آخر ... فلا يجوز أن تتساوى مع ال "أنت"، الذي يشترك مع الأنا في الصفة الذكورية، فحرّكت التاء بالكسرة التي تسمّى أيضا "خفضة"، إمعانا في المزيد من استعلاء الأنا، وتخفيض الدرجة المتدينة للأنثى"[32]، ويُغنينا القول أنّ الأنثى في حالة المتكلم تستعمل هي الأخرى ضمير "الأنا"، والمتكلم عامة يستعمل ضمير المخاطب "أنت" في مخاطبة الذات الإلهية.

إنّ هذه الدراسات التي تُظهر الانتصار للمرأة وقضيّتها، وتعمل على تكسير البُنى اللغوية وخلخلتها لهدفٍ غير جلـي، في حين كان الأولى توجيه هذه الجهود لتثمين اشتغال المرأة المتميّز على اللّغة، وتلمّس جماليات أسـاليبها وإبـراز فنيتـها وحساسيتها اللغوية العالية، التي تعطي لنصها سمته وخصوصيته، فقد استطاعت المرأة من خلال خلق توليفـات لغويـة وأسلوبية تعكس ذاتها، فلم يكن غريبا عن فطرتها[33] أن تتوسّل البوح والاعتراف السير ذاتي عن طريق استعمال ضـمير المتكلم، الذي يُغني لغتها بمحمولات ذاتية تُظهر الجانب الانفعالي لشخصيتها المرهفة، وتوشّي[34] لغتها بشاعرية ملفتة.

وختاما يمكن القول أنّ اشتغال المرأة على اللّغة ظاهرة ملفتة تستوجب التفات النقد إليها، بعيدا عن المقـرّرات النقديـة المُقولبة والمُؤطّرة بهمّ النضال والثورة وقضية المرأة، أو المفتونة بسحر الجسد وغوايته، إنّ للغة الأنثى جماليات تسـتحق أن يلتفت إليها النقد ويثمّن اشتغال المرأة عليها من خلال مقاربة نقدية موضوعية، ترفد هذا المُنجز وتطوّره وتجعـل أفـق الكتابة والإبداع مفتوحا أمامه، وتُسهم في تطوير اللّغة عموما.

الهوامش :

1 – نص المرأة وعنفوان الكتابة، الأخضر بن السايح، مداخلة مقدمة ضمن ملتقى الكتابة النسوية والتلقي، الخطاب والتمثلات، يومي18 و19 نوفمبر 2006م، المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجية الاجتماعية والثقافية وهران الجزائر 2010م، ص25.

2 – صوت الأنثى، نازك الأعرجي، دراسات في الكتابة النسوية العربية، دار الأهالي دمشق 1997م، ص 24.

3 – المرأة والكتابة، سؤال الخصوصية، بلاغة الاختلاف، رشيدة بن مسعود، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء 1994م، ص07.

4 – النسوية في الثقافة والإبداع:حسين المناصرة، عالم الكتاب الحديث وجدارا للكتاب العالمي – الأردن، 2007م ، ص : 97.

5 – جمالية السرد النسائي، محمد معتصم، مدونة الكاتب

http://motassim.canalblog.com/archives/2007/02/21/4087471.html

6 – النسوية في الثقافة والإبداع: حسين المناصرة، ص : 97.

7 – ولعلّ ذلك يثير مجدّدا إشكالية تصنيف هذا الأدب، فضلا عن إشكالية الفصل في اختيار التسـمية. إذ نجـد أنّ الإشـكال يتضاعف حينما تتوجّه الكثير من المقاربات النقدية إلى النظريات الغربية لتستقي منها اختياراتها وآلياتها الإجرائية وحتى مقولاتهـا

النقدية، دون التفات للشرط الفني الاجتماعي الذي يسم ما يُنتج محليا بسمات خاصة تختلف عمّا ينتجه الغرب، فهذا الكلام صدى للنظريات الغربية التي تنظّر للكتابة النسوية. فنجد الناقدة الأمريكية "توريل موي" تميز بين ثلاثة مصطلحات في النظرية الأدبية النسوية أو النسائية، وهي: "الأنثى" التي تعني كتابة المرأة دون أن يدل هذا المصطلح على طبيعة الكتابة إطلاقا، و"الأنثوية" وهي الكتابة التي تبدو وقد همشها النظام الاجتماعي واللغوي السائد، و"النسوية" وهي الكتابة التي تتخذ موقفا واضحا ضد الأبوية وضد التمييز الجنسي. يراجع النسوية والأنثى والأنوثة، توريل موي، ترجمة كورنيليا الخالد، الآداب الأجنبية العدد 76 السنة التاسعة عشرة خريف 1993م، ص 44.

8 – صوت الأنثى، نازك الأعرجي، ص 35.

9 – المرجع السابق، ص 35.

10 – الأعماق المحتلة، غادة السمان، منشورات غادة السمان بيروت 1993م، ص 22.

11 – اعترافات نساء، أشرف توفيق، دار الأمين 1998م، ص 15.

12 – مائة عام من الرواية النسائية العربية، بثينة شعبان، دار الآداب بيروت 1990م، ص05، وكذلك ترى أمل تميمي أنّ النقد له دور في إحداث هذه الحساسية لدى المبدعات، فتصنيف الأدب وتقسيمه إلى "ذكوري" و"نسائي" ظهر في العصر الحديث، وتبع ذلك ظهور إشكالية تقييمه بين رفض وقبول، فلم يستطع اكتساب مشروعيته لدى النّقاد باعتباره أدب " تختص به المرأة، وقد ترتب على هذه النظرة التصنيفية والمتحيّزة ذات الطابع الإيديولوجي أن أصبحت فرص الاهتمام النقدي بكتابات المرأة ضئيلة جدا بحجة أنّ أدب المرأة لا يعكس سوى المشكلات الخاصة بالمرأة"، بمعنى أنه أدب "محدود وقاصر على الهواجس النفسية وتصعيد نبرة الاحتجاج على القهر وسلب الحقوق"، يراجع السيرة الذاتية النسائية في الأدب العربي المعاصر، تميمي أمل، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء 2005م، ص94.

13 – النص المؤنّث، زهرة جلاصي، دار سرس تونس 2002م، ص10.

14 – المرأة والكتابة، رشيدة بن مسعود، ص15.

15 – التراث المكبوت في أدب المرأة، اعتدال عثمان، ضمن دفاتر نسائية الكتاب 1993/02م، ص46.

16 – الهوية والاختلاف في المرأة والكتابة والهامش، محمد نور الدين أفاية، إفريقيا الشرق الدار البيضاء 1988م، ص35 .

17 – المرجع السابق، ص17 .

18 – الحكاية الشعبية الفلسطينية، نمر سرحان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ط1988/2م، ص79 .

19 – النص والجسد والتأويل، فريد الزاهي، إفريقيا الشرق الدار البيضاء 2003م، ص29.

20 – تلخّص سوسن السوداني ما انتهت إليه البحوث والمناقشات التي جرت في ندوة "الحرية في الأدب النسائي"، التي جرت في طرابلس العاصمة الليبية أنّ الباحثين حددوا أهم سمات الكتابة النسوية في: "الانكباب على الذات والعناية بالتفاصيل الصغيرة.. والنبش في الطبيعة السيكولوجية والجنسية.. والعري والفضح والتلصص.. ونقد الذات وتخطي الحرام الجنسي إلى الحرام السياسي، وكان وعي المرأة بالجسد كحضور ثقافي يخضع لإكراهات المجتمع". يراجع الشعر النسوي، توسل بأدوات السرد وانصهار أنوات الكتابة: سوسن السوداني، عدد خاص: ظاهرة الكتابة الايروسية عند المرأة، مجلة المثقف العربي العدد1670 فبراير 2011م.

21 - الهوية والاختلاف، محمد نور الدين أفاية، ص41.

22 - تقول رضوى عاشور: "أنا امرأة عربية ومواطن من العالم الثالث، وتراثي في الحالتين تراث الموءودة، أعي هذه الحقيقة حتى العظم مني"، ينظر: على مدارج الكتابة، رضوى عاشور، مجلة الآداب، ع11/ تشرين الثاني 1992م، ص67.

23 - صوت الأنثى، نازك الأعرجي، ص23.

24 - النظرية النقدية النسوية الحديثة، في نقض بنية الفكر الأبوي، صبري حافظ، مجلة الكاتبة كانون الأول العـــدد1993/1م، ص36.

25 - اللغة، الجنس، حفريات لغوية في الذكورة والأنوثة، عيسى برهومة، دار الشروق عمان 2002م، ص86.

26 - المرجع السابق، ص93.

27 - المرجع السابق، ص93.

28 - تقول رامان سلدن عن اللغة: "إنّها لا يمكن أن تنبثق إلا من تجربة المرأة أو من لا شعورها، أي أن على النساء أن ينتجن لغتهن الخاصة، وعالمهن المفهومي الخاص، الذي ربما لا يكون عقلياً عند الرجل"، يراجع كتابها النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة سعيد الغانمي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ط1996/1م، ص210 - 211.

29 - دوائر الخوف، قراءة في خطاب المرأة، نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ط2004/03، ص30.

30 - المرجع السابق، ص30.

31 - المرجع السابق، ص31.

32 - الحرف العربي والشخصية العربية، حسن عباس، دار أسامة- دمشق ط1992/01، ص134- 135.

33 - نستخدم كلمة "الفطرة" على الرغم من حساسيتها لدى الكثيرين، لارتباطها بمقولات تستعمل "الفطرة" كمعادل للنقيصة والضعف والدونية، ولكنّ الفطرة هي الصورة الأصيلة لذات المرأة ووعيها العميق بوجودها.

34 - قال الأَسود بن يعفر: حَمَتْها رِماحُ الحَرْبِ حتى تَهَوَّلَت بِزاهِرِ نَوْرٍ مِثْلِ وَشْيِ النَّمارِقِ.

يعني جميع أَلوان الوَشْي، والوَشْيُ في اللون خَلْطُ لوْنٍ بلون، وكذلك في الكلام يقال: وشَيْتُ الثوبَ أَشِيهِ وَشْياً وشِـــيَةً **ووَشَّـــيْتُه** تَوْشِيةً شدِّد للكثرة فهو مَوْشِيٌّ ومُوَشًّى. ينظر: لسان العرب: ابن منظور، (15/ 392).

مقاربة فكرية لثنائية:
الانترنيت والهوية

أ. حورية بولعويدات

جامعة قسنطينة3

ABSTRACT:
This study is going to discuss the structural link between the internet as a modern means of communication and the identity as a controversial in the sense of the huge progress in the field of communication each time, and in this context, a lot of situations and scientific opinions considered that the media had a crucial role in formulating or reformulating the identity in all its aspects, like the personal, national and cultural ones..ets, thus could the internet since it is considered as a new learned and conceptual field. Affect the identity as the means of communications died or not?
In the sense of this question, the analysis will shed light on arguing the two concepts of internet and identity, and explain their differences that may make you confused when dealing with them , then you make sure that the first one affects the second or not.
Keywords:
Internet – identity.

الملخص:
تناقش هذه الدراسة الارتباط البنيوي بين شبكة الانترنيت كوسيلة اتصالية حديثة والهوية كإشكالية وكموضوع يطرح نفسه بقوة مع التطورات التي يشهدها حقل الاتصال في كل مرة، وفي هذا السياق، فإن الكثير من المواقف والآراء العلمية ارتأت أن وسائل الإعلام قامت بكفاءة عالية بتشكيل أو إعادة تشكيل الهوية بأبعادها المختلفة الشخصية والوطنية والثقافية..إلخ، فهل الانترنيت باعتبارها حقل معرفي ومفهومي جديد بإمكانها التأثير على الهوية كما تمكنت الوسائل الاتصالية الأخرى أن تفعل ذلك أم لا؟
وفي استقراء هذا السؤال فإن التحليل سيرتكز على مناقشة مفهومي الانترنيت والهوية، فعرض العلائق التي تجمعها، ومن ثمة الجزم بتأثير الأولى على الثانية أو نفي ذلك.
الكلمات المفتاحية:الانترنيت– الهوية .

مقدمة:

لا شك أن التربة العقلية الخصبة والتفاعلات الاجتماعية الهائلة التي تتيحها الانترنيت، استطاعت أن تنتج خلال العقود الأخيرة فكرا غنيا أخد يسهم إسهاما حاسما في إعادة تشكيل العلاقة بين الانترنيت بمفهومها الواسع وبين الوجود الإنساني بكل مستوياته وتعقيداته، وتشهد حقول العلوم الإنسانية بجميع تفرعاتها نشاطا لم يسبق له مثيل يتركز حول تشخيص طبيعة الروائز التي يمكن أن تمارسها الانترنيت على نوعية وأشكال الحياة الإنسانية، وحول آليات ومناهج التعاطي الفكري معها.

ومن الطبيعي أن يفضي هذا المخاض الحضاري الجديد في تاريخ الإنسانية إلى تبلور مفاهيم فكرية مختلفة ومتناقضة، يستند بعضها إلى نظريات ومدارس تسعى بدرجات متفاوتة نحو التفاعل والتكيف والاندماج مع الوقائع التقانية الجديدة خاصة الانترنيت محاولة الإسهام في توجيه مساراتها، ويرتكز بعضها الآخر في فكر رافض يتخوف من الآثار التي يمكن أن تترتب

على انتشار مثل تلك التقانيات، ولا تخلوا الساحة الفكرية بطبيعة الحال من مواقف توفيقية متباينة هي الأخرى تحاول بشكل أو بآخر جسر الهوة العمقية القائمة بين أيديولوجيات خاضت في مراحل تاريخية ممتدة صراعات قرنية عنيفة.

في الحقل المناهض لهيمنة التقنيات الجديدة وخاصة الانترنيت على حياة المجتمعات الراهنة ثمة نوعان من ردود الفعل، يتجلى الأول في أن بعض الباحثين يستخدمون مصطلح "الانترنيت" في مفرداتهم للتدليل على ظاهرة مخيفة فحسب، أي ظاهرة لا تحمل في ثناياها سوى قوة اغترابية وغزووية، أما النوع الثاني من المقاومة فينصب على مسألة أن الانترنيت لا تستطيع مطلقا أن تمارس تأثيرات على الهوية[1].

وانطلاقا من هذا يحاول هذا المقال الإجابة عن السؤالين الآتيين: ما هي العلاقة التي تربط الانترنيت بالهوية؟ وما هي الانعكاسات الناجمة عن استخدام الانترنيت على الهوية؟

ولمعالجة هذا الموضوع والإجابة عن التساؤلات المطروحة قسمنا هذه الورقة إلى أربع نقاط أساسية وهي:

أولا/ إطار الدراسة ومرتكزاتها المنهجية.

ثانيا/ الانترنيت الوسيط الاتصالي الجديد.

ثالثا/ الهوية ومداخلها النظرية.

رابعا/ الانترنيت والهوية أية علائق وأي تأثيرات؟

أولا. إطار الدراسة ومرتكزاتها المنهجية:

1. إشكالية الدراسة:

يبحث هذا المقال في الانترنيت كأداة اتصالية، كما يستعرض مفهوم الهوية انطلاقا من تحليل أبعادها المختلفة النفسية الاجتماعية الثقافية، مبينا المعالجات العلمية المختلفة لذات الموضوع وذلك انطلاقا من استقراء الإشكالية الفلسفية والاجتماعية التي تحيط بمسألة الهوية، ليحاول في نقطة أخرى تفسير العلائق التي تربط الانترنيت بمفهوم الهوية، فهل الانترنيت قادرة على خلق مجال مواز لتشكل الهوية؟ وهل بإمكان الانترنيت خلق محددات جديدة لتشكل الهوية الشخصية؟ وهل تسمح الانترنيت بالإفصاح عن هوية ثقافية مغايرة للجماعات؟ وهل بإمكان الانترنيت إيجاد وعي اجتماعي يكرس هوية وطنية مختلفة عما كانت عليه؟

2. أهداف الدراسة:

- البحث في مفهوم الانترنيت وتتبع الحضور العالمي والوطني لها.
- استعراض خدمات الانترنيت الاتصالية وتحليل خصائصها التي تجعل منها وسيلة اتصالية استثنائية.
- مساءلة مفهوم الهوية انطلاقا من عرض أبعادها الفلسفية، النفسية والاجتماعية، ومناقشة الإشكالية الفلسفية والمعرفية التي تحيط بها.
- تحليل التمثلات المتعلقة بالانترنيت باعتبارها مجالا خصبا لتشكل ونمو الهوية.
- استجلاء الانعكاسات التي تخلفها الانترنيت على كل من الهوية الشخصية، الاجتماعية والثقافية.

ثانيا. الانترنيت الوسيط الاتصالي الجديد:

1. الانترنيت المفهوم والحضور العالمي والوطني:

تنتقل الإنسانية الآن من عصر الندرة التماثلية إلى عصر الوفرة الرقمية، وتمثل الانترنيت الشكل الأولي لوسائل الاتصال الجديدة في هذا العصر، والتي لم تعرف البشرية مثلها من قبل سواء من حيث تطبيقاتها واستخداماتها أو من حيث تأثيراتها وانعكاساتها[2].

والإنترنيت هي جزء من ثورة الاتصالات، ويعرّف البعض الإنترنيت بشبكة الشبكات، في حين يعرّفها البعض الآخر بأنها شبكة طرق المواصلات السريعة، ويمكن تعريفها بشبكة الشبكات، كما يعرفها" بوب نورتن" "Bob Northen" و"كاتي سميث" "Smith Katy ": "الإنترنيت كلمة إنجليزية مختزلة لعبارة " Interconnection of net work" وهي تتجزأ إلى كلمتين: "Interconnection" وتعني الربط بين عنصرين أو شيئين و "Net work" وتعني الشبكة".

وشبكة الإنترنيت عبارة عن مئات الملايين من الحاسبات الآلية حول العالم مرتبطة ببعضها البعض، ومع ترابط هذا العدد الهائل من الحاسبات أمكن إرسال الرسائل الإلكترونية بينها بلمح البصر، بالإضافة إلى تبادل الملفات والصور الثابتة أو المتحركة أو الأصوات، وقد تم الاتفاق على نظام موحد تتبادل جميع هذه الأنماط من المعلومات تم تسميته النسيج العالمي[3].

وتشير مجموعة الأرقام الآتية إلى حجم الوجود الحقيقي للانترنيت في الاتصال الإنساني الحالي على مستوى العالم والجزائر.

- على مستوى العالم: سجلت سنة 2009 أكثر من مليار ونصف مستخدم، 42.6% منهم في آسيا تليها أوروبا بـــ 24.1% ثم تأتي أمريكا الشمالية ومنطقة الكاريبي بـــــ 14.6% و 10.3% على التوالي وتتقاسم الرتب الأخيرة إفريقيا وأستراليا،[4] وتعد الصين أولى دول العالم في عدد مستخدمي الانترنيت، الذي بلغ عددهم فيها 221 مليون شخص في شهر فيفري 2008[5].
- في الجزائر: شهدت شبكة الانترنيت تطورا ملحوظا في السنوات الأخيرة، إذ ارتفع عدد المشتركين من 2.9 مليون مشترك سنة 2005[6]، إلى 4.5 مليون منخرط سنة 2010 بنسبة 12.8% من عدد السكان[7].

لقد نجم عن النمو المطرد لاستخدام الانترنيت إلى تحول الكثير من الجماهير إلى استخدامها لتلبية حاجاتهم الاتصالية كما أكدته الأرقام السابقة، حيث أصبحت هذه الأخيرة حسب آراء مجموعة من المراقبين رصدتها شبكة CNN في سبتمبر 2008 أهم وسيلة اتصالية في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية لدى الجمهور، لمتابعة الأخبار ومشاهدة الفيديو والاستماع إلى الموسيقى وحتى إجراء المكالمات التلفونية والتحدث إلى الآخرين[8].

2. خدمات الانترنيت الاتصالية:

تتنوع خدمات الانترنيت الاتصالية نذكر منها:

- البريد الالكتروني أو E-mail : وهو مختصر الكلمة الانجليزية Electronic Mail ، وهو مصطلح يطلق على إرسال رسائل نصية إلكترونية بين مجموعات في طريقة مناظرة لإرسال الرسائل والمفكرات، ويتميز البريد الالكتروني بأنه[9]:
  - مجاني إلى حد كبير طالما كانت خدمة الانترنيت متاحة للفرد.
  - متوافر في غالبية المواقع.
  - تعدد برامج الاتصال التي يمكن استخدامها في إنجازه وسهولة استخدامها من خلال واجهات تطبيق ميسرة.
  - إمكانية الاحتفاظ بالبريد على الشبكة أو على جهاز الكمبيوتر وطباعته.

• إمكانية تبادل النصوص والصور بين شخصين وتبادل المواد المتعددة الوسائط مثل: الأصوات والأغاني ولقطات الفيديو.

• إمكانية استخدام البريد الالكتروني الصوتي من خلال البرامج المخصصة لذلك.

• المجموعات الإخبارية: وهي مجموعة من النقاشات الجماعية والمقالات والرسائل العامة التي يدفع بها الأفراد أو المؤسسات أو الجماعات إلى الشبكة كوسيلة للنشر، ويستطيع أي مشترك في الانترنيت الاشتراك في مجموعة أو أكثر وكتابة المقالات في المجموعة التي يشترك فيها.

وبعض هذه المجموعات يخضع للرقابة، ومعظمها يتيح للمشترك حرية الرأي والتعليق على ما ينشر، وهناك برامج متخصصة مجانية للاطلاع على مجموعات الأخبار وبعض المجموعات الإخبارية تكون على شكل نشرة توزع على المشتركين بالبريد الالكتروني[10].

▪ مواقع الشبكة الاجتماعية: وهي مواقع للتواصل الاجتماعي بين المستعملين ولإقامة العلاقات الاجتماعية، ومن أشهرها الفايسبوك(facebook) وماي سبيس (mayspace) الذي بلغ عدد مستعمليه 200 مليون مستعمل و تويتر[11](twitter) .

▪ خدمة التخاطب (الدردشة): وهي المحادثات التفاعلية الحية بين فردين أو أكثر يشبكون على الانترنيت، ويمكن أيضا القيام بتوصيل كاميرا أو ميكروفون إلى جهازك لكي يتمكن الأشخاص الآخرون من رؤيتك وسماع صوتك.

▪ خدمة الاتصال التلفوني: عن طريق تزويد جهاز الكمبيوتر ببعض المكونات الصلبة مثل :كارت الصوت وميكروفون، وبعض المكونات غير الصلبة وهي البرامج الخاصة بالاتصال التلفوني على الانترنيت، وتتيح هذه الخدمة استخدام الشبكة في الاتصالات التليفونية الدولية بالمجان أو بتكلفة أقل كثيرا عن تكلفة الاتصال التليفوني العادي.

3. خصائص الانترنيت كوسيلة اتصالية:

تمتاز الانترنيت كوسيلة اتصالية بمجموعة من الخصائص تتمثل أهمها في:

▪ تعدد الوسائط: وهو تعدد عناصر المادة الإعلامية الموجودة على شبكة الانترنيت من صوت، نص وصور ثابتة ولقطات فيديو في منتج واحد أحيانا، وبسبب هذه السمة تكتسب شبكة الانترنيت مميزات كل أنواع الاتصال، فهي تكتسب ميزات الاتصال الطباعي من خلال تقنية النص، وتكتسب ميزة الاتصال الإذاعي بالراديو من خلال تقنية الصوت، وتكتسب ميزة الاتصال التليفزيوني من خلال تقنية الصورة ولقطات الفيديو والرسوم المتحركة وغيرها[12].

▪ التفاعلية: وتطلق هذه السمة على الدرجة التي يكون فيها للمشاركين في عملية الاتصال تأثير على أدوار الآخرين، واستطاعتهم تبادلها ويطلق على ممارستهم الممارسة المتبادلة أو التفاعلية، وهي تفاعلية بمعنى أن هناك سلسلة من الأفعال الاتصالية التي يستطيع الفرد– أ – أن يأخذ فيها موقع الشخص –ب – ويقوم بأفعاله الاتصالية، فالمرسل يستقبل ويرسل في نفس الوقت وكذلك المستقبل، ويطلق على القائمين بالاتصال لفظ المشاركين بدلا من المصادر[13].

وتتيح الانترنيت درجة عالية من التفاعلية بما توفره من درجة عالية من الفورية والمباشرة في رجع الصدى، وتنقسم التفاعلية في الانترنيت إلى ثلاثة أشكال هي:

▪ التفاعلية الإرشادية: وهي التي ترشد المستخدم إلى الصفحة التالية أو العودة إلي أعلى ..وهكذا.

▪ التفاعلية الوظيفية: وهي تلك التي تتم عبر البريد المباشر والروابط ومجموعات الحوار.

- التفاعلية التكييفية: وهي تلك التي تقدم غرف المحادثة، وتتيح لموقع الانترنيت أن يكيف نفسه لسلوك المتصفحين الزائرين[14].
- التزامنية واللاتزامنية: التزامنية تعني توافق وقت إرسال الرسالة مع قراءتها، بينما تحيل اللاتزامنية إلى إمكانية إرسال الرسائل واستقبالها في وقت مناسب للفرد المستخدم، ولا تتطلب من كل المشاركين أن يستخدموا النظام في الوقت نفسه[15].

وبهذا فالانترنيت تحقق أنواع عدة من الاتصال وهي:

- اتصال متزامن: من فرد إلى آخر أو آخرين ويمكن تنظيمه حول موضوع محدد ويدخل في تطبيقات هذا النظام مختلف أنواع برامج المحادثة وأشكالها المختلفة مثل برامج الدردشة.
- اتصال غير متزامن: من مجموعة إلى مجموعة من الأفراد مثل المجموعات الإخبارية.
- اتصال غير متزامن: وذلك حينما يرغب المستقبل في الحصول على المعلومة وذلك باستخدام خدمات الواب الدولي، بروتوكول نقل الملفات، ويكون الاتصال هنا من مجموعة أفراد إلى فرد، أو من فرد إلى فرد آخر إلى مجموعة، عندما يكون في حاجة للبحث عن موقع للحصول على المعلومات[16].

ثالثا. الهوية ومداخلها النظرية:

1. مفهوم الهوية:

لمفهوم الهوية دلالته اللغوية واستخداماته الفلسفية والاجتماعية والنفسية والثقافية، فقد استخدم هذا المفهوم على أنحاء شتى، للتدليل على الهوية الفردية وهوية الأنا والهوية الجماعية والهوية العرقية والهوية الثقافية[17].

واسم الهوية ليس عربيا في أصله اللغوي وإنما اضطر إليه بعض المترجمين، فاشتق هذا الاسم من حرف الرباط يعني يدل عند العرب على ارتباط المحمول بالموضوع في جوهره، وهو حرف هو في قولهم: زيد حيوان أو إنسان[18].

ويفسر معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية مفهوم الهوية عموما بوصفه يشير إلى:" عملية تميز الفرد لنفسه عن غيره "[19]، ويذهب ألكس ميتشيلي A.Mucchielli إلى تحديد الهوية على أنها: " مجموعة من المؤشرات لتحديد مفهوم موضوع ما وأنها شعور داخلي، وهذا الشعور مكون من عدة مشاعر أخرى: شعور بالوحدة ،التجانس، الانتماء، القيمة، الاستقلالية والثقة، منظمة حول الإرادة في الوجود"[20]، هذه الإرادة تتجدد ولكنها لا تتغير لتبقى تعبر عن الذات كما شرح محمد عمارة في تعريفه، حيث يشير أن هوية الشيء هي:" ثوابته التي تتجدد ولا تتغير، تتجلى وتفصح عن ذاتها دون أن تخلي مكانها لنقيضها طالما بقيت الذات على قيد الحياة"[21].

وقد كتب ليفي ستراوس LéviStrauss عن الهوية قائلا أن هذه الفكرة هي تقاطع لمجالات مختلفة، كالفلسفة وعلم النفس والأنثروبولوجيا والقانون، لذا فإن مفهومها متنوع ومعقد[22].

وتوضح الاستخدامات الفلسفية للهوية عند الجرجاني بأنها الأمر المتعقل من خلال امتيازه عن الاعتبار، والهوية عند ابن رشد تقال بالترادف على المعنى الذي يطلق عليه اسم الموجود، وعند الفارابي هوية الشيء عينه وتشخصه وخصوصية وجوده المتفرد الذي لا يقع فيه إشراك[23].

ومن وجهة نظر فلسفية لاحظ غوتلوب فريجي.G.Frege أن الهوية لا تعرف، فقال: " أن كل تعريف للهوية هو الهوية بذاتها، إن الهوية نفسها لاتعرف"[24]، والمقصود من قوله هذا أن أي تقديم لمفهوم الهوية فهو نابع من هوية ذلك المقدم للمفهوم.

وعلى المستوى النفسي، يعرف المعجم الكبير لعلم النفس الهوية بأنها مجموع صفات الأفراد والأشياء الحقيقية أو الممثلة أو الأحداث المنسقة، وفي المرجع نفسه صنفت الهوية إلى صنفين:

- الصنف الإيجابي: ويطلق على شيئين متشابهين أو لديهما شيء مشترك يجمعهما.
- الصنف السلبي: ويطلق على شيئين لا يوجد بينهما شيء يجمعهما في الظاهر[25].

والهوية أيضا هي: " التمشي الذي يقوم به الفرد لبناء مختلف مظاهر شخصيته سواء كانت هذه المظاهر حالية أم ماضية أم مستقبلية، وفي المظاهر التي يحدد بها الفرد ذاته أو يقبل أن يحدد بها "[26]، وبالتالي فالهوية في علم النفس تركز على الفرد وصفاته التي تميزه عن باقي الأفراد.

ويرجع الفضل لإريكسون Erikson في تطوير مفهوم الهوية من وجهة نظر التحليل النفسي، فتحدث عن هوية الأنا ego Identitéوعرفها بأنها: " ذلك الشعور بالهوية الذي يهيئ القدرة على تجربة ذات المرء كشيء له استمراريته، وكونه هو هو نفس الشيء، ثم التصرف تبعا لذلك.

وأرجع إريكسون نمو الأنا إلى نمو الهوية، واعتبر المراهقة مرحلة أزمة الهوية. ففيها تنقسم الصراعات وتبلغ حد الذروة إما إلى تعيين الهوية، حيث الثقة بالنفس وبالآخرين والشعور بالاستقلال والمبادأة وأن الحياة تستمد مقوماتها من الاجتهاد والمثابرة، وإما إلى عدم تعيين الهوية، حيث فقدان الثقة والشعور بالخزي والخجل والشك والعيش نهبا لمشاعر الذنب والدونية والعجز، وأن الحياة لا تؤخذ بالمبادأة ولا تمضي من خلال الثقة والاستقلالية.

ولعل التساؤل الرئيسي الذي يعايشه المراهق كما يقول إريكسون، هو تساؤل ينطوي على بحث عن كينونته وعن معنى فريد للوجود، وعن هوية تتمايز عن هويات الآخرين، وفي استمرارية تجعل من الأنا هوية فريدة ومغايرة لهويات الآخرين[27].

وقد ميز ستيوارت هول في تحليله لمفهوم الهوية بين ثلاثة مفاهيم أساسية وصفها بأنها شديدة الاختلاف، وتتمثل في الذات التنويرية، الذات السوسيولوجية، وذات مابعد الحداثي، ولعل مفهوم الذات التنويرية ينطبق كثيرا مع أفكار علماء النفس، حيث تركز حسبه على مفهوم الإنسان بصفته ذاتا تمتلك نزعة مركزية بالكامل، وفردا موحدا يتمتع بقدرات العقل والوعي والفعل، وتتألف نقطة المركز لديه من لب داخلي ينشأ أولا مع ولادة الذات ويتجلى مع نموها، في الوقت الذي تبقى فيه الذات جوهريا كما هي – أي امتدادا أو متماهية مع نفسها – خلال مرحلة وجود الفرد، حيث تمثل الهوية نقطة المركز الأساسية لذات الفرد[28].

وتشكل الهوية من المنظور الاجتماعي محور اهتمام الكثير من الباحثين السوسيولوجيين إذ عرفها تاجفل Tajfel على أنها:" ذلك الجانب من المفهوم الذاتي للفرد (مفهوم الفرد الذاتي)، الذي ينبعث من واقع معرفته بعضويته في الجماعة أو جماعات اجتماعية، وذلك إلى جانب المغزى القيمي والانفعالي المرتبط بهذه العضوية"[29]. ويرى آخرون أن الهوية: " أداة يسمح عن طريقها تحريك التفكير الاجتماعي عند الفرد "، وهي بدورها تفسر نتائج التفاعلات المختلفة الموجودة بين الفرد ومحيطه الاجتماعي، فهي تجسر الهوة القائمة بين " الداخل والخارج"، وبين العوالم الخاصة والعوالم العامة.

ويذكر دور كايم محللا العلاقة بين الهوية الفردية والهوية الجماعية قائلا:" يوجد في كل منا كائنان كائن فردي، ويتكون من المشاعر والأحاسيس التي تتصل بالحياة الخاصة من ناحية، وكائن اجتماعي يتكون من منظومة الأفكار والمشاعر والعادات التي تعبر فينا عن المجموعة من ناحية أخرى، وأن تلاحم هذين الوجهين هو الذي يكون الكائن الاجتماعي"[30].

والهوية حسب ترون أساس لضمان الانتماء للنظام الاجتماعي، فهي بذلك بمثابة نداء إلى جذور أو أصول إنسانية، فالهوية بكل بساطة هي الانتماء إلى جماعة ذات قيم خاضعة لعوامل طبيعية ولغوية خاصة".

وتعرف هوية الجماعة المتماسكة، على أنها مجموعة من الصفات التي تجمع بين أفراد الجماعة الواحدة وتميزهم عن غيرهم ممن يقع خارج نطاق تلك الجماعة، أما الهوية الاجتماعية، فهي عملية وجدانية تيسر من الارتباط بالجماعة، فهي تشتمل على درجة من الترابط تجعل الجماعة أم الفرد والفرد جزءا من تلك الجماعة، وهذا التكامل والتبعية يشكل أساس الرؤية الايجابية للجماعة والرغبة من جانب الفرد في التوحد معها واعتبار ذاته جزءا منها وعضوا فيها، ويؤدي ذلك بالتالي إلى الشعور الإيجابي بالذات والتقدير الذاتي[31].

ويمكن القول في نهاية عرض التعريفات السابقة، أن الهوية بنية متعددة الجوانب ذات أبعاد لغوية فلسفية نفسية واجتماعية، تعبر عن ثوابت لها صفة التفرد والتميز، تتمتع بخصوصية التطور، ويطبعها طابع الديناميكية.

2. الهوية..الإشكالية الفلسفية والمعرفية:

إذا كانت المفاهيم التجريدية مثل الشخصية و العقل و النفس موضوع خلاف بين الفلاسفة والعلماء والمنظرين والتجريديين قديما وحديثا، فإن مفهوم الهوية يبدوا عصيا على التعريف، ويعود سبب هذا الاستعصاء إلى كون الهوية في حد ذاتها تعريفا ولا جدوى تعريف التعريف، أي تقديم تعريفين، إذ أن الثاني يصبح هو التعريف والأول إما ناقصا وإما مرفوضا، وقد عبر الفيلسوف ج.أوستن (j. Austin) عن هذه المعضلة في بحث بعنوان" الحقيقة " بقوله : إن ما هو " هو هو " أو "ماهو نفسه لايعرف" .

وتلخص مقولة "أوستن " السابقة إشكالية الهوية باعتبارها موضوعا للتفكير الفلسفي منذ أقدم العصور إلى الآن، فقد دار الجدل بين المفكرين خاصة في علم المنطق حول مدلول الهوية ومقاييسها وطريقة بحثها[32] .

إذ عالج الفكر الفلسفي الإغريقي منذ البداية مسألة الهوية باعتبارها أحد مبادئ المنطق ومقولة من مقولات الكينونة، وقد تعدت اليوم نطاق البحث الفلسفي إلى المجال المعرفي وأصبحت إشكالية تميز كل ثقافة بالذات، كما تعدت ذالك لتصبح أزمة تعيشها الجماعات الثقافية في صميمها .

ويرى كلود ليفي شتراوس أن مسألة الهوية تقع اليوم على مفترق الطرق، فهي تهم مختلف الميادين العلمية المختلفة، وهذا الاهتمام الكبير الذي يبديه الفكر بمســـألة الهوية يعبر عن أزمة هوية و يرى شتراوس أنها قد أصبحت تمثل "الداء الجديد " الذي يميز عصرنا، وهذا لا يعني الالتفات إلى المظاهر الذاتية لهذه الأزمة بقدر ما يعني النظر إلى الشروط الموضوعية التي تعكسها أزمة الهوية أو تشكل عرضا من أعراضها[33].

و على الرغم من تعدد التعريفات التي قدمت حديثا للهوية، إلى أن معظم هذه التعريفات تؤكد على أن الهوية تعني فهم الفرد لذاته في علاقاته بالآخرين، و من ثم فهي لا تتوقف على الجانبين الشخصي والنفسي ولكنها تتعداه للجانب الاجتماعي، فمن خلال تفاعل الشخص و مشاركته في أسس مؤسسية فإنه ينسب نفسه إلى هوية معينة، لذلك فالهوية هي رد الفعل ضد " الآخر " و نزوعا لتأكيد " الأنا " بصورة أقوى وأفضل حسب محمد عابد الجابري، وتمثل الهوية المصدر الأساسي الذي يعتمد عليه الأفراد فيما يقدمونه من معاني للأشياء والأحداث، فالفرد يبني معنى لشيء أو حدث وفقا لعدد من الخصائص والصفات الثقافية المرتبطة به والتي تكون لها الأولوية على أي مصدر آخر[34] .

1-1 إريكسون والهوية: قام عالم النفس إ. اريكسون بدور مركزي في انتشار مفهوم الهوية في العلوم الإنسانية بعد أن غادر فينا سنة 1933 إلى الو .م .أ، وهناك اكتشف الأعمال الأنثروبولوجية للمدرسة الثقافوية وكان دافعا لتطوير أسس

نظرية فرويد، وفي ذات الفترة عمل إريكسون في المحميات الهندية لقبائل السيو بداكوتا الجنوبية وفي قبيلة يوروك بكاليفورنيا الشمالية، ودرس الاجتثاث الثقافي للهنود المعرضين لموجة الحداثة، وبناءا على ذلك نشر في عام 1950 كتاب "طفولة و مجتمع" حاول فيه تجاوز نظرية فرويد بالتأكيد أكثر على دور التفاعلات الاجتماعية في بناء الشخصية، فاعتبر أن الهوية الشخصية تتطور طوال وجودها عبر ثمانية مراحل تقابلها ثمانية أعمار في دورة الحياة، وأزمة الهوية تتطابق مع تحول يقع في مسيرة تطور الهوية، والأزمة الأبرز هي تلك التي تحدث في المراهقة، لكن يمكن أن تحدث في مرحلة لاحقة من عمر الشخص حين تعرضه لصعوبات خاصة.

1-2 استخدام علم الاجتماع للمفهوم: لم يحتل مفهوم الهوية أهمية حاسمة في معجم علم الاجتماع إلا بواسطة التفاعلية الرمزية، إذ هذه المدرسة تبحث بالضبط في الطريقة التي تتشكل عبرها التفاعلات الاجتماعية – و بناءا على أنساق رمزية مشتركة – وعي الفرد بنفسه وهذا بحث في صميم إشكالية الهوية.

وبالرغم من ذلك لم يستعمل التفاعليون في البداية هذا اللفظ، ولهذا تفسير قريب ذلك أن الآباء المؤسسين لمنهج المدرسة "شارل كولي وجورج ميد " تكلما عن الذات وهو المصطلح الذي راج بين التفاعليين في الستينيات، ثم إن التفاعلية الرمزية انتقلت من استعمال اصطلاح الذات إلى استخدام اصطلاح الهوية بدءا من سنة 1963، وذلك حين نشر إيريفين جوفمان – أحد رؤساء هذه المدرسة –" آثار الجراح : ملاحظات على أسلوب التعاطي مع هوية مدمرة "، و في السنة ذاتها شهر بيتر برجر مفهوم الهوية وساهم في انتشار استعماله بكتابه : " دعوة إلى دراسة علم الاجتماع"، وذلك حين خصص له حيز ا هاما في تقديمه لنظريات الأدوار والجماعة المرجعية وكذا من خلال المقاربة الظاهراتية التي طورها في كتابه هذا.

وقد ساهمت الظروف السياسية في أمريكا في ترسيخ اصطلاح الهوية وتوسيع استخداماتها، حتى صار من المستحيل كما قال كليزون:" أن نحدد المعنى الدقيق لكل استخدام خاص لمفهوم الهوية "، ذلك أنه في نهاية الستينيات برزت قضية الأقليات ومطالبتها بالاعتراف بخصوصيتها كمشكلة سياسية حقيقية، وهذه الظرفية أنتجت صحوة " هوية حقيقية"، وكما لاحظ ذلك عالم الاجتماع الأمريكي روجر بروباكر فإن تجربة الأمريكيين من أصل إفريقي مع قضية الإثنية باعتبارها تصنيفا يفرض نفسه وفي الوقت نفسه باعتبارها تحديدا ذاتيا للهوية.. هذه التجربة كانت حاسمة ليس فقط لنفسها وفي داخل حدودها الخاصة، بل أيضا في تقديمها لنموذج الاحتجاج على أساس من الهوية، وهو النموذج الذي استفادت منه جميع الهويات بدءا من تلك التي تتعلق بالاختيار الجنسي، وانتهاءا بتلك التي تتأسس على الانتماء الإثني أو العرق".

ويعكس نجاح مفهوم الهوية العودة القوية للفرد فبالرغم من أهمية البنيات التي تحدده فالفرد يتصدر كل شيء، وتعد هذه الفكرة ترجمة لاتجاه تاريخي يعنى بتأكيد" الفردانية "، وهذه الأطروحة أيّدها عدد كبير من الباحثين في خصائص الحداثة، حيث لاحظ جون كلود كوفمان في كتابه: "ابتكار الذات " أن "الهوية صيرورة ذاتية للحداثة ومرتبطة بها، لم يكن الإنسان المندمج في مجتمع تقليدي يطرح مشاكل الهوية كما نفعل نحن اليوم. رغم أنه عمليا كان يعيش فردانية"، إذ أننا نلج عصر الهويات فبالضبط لأنها لم تبق بديهية، بل هي أشكال متغيرة ويلزم بناؤها وتأسيسها.

ويقتضي الدخول لما يسميه أنطوني جيدنز بـــ "الحداثة المتقدمة " بدرجة متزايدة من التأمل، فالناس يتساءلون عن كل شيء مما يجعل سلوكهم مترددا باستمرار، وفي هذا يوجد مفتاح الهوية بالنسبة لكوفمان الذي يقول:" يندرج الفكر السؤول ضمن منطق الانفتاح، فهو يحطم اليقينيات ويشكك فيما اعتبر مكسبا نهائيا، على خلاف ذلك لا تكف الهوية

عن جمع الشظايا و تركيبها، فهي نسق مستمر يحفظ المعنى ويسيّجه ونموذجها هو الكلية "، إنما لا يمكن للهوية أن تؤدي هذه الوظيفة إلا بشكل مؤقت .

وفي ذات المنحى حاول شارل تايلور في كتابه " أصول الأنا " أن يتتبع نشأة الهوية الحديثة والفردانية عبر تاريخ الفلسفة و تاريخ العقليات، و بحسبه فإن الهوية الحديثة ترتكز على ثلاثة جوانب:

- اكتشاف أو ابتكار السريرة الداخلية

- تثمين الحياة العادية

- علمنة المجتمع " كان المفروض عند تايلور ألا تحطم الفردانية التي تميز مجتمعاتنا الحديثة الروابط التي توحد بين الناس "[35].

3-1 الهوية والمسألة الأخلاقية: لم يكتف تايلور بالتشخيص والنقد للهوية الحديثة وإنما حاول أن يقدم بديلا أخلاقيا وسياسيا اصطلح عليه بـــــ "الثقافة الأصيلة" la culture de l'authenticité ثقافة تقوم على البحث في انفتاح الشخصية، وتؤدي إلى وجود أصيل وإلى مسؤولية الشخص مع ضرورة تأسيس قيم مشتركة للحياة السياسية الفاعلة.

تقوم ثقافة الأصالة على الهوية التي يحلّلها إلى ثلاثة مستويات هي:

- العلاقة بين تشكل الهوية الفردية والتوجه نحو الخير الأخلاقي، فعندما أطرح السؤال من أنا؟ فليس لأحتل مكانا ضمن نظام الأشياء، ولكن من أجل أن أعطي معنى لوجودي، وبالتالي علينا أن نفصل بين سؤال من أنا؟ وسؤال من أكون؟ إننا نحدد أنفسنا بنوع الخيرات التي تعطي معنى لوجودنا وتوجه فعلنا، فهويتي تتحدد بالخير المقبول والخير الأفضل، أو كما يقول: "لكي تكون لنا هوية يجب أن يكون توجه نحو الخير".

- تتكون الهوية من الأطر المرجعية المشكلة والمكونة للفعل الإنساني، وذلك لأن المجتمعات الحديثة تسمح للأفراد بتكوين نفسها وعليه فإن الأنا تتحدد بتأويلات ذاتية، ويتم ذلك من خلال "جماعة الاعتراف" communauté de reconnaissance ومن هنا فإن التحديد الكامل لهوية ما يتضمن ليس فقط توجها أو موقفا تجاه الأسئلة الأخلاقية والروحية، ولكن أيضا نوعا من المرجعية والإحالة إلى جماعة تقدم تعريفات أو تحديدات.

- يتمثل المستوى الثالث في الإجابة عن هذا السؤال: كيف يمكن للفرد أن يعطي نفسه معنى خاصا؟ بناء على أي أساس وبناء على أي إطار مرجعي اجتماعي وتاريخي يشكل الفرد أفق القيم التي تحدد شكل هويته؟

يقدم تايلور إجابته بناء على تصور سردي لتكوين الهوية تعتمد على التحليلات الوجودية لهيدغر والتحليلات التأويلية لبول ريكور لأنه كما قال: "الإنسان دائما في حالة صيرورة وجودية"، إن الإنسان لا يستطيع تشكيل هويته إلا عندما يقوم بسردها، إن السرد ضروري لفهم الذات، وإلى التوجه في الفضاء الأخلاقي.

وترتبط الهوية بنوع من الخير الذي نأمل فيه، وذلك لأن حياتنا الأخلاقية تتحدد، في نظره، بثلاثة محاور:1- تصوراتنا التي نقيمها حول التزاماتنا وواجباتنا تجاه الآخرين. 2- تصوراتنا للحياة الخيرة. 3- كل ما يتصل بكرامتنا، بمعنى ما نعتقد أنه من الخير القيام به حتى نفرض الاحترام على من يحيط بنا، من هنا يرى ضرورة الانتقال من أخلاق الشرف والمجد إلى أخلاق الكرامة والاحترام.

إن ما يميز تايلور عن غيره من الفلاسفة المعاصرين هو دعوته إلى الاعتراف بوصفه حلا أخلاقيا وسياسيا لمشكلات الهوية، وذلك لأن الاعتراف يمثل حاجة فردية أولية وأصيلة، ويشكل قاعدة لتسيير التعدد والاختلاف في المجتمع ويقوم الاعتراف على مسلمة أساسية وهي أن لا وجود لهوية وأصالة شخصية من غير حوار، ومن دون مساهمة الآخرين، ومن دون تبادل معهم[36].

رابعا. الانترنيت والهوية أية علائق وأي تأثيرات؟

1. الانترنيت كمجال مواز لتشكل الهوية:

تشير الأدبيات الحديثة إلى مسألة جد مهمة تتعلق بتحول الانترنيت إلى مجال اجتماعي تمارس فيه النشاطات الاجتماعية المختلفة، ما جعل هذه الأخيرة (الانترنيت) أداة فاعلة في صياغة العديد من المفاهيم حول الحياة، منطق التعامل، معرفتنا لأنفسنا والعالم، مما يجعل عملية تفعيل الأطر المفاهيمية داخل السياقات المتعددة تتأثر بنموذج المفاهيم المصاغة والتي تعمل بدورها في التأثير على عملية استيعاب الأطر المفاهيمية.

كل هذه العمليات جعلت الرابط الاجتماعي بين الأفراد يعرف تحولا عميقا أبرز سماته أنه صار:

- ينسج بعناصر أخرى تتمثل في وجود اهتمامات مشتركة (مال، ذوق، انشغال معين).
- لحظيا، حيث توارت التواريخ الفردية الخطية لفائدة الحكايات الإنسانية داخل علاقات تقلص الزمان إلى مكان، حيث صار ما يهيمن هو هذا "الحاضر الذي أعيشه مع أفراد آخرين في مكان محدد".
- متعددا، إذ أصبح الفرد قادرا على الانسلاخ من جماعته المحلية ليتجه رأسا إلى الجماعة الكونية ويختار ضمنها مجموعة/ مجموعات للانتماء، مما أفضى بالبعض إلى الحديث عن عودة القبلية أو القبلية الجديدة.
- قابلا للمتاجرة، إذ لم يعد منطق النفاذ يخضع بتاتا للمعايير التقليدية وهي طقوس وعلاقات القرابة والأصل العرقي والدين أو الجنس، بل صار يخضع أساسا لمعيار "حقيبة النقود".
- افتراضيا لا ماديا، وذلك بفعل حركة الفرضنة الواسعة التي تجتاح مختلف قطاعات الحياة متمثلة في النقل الحرفي للعالم الواقعي وأنشطته إلى العالم الافتراضي (جسم الإنسان، المكتبات، الشغل، الاقتصاد..إلخ)، بتعبير آخر: "أنا متصل إذا أنا موجود"، هذه هي العملة الجديدة لنوع جديد من الإنسان لم يعد الأساسي عنده هو الاستقلال الشخصي، بل تعددية من العلاقات التي تتأسس على بديهية مالي هو للآخرين"[37].

أمام هذا التحول غذى البحث في مسألة الهوية ضمن هذا الفضاء الجديد واقعا يفرض نفسه بشدة ولهذا توجه الكثير من الباحثين لتحليل هذه العلاقة، فتناول أمين معلوف مسألة "الهويات القاتلة"، وبحثت مي يماني في "الهويات المتغيرة"..إلخ، إن الهوية باتت تشكل نماذج التماسك والتفكك والصراع، واستنادا إلى ذلك يعتبر اليوم أن أكثر الصراعات انتشارا وأهمية وخطورة لن تكون بين طبقات اجتماعية غنية وفقيرة أو جماعات أخرى محددة على أسس اقتصادية، ولكن بين شعوب تنتمي إلى هويات مختلفة[38]، ولذا فإن الانترنيت بما تحمله من تعدد وتشابه رمزي في ذات الوقت أصبحت تطرح نفسها بقوة كأداة تدعيمية لهذه الهوية حسب متفائلين، أو تدميرية حسب متشائمين أو آلية يمكن التحكم في سلبياتها وتطويع إيجابياتها حسب توفيقيين، ولذا فإن الفكر المعاصر يدرس هذه القضية بجدية ويبدو أن ذلك سيستمر طويلا بفعل أن الظاهرة في انتشار واسع و لم تتحدد بعد ملامحها النهائية وانعكاساتها.

2. الانترنيت وانعكاساتها على الهوية:

تنتظم المجتمعات المعاصرة ضمن ثلاثة أنماط متداخلة ومتفاعلة يمكن من خلالها في وقت لاحق، مقاربة طبيعة التجاذب بين الانترنيت وإشكالية الهوية، على النحو الآتي:

- التراتبية الاجتماعية والثقافية: إن العلاقات التي بين الفئات الاجتماعية غالبا ما تحكمها علاقات تميل للهيمنة، ضمن هذا السياق ما هو الدور الذي تقوم به الانترنيت في إنتاج وإعادة إنتاج التراتبية الاجتماعية والثقافية؟

- الوعي الجماعي: لا يمكن حصر الحياة الاجتماعية في علاقات الهيمنة، ذلك أن الأفراد عادة ما ينتمون إلى جماعات داخل الجماعة الاجتماعية الكبرى التي نطلق عليها المجتمع، فإلى أي مدى تساهم الانترنيت في تدعيم وتقوية هذا الوجود الجماعي (التواجد مع الآخرين).
- الهوية الشخصية (الذاتية): تتشكل غالبية المجتمعات المعاصرة من أفراد يغلب عليهم تمركزهم حول ذواتهم مع ما يستتبع ذلك من آثار تمس طبيعة العلاقة بذواتهم وبالآخرين، فكل فرد هو تعبير عن خصوصية ذاتية وهنا يطرح سؤال الانترنيت ودورها في إنتاج هذه الذوات[39].

وفي معرض التساؤل عن دور الانترنيت في تشكيل الهوية الشخصية، تتميز مرحلة الفئات الأكثر حركية والمراهقة بخاصة بالتحولات النفسية والجسدية التي تجعل الشاب غير متوازن نسبيا، ومن ثم تعرضه للتقلبات التي قد تكون مفاجئة، ويكون الأمر كافيا كي يجعل الفرد يحاول لفت انتباه الآخرين إلى وضعه وتميزه وتكون إحدى أهم هذه الوسائل الاستغراق في استخدام الانترنيت.

إن هذا الاستغراق يسمح بتحلل الفرد في البيئة الافتراضية، مستخدما عدة هويات (تمثلات لذاته ضمن البيئة الافتراضية بتسميات وشخصيات مختلفة)، ما يشكل بدوره إشباعا لامتناهيا لأنا الفرد من خلال "الاعتراف" بفنتازمياته في الفضاء الانترناتي، وهذا السلوك يدفع به إلى الانغلاق ضمن ممارسات انترناتية يطبعها إكراه الذات على استبدال الافتراضي بالواقعي وتبني موقف شيزوفريني (انفصامي) وانطوائي على شاكلة الأوتاكيس Otakus، إذا فالأنا الفردي يتلاشى تحت ضغط مختلف الذوات أو الهويات الافتراضية التي لا يستطيع أن يتحكم فيها، هذا الأنا ينفلت من دائرة البناء الذاتي والداخلي للفرد بناء على تمثل النماذج الاجتماعية، إذ لم يعد الأنا ذلك "المجموع المنظم من مواقف الآخرين والتي ينهض بها الفرد" لكنه على العكس من ذلك غدا هروبا ونكوصا عن القيام بمهمته التوليفية، إنه يحيل في النهاية على رفض الفرد قبول أناه كما هو، فالفرد لم يعد ينطلق من الذوات التي تؤسسه اجتماعيا للوصول إلى أناه الفردية لكن ينطلق من خيبة أمل في علاقته بهويته الشخصية وهو ما يدفعه إلى الهروب في/إلى الذوات أو الهويات الافتراضية، لينتج عن هذا الهروب نوع من اغتراب الفرد عن ذاته وعن مجتمعه، وهو ما عبر عنه ميد بقوله: "إن أفعالنا تصبح مصدرا لدهشتنا" وبهذه الرؤية فالفرد لا يوجد إلا بمدى قدرته على "تعاليه" على المحددات اللاشخصية[40].

أما عن علاقة الانترنيت بالهوية الوطنية والثقافية وبناء الوعي الجماعي فإن اللغة المشتركة والماضي المشترك والدين الواحد والتقاليد المشتركة هي من أهم العناصر المساعدة للمجموعات والجماعات على الوجود والاستمرار والاستقرار، وهي من أهم ظواهر الهوية الوطنية والهوية الثقافية الجامعة، ومنه يبرز إشكال منهجي متعلق بما إذا كان التكامل الاقتصادي مترادفا مع الانترنيت بما تتيحه من عالمية النشر– وما يحتويه من الأخبار والصور المنتجة والموزعة إقليميا، يؤدي إلى هوية وطنية وثقافية؟ وهل أن اشتراك الجمهور معا في مجموعات متخيلة ضمن فضاء الانترنيت، يغذي ما يقول عنه كل من أوندرسون وجيدنز (Anderson-Giddens) وعيا جديدا، وهل لنا أن نتوقع أن تقوم الانترنيت بتغيير جذري لمركزية المكان في تشكيل الهويات في المجتمعات والمجموعات البشرية ؟[41]

تنفرد الانترنيت بخاصية أساسية تجعل منها أداة محورية في توسيع فضاء حركية الأفراد (ولو افتراضيا) وتجاوز العقبات التّقنية للوصول إلى المعلومات، وإذا كان الأمر لا ينطبق على كل المجتمعات باعتبار الاختلافات في البنى التحتية والقدرة على التمثل الإيجابي للانترنيت، فإن التراكم الإيجابي وإدماج الفئات التي ظلت خارج فضاء الانترنيت سيساهمان في توسيع دائرة المستفيدين من المصادر الرقمية، فحيث تجد الوسائل الإعلامية نفسها على أقل تقدير في صيغتها التقليدية عاجزة عن

القفز فوق الجغرافيا؛ فإن الانترنيت تقلص هذه المعوقات إلى مستوياتها الدّنيا إن لم تلغها، وقد غذت الانترنيت بهذا الشكل فضاء للتحاور (ليس دائما ذلك الذي يغلب عليه الطّابع التبادلي التفاعلي)، والتعايش بين جماعات ذات ثقافات ومرجعيات مختلفة، إذ أنّ نفس الموضوعات تتعدد مواقعها على الانترنيت بتعدد الرّؤى والقراءات التي تتبناها، فبعضها قومي وبعضها الآخر عرقي وقسم ثالث يؤخذ بمنظور كوني .إلخ فكل فضاء يظهر وجوده وتفرده من خلال حضوره على الواب[42] .

وتساهم الانترنيت بهذا في خلق مرجعيات اجتماعية جديدة، إذ تمنح هذه الشبكات بعض الجماعات والأفراد إمكانية استثمار فضاءات عمومية لتطرح بها دلالات جديدة غنية وتجديدية، ومن هذا المنطلق لم تعد محتويات التنشئة الأسرية المصدر الأول لتكوين مرجعيات التصورات والآراء وتشكل الهوية، كما لم يعد أيضا حاملي القيم التقليديين الأولياء والمعلمين مثلا رموزا مركزية للتماهي، بل احتلت شخصيات الفضاء الافتراضي الصدارة في عمليات التماهي وتشكيل الوعي والطباع، مما أحدث عملية إعادة بناء التصورات والسلوك ومنظومات القيم المتداولة.

إن الانترنيت بهذا غيرت من طبيعة المرجعيات التي يستمد منه الشخص هويته مما جعل الهوية تابعة لمرجعيات حديثة، فتغيرت أسس الهوية الثقافية وتغيرت الهوية الوطنية إذ بات العالم هو الوطن الجامع الذي يشكل المرجع الجديد للهوية وتشكل الثقافة العالمية المحدد الأساسي للهوية الثقافية .

خاتمة:

إن التطبيقات التي تميز الانترنيت باعتبارها وسيطا اتصاليا وحاملا اجتماعيا وثقافيا وفضاءا جماعيا تمارس فيه النشاطات الاجتماعية والشخصية المختلفة، تجعلنا نجزم أن الانترنيت باتت مجالا خصبا لتشكل الهوية بامتياز، هذه الهوية مختلفة تمام الاختلاف عن الهوية الأصلية التي تميز الشخص الحقيقي في المجال الاجتماعي التقليدي، خاصة أنها (الانترنيت) تتمتع بآليات تنضاف إلى تلك التي تتمتع بها الوسائل الاتصالية التقليدية وحتى الحديثة منها، فهي تتيح حرية المناقشة والتعبير وتفسح المجال للإعراب عن ذواتنا وهوياتنا دون حرج أو تردد، وما يجعل هذه الهويات تنبثق أكثر وتتعدد هو الترحيب الدائم بالأعضاء الجدد مما خلق مجتمع جديد يسمى المجتمع الشبكي أو المتخيل، مفردات هذا المجتمع باتت تشعر بانتماء قوي لبعضها خاصة من خلال الوقت الكبير الذي يقضيه هؤلاء معا، فتولدت أنا شخصية جديدة وظهرت هويات ثقافية ووطنية مستحدثة.

قائمة المصادر والمراجع:

1- فريال مهنا، علوم الاتصال والمجتمعات الرقمية، بيروت: دار الفكر المعاصر، 2002، ص 543.

2- إبراهيم بعزيز، وسائل الاتصال الجديدة وأثرها على ثقافة المستعملين، مداخلة ضمن المؤتمر العلمي الأول " وسائل الإعلام والمجتمع "، بسكرة28-29 نوفمبر 2010، الجزائر: دار الخلدونية للطباعة والنشر 2010، ص 175.

3- قويدر الواحد عبد الله، بوذريع صليحة، الإنترنيت كمظهر من مظاهر الاقتصاد الرقمي وآثارها السلبي على العقل العربي،[على الخط المباشر].تمت الزيارة يوم : 2012/02/22 . متاح على الرابط الالكتروني الآتي:

http//www.univ-chelef.dz

4- Internet World Stats, Internet Users In The World, [on line]. [18/10/2012]. Available at: http:// www.internetworldstats.com

5- فيصل أبو عيشة، الإعلام الالكتروني، عمان: دار أسامة، 2009، ص 63.

6- بركات غنية وآخرون، الاقتصاد المعرفي..وضعية الجزائر،[على الخط المباشر].تمت الزيارة يوم : 2013/02/15 . متاح على الرابط الالكتروني الآتي: http://www.fares-boubakour.edu.dz/exp/nefs/economie-savoir-algerie.doc

7- Med&Com, IDEATIC, WebDialn@.. Etude sur les Usages et Perceptions des Internautes du Web Algérien ,[En ligne],[22/02/2013].disponible sur:www.webdialna.com

8- خيرت معوض محمد عياد، استخدام الانترنيت كوسيلة اتصال في حملات التسويق السياسي..دراسة حملة انتخابات الرئاسة الأمريكية 2008، فعاليات المؤتمر الدولي الإعلام الجديد: تكنولوجيا جديدة لعالم جديد، جامعة البحرين 7-9 أفريل 2009، منشورات جامعة البحرين، 2009، ص 427.

9- رضا عبد الواحد أمين، الصحافة الالكترونية، القاهرة: دار الفجر للنشر والتوزيع، 2007، ص ص 67-68.

10- عباس مصطفى صادق، الانترنيت والبحث العلمي، أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستشرافية، 2007، ص ص 20-21.

11- إبراهيم بعزيز، مرجع سابق، ص 177.

12- رضا عبد الواحد أمين، مرجع سابق، ص 69-72.

13- محمود علم الدين، تكنولوجيا المعلومات والاتصال ومستقبل صناعة الصحافة، القاهرة: دار الرحاب، 2005، ص 177.

14- رضا عبد الواحد أمين، مرجع سابق، ص ص 73-74.

15- عبد الباسط محمد عبد الوهاب، استخدام تكنولوجيا الاتصال في الانتاج الإذاعي والتلفزيوني، د.م.ن: المكتب الجامعي الحديث، 2005، ص ص 261-262.

16- ماجد سالم تربان، الانترنيت والصحافة الالكترونية..رؤية مستقبلية، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2008، ص ص80-81.

17- محمد إبراهيم عيد، الهوية والقلق والإبداع، القاهرة : دار القاهرة ، 2002، ص 17.

18- ناجم مولاي، أزمة الهوية في ظل تحدي الاغتراب..مأزق وعي ومحنة شخصية،[على الخط المباشر]. تمت الزيارة يوم : 2013/02/21. متاح على الرابط الالكتروني الآتيhttp//www.univ-ouargla.dz

19- بن عيسى محمد المهدي، كانون جمال، مستخدمي الانترنيت في المجتمع الجزائري بين الهوية المستقلة والهوية المغتربة، [على الخط المباشر].تمت الزيارة يوم : 2013/02/21 . متاح على الرابط الالكتروني الآتي http//www.univ-ouargla.dz

20- آيت مولود ناصر، الهوية والأدب الجزائري المفرنس في مرحلته الثانية..تحليل سيميائي سوسيولوجي للروايات، نجمة، الهضبة المنسية، الدار الكبيرة، رسالة ماجستير: قسم علم الاجتماع، جامعة الجزائر ، 2000-2001، ص13.

21- بن عيسى محمد المهدي، كانون جمال، مصدر سابق.

22- Barus-Michel et autre, vocabulaire de psychosociologie..références et positions, Paris : Ères, 2002,p 174.

23- محمد إبراهيم عيد، مرجع سابق، ص 18.

24- كوسة فاطمة الزهراء، أزمة الهوية عند الشباب الجزائري..دراسة استكشافية، رسالة ماجستير: قسم علم النفس، جامعة الجزائر ، 2004-2005، ص 49.

25- المرجع نفسه، ص46.

26- سلطان بلغيث، تمظهرات أزمة الهوية لدى الشباب،[على الخط المباشر].تمت الزيارة يوم : 2013/02/21 . متاح على الرابط الالكتروني الآتي http//www.univ-ouargla.dz

27- محمد إبراهيم عيد، مرجع سابق، ص 19.

28- ستيوارت هول، حول الهوية الثقافية، ترجمة بول طبر،[على الخط المباشر].تمت الزيارة يوم : 2014/02/14 . متاح على الرابط الالكتروني الآتي:http://www.caus.org.lb/PDF/EmagazineArticles/I2-07.pdf

29- مهدي محمد القصاص، الهوية الثقافية والعولمة،[على الخط المباشر].تمت الزيارة يوم : 2013/01/18 . متاح على الرابط الالكتروني الآتي:http://www.mahdyelkassas.name.eg/books/family.pdf

30- سلطان بلغيث، مصدر سابق.

31- مهدي محمد القصاص، ، مصدر سابق.

32- محمد العربي ولد خليفة، المسألة الثقافية..وقضايا اللسان والهوية، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2003، ص 89.

33- محمد عبد الله الجربيع، مدخل لدراسة الهويات الوطنية..دراسة سوسيولوجية،[على الخط المباشر].تمت الزيارة يوم : 2013/03/03 . متاح على الرابط الالكتروني الآتي:http//www.thoriacenter.org/cms/webimages/359509.doc

34- خيرت معوض محمد عياد، الهوية العربية كمتغير في معالجة الصحافة للغزو الأنجلو أمريكي للعراق ،[على الخط المباشر].تمت الزيارة يوم : 2013/03/03 . متاح على الرابط الالكتروني الآتي:http://site.iugaza.edu.ps/jdalou/files

35- رقية العلي، مفهوم الهوية تاريخه وإشكالاته،[على الخط المباشر].تمت الزيارة يوم : 2013/01/23 . متاح على الرابط الالكتروني الآتي:http://www.ejtemay.com/showthread.php?t=486

36- الزواوي بغورة، ما بعد الحداثة والتنوير..موقف الانطولوجيا التاريخية، بيروت: دار الطليعة، 2009، ص ص 275-277.

37- محمد أسليم، الرقمية ومستقبل الثقافة العربية، ضمن كتاب العربي.. الثقافة في ظل وسائط الاتصال الحديثة، الكويت: منشورات وزارة الإعلام، ج2، ع 82، 2010، ص ص 129-130.

38- عبد الغني عماد، سوسيولوجيا الثقافة..المفاهيم والإشكاليات من الحداثة إلى العولمة، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2006، ص 251.

39- الصادق رابح، قراءة في الرهانات الثقافية والاجتماعية للتكنولوجيات الرقمية الحديثة، مجلة الإذاعات العربية، تونس: منشورات إتحاد إذاعات الدول العربية، ع 1، 2006، ص ص 85-86.

40- الصادق رابح، الانترنيت كفضاء مستحدث لتشكل الذات، المجلة المصرية لبحوث الرأي العام، مج8، ع2، 2007. ص ص 269-270.

41- علي أحمد الطراح، وسائل الإعلام والهوية الوطنية..دراسة نقدية للآراء ذات المركزية التكنولوجية حول العولمة، ضمن كتاب الهويات الوطنية والمجتمع العالمي والإعلام، بيروت: دار النهضة العربية، 2002، ص 157.

42- الصادق رابح، قراءة في الرهانات الثقافية والاجتماعية للتكنولوجيات الرقمية الحديثة، مرجع سابق، ص 88.

اللجان الدائمة في البرلمان الجزائري

يحياوي حمزة
جامعة الجزائر1

مقدمة :

اللجان البرلمانية هي أجهزة في البرلمانات تختص بفحص ودراسة مشروعات القوانين والرقابة على أعمال السلطة التنفيذية وإعداد التقارير والتوصيات بشأنها للمجلس. كما تعد اللجان ساحة مناسبة لإجراء المناقشات التفصيلية للقضايا التي تناقشها البرلمانات، فهي بذلك تكتسب أهمية كبرى في العمل البرلماني ولا يكاد يوجد برلمان لا يعتمد في أدائه على عمل اللجان سواء كانت دائمة أو مؤقتة.

واللجان الدائمة هي لجان أصيلة، تختلف عن اللجان الخاصة المؤقتة التي تتولى الموضوعات التي تنتهي بانتهاء الغرض الذي شكلت من أجله أو بقرار من المجلس.[1] ولدراسة اللجان الدائمة في الجزائر وجب توضيح أساسها القانوني (المبحث الأول) ومهامها (المبحث الثاني)

المبحث الأول: الأساس القانوني للجان الدائمة

منذ تشكيل أو برلمان في الجزائر المستقلة تم الاعتماد على اللجان الدائمة كوسيلة مهمة وفعالة للعمل البرلماني وخاصة في شقه التشريعي، والدستور الجزائري المعدل سنة 2016 وفي كل التعديلات السابقة أكد على مبدأ اعتماد اللجان الدائمة، في المادة 113 منه في فقرتيها الثانية والثالثة نص على حق البرلمان في تشكيل لجانه: (ينتخب المجلس الشعبي الوطني مكتبه ويشكل لجانه. تطبق الأحكام السابقة الذكر على مجلس الأمة) فالمشرع الدستوري مبدئيا لم يفرض على البرلمان نوعية اللجان ولا عددها ولا اختصاصها إلا أن المادة 134 فقرة 01 من الدستور حددت نوعية اللجان المشكلة في البرلمان بشكل قاطع بأنها دائمة: (يشكل المجلس الشعبي الوطني ومجلس الأمة لجانهما الدائمة في إطار نظامهما الداخلي.)[2] فالدستور الحالي سواء قبل أو بعد تعديله يتناسق مع ما في الدساتير السابقة و لم يخرج عن المألوف في تحديد لجان البرلمان على أنها دائمة، وهو ما جعل المجلس الدستوري يمنع البرلمان من إنشاء لجان خاصة.[3]

فالمشرع لم يترك الحرية للبرلمان لتحديد نوع لجانه بل قيده بعدم السماح بتشكيل لجان خاصة وكرس ذلك في القانون العضوي رقم 99 -02 الذي يحدد تنظيم المجلس الشعبي الوطني ومجلس الأمة وعملهما وكذا العلاقات الوظيفية بينهما وبين الحكومة المؤرخ في 08 مارس 1999.[4] وأيضا في النظام الداخلي للمجلس الشعبي الوطني الحالي لسنة 2000 في المواد 07 و 19 منه والنظام الداخلي لمجلس الأمة لسنة 1999 في المواد 15 و16 منه.

بناء على هذه الأسس القانونية نتناول هيكلة اللجان الدائمة (المطلب الأول) و نظام سير عملها (المطلب الثاني) في البرلمان الجزائري.

المطلب الأول: هيكلة اللجان الدائمة

تعتمد البرلمانات في أداء وظيفتها الرقابية والتشريعية على اللجان البرلمانية المعنية بالأمور الموضوعية المتخصصة، كالزراعة والطاقة والتعليم والمواصلات والدفاع والصناعة، كما يتم عادة تشكيل لجان مشتركة من اللجان الدائمة بالمجلس وذلك لبحث الموضوع المطروح وإعداد تقرير واف عنه يعرض على البرلمان، مصحوبا عادة بتوصيات أو قرارات وفقا للسلطة

المخولة لهذه اللجان البرلمانية ليتخذ البرلمان ما يراه في هذا الصدد.[5] لذلك تختلف اللجان الدائمة في التسمية والاختصاص (الفرع الأول) وأيضا في تشكيلتها والعضوية فيها (الفرع الثاني)

الفرع الأول: التسمية والاختصاص

إن تسمية اللجان الدائمة في المجلس الواحد وتحديد عددها وتوزيع ميادين التشريع والقطاعات الوزارية عليها يبقى اختصاصا أصيلا تقديريا للمجلس لا يخضع عند إقراره للرقابة الدستورية، كما أن تسمية اللجنة غالبا ما عكست الميادين التي تقع في دائرة اختصاصها مما يسهل إحالة النصوص إليها ويقلل من تنازع الاختصاص بينها وبين اللجان الأخرى، والبرلمان الجزائري لم يكثر من اللجان الدائمة فكثرتها تثير عدة إشكالات من ناحية توزيع المجالات التشريع المخصصة لها ونوعية وحجم العمل الذي تقوم به، في المقابل فإن تخفيض عددها يحتاج لتوسيع مجالات تخصصها فتجمع نفس اللجنة مجالات عدة وزارات، وهذا يؤدي لرفع عدد أعضائها وهو ما يحول جلساتها إلى ما يشبه الجلسات العامة تتوسع فيه المناقشات السياسية وتتشعب على حساب الجانب التقني المخصص للجان لفحص النصوص، مما ينعكس على جدية عملها وجودة منتوجها التشريعي وعلى الأداء البرلماني. فهناك تناسب عكسي بين عدد اللجان الدائمة وميادين تخصصها فكلما زاد عدد اللجان الدائمة نقصت ميادين التشريع لكل لجنة والعكس صحيح. والسبب يرجع إلى أن ميادين التشريع للبرلمان في مجال القانون العادي والقانون العضوي محددة سلفا حسب المواد 140 و141 وغيرها من مواد الدستور والتي لا تتجاوز 40 ميدانا بالعموم. كما أنه ليس بالضرورة أن تتماثل تسمية اللجان الدائمة وعددها بين مجلسي البرلمان وإن كان معتمدا في بعض البرلمانات، غير أن عدم تساويها وتغير تسمياتها يسبب ارتباكا في إحالة النصوص التشريعية عليها، والحكومة تجد نفسها تتعامل مع لجنتين مختلفتين في التسمية ولهما نفس مجال الاختصاص وكل منهما تنتمي لمجلس.

لقد اعتمد المشرع الجزائري معيار الاختصاص وهو معيار موضوعي في تسمية وتكوين لجان البرلمان الدائمة. فمنذ نشأة البرلمان الجزائري تراوح عدد اللجان الدائمة به ما بين 05 لجان إلى 12 لجنة دائمة. وحاليا تضمنت غرفتا البرلمان في الجزائر تشكيلة واسعة من اللجان البرلمانية الدائمة، وعددها متناسب مع مجموع أعضاء كل مجلس، فالمجلس الشعبي الوطني أحصى 12 لجنة دائمة وفق لائحتيه الداخليتين الأخيرتين، وأقرت المواد من 19 إلى 31 من نظامه الداخلي الأخير لسنة 2000 تسمياتها واختصاصاتها بالتفصيل. مجلس الأمة وأثناء مناقشة نظامه الداخلي الأول لسنة 1998 كانت هناك ثلاث آراء في الموضوع، البعض ذهب إلى ضرورة تقليد المجلس الشعبي الوطني خصوصا وأنه سبق مجلس الأمة زمنيا في إعداد نظامه الداخلي، بينما ذهب رأي آخر إلى ضرورة تقليص عدد اللجان الدائمة إلى أدنى حد ستة (06) لجان مثلا كما هو الحال في فرنسا، بحيث أنه ورغم العدد المرتفع للنواب وللشيوخ فعدد اللجان الدائمة لا يتعدى الستة. لكن كان هناك رأي ثالث أراد التوفيق بين التوسيع والتضييق في عدد اللجان الدائمة، وبالتالي تم اقتراح تسعة (09) لجان دائمة.[6] أقرها أيضا النظام الداخلي الحالي مجلس الأمة لسنة 1999.

الفرع الثاني: تشكيلة اللجان الدائمة والعضوية فيها

مما لاشك فيه أن تنوع تشكيلة البرلمان بسبب دخول الأحزاب إليه وخاصة المعارضة منها، له تأثير مباشر في تشكيل أجهزته بصفة عامة ولجانه بصفة خاصة. فيشكل المجلسان لجانهما الدائمة في بداية الفترة التشريعية لمدة سنة قابلة للتجديد،[7] لكن المشرع جعل قواعد وشروط للانتماء إليها وهي اقتصار العضوية في اللجان على أعضاء المجلس الذي تتبعه اللجنة دون غيرهم، وأيضا مبدأ المساواة حيث يتمتع أعضاء المجلس بنفس الحق في العضوية في الجان الدائمة. غير أن كلا من النظامين الداخليين للمجلسين نصا على إمكانية انضمام النائب للجنة دائمة، يجعلنا نؤكد على نقطة هامة هي أن

النظامين الداخليين لا يجبران النواب ولا أعضاء مجلس الأمة على الانضمام إلى اللجان الدائمة، مع اقتصار العضوية على لجنة دائمة واحدة، [8] وهو عكس ما سجلناه في مراحل سابقة من حياة المؤسسة التشريعية الجزائرية، وكان على المشرع التنصيص على وجوب الانضمام إلى اللجان الدائمة والذي يصب في مصلحة البرلمان ويسمح باستقرار العمل التشريعي طيلة الفترة التشريعية وذلك لتجنيب استغلال عدم الانضمام إلى اللجان الدائمة لتعطيل عمل البرلمان وللمزايدة السياسية، فعمل البرلمان حقيقة هو عمل اللجان، والمخالفين بعدم الانضمام إلى اللجان والعمل فيها وجب ردعهم بعقوبات مالية أو تأديبية أخرى وفي حال الإصرار لم لا يكون الفصل ورفع الحصانة آخر حل.

وللعضوية في اللجان اشترط المشرع أيضا وجوب تطبيق مبدأ التمثيل النسبي للمجموعات البرلمانية، ويمكن توضيح الطريقة كما أدرجها المشرع الجزائري في نظامي الغرفتين حيث يتم توزيع المقاعد داخل اللجان الدائمة فيما بين المجموعات البرلمانية بكيفية تتناسب مع العدد الفعلي لأعضائها، وتساوي حصة المقاعد الممنوحة لكل مجموعة نسبة عدد أعضائها مقارنة مع العدد الأقصى لأعضاء اللجنة، وترفع هذه النسبة إلى العدد الأعلى المباشر عندما يفوق الباقي نسبة 0.50. ويعين مكتب المجلس النواب أو الأعضاء غير المنتمين لمجموعة برلمانية – بناء على طلبهم– أعضاء في لجنة دائمة، ويراعى في ذلك رغبات الأعضاء المعينين قدر الإمكان. [9] وفي حالة شغور مقعد أو استقالة عضو لجنة دائمة، يتم شغل المقعد الشاغر وفق نفس الإجراءات المذكورة أعلاه.

يتم الترشيح لمقاعد اللجان في الآجال المحددة وتقدم لرئيس المجلس إما عن طريق رؤساء الفرق البرلمانية ويراعى في ذلك رغبة البرلماني، أو بصورة مباشرة بالنسبة للأعضاء غير المنتمين إلى الكتل. ومراعاة رغبات البرلماني يرجع إلى منحه الفرصة لإبراز قدراته في اللجنة التي يعرف مجالاتها القطاعية بحكم تخصصه وخبرته أو عمله قبل دخوله البرلمان، وهو ما يتيح للبرلمان الاستفادة من كل الطاقات الموجودة داخله دون إهدارها في مجالات بعيدة عن تخصص البرلمانيين أو شؤونهم وهو ما لا يحفز البرلماني للحضور إلى جلسات البرلمان فضلا عن أعمال اللجنة واجتماعاتها. فاعتماد التخصص وميولات النواب عند تشكيل اللجان الدائمة يساهم في إضفاء النجاعة والفاعلية على عمل اللجان، فاللجان مدعوة للقيام بدور رئيسي في الوظيفة التشريعية وفي مراقبة المجالس فهي تعد من أنشط هياكل العمل البرلماني. [10]

يحدد النظام الداخلي للمجلس الشعبي الوطني الجزائري في المادة 34 منه عدد أعضاء كل لجنة دائمة من عشرين (20) إلى ثلاثين (30) عضوا على الأكثر، باستثناء لجنة المالية من ثلاثين(30) إلى خمسين (50) عضوا على أكثر، في حين أن النظام الداخلي لمجلس الأمة حدد عدد أعضاء كل لجنة من عشرة (10) إلى خمسة عشر (15)عضوا، مع استثناء لجنتي الشؤون القانونية والإدارية وحقوق الإنسان ولجنة الشؤون الاقتصادية والمالية اللتين تتكونان من خمسة عشر (15) إلى تسعة عشر (19) عضوا ؛ وسبب هذا التصنيف هو أن العمل داخل هاتين اللجنتين كثير، فاللجنتان تستحوذان على حصة الأسد من ناحية النصوص القانونية التي تحال عليها. [11]

إن مجلس الأمة منذ نشأته سنة 1997 لم يتغير عدد أعضائه المقدر ب 144 عضوا و لم يتغير عدد لجانه الدائمة ولا عدد أعضائها، لكن المجلس الشعبي الوطني الذي لازال العمل متواصلا بنظامه الداخلي لسنة 2000 كان عدد نوابه 389 نائبا في حين ارتفع هذا العدد إلى 462 نائبا بداية الفترة التشريعية السابعة الحالية أي منذ سنة 2012. وعليه فتوزيع النواب في اللجان الدائمة يطرح إشكالية كبيرة حين تطبيق المادة 34 منه فقد تجاوز عدد النواب في اللجنة الواحدة 36 عضوا بينما لجنة المالية فاقت 50 عضوا ووصل إلى حدود 100 عضو. وهذه المسألة تطرح من جانبها الدستوري وحول مدى

شرعية عمل اللجان بهذا العدد الزائد من الأعضاء وشرعية دراستها وفحصها للنصوص ومدى صحة التصويت داخلها خاصة ونحن نعلم أن النظام الداخلي يخضع للمطابقة الدستورية من طرف المجلس الدستوري؟ [12]

بعد توزيع أعضاء المجلس على اللجان الدائمة يتم تنصيب مكاتبها، إذ يتفق رؤساء المجموعات في البرلمان الجزائري في اجتماع يعقد مع مكتب المجلس بدعوة من رئيس المجلس الشعبي الوطني أو رئيس مجلس الأمة حسب الحالة، على توزيع مهام مكاتب اللجان المكونة من رئيس ونائب رئيس ومقرر، حيث يعين المرشحون وينتخبون طبقا للاتفاق المتوصل إليه. وفي حالة عدم الاتفاق على مستوى مجلس الأمة يتم انتخاب مكتب اللجنة من طرف أعضائها.[13] أما في حالة عدم الاتفاق على مستوى المجلس الشعبي الوطني فيتم انتخاب رؤساء مكاتب اللجان، ونواب رؤسائها، ومقرريها، من طرف الجلسة العامة أي بنفس الكيفية المتبعة لانتخاب مكتب المجلس الشعبي الوطني المذكورة في المادة 13 من النظام الداخلي للمجلس الشعبي الوطني.

رئيس اللجنة هو الذي يرأس مكتب اللجنة ويقوم باستدعاء اللجنة للانعقاد ويترأس اجتماعاتها، ونائبه يخلفه في حالة وجود المانع، ومقرر اللجنة هو من يعد تقارير اللجنة بناء على اجتماعاتها وجلساتها وهو من يقوم بعرض تلك التقارير على المجلس في الجلسة العامة. كما أن رئيس اللجنة يتمتع بسلطة واسعة داخل اللجنة وعلى مستوى المجلس، ومسألة رئاسة اللجنة الدائمة وما تثيره من جاذبية وحساسية واستثارة لطموح الكثيرين من أعضاء المجلس تدفع مكونات البرلمان للتنافس الشديد لو ترك بابها مفتوحا،[14] لذا فالتشريع الجزائري أخضعها لمبدأ التمثيل النسبي للفرق البرلمانية فقط، فبحسب حضور الفريق البرلماني وكثرة مقاعده ينال النصيب الأوفر من رئاسات اللجان.

المطلب الثاني: نظام سير عمل اللجان الدائمة

زود المشرع اللجان الدائمة للقيام بعملها بآليات ووسائل وفق الصلاحيات الممنوحة لها للقيام بدورها، وذلك حتى تضبط سير أشغالها حسب مقتضيات الحال، وإن كانت اللجان الدائمة لا تخضع في ذلك لنظامها الداخلي لأنه لم يتقرر إنشاؤه بعد، وإن كانت الحاجة ماسة إليه لتسيير أحسن لأشغال اللجان، إلا أنها في المقابل تخضع للنظام الداخلي لكل غرفة الذي نظم سير أشغالها. فاللجان تعقد اجتماعاتها (الفرع الأول) وهذه الاجتماعات ليست عامة بل هناك شروط للحضور لأشغال اللجنة من غير أعضائها(الفرع الثاني).

الفرع الأول: اجتماعات اللجان الدائمة

تتداول اللجان الدائمة، في إطار مجال اختصاصها، حول مشاريع واقتراحات القوانين المحالة عليها من قبل رئيس المجلس وحول كل المسائل المحالة عليها، أو تلك التي تقرر تسجيلها ضمن جدول أعمالها، حيث تكون مرفقة بالمستندات والوثائق المتعلقة بها، وفي المقابل على مستوى مجلس الأمة يشترط وجوب السرعة في القيام بهذا الإجراء من طرف رئيس المجلس. [15] وتبقى اللجان الدائمة مكلفة بقوة القانون بالمسائل المتعلقة باختصاصها، إلا أنه إذا لم تقدم اللجنة تقريرا ضمن الشهرين (02) الموليين لتاريخ بداية دراسة النص المعروض عليها، يجوز للحكومة أن تطلب تسجيل هذا الأخير ضمن جدول الأعمال، وبالنسبة لقانون المالية السنوي فالأجل يتقلص ذلك أن الدستور يمنح البرلمان بغرفتيه 75 يوما لإتمام دراسته مقسمة بين المجلسين للغرفة الأولى مدة أقصاها 47 يوما و20 يوما للغرفة الثانية ويتاح للجنة المتساوية الأعضاء أجل 08 أيام.

استدعاء اللجان الدائمة للاجتماع من ضمن الصلاحيات التقليدية لرئيس اللجنة، وهذا في إطار دراسة النصوص أو المسائل المحالة عليها، غير أنه يمكن استدعاء اللجان، في العطلة السنوية للبرلمان من طرف رئيس كل غرفة في إطار جدول

أعمالها. كما يمكن استدعاء اللجان الدائمة من أجل إبداء الرأي. وفي هذه الحالة الأخيرة تتم الإحالة بطلب من لجنة دائمة أخرى.

تجتمع اللجان بمجرد إخطارها، حسب جدول زمني تصادق عليه عموما أثناء اجتماعاتها الأولى، ولا يحدد النظام الداخلي لكل من المجلسين أياما مضبوطة لعقد الاجتماعات، غير أن القاعدة المعمول في المجلس الشعبي الوطني تجيز اجتماع اللجان الدائمة في حالة الضرورة حين انعقاد جلسات المجلس بموافقة مكتبه، والأمر بالنسبة لمجلس الأمة يختلف فلا يمكن للجان الدائمة أن تجتمع عند انعقاد جلسات مجلس الأمة إلا بغرض المداولة في مسائل أحالها عليها المجلس قصد دراسة مستعجلة؛ ويتجلى الفرق في أنه في مجلس الأمة يشترط أن ينصب اجتماع اللجنة الدائمة والتداول في هذه الحالة حول مسائل ذات طبيعة استعجالية، وأن تكون الإحالة من طرف المجلس المنعقد في جلسة عامة، ولا يشترط في ذلك موافقة مكتب المجلس[16].

أشغال اللجان الدائمة في الجزائر سرية وغير مفتوحة للجمهور والصحافة مسايرة لبعض البرلمانات في العالم ولكنها تنفتح شيئا فشيئا على الصحافة لإعلام الرأي العام.[17] وإن كان المنع يمكن أن يكون مقبولا إذا ما تعلق الموضوع بمجالات الدفاع الوطني والقضايا الأمنية أو التي تمس بعض المسائل التي تثير حساسية معينة فإن حاجز السرية غير مبرر في القضايا التي تناقشها اللجان والمتعلقة بمشاريع قوانين ومسائل عادية. ولعل المنع مرده أنه لا يسمح لأعضاء اللجان من التعبير عن آرائهم وتصوراتهم بحرية تامة، أو يمنعهم من الوصول إلى حلول وسط أو توافق بينهم بمثل السهولة التي يصلون إليها في الاجتماعات المغلقة.[18]

تجتمع وتتداول اللجان الدائمة في المجلس الشعبي الوطني مهما كان عدد الأعضاء الحاضرين، إلا أنه لا يجوز لها التصويت إلا بحضور أغلبية الأعضاء، فإذا استحال عقد جلسة تصويت بسبب عدم توفر النصاب، تعقد جلسة ثانية في أجل ست(06) ساعات، ويكون التصويت صحيحا بمن حضر. غير أنه يسجل اختلاف بالنسبة لهذا الإجراء في مجلس الأمة حيث لا تصح مناقشات اللجان الدائمة إلا بحضور أغلبية أعضائها، وفي حالة عدم توفر النصاب تعقد جلسة ثانية بعد أربع وعشرين (24) ساعة على الأقل بمن حضر، غير أنه لا يصح التصويت داخل اللجان الدائمة إلا بحضور أغلبية الأعضاء. وفي حالة عدم توفر النصاب تعقد جلسة بعد ثماني وأربعين (48) ساعة على الأقل، ويكون التصويت حينئذ صحيحا مهما كان عدد أعضاء اللجنة الحاضرين.[19]

وتتم مراقبة النصاب في بداية الجلسة وتحسب الوكالات ضمن تعداد الحضور، ولا يقبل التصويت بالوكالة إلا في حدود توكيل واحد.[20] والتصويت حق شخصي للبرلماني، وبناء على ذلك ينبغي أن يباشر هذا الإجراء وفقا لمبادئ التمعن والتبصر من أجل صدور تشريع لخدمة الصالح العام، وتقييم صدق عملية التصويت ينبغي أن يقاس بمدى الحرية الممنوحة للبرلماني لمباشرة هذا الحق الدستوري،أي أن يصوت البرلماني دون أن يكون عرضة لأي نوع من أنواع الضغط.[21]

لا يحدد النظام الداخلي لأي من المجلسين نمط تصويت خاص بالنسبة للجان، أما في الواقع فالتصويت في اللجان الدائمة يتم برفع اليد.[22] غير أنه برجوعنا إلى القانون العضوي في مادته 30 حول نظام التصويت في الجلسات العامة فإنها تشترط التصويت برفع الأيدي في الاقتراع العام، أو بالاقتراع السري، كما يمكن التصويت بالاقتراع العام بالمناداة الاسمية، وتحيل المادة 31 من نفس القانون العضوي إقرار نمط التصويت إلى مكتب كل غرفة وفق الشروط المنصوص عليها في القانون العضوي وفي نظامها الداخلي، وعليه فنمط التصويت داخل اللجان لا يخرج عن الأنماط المعتمدة حين التصويت في جلسات المناقشة.

الفرع الثاني: الحضور لأشغال اللجان الدائمة

إضافة إلى أعضاء اللجنة الدائمة يمكن لأعضاء الحكومة حضور أشغال اللجان الدائمة، وهذا بناء على طلب من الحكومة يوجه إلى رئيس كل من الغرفتين حسب الحالة. ويشاركون في أعمال اللجنة ويستمع إليهم إذا طلبوا الكلمة، لكن ليس لهم الحق في التصويت.

كما يمكن لرئيس كل غرفة ونوابه حضور أشغال ومناقشات أية لجنة دائمة في المجلس دون أن يكون لهم حق التصويت [23] وبمفهوم المخالفة فاللجان الدائمة يحق لها أن تطلب من رئيس الغرفة أو نوابه حضور جلساتها، إذا ارتأت أن حضورهم يساعد اللجنة في أداء مهامها الموكلة إليها.

كما يمكن أي عضو في مجلس الأمة أن يطلب الإذن من مكتب اللجنة للحضور في اجتماعاتها دون أن يكون له حق المناقشة والتصويت.[24] هذه الإمكانية لم يكن مسموحا بها في النظام الداخلي السابق لمجلس الأمة، وهذا يعتبر تطورا في أسلوب عمل اللجان الدائمة. غير أن السماح لأي عضو بحضور اجتماعاتها، ثم منعه من المشاركة في المناقشة يفقد الفائدة من حضوره ويصبح كحال بقية المتابعين لجلسات اللجان الدائمة في البرلمانات التي تسمح بنقل وقائعها للجمهور، والأحرى كان السماح لعدد معين من أعضاء مجلس الأمة بحضور اجتماعات اللجان الدائمة، وبالمشاركة في المناقشات وفق شروط محددة دون حق التصويت، وبالتالي الاستفادة من خبرات بعض أعضاء مجلس الأمة من غير المنتمين للجنة، وإيجاد منفذ من القيد الموضوع عليهم بعدم الانتماء لأكثر من لجنة واحدة. أما نواب المجلس الشعبي الوطني فليس لأحد منهم الحق في طلب الإذن بالحضور لأشغال لجنة دائمة أخرى غير التي ينتمي إليها، و لم يساير النظام الداخلي الحالي للمجلس الشعبي الوطني نظيره في مجلس الأمة في منح هذا الامتياز للنواب، رغم إعداده بعد صدور النظام الداخلي لمجلس الأمة.

ويحق للجان الدائمة بالبرلمان أن تستمع في إطار جدول أعمالها وصلاحياتها، إلى ممثل الحكومة وإلى أي عضو في الحكومة كلما دعت الضرورة إلى ذلك، ويتم هذا الإجراء بتبليغ رئيس كل من الغرفتين الطلب إلى رئيس الحكومة.[25]

كما يخول النظام الداخلي لكل غرفة اللجان الدائمة إمكانية دعوة أشخاص مختصين ذوي خبرة للاستعانة بهم في أداء مهامها،[26] وهذا يكون عادة عند دراسة النصوص التشريعية المحالة عليها. إذا فالنظام الداخلي يعطي السلطة للجنة ككل لأخذ القرار فيما يخص استدعاء الخبراء، وعمليا رئيس اللجنة هو الذي يقوم بالتوقيع على الاستدعاء، وهنا يجب أن نفرق بين حالتين ففي حالة الرغبة في الاستماع إلى خبراء تابعين لوزارات ففي هذه الحالة يوجه الطلب إلى الوزير المعين من خلال السيد رئيس المجلس الذي يبلغ الطلب إلى رئيس الحكومة، أما إذا كان الخبير حرا فرئيس اللجنة يقوم بالدعوة مباشرة دون المرور على رئيس المجلس بعد إبداء اللجنة رغبتها.[27]

ويحق للجان الدائمة في المجلس الشعبي الوطني دون مثيلاتها في مجلس الأمة أن تستدعي إلى اجتماعاتها مندوبا عن أصحاب اقتراح القانون أو التعديل للاستماع إليه ولتقديم مضمون وأهداف اقتراحه، وفق أحكام المادة 44 من نظامه الداخلي، ويبقى الأمر تقديريا حسب ما تراه اللجنة.

المبحث الثاني : مهام اللجان الدائمة

تقوم اللجان البرلمانية بدراسة المبادرات التشريعية، لكن في الأصل ليس كل المبادرات يمكن للجان فحصها ودراستها وإعداد التقارير بشأنها، فهناك من مشاريع القوانين ما يتم سحبه من طرف الحكومة، ومنها ما يتم تأجيله، ونفس الشيء بالنسبة لاقتراحات القوانين المقدمة من طرف النواب فإنها تمر بمراحل محددة قبل وصولها إلى اللجان الدائمة، ومنها ما يرفض ومنها ما يقبل على مستوى مكتب المجلس. فالاختصاص المخول إليها هو الدراسة وإبداء الرأي في النصوص التي تدخل في اختصاصها فاللجنة الدائمة لها دور تشريعي أصيل (المطلب الأول) وتساهم في التعاون بين البرلمان والحكومة ومساعدته في القيام بدوره الرقابي عليها (المطلب الثاني).

المطلب الأول:الدور التشريعي للجان الدائمة

إن سن القوانين عملية طويلة وصعبة إلى أبعد الحدود، ذلك أنها تمر بجملة من الإجراءات والمراحل الجوهرية والمعقدة، والتي تتطلب الدقة والتأني أثناء القيام بها. وأولى هذه المراحل هي مرحلة المبادرة بالقوانين، التي تتطلب جهدا وكفاءة من أجل تقديم مشروع أو اقتراح واضح وتقني.[28] والبرلمان لا ينفرد بالمبادرة بالقانون، بل تشاركه فيه الحكومة وبدرجة معتبرة. وسابقا حسب التعديل الدستوري لعام 1996 يعود حق المبادرة لكل من رئيس الحكومة (الوزير الأول) والنواب.[29] هذا ما جعل من أعضاء الأمة غير مختصين دستوريا بالمبادرة بالقوانين وهذا ما يكشف مبدئيا عن صورة لعدم التوازن بين الغرفتين ويدل ولو ضمنيا على أن الثنائية البرلمانية ليست متساوية،[30] وهو ما تداركه التعديل الدستوري الأخير لسنة 2016 في المادة 136 منه (لكل من الوزير الأول والنواب وأعضاء مجلس الأمة حق المبادرة بالقوانين ...)

والمشرع الدستوري لم يبح لنائب واحد (أو عضو واحد من مجلس الأمة) أن يتقدم باقتراح قانون مثل ما هو الحال في بعض الأنظمة ولكنه اعتمد طريقة الاقتراح الجماعي،[31] على أن لا يقل عدد المقترحين عن 20. كما أنه لم يمنح اللجان الدائمة المختصة حق المبادرة بالقوانين وهذا الأمر نجد له مقابلا في بعض الأنظمة تعطي اللجان حق اقتراح القوانين عن طريق رؤسائها بتقديم الاقتراح كتابة إلى رئيس المجلس الذي يتولى عرضه على الجلسة العامة، غير أنه يبقى لأعضاء اللجنة الدائمة الحق في القيام بالمبادرة التشريعية بشكل مستقل عن اللجنة وفي إطار اقتراحات أعضاء البرلمان.

واللجنة تقوم بدراسة متأنية للنص المعروض عليها دراسة أولية (الفرع الأول) ثم تختمه بدراسة نهائية والفصل في التعديلات المتعلقة بالنص ثم يعقب ذلك إعداد تقريرها (الفرع الثاني).

الفرع الأول: الدراسة الأولية للنص المعروض على اللجنة

يتولى مكتب المجلس الشعبي الوطني إحالة المبادرات مشاريع واقتراحات، مرفقة بالوثائق المتعلقة بها إلى اللجنة الدائمة المختصة في المجلس، لتتولى دراستها دراسة مفصلة بعد الاستماع إلى ممثل الحكومة ومندوب أصحاب الاقتراح، كما يمكنها الاستعانة بالخبرات المختصة الخارجية،[32] أو شخصيات ترى أنها كفيلة بتقديم توضيحات حول النص موضوع المبادرة، أو حتى الاستفادة من رأي لجنة دائمة أخرى في أي وقت من إحالة المبادرة إليها.

وعلى إثر انطلاق اللجنة في أشغالها تشرع المناقشة والمداولات بين أعضائها، فالأعمال التحضيرية الحقيقية لمناقشات النواب وآرائهم في مشروعات القوانين واقتراحاتها هي مناقشة اللجان في جلساتها، وليست في مناقشات النواب في الجلسات العامة للسلطة التشريعية، ففي اللجان تتصارع الآراء وتتقارع الحجج، وفي اللجان يستعان بالكتب والمؤلفات القانونية والدستورية بغية العثور على الحلول السليمة.[33] ومهمة مكتب المجلس في أي من الغرفتين هي توفير الوسائل المادية والموارد البشرية للإعداد الجيد لهذه المناقشات. ولتسهيل عمل أعضاء اللجنة أثناء دراستهم وفحصهم لمبادرات

القوانين، يرافق اللجنة طاقم إداري تشريعي يملك خبرة في تحضير الملفات الوثائقية الضرورية للعملية، وكذا الاستعانة بالانترنت إذا لزم الأمر.[34]

وعلى إثر هذه الدراسة الأولية، يتم إعداد التقرير التمهيدي الذي يعرض على الجلسة العامة، وبذلك تكون اللجنة المختصة في الموضوع قد أنهت المرحلة الأولى من دراسة النص.

وتتحدد مهمة اللجنة المختصة عند إعدادها لتقريرها التمهيدي في أمرين هما :

- تقديم عرض نص المبادرة بإيجاز مركز ونقل وقائع ونتائج سائر مراحل عملية دراسة اللجنة البرلمانية المختصة وملاحظاتها واستنتاجاتها الأولية عن ذلك وتقرير مدى صلاحية النص للمناقشة ومن ثم تنقل للنواب الغاية من المبادرة المقدمة.[35]

- اقتراح تعديلات على المبادرات المقدمة وصياغتها ضمن تقريرها التمهيدي الذي يعرض إلى جانب النص الأصلي للمبادرات على الجلسة العامة للمناقشة.[36]

وتسلم نسخة من التقرير التمهيدي الذي أعدته اللجنة الدائمة للحكومة ولأعضاء المجلس، ويقوم مقرر اللجنة بقراءته في الجلسة العامة المخصصة للنص محل الدراسة، ويتبع ذلك مناقشة عامة.

الفرع الثاني: الدراسة النهائية للنص المعروض على اللجنة

بعد ذلك تأتي مرحلة مهمة وهي التي تميز السلطة التشريعية وهي تدخل أعضائها وإثراء النص المعروض عليهم عن طريق إدخال التعديلات عليه والتي لا تخرج عن تعديل صياغة مادة أو مواد من النص أو حذف مادة أو مواد منه أو إضافة مادة أو مواد إلى النص. والمادة 28 من القانون العضوي رقم 99 -02 منحت اللجنة المختصة في المجلس الشعبي الوطني وللنواب وللحكومة حق اقتراح التعديلات. وحسب الفقرة السادسة من المادة 61 من النظام الداخلي للمجلس الشعبي الوطني يمكن الحكومة واللجنة المختصة من تقديم التعديلات في أي وقت قبل التصويت على المادة التي تتعلق بها. وليس للجنة أو النواب حق التعديل الكلي للنص الوارد من الحكومة. وتعديلات النواب يشترط فيها أن تكون معللة وموجزة، وأن تخص مادة من مواد النص المودع أو له علاقة مباشرة به إن تضمن إدراج مادة إضافية، وتقدم وتوقع من طرف عشرة نواب على الأقل وتقدم في أجل 24 ساعة ابتداء من الشروع في المناقشة العامة للنص محل التعديل إلى مكتب المجلس، وسلطته في هذه الحالة تمتد إلى الجانب الشكلي بالتأكد من مطابقة التوقيعات على التعديل المقترح للنصاب القانوني، واحترام الآجال القانونية للإيداع، ولا يمتد لفحص مضمون التعديل فهذا ليس من صلاحياته. وفي حالة عدم قبول التعديل من طرف مكتب المجلس يكون القرار معللا ويبلغ إلى مندوب أصحاب التعديل. أما التعديلات المقبولة فتحال على اللجان المختصة، وتبلغ إلى الحكومة، وتوزع على أعضاء المجلس.

تناقش اللجنة المختصة التعديلات مع أصحابها، سواء كان الحكومة، أو مندوب أصحاب التعديل الذي عليه أن يقدم لها أسباب ومبررات اقتراح التعديل وأهدافه وتخلص اللجنة من تلك المناقشات إلى إحدى الحالتين التاليتين:

1- إما أن تقتنع اللجنة المختصة وهنا يكون التعديل مقبولا على مستواها ومتكفلا به بعد تصويتها على قبوله ويدرج في تقريرها التكميلي المقدم للجلسة العامة.

2- وإما أن ترفضه لسبب من الأسباب، كأن يكون التعديل قد قدم من قبل طرف آخر وأخذ بعين الاعتبار، أو أنه يتعارض مع حكم من أحكام النص المعروض، أو أنه لا يخدم الموضوع أصلا، أو لا يتوافق والمنظومة القانونية القائمة، أو لغيرها من الأسباب الموضوعية، التي تقدرها اللجنة المختصة في مداولاتها.

تناقش اللجنة أسباب رفض التعديل مع أصحابه، فإما أن يقتنع الطرف المقدم للتعديل، وهنا لا يقدم النص للمناقشة العامة؛ وإما أن لا يقتنع في هذه الحالة فإن صاحب التعديل متمسك بتعديله، وعليه أن يدافع عليه في الجلسة العامة، التي لها سلطة الفصل في موضوع التعديل بالرفض أو القبول، ويحصل ذلك عند عرض التعديل على التصويت.

بينما منحت المادتين 39، 40 من نفس القانون العضوي اللجنة المختصة في مجلس الأمة حق تقديم التوصيات وأعضاء مجلس الأمة حق تقديم الملاحظات والتي تعتبر طريقا غير مباشر لمجلس الأمة لممارسة سلطة التعديل لأن موافقة مجلس الأمة على هذه التوصيات لن تؤدي إلى تعديل النص المصوت عليه من طرف المجلس الشعبي الوطني مباشرة.[37]

وتوصيات اللجان المختصة في مجلس الأمة لحد الآن لا تخرج عن ثلاثة أصناف على النحو التالي: التنويه بالنص المعروض لأنه يملأ فراغا في القانون الجزائري، أو أنه يطور موضوعا سبق التشريع فيه لكن ذلك التشريع لا يواكب التغيرات الحاصلة بسبب نظام العولمة، الإشارة إلى الصعوبات التي يمكن أن تعترض تطبيق النص عمليا، أوحث الحكومة على التشريع في مواضيع أو مجالات تمس النص محل الدراسة والتي تم إغفالها أثناء إعداد النص.[38]

تقدم اللجنة الدائمة تقريرها التكميلي الذي يتضمن حوصلة عن المناقشات العامة من طرف أعضاء المجلس، وموقف كل من اللجنة المختصة والحكومة – بالإشارة إلى عرض الوزير المقدم في الجلسة العلنية حول النص ورده على أهم النقاط التي أثارها أعضاء المجلس- وكذا بلورة أهم الآراء والمواقف المعبر عنها بمجموع (التعديلات) أو(الملاحظات والتوصيات) التي تم إيداعها، ويتناول هذا التقرير بصفة مدققة، القرارات المعللة التي اتخذتها اللجنة بخصوصها وكذا التي أدخلتها على النص، أثناء المرحلة الثانية من الدراسة.

وعمل اللجنة الدائمة في كلا الغرفتين له قدر كبير من الصدق، ويرتد ذلك إلى أنه مؤسس في غالبية الأحوال على الموضوعية، ويرجع ذلك ، إلى أن دراسة النص التشريعي تجري في عدد من الجلسات، وما يقترن بذلك من وقت يسمح للبحث في محتوى المبادرة، وما في ذلك من تدقيق في الجزئيات الواردة في صلب المواد.[39] لكن هناك عوامل أخرى تتحكم وتؤثر في مناقشات ومداولات اللجان وهي عامل التكوين والخبرة الذي يكسب البرلماني القدرة على معالجة المسائل بشكل سليم، وهو أمر مهم في الميدان التشريعي، لأن مهمة وضع قواعد قانونية مناسبة لإدارة وتنظيم كل الشؤون في الدولة مسألة دقيقة جدا، وتحتاج إلى مختصين أكثر منها إلى رجال يحوزون ثقة ناخبي دائرتهم الانتخابية.[40]

وكذلك عامل الانضباط الحزبي إذ تؤثر الأحزاب السياسية في النظام السياسي من خلال تواجدها في البرلمان ومناقشات اللجان ساحة مهمة جدا للأحزاب لفرض آرائها وطرح أفكارها وفق برامجها وإيديولوجياتها عن طريق ممثليها، فهي تحشد كل ما لديها لتحقيق هذا الهدف، مما يجعل اختلاف الرؤى و المناقشات بين أعضاء اللجنة لا تدور حول أفكار يحملها الأعضاء ويعتقدونها في الجملة، بقدر ما هي أفكار يفرضها الانضباط الحزبي، والخضوع لأوامر الحزب الذي كان له الشأن في وصول البرلماني لقبة البرلمان. وأيضا هناك عامل حضور النواب لأشغال اللجان فكثرة الغياب يؤثر بشكل مباشر على جدية أعمال اللجنة وجودة التشريع لذا اشترط المشرع أن تتم مراقبة النصاب في بداية كل جلسة من جلسات اللجنة الدائمة مع إلزام النواب بحضور اجتماعاتها.

المطلب الثاني: مساهمة اللجان الدائمة في الرقابة والتعاون مع الحكومة

إن تنظيم البرلمان الجزائري عبر أجهزته المتعددة، أبقي الاعتماد على اللجان الدائمة كأداة مهمة تسهل عمل البرلمان التشريعي في دراسة المبادرات والنصوص القانونية وكل ما يتعلق بها من تحضير وتهيئة لعرضها على الجلسات العامة أو إعداد تقاريرها أو دراسة التعديلات المحالة عليها وكل ما يرتبط بالجانب التشريعي. كل هذه الأعمال تتطلب من البرلمان

أن تكون له المعلومات الكافية حول كل المواضيع التي تعرض عليه وأن تكون هذه المعلومات موثوقة المصدر لكي يستطيع أن يمارس أعماله الدستورية في التعاون مع الحكومة أو ممارسة الرقابة عليها.

إن الذي يزود البرلمان بالمعلومات لكي يمارس رقابته على سياسات الحكومة هي اللجان الدائمة في مجال تخصصها وهو دور إخباري (الفرع الأول)، ولمعرفة مدى تطبيق النصوص التي أقرها البرلمان وللتزود بالمعلومات والمعطيات حول موضوع معين الحاجة لتمكين اللجان الدائمة من تطوير وسائلها عملها للرفع من أدائها (الفرع الثاني).

الفرع الأول:الدور الإخباري اللجان الدائمة لتفعيل الرقابة والتعاون مع الحكومة

إن اعتبار اللجان البرلمانية بمثابة "برلمانات مصغرة" يمنح للبرلمان القيام بممارسة الدور الرقابي والإخباري إلى جانب الدور التشريعي، بحكم أن نظام العمل داخل اللجان يعطي لعضو البرلمان مجالا أوسع للحركة والفعالية حيث يدرك جيدا طبيعة العمل الحكومي، وبفعل مشاركته في عمل اللجان يفهم عضو البرلمان بشكل دقيق مختلف التساؤلات والإشكالات المطروحة مما يمكنه من تطوير قدراته الرقابية لما توفره اللجان من معلومات ترشده في سلوكه.[41] وأسلوب اللجان الدائمة في الإخبار وجمع المعلومات يأخذ ثلاثة أوجه :

1- الاستماع : تقوم اللجنة بالاستماع لأشخاص ترى أنهم يفيدونها في هذا الجانب؛ وفي الغالب تكون جلسات الاستماع بمناسبة عرض مشروع أو اقتراح قانون، ولكن في أحيان أخرى، قد تكون بغير تلك المناسبة، وذلك لاحتياج البرلمان لمعلومات حول موضوع معين. وقد يستدعى في هذه الجلسات، الوزراء والموظفون الوزاريون وحتى الوزير الأول، أو الخبراء والمختصون أوممثلو المجتمع المدني من نقابات ومنظمات وجمعيات وغيرها.

2- المهام الاستطلاعية: وقد وضحته المادة المادة 134 فقرة 2 من التعديل الدستور 2016 (يمكن كل لجنة دائمة من لجان الغرفتين تشكيل بعثة استعلام مؤقتة حول موضوع محدد أو وضع معين) وأحالت نفس المادة في فقرتها الموالية تنظيم ذلك إلى النظام الداخلي لكلا الغرفتين واللذان قريبا سيتم إقرارهما. وإن كانت هذه الوسيلة لم ينص عليها الدستور الحالي قبل تعديله الأخير ولا القانون العضوي رقم 99-02 غير أن كلا من غرفتي البرلمان طورتا من أسلوب العمل بتقنية المهام الاستطلاعية بمشاركة رئيس كل غرفة ومكتبها ولجان المجلس الدائمة والتنسيق التام مع الحكومة، مستمدة سندها القانوني من الدستور قبل تعديله الأخير الذي يحث عضو البرلمان على أن يبقى وفيا لثقة الشعب وأن يظل يتحسس تطلعاته.

ويمكن لأية لجنة من اللجان الدائمة للبرلمان بغرفتيه، وبالتنسيق مع الجهات الحكومية المختصة أن تقوم في سياق المهام المنوطة بها، بزيارات ميدانية تستطلع من خلالها واقع وآفاق التنمية في قطاعات بذاتها ومناطق بعينها.[42] وعلى هذا الأساس قامت اللجان بعدد كبير من هذه الزيارات الميدانية وقدمت تقاريرها حولها للمجلس والتي تضمنت تسجيل مجريات الزيارة بما فيها المعينات الميدانية وإجراء اللقاءات والاستماع لانشغالات المسؤولين والمصالح المختصة والمواطنين وتسجيل الملاحظات سواء كانت إيجابية أو سلبية واختتمت هذه التقارير بتقديم توصيات عامة والتي لم تخرج عن تثمين برامج متبعة حققت نتائج جيدة، أو تعميم تجربة ناجحة في إحدى الولايات على الولايات الأخر، أو توجيه أنظار البرلمان والحكومة إلى بعض السياسات التي تعود بالنفع على الدولة والمواطن، أو التوصية بتعديل بعض القوانين والمراسيم، أو المطالبة بتسهيل بعض الإجراءات، أو إعادة النظر في بعض السياسات المتبعة.

وبسبب ما تقدمه هذه الآلية من معلومات قيمة سواء للبرلمان أو للحكومة فإن المهام الاستطلاعية من بين أهم الوسائل التي يبني عليها البرلمان جسوره في التواصل مع مختلف فئات المجتمع، وتحسس انشغالاته، وقضاياه ميدانيا.

وحري بنا أن نذكر أن هذه التقنية إن كانت في ظاهرها تشير إلى أنها شكل من أشكال الرقابة على أعمال الحكومة، غير أن الحقيقة غير ذلك، فهي ليست من وسائل الرقابة المقررة للبرلمان الجزائري على الحكومة فهذه الوسائل محددة بدقة في الدستور ولا مجال للاجتهاد فيها،[43] وإن كانت بعض الأنظمة البرلمانية تعد المهام الاستطلاعية من وسائل الرقابة على الحكومة.

3- مشاركة اللجان الدائمة في الدبلوماسية البرلمانية: ازدهرت واتسعت الدبلوماسية البرلمانية في مجال العلاقات الدولة بسبب العديد من العوامل أهمها انتشار ظاهرة العولمة بكل أبعادها السياسية، الاقتصادية، القانونية، الثقافية... وما أفرزته من آثار وضرورات الانفتاح والتفاعل معها من طرف كافة برلمانات الدول. وفي الجزائر رئيس الجمهورية هو من يقرر السياسة الخارجية للأمة ويوجهها حسب المادة 91 من الدستور، لذا ينبغي أن تؤيد الدبلوماسية البرلمانية مواقف السلطة التنفيذية على الصعيد الدولي. وفق هذا التصور شاركت لجان المجلسين بفعالية في النشاط الدبلوماسي البرلماني وأحصت بذلك مشاركة وفودها الكثيرة في عدة نشاطات خارج الوطن، أو من خلال رؤساء اللجان باستقبالهم للشخصيات والوفود الزائرة للبرلمان الجزائري، وبذلك قامت هذه اللجان بتمثيل البرلمان الجزائري ككل بل كانت واجهة حقيقية للدبلوماسية الجزائرية.

الفرع الثاني: الحاجة لوسائل جديدة لتطوير عمل اللجان الدائمة وتفعيل البرلمان.

من أهم الوسائل التي تستعملها اللجان الدائمة للمساهمة في الرقابة والتعاون مع الحكومة الإشراف البرلماني أو ما يعرف بالتحكم البرلماني، وتقوم به اللجنة الدائمة في نطاق القطاع الذي يدخل في اختصاصها برقابة تطبيق القانون الذي ساهمت في إعداده وصياغته. وبعض البرلمانات العريقة تقر صراحة للجانها الدائمة الإشراف على القطاعات الداخلة في دائرة تخصصها، الذي يهدف إلى فحص سير المرفق العامة والمؤسسات الوطنية مراقبة مدى تطبيقها للقوانين الصادرة عن هذه البرلمانات وتسجيل الصعوبات والنقائص التي تسجل في ذلك.[44] ففي الجمعية الوطنية الفرنسية وبعد ستة (06) أشهر من دخول القانون الصادر عن البرلمان حيز التنفيذ، يقدم مقرر اللجنة المعنية تقريرا حول مدى تطبيق هذا القانون، وعن النصوص التنظيمية والتعليمات المرافقة لتنفيذ القانون، وأيضا عرضا عن معوقات التطبيق الحسن له، وفي الحالة الأخيرة تنتظر اللجنة تقريرا ثانيا بعد مرور ستة(06) أشهر أخرى.[45]

هذا الدور شبه الرقابي للجان البرلمانية الفرنسية يخدم هدفا واحدا، هو تزويد البرلمان بالمعلومات، حتى يتسنى له ممارسة رقابته حول سياسة الحكومة بالأساليب الدستورية، إذ تبقى الحكومة مسؤولة أمام البرلمان حسب الدستور الفرنسي وفق آليات الرقابة المقررة له.

المشرع الجزائري لم يمنح اللجان الدائمة سلطة الإشراف، ربما يرجع لتخوفه من تقوية اللجان الدائمة وبالتالي تقوية السلطة التشريعية على حساب السلطة التنفيذية رغم الأهمية البالغة لهذه الوسيلة في تقدير تنفيذ القوانين وضبط المنظومة القانونية والتحكم في الإنتاج التشريعي وضبط جودته وتقوية العلاقة الوظيفية بين السلطتين، لما لها من تأثيرها بالغ في فعالية البرلمان للحصول على المعلومة الصحيحة التي يبني عليها قراراته فيما يخص التشريع أو الرقابة. لذا يجب أن يدرك المشرع أنه حان الوقت لمنح اللجان الدائمة في البرلمان الجزائري حق استعمال هذه الوسيلة التي تمثل جوهر العمل البرلماني في حدود الصلاحيات الموضوعة للبرلمان عند تعديل القانون العضوي رقم 99-02 والنظامان الداخليان لغرفتي البرلمان.

خاتمة:

لقد قطع المشرع الجزائري شوطا كبيرا في تنظيم البرلمان وهيكلته ومنحه الصلاحيات. فاعتماده على اللجـــان الدائمـــة كركيزة أساسية لدراسة المبادرات التشريعية ساهم في تحقيق استقرار العمل التشريعي واستمراريته، وأيضا تزويد اللجـــان بآليات تساعد في الرفع من الأداء البرلماني كالسماح بعقد جلسات الاستماع لأعضاء الحكومـــة وممثلـــيهم وأصـــحاب الاقتراح أو ممثلو المجتمع المدني ورؤسات المؤسسات والمرافق العمومية والخبراء والأخصائيين وغيرهم وقيام هذه اللجـــان بالبعثات الاستطلاعية والإخبارية في مهام شبه رقابية ومساهمتها في العمل الدبلوماسي في إطار التعاون مع الحكومة، كل ذلك يعكس الدور الكبير الذي تلعبه في الحياة الساسية، في المقابل يجب الإشارة أنه للرفع من كفاءتها يجب تمكينها مـــن نظام داخلي يختص بتنظيم أعمالها، وتزويدها بمزيد من الوسائل المادية والبشرية، والسماح لها بالمبادرة التشريعية ومنحها حق الإشراف على القطاع الذي يدخل في اختصاصها برقابة تطبيق القانون الذي ساهمت في إعداده وصياغته، وجعـــل أشغالها مفتوحة على الصحافة والرأي العام كما هو الحال في البرلمانات العريقة.

الهوامش

[1]– سعيد بوالشعير، علاقة المؤسسة التشريعية بالمؤسسة التنفيذية في النظام القانوني الجزائري، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، سنة 1984، ص 220.

[2]– التعديل الدستوري لسنة 2016، القانون رقم 16 – 01 المؤرخ في 06 مارس 2016، المتضمن التعديل الدستوري، الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية، العدد 14، المؤرخة في 07 مارس 2016.

[3]–رأي المجلس الدستوري رقم 09/ر.ن.د/م د99 المؤرخ في 22نوفمبر1999 يتعلق بمراقبة النظام الداخلي المعدل والمتمم لمجلس الأمة للدستور.الجريدة الرسمية الجزائرية، عدد 84، المؤرخة في 28 نوفمبر 1999 (هذا الرأي كان متشددا حيث أغلق الباب أمام منفذ قد يحتاجه المجلس

والبرلمان بغرفتيه للتعامل مع بعض القضايا التي تكون من الأهمية بمكان بحيث لا تستطيع لجنة واحدة التعامل معه...)، انظر بوزيد لزهاري، عن اللجان الدائمة في مجلس الأمة، مجلة الفكر البرلماني، العدد 09، المؤرخة في شهر جويلية 2005، مجلس الأمة، الجزائر. ص 74.

[4]– المادتان 09، 15 من القانون العضوي رقم 99-02 المؤرخ في 08 مارس1999 يحدد تنظيم المجلس الشعبي الوطني ومجلس الأمة، وعملهما، وكذا العلاقات الوظيفية بينهما وبين الحكومة، الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية، العدد15، المؤرخة في09 مارس 1999.

[5]– وسيم حسام الدين الأحمد، اللجان البرلمانية العربية والأجنبية، منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت، سنة 2010، ص05.

[6] – بوزيد لزهاري، عن اللجان الدائمة في مجلس الأمة، مقال سابق، ص 75. بعد تعديل الدستور الفرنسي سنة 2008 رفع عدد اللجان الدائمة إلى ثمانية.

[7]– المادة 32 من النظام الداخلي للمجلس الشعبي الوطني، المادة 26 من النظام الداخلي لمجلس الأمة.

[8]– المادة 33 من النظام الداخلي للمجلس الشعبي الوطني نصت (يمكن لكل نائب في المجلس أن يكون عضوا في لجنة دائمة)، ومثلها المادة 27 من النظام الداخلي لمجلس الأمة. كلتا المادتين استعملتا صيغة (يمكن).

[9] – المادتان 35،36 من النظام الداخلي للمجلس الشعبي الوطني، المادتان 29، 30 من النظام الداخلي لمجلس الأمة.،.

[10]– صبرية السخيري زروق، وظائف البرلمان في المغرب والأردن والكويت (دراسة مقارنة)، منشورات مجمع الأطرش للكتاب المتخصص، تونس، سنة 2013، ص 259.

[11] – بوزيد لزهاري ، عن اللجان الدائمة في مجلس الأمة، مقال سابق، ص 78.

[12]– منذ تعديل الدستور سنة 2008 والتغييرات التي أحدثها في بنية السلطة التنفيذية وعلاقتها بالسلطة التشريعية (تسمية الوزير الأول بدل رئيس الحكومة، تسمية مخطط عمل الحكومة بدل برنامج الحكومة...)، وصدور قانون الانتخابات ورفع عدد النواب في المجلس الشعبي الوطني لم يتم مراجعة النظامان الداخليان لمجلسي البرلمان.

[13] – المادة 31 الفقرة 3 من النظام الداخلي لمجلس الأمة.

[14] – عبد الكريم الحديكي، التأثير المتبادل بين الحكومة والبرلمان في النظام الدستوري المغربي، دراسة مقارنة، رسالة لنيل الدكتوراه في القانون العام، كلية الحقوق، أكدال ، الرباط، سنة 2003، ص 107.

[15]– المادة 38 من النظام الداخلي للمجلس الشعبي الوطني والمادة 32 من النظام الداخلي لمجلس الأمة.

[16] – المادة 39 من النظام الداخلي للمجلس الشعبي الوطني والمادة 33 من النظام الداخلي لمجلس الأمة.

[17] – مسعود شيهوب، المبادرة بالقوانين بين المجلس الشعبي الوطني والحكومة، مقال سابق، ص 12.

[18] - علي الصاوي، تطوير عمل المجالس النيابية العربية، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، ص 11، رابط المقال:
www.undp-pogar.org/publications/legislature/sawi1a/

[19] – المادة 40 من النظام الداخلي للمجلس الشعبي الوطني والمادة 34 من النظام الداخلي لمجلس الأمة.

[20] – الفقرة 5 من المادة 63 من النظام الداخلي للمجلس الشعبي الوطني، والفقرة 5 من المادة 58 من النظام الداخلي لمجلس الأمة.

[21] – نعمان محمد الخطيب، الوسيط في النظم السياسية، مكتبة دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، سنة 1999، ص 212، 213.

[22] – حصيلة المجلس الشعبي الوطني في الفترة التشريعية الرابعة1997-2002، ص 51.

[23] – المادة 41 من النظام الداخلي للمجلس الشعبي الوطني والمادة 35 من النظام الداخلي لمجلس الأمة.

[24]– المادة 36 من النظام الداخلي لمجلس الأمة.

[25] – المادة 27 من القانون العضوي رقم 99-02 الذي يحدد تنظيم المجلس الشعبي الوطني ومجلس الأمة، وعملهما، وكذا العلاقات الوظيفية بينهما وبين الحكومة.

[26] – المادة 43 من النظام الداخلي للمجلس الشعبي الوطني والمادة 38 من النظام الداخلي لمجلس الأمة.

[27] – بوزيد لزهاري، عن اللجان الدائمة في مجلس الأمة، مقال سابق، ص 78. بتصرف.

[28] – مصطفى أبوزيد فهمي، النظام الدستوري في الجمهورية العربية المتحدة، الدار الجديدة للنشر، الإسكندرية، سنة 1975، ص 477.

[29] – عقيلة خرباشي، العلاقة الوظيفية بين الحكومة والبرلمان بعد التعديل الدستوري لـــ 28نوفمبر1996،دار الخلدونية، الجزائر،سنة 2007،ص25.

[30]– مزود حسن، الموازنة بين الهيئة النيابية ذات المجلس المجلسين والهيئة النيابية ذات المجلس الفردي، الملتقى الوطني حول نظام الغرفتين في لتجربة البرلمانية الجزائرية والأنظمة المقارنة، الجزء الثاني، نشرية صادرة عن الوزارة المكلفة بالعلاقات مع لبرلمان، الجزائر، من 29 إلى 30 أكتوبر2002، ص 41، 43.

[31] – أحمد وافي ، بوكرا إدريس، النظرية العامة للدولة والنظام السياسي الجزائري في ظل دستور 1989، مرجع سابق، ص 280.

[32] –سعاد عمير، الوظيفة التشريعية لمجلس الأمة في الجزائر، دار الهدى، عين مليلة، سنة 2009، ص 95.

[33] – قائد محمد طربوش، السلطة التشريعية في الدول العربية ذات النظام الجمهوري، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، سنة 1995، ص 154.

[34] – مسعود شيهوب، المبادرة بالقوانين بين المجلس الشعبي الوطني والحكومة، مقال سابق، ص 12.

– العيد عاشوري، إجراءات ومراحل إعداد النص التشريعي وإقراره في البرلمان الجزائري، مقال سابق، ص 66.

[35] – محمد سعيد جعفور، مدخل إلى العلوم القانونية، الوجيز في نظرية القانون، الطبعة الثالثة، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر، سنة20002، 154.

[36] – سعاد عمير، الوظيفة التشريعية لمجلس الأمة في الجزائر، مرجع سابق، ص 95.

[37] – سعاد عمير ، مرجع سابق، ص 181.

[38] – بوزيد لزهاري، عن اللجان الدائمة في مجلس الأمة، مقال سابق، ص 84.

[39] – عبد الله بو قفة، أساليب ممارسة السلطة في النظام السياسي الجزائري (دراسة مقارنة)، مرجع سابق، ص 158،157.

[40] – عقيلة خرباشي، العلاقة الوظيفية بين الحكومة والبرلمان بعد التعديل الدستوري لـــ 28نوفمبر1996، مرجع سابق، ص 32

[41] – عثمان الزياني، عثمان الزياني، السلوك والأداء البرلماني بالمغرب (الولاية التشريعية السادسة 1997 – 2002 نموذجا، الجزء الأول، منشورات مجلة الحقوق المغربية (سلسلة الدراسات والبحوث)، الإصدار الرابع ماي 2011، دار الأفاق للنشر والتوزيع، الرباط ، سنة 2011، ص 269.

[42] – أحمد طرطار ، دور اللجان البرلمانية في تفعيل الأداء البرلماني، مقال سابق ، ص 49.

[43] – حدد الدستور وسائل الرقابة في: مناقشة مخطط الحكومة، الأسئلة الكتابية والأسئلة الشفوية، الاستجواب، لجان التحقيق، اللائحة بعد بيان السياسة العامة للحكومة، ملتمس الرقابة، التصويت بالثقة.

[44] – كما هو الحال في بريطانيا، الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا.

[45]– المادة 86 فقرة 8 من النظام الداخلي للجمعية الوطنية الفرنسية.

قراءة في حكم المحكمة الدولية لقانون البحار في قضية خليج البنغال

أ. دربال مديحة
جامعة سطيف-2-

الملخص
في 14مارس2012،أصدرت المحكمة الدولية لقانون البحار أول حكم لها في مجال تحديد الحدود البحرية بمناسبة النزاع القائم بين البنغلاداش والميانمار في خليج البنغال،والذي دأبت من خلاله المحكمة وقضاتها عبر تصريحاتهم وإعلاناتهم على تأكيد حرصهم على احترام الموروث القضائي السابق للمحاكم الدولية في هذا المجال. كما عكفت على الإسهام ولو بالقليل في القانون القضائي القائم، إذ تجدر الاشارة إلى أنه إلى غاية صدور هذا الحكم الحديث لم تتمكن أية محكمة دولية من تحديد حدود الجرف القاري فيما يتجاوز200ميل، فضلا عن كونها أول من عالج النتائج القانونية المترتبة عن المنطقة الرمادية.حقيقة لقد انعكس نجاح أول محاولة للمحكمة في مجال التحديد البحري سواء من خلال النهج الذي سلكته أو بالنظر إلى وضاحة حكمها المتبنى بالإجماع تقريبا. إن المحكمة الدولية للبحار ستتبع بالتأكيد التقاليد القضائية وبالمقابل لن تجدد أكثر من المعقول، ولهذه الأسباب بالذات يمكنها أن تكون بديلا في مجال تحديد الحدود البحرية.
الكلمات المفتاحية:خليج البنغال، تحديد الحدود البحرية، المحكمة الدولية لقانون البحار، المنطقة الرمادية.

Résume
Le 14 mars 2012, le tribunal international du droit de la mer(TIDM) a donné son premier jugement qui traite de la délimitation de la frontière maritime dans le Différend entre le Bangladesh et le Myanmar dans le golfe du Bengale. Le tribunal était très désireux de souligner qu'il respectera la jurisprudence antérieure et la plupart des juges dans leurs déclarations ou opinions ont également souligné ce fait. Le tribunal a pris soin d'ajouter son peu à la jurisprudence existante. Il est à noter que jusqu'à cette décision très récente, aucune cour ou tribunal international a directement entrepris la tâche de délimitation du plateau continental au-delà de 200M, et il est le premier à aborder les conséquences juridiques d'une zone grise. Il est également vrai que la première tentative du TIDM à délimiter une frontière maritime a réussi à la lumière de son approche et la clarté de son jugement presque unanime. Le TIDM suivra la tradition et ne devra pas innover plus que nécessaire, il pourrait être donc une alternative valable pour la délimitation des frontières maritimes.

مقدمة:

كان من شأن تنامي تداعيات أزمة البترول في عشرية السبعينات تزامنا مع الثورة التكنولوجية الهامة في مجال استغلال الموارد الطبيعية البحرية تزايد اهتمام الدول بمسألة بسط السيادة على مختلف المناطق البحرية فيما يتعدى نطاق البحر الإقليمي.كما عرفت ذات الحقبة حركة تحررية واسعة لدول كانت قابعة تحت وطأة الاستعمار ومتلهفة لممارسة مظاهر سيادتها بالشكل الذي يعكس وزن النضال والكفاح الذي خاضته. ونتيجة لذلك شهد العالم نشوء العديد من النزاعات الحدودية البرية منها والبحرية ، وكان أحد هذا النوع الأخير يخص النزاع الحدودي البحري بين البنغلاداش والميانمار في خليج البنغال الذي دخل حوزة المحكمة بعدما يضاهي 35 سنة من التوتر والتنازع .

هذه القضية عكرت صفو العلاقات الثنائية بين الجارتين في أكبر خليج على كوكب الأرض، وذلك منذ أن بادرت جمهورية البنغلاداش في أعقاب استقلالها بإصدار قانون داخلي دخل حيز النفاذ في 13 أفريل 1974 بخصوص مياهها الإقليمية و المناطق البحرية التابعة لها عبر المنطقة المتاخمة والمنطقة الاقتصادية الخالصة والجرف القاري، والذي من خلاله تم الإعلان عن جملة من الإجراءات التنظيمية وأخرى تخص خطوات التصدي لمشاكل التلوث البحري وإجراءات

الاستكشاف والاستغلال والمحافظة على الثروات الحية وغير الحية فضلا عن التأكيد على نشر المعلومات ذات الصلة بطريقة قياسها للبحر الإقليمي والمنطقة الاقتصادية الخالصة.فكان من شأن ذلك صدور تشريع مماثل من جانب إتحاد الميانمار في 09 أفريل 1977 يتضمن الإشارة للتوجيهات التفصيلية المتعلقة بالنقاط الثابتة التي يتم من خلالها رسم خطوط الأساس المستقيمة التي يقاس وفقا لها البحر الإقليمي، وتدابير بخصوص المنطقة الاقتصادية الخالصة والجرف القاري، إضافة إلى تدابير تخص الملاحة وحق المرور البرئ وكيفية إدارة المنطقة المتاخمة[1].

للوقوف على حقيقة هذا النزاع الذي يستحيل اختزاله في المعركة التشريعية التي خاضتها الدولتين المتنازعتين، من الضروري التعريج ولو بصفة مقتضبة على مختلف الجوانب المؤسسة للبعد الحقيقي لهذا النزاع. لذلك ارتأينا التعرض أولا لمسألة الإطار الجغرافي و الاقتصادي للنزاع، ثم التحول لاستعراض وقائعه، ليتسنى لنا بذلك تحليل مختلف الجوانب القانونية التي انطوى عليها سواء من الجانب الاجرائي أم الموضوعي.

أولا: الخصائص الجغرافية والإطار الإقتصادي للنزاع

يتعلق النزاع بتحديد الحدود البحرية بين البنغلاداش والميانمار في خليج البنغال نتيجة اختلافهما حول كيفية تقسيم المنطقة البحرية في الجزء الشمالي من الخليج. وللتذكير يعتبر خليج البنغال أكبر خليج مفتوح في العالم بالنظر إلى مساحته المتربعة على 2.172.000 كلم^2 و بعرض 1600 كلم. يقع في شمال شرق المحيط الهادي محصورا من الناحية الغربية بالهند وسريلانكا ومن الجهة الشرقية ببورما (الميانمار) وتايلاندا، ويحده شمالا البنغلاداش[2].تلعب العوامل الجيولوجية دورا مهما في عمليات التحديد البحري ومن ذلك نشير إلى أن الخليج في جزئه الشمالي يتصل بالكتلة اليابسة عن طريق امتداد قاري عريض يتجه نحو الضيق جهة الجنوب كما يحتوي منحدرات متفاوتة التدرج تشهد على طريقة تكونه المترتبة عن تداخل شبه القارة الهندية مع آسيا منذ 50 مليون سنة خلت[3].للنزاع الحدودي بين الجارتين خصوصية جغرافية وجيولوجية كبيرة إذ تمتاز جغرافيا الخليج بكثرة تقعر سواحله مما أعاق عمليات التحديد البحري بين الدول المطلة على الخليج و جعلها نادرة. ومن أكثر الدول تضررا من هذه التقعرات والتحدبات البنغلاداش، حيث يطبع ساحلها تقعر رئيسي يمتد من النقطة الحدودية البرية مع الهند غربا إلى غاية الحدود البرية مع الميانمار شرقا ، وتقعر ثانوي في أقصى الشمال الشرقي للخليج داخل التقعر العام أو الرئيسي الأمر الذي جعل ساحل البنغلاداش مستوعب كلية في هذه التقعرات. ينجر عن هذه المورفولوجيا عدم إمكانية تحديد أو ترسيم خط مياه مستقر أوخط أساس ساحلي في ظل عمليات الترسيب أو الفيضانات التي تخلـــق مناطق ضحلة غير قابلة للملاحة[4].

خاصية أخرى تؤثر في مجرى النزاع تتعلق باستمرار امتداد كتلة اليابسة جيولوجيا من إقليم البنغلاداش في اتجاه الخليج دون تقطع وعلى مدار اتساعه، وإضافة إلى ذلك يشكل الموقع الجغرافي لجزيرة St.Martin التابعة لسيادة البنغلاداش جدلا محوريا بين الطرفين، إذ أن الجزيرة المذكورة تقع قبالة نهاية الحدود البرية للدولتين المتنازعتين على بعد أقل من 5 أميال بحرية من سواحلهما.

أما الأهمية الاقتصادية للنزاع فتتعلق أساسا بالآفاق المستقبلية المتعلقة باستغلال الموارد الطاقوية الموجودة بالمنطقة المتداخلة بين الجارتين، لاسيما بالنظر لحجم الاحتياطات المحتملة من الغاز والبترول بخليج البنغال عموما وعند 50 ميلا بحري جنوب غرب جزيرة St.Martin تحديدا[5].فضلا عن ذلك تعاني الدول المطلة على الخليج من نقص وخلل كبيرين في التزود بالطاقة الكهربائية حتى أن الأمر بلغ حد التسبب في أزمة سياسية لبعض منها، وبالتالي تعتبر المناطق البحرية

المتنازع بشأنها مصدرا لاكتساب الأمن الطاقوي بالنسبة للبنغلاداش و مصدرا لإنعاش الحركة الاقتصادية بالنسبة للميانمار التي تطمح لتصدير الغاز الطبيعي المستخرج من الخليج للصين والهند[6].

ثانيا: وقائع القضية

تعتبر كل من البنغلاداش والميانمار الدولتين الجارتين في جنوب شرق آسيا طرفا في اتفاقية الأمم المتحدة الثالثة لقانون البحار. ولقد أثر الموقع الوسط الذي تحتله البنغلاداش بين الميانمار والهند على امتداد مناطقها البحرية بالنظر لخصوصية خليج البنغال.

يعود تاريخ انطلاق أولى المفاوضات بين الطرفين المتنازعين لتحديد حدودهما البحرية المشتركة إلى سنة 1974 في أعقاب رفض البنغلاداش طريقة المسافة المتساوية المتفق عليها من جانب الهند والميانمار والتي من شأن تطبيقها جعل البنغلاداش في وضع "دولة مغلقة" "State - Locked"وبالنتيجة فقدانها ما يقارب5000كلم^{2}من قاع البحروما يحتويه من موارد طاقوية وسمكية[7] .وقد امتازت هذه المفاوضات بالتقطع قبل توقفها في 1986 لأكثر من عقدين كاملين لتستأنف في نوفمبر 2007 وتتواصل لغاية 2008 ، تمخضت خلال ما يقارب 36 سنة من التفاوض الشاق والطويل عن التوقيع على محضرين "Agreed minutes"الأولفي 23 نوفمبر 1974أعيد تأكيد مضمونه .بموجب الثاني في2008 .

في ظل إصرار الميانمار على التطبيق الجامد لصيغة المسافة المتساوية، سعت البنغلاداش إلى إقناعها بإعمال فكرة الحل المنصف، واستطاعت الدولتان المتنازعتان التوصل إلى صيغة بديلة وملائمة للوضع الجغرافي العام أسفرت عن رسم خط الصداقة "Freindship line"وهو خط وهمي تم انتهاكه في 05 نوفمبر 2008 من قبل السفن الحربية للميانمار التي قامت بمرافقة شركة Dawooالكورية المكلفة بعمليات التنقيب عن الموارد الطاقوية لفائدتها في جنوب غرب جزيرة St.Martinالتابعة للبنغلاداش ،الأمر الذي ترتب عنه تصاعد في وتيرة التوتر تم على إثره فتح المجال لستة جولات من المفاوضات على أعلى المستويات من 2008 إلى 2010[8]. وفي أعقاب فشل هذه المفاوضات التي تمت في إطار الفقرة الأولى من المادة283 من الاتفاقية والتي تفرض على الأطراف الالتزام بتسوية النزاع القائم بينهم بالاتفاق على الوسيلة السلمية التي بواسطتها سيتم حله أو تحديد كيفية تنفيذ الحل المتوصل إليه، قامت البنغلاداش بموجب إخطار كتابي مؤرخ في 08 أكتوبر 2009 بإعلام الميانمار بمباشرتها لإجراءات التحكيم إعمالا لأحكام المادة الأولى من المرفق الثامن من الاتفاقية بغية تسوية النزاع المتعلق بتحديد حدودهما البحرية في خليج البنغال[9].وفي غمرة تفاجئها بذلك أصدرت الميانمار تصريحها بقبول الولاية الإلزامية للمحكمة الدولية لقانون البحار ودعت البنغلاداش قبول تحويل الاختصاص لهذه الأخيرة. وعلى اعتبار أن كل من خيار التحكيم أو محكمة البحار الدولية يقوم على أساس رضا أطراف النزاع بغض النظر عن الوقت الذي أبدي فيه التعبير عن هذا الرضا[10]، تم اللجوء إلى المحكمة الدولية لقانون البحار لنظر النزاع الحدودي البحري بين البنغلاداش والميانمار في خليج البنغال لتحديد البحر الإقليمي، المنطقة الإقتصادية الخالصة والجرف القاري على شاكلة ما سيتم تناوله فيما يلي.

ثالثا : المشاكل القانونية التي أثارها النزاع

I/المشاكل الإجرائية

1/ إن أول مشكل إجرائي يمكن إثارته في هذا الخصوص مصدره التردد والممانعة الحقيقيين اللذين أبدتهما الميانمار بشأن إسناد الاختصاص لمحكمة البحار الدولية لنظر النزاع الحدودي البحري مع دولة البنغلاداش[11]. فبالرغم من قيام الميانمار باختيار محكم إعمالا للمادة الثالثة من المرفق السابع من الاتفاقية[12]،بادرت في مرحلة لاحقة إلى استبدال خيار التحكيم

بمحكمة هامبورغ الدولية. وبمجرد حيازة موافقة البنغلاداش من خلال إصدارها إعلانا يتطابق في محتواه بصفة شبه كلية مع الإعلان الصادر عن الميانمار يتضمن اختيار المحكمة الدولية لقانون البحار كوسيلة لتسوية النزاع الحدودي البحري يبين الجارتين في خليج البنغال نزولا عند مقتضيات الفقرة الأولى من المادة 287 من الاتفاقية[13]،تراجعت في غضون وقت قصير عن هذا الخيار، وقامت بسحب إعلانها المذكور[14]رغم أن هيئة هامبورغ وإعمالا للمادة 24 فقرة 2 من نظامها الأساسي، بمجرد استلام مسجل المحكمة للطلب الكتابي الصادرعن البنغلاداش والمحدد لموضوع النزاع وأطرافه، تولت إخطار الميانمار بفحوى هذا الطلب وقامت بتسجيله ضمن جدولها تحت عنوان القضية رقم 16،الشيء الذي يجعلنا نتساءل حول حقيقة ثبوت انعقاد الاختصاص للمحكمة المذكورة من عدمه ؟

بداية حري بالذكر أن الاختصاص القضائي الدولي مبني على مراعاة سيادة الأطراف من حيث وجوده ومداه[15].وتماشيا مع ذلك انبنى نظام التسوية القضائية في ثنايا اتفاقية مونتي قوباي على أساس مبدأ الرضائية " Ex consensu advenit vinculum" حرصا على الملائمة بين السيادة الوطنية من جهة والالتزام بالتسوية السلمية من جهة ثانية.وتحقيقا لهذا المقتصد،أتاحت الاتفاقية المذكورة إمكانية انعقاد الاختصاص إما عن طريق التعهد السابق باللجوء إلى محاكم الطرف الثالث أو عن طريق التعهد اللاحق بعد نشوء النزاع.وعلى بينة من هذا القول يعلق اختصاص محكمة البحار الدولية على وجود اتفاق لممارسة اختصاصها سواء تم في صورة اتفاق خاص "compromis" أم تعهد يدرج في ثنايا اتفاق ثنائي أو متعدد الأطراف أم في صورة تصريح صادر بناء على الإرادة المنفردة لدولة بعينها طبقا للمادة 287من الاتفاقية.وحيث أن وقائع قضية الحال تفيد بأن طرفي النزاع قد أصدرا بشكل منفرد كما سبقت الإشارة إليه أعلاه، إعلاناتهما بخصوص عرض نزاعهما المتعلق بتحديد البحر الإقليمي والمنطقة الاقتصادية الخالصة والجرف القاري في خليج البنغال على المحكمة الدولية لقانون البحار، فإن مجرد صدور مثل هذا الإعلان باختيار المحكمة المذكورة كاف لانعقاد ولايتها الإلزامية. ذلك أن الأسلوب الذي أوجدته الاتفاقية في إطار المادة 287 فقرة أولى[16]يعبرعن نموذج ولاية جبرية تلقائية مبني في الأساس على نظام الخضوع الاختياري والذي تبرز من خلاله الإرادة المنفردة للدولة المصرحة،وبالتالي ينشئ وضعا قانونيا يتعلق باختصاص المحكمة التي وقع عليها اختيار تلك الدولة وبالنتيجة فهو ينطوي على عنصر الإلزام[17].وطالما أن أساس اختصاص المحكمة الدولية يتجسد في القبول الطوعي لولايتها، فإن التصريح في هذه الحالة يعتبر بمثابة التزام بين الدولة المصدرة له والمحكمة من جهة، والتزام بين الأولى والدول التي ارتضت ذات الخيار من جهة ثانية،بمعنى أن الالتزام في هذه الحالة يعبر عن الرغبة المزدوجة لطرفي النزاع أي لكل من البنغلاداش والميانمار[18].

وينجر عن هذا الجزم وجود علاقة تربط بين الدولتين طرفي النزاع وهي من قبيل العلاقة التعاقدية الناتجة عن واقعة التصريح بتأكيد من العبارات الصريحة للفقرة الرابعة من المادة 287 من الاتفاقية والتي جاء فيها :« إذا كانت الأطراف في نزاع قد قبلت بنفس الإجراء لتسوية هذا النزاع، لا يجوز إخضاع النزاع إلا إلى ذلك الإجراء ».ويتدعم هذا الطرح عند الاستدلال بما خلصت إليه محكمة العدل الدولية في قضية حق المرور على الإقليم الهندي أين أكدت على أن العلاقة التعاقدية بين الأطراف والاختصاص الإلزامي للمحكمة الناتج عن تلك العلاقة يقوم بواقعة صدور التصريح، وأن الالتزام في هذه الحالة يعبر عن الرغبة المزدوجة للدولتين طرفي القضية[19].غير أنه في هذا المقام نتساءل عن مصير الالتزام الناشئ بموجب تصريح الميانمار القاضي بقبول اختصاص محكمة البحار الدولية سواء في مواجهة المحكمة ذاتها أوفي مواجهة الدولة طرف النزاع أي البنغلاداش في ظل واقعة سحبه؟

في هذا الصدد، انطلاقا مما سبق أعلاه، فإن التصريح الصادر عن الميانمار يعكس خاصة الإرادة المنفردة للدولة المصدرة له، وعليه فهو يستبعد التلقائية على انعقاد الولاية الإلزامية لمحكمة هامبورغ بدليل أنه يحمل في طياته التعبير الصريح عن رغبة هذه الدولة في قبول تلك الولاية من جهة، وبصدوره تكون الميانمار قد قامت بتصرف إنفرادي" acte unilatéral "دخلت بموجبه في نظام الخضوع الإجباري للمحكمة من جهة أخرى. بل أكثرمن ذلك يلاحظ بأن التصريح الصادر عن الميانمار يوحي بإثارة اختصاص المحكمة بأثر رجعي retroactively[20].

وعلى سند مما تقدم، يترتب عن هذا الوصف القانوني للتصريح أي بنظره كتصرف انفرادي استحالة سحب الاختصاص من هيئة هامبورغ الدولية[21].وما يدعم هذه النتيجة ما ورد في ثنايا الفقرة السابعة من المادة 287 من الاتفاقية والتي أقرت صراحة بأنه: « لا يؤثر إعلان جديد أو إشعار بإلغاء إعلان أو انقضاء مفعول إعلان بأي وجه في الدعوى القائمة أمام محكمة ذات اختصاص بموجب هذه المادة، ما لم تتفق الأطراف على غير ذلك ».بل أن اشتراط هذه الفقرة في الجزء الأخير من حكمها ضرورة اتفاق الأطراف المتنازعة على واقعة إلغاء الإعلان الذي يمنح الإختصاص للمحكمة يعد كاف لوحده لاستبعاد إنتاج سحب التصريح أو الإعلان بشكل فردي لأثره،خاصة متى علمنا أن العريضة التي تقدمت بها البنغلاداش تم تسجيلها في جدول المحكمة،وإعمالا للأحكام ذات الصلة لا يمكن القيام بهذه العملية- أي التسجيل- إلا بناء على موافقة الأطراف على انعقاد الاختصاص لهذه الهيئة القضائية[22]،الشيء الذي ينفي على سبيل القطع تحقق الشرط المطلوب لإلغاء الإعلان وإعدام أثره.وتأكيدا لهذه النتيجة، يكفي التدليل بما انتهت إليه محكمة العدل الدولية في قضية نوتيبوهمNottebohmحين أقرت:« ...[بأن]إيداع العريضة ليس إلا شرطا حتى ينتج شرط الولاية الإلزامية أثره اتجاه الطلب: فهي تملك اختصاص فحص كافة الجوانب التي تتعلق بالاختصاص،القبول أو بالموضوع. ولايمكن للانقضاء اللاحق للإعلان نتيجة سقوط أجله أو إلغائه أن يسحب من المحكمة اختصاصا قائما»[23].

كما درج الثبات على هذا المسار لاحقا بمناسبة العديد من القضايا كقضية حق المرور، أين أكدت محكمة لاهاي بأن انتهاء أو إنهاء التصريح الصادر بقبول اختصاص المحكمة يكون عديم الأثر على مجرى الدعوى متى كان تاريخ هذا الإنهاء أو الانتهاء لاحقا عن تاريخ إيداع العريضة المحركة للدعوى[24]، وبأنه توجد قاعدة قانونية واسعة القبول ومكرسة التطبيق من قبل المحكمة قوامها أنه بمجرد رفع الدعوى فإن التصرف الانفرادي للدولة المدعى عليها المتعلق بإنهاء تصريحها بقبول ولاية المحكمة سواء بصفة جزئية أو كلية لن يكون من شأنه إنهاء أو وضع حد لاختصاص المحكمة [25]، ذلك أن العبرة في تحديد اختصاصها-كما تبين من قضائها الثابت-هو أن تكون المحكمة كذلك أي مختصة وقت إيداع عريضة افتتاح الدعوى[26].

وإلى ذات النتيجة انتهت محكمة البحار الدولية مركزة علىأن تاريخ سريان التصريحات الصادرة عن طرفي النزاع وفقا للفقرة الأولى من المادة 287 من الاتفاقية هو ذاته تاريخ افتتاح الدعوى أمام المحكمة في 14 ديسمبر2009وذلك ما ينفي أدنى شك بشأن ثبوت اختصاصها[27].

2- أما بالنسبة للمشكل الثاني الواجب التصدي إليه في هذا التحليل فيرتبط هو الآخر باختصاص المحكمة الدولية للبحار وتحديدا مسألة الأساس القانوني الذي انبنى عليه حكم هذه المحكمة لتقرير ثبوت اختصاصها بنظر النزاع، خاصة متى علمنا أن هذا الحكم لم يوضح كفاية و لم يعكس بصفة واضحة موقف المحكمة المذكورة من الأساس الذي استندت إليه لتأسيس اختصاصها.

فمن الثابت أن مبدأ صلاحية تقرير الاختصاص هو مبدأ متأصل الجذور في القضاء الدولي، إذ يتعين على المحكمة المعروض أمامها النزاع أن تنظر تلقائيا "automatically" في مسألة اختصاصها نظر هذا النزاع[28]. ومتى ثبت لها ذلك، فإنها ستتصدى للقضية وتستأثر بتقرير هذا الأمر نزولا عند دواعي حكم المادة 58من النظام الأساسي لمحكمة البحار الدولية، سواء بادرت هذه الأخيرة إلى بحث موضوع اختصاصها من تلقاء نفسها أو نتيجة لدفوع تقدم بها أحد الأطراف أو كليهما.ويكفي في هذا المقام التذكير بالتأكيد القاطع من هيئة هامبورغ في قضية"Le Grand Prince"بين البليز وفرنسا عندما تصدت لمسألة اختصاصها"In limine litis"أين اعتبرت نفسها:« ...[بأنها]تملك حق فحص مختلف جوانب مسألة اختصاصها سواء أثيرت هذه الجوانب صراحة من قبل الأطراف أم لا»[29].بل وإلى أبعد من ذلك، ارتأت بأنه حتى في حالة عدم وجود اختلاف بين الأطراف المتنازعة بشأن مسألة اختصاص المحكمة، يتعين عليها التأكد من ثبوت اختصاصها في نظر النزاع[30].وبالرجوع إلى العبارات الواردة في إعلانات قبول اختصاص المحكمة الدولية للبحار، يتبن بجلاء بأن الدولتين المتنازعتين حددتا صراحة نطاق قبول ولاية المحكمة بما يعكس كفاية أن اتساع ومدى هذه الإعلانات أو التصريحات يخص نزاع بعينه يتمثل في تحديد مختلف المناطق البحرية في خليج البنغال و فيما بين الدولتين فقط[31].وبالنتيجة فموضوع النزاع بهذا الوصف وكما هو ظاهر من خلال استقراء الإعلانات المشار إليها يدخل حتما في إطار الفقرة الأولى من المادة 287 من الاتفاقية من جهة، ومن جهة ثانية، فإن آلية تحريك المحكمة " La saisine "بموجب تقديم طلب" requette"صادر عن دولة البنغلاداش في ظل الاعتراف الأسبق من حيث الترتيب الزمني الصادر عن الميانمار والقاضي بقبول الولاية الجبرية التلقائية للمحكمة،لا يتعلق بمجرد تقنية إجرائية وإنما يتعلق بثبوت اختصاص هيئة هامبورغ الدولية نظرالنزاع[32]. ذلك أن تحريك الاختصاص وفقا لتقنية الطلب لايمكن أن يتحقق إلا إذا اتفق طرفي النزاع على اعتبار ولاية المحكمة ولاية إلزامية حقيقة[33]،وفي هذه الحالة يتطابق مفهوم تحريك الدعوى مع مفهوم الاختصـــاص " La compétance"على اعتبار أن عامل تقديم عريضة من جانب واحد يؤدي إلى تحريك المحكمة ويترتب عنه ipso factoمباشرتها لإختصاصها[34].

وحري بالذكر أن قضاء محكمة العدل الدولية أكد صراحة على أنه في إطار إعمال نظام البند الاختياري يمكن تحريك الدعوى عن طريق تقديم طلب أو عريضة.ففيقضية Nottebohmأوضحت المحكمة بأن الطابع الخاص لنظام الولاية الإلزامية يمكن من تحريك الدعوى أمامها دون اشتراط اتفاق خاص بل أنه يصح القيام بذلك بموجب عريضة يتقدم بها أحد أطراف النزاع[35]،لأن نموذج نظام الولاية الجبرية التلقائية المبني على نظام الخضوع الاختياري يجعل إعلانات الدول الصادرة في هذا الخصوص [بمقتضى المادة 1/287من الاتفاقية]تؤدي وظيفة اتفاقات ضمنية تقبل بموجبها الدول سلفا انعقاد اختصاص الهيئة القضائية الواقع عليها اختيارهم بمجرد تقديم عريضة[36].

والملاحظ أن هذا التفسير يعزى إلى وجود ترابط وثيق بين مفهومي الاختصاص و تحريك الدعوى، فالأول يقصد به الأساس الذي يؤهل المحكمة الدولية نظر قضية ما وتسوية نزاع قائم بين أطرافه ويتم تحديده وتقريره من قبل المحكمة ذاتها.في حين ينصرف المعنى الثاني إلى حق صاحب الإدعاء في أن يتم سماعه من خلال عرض قضيته على المحكمة وتحقيقا لهذا المقصد يشترط ضرورة وجود سند للاختصاص.وإلى هذا الشرط أشار القاضي "جورج أبي صعب" حيث ارتأى بأن سريان تحريك الدعوى لا يرتبط فقط بوجود عريضة افتتاح دعوى، وإنما كذلك بوجود سند للاختصاص أي التأكد Prima facieمن أنه حقيقي[37].وينجرعن هذا التلازم بين الاختصاص وتحريك الدعوى حدوث خلط بين المفهومين

لاسيما في حالة كون العامل الوحيد لتحريك المحكمة ينجم عنه مباشرة انعقاد اختصاصها كما هو الشأن في الحالة المعروضة أعلاه.

على مبنى مما تقدم وبالاستناد إلى منطوق حكم المحكمة الدولية في قضية النزاع الحدودي بين البنغلاداش و الميانمار في خليج البنغال، يتضح بأن هيئة هامبورغ اكتفت بتسجيل القضية المذكورة في جدولها بناء على التصريحات الصادرة عن طرفي النزاع القاضية بقبول الاختصاص الإلزامي لهذه المحكمة [38] إضافة إلى رسالة وزير خارجية البنغلاداش المؤرخة في 13 ديسمبر 2009 و التي ورد فيها : «بما أن البنغلاداش و الميانمار قد منحتا موافقتهما المتبادلة لاختصاص المحكمة ووفقا لأحكام الفقرة الرابعة من المادة 287 من الاتفاقية، فإن البنغلاداش يعتبر المحكمة[الدولية لقانون البحار] الجهة الوحيدة المختصة لتسوية النزاع بين الطرفين »[39].وبالتالي يتبين بوضوح بأن الأطراف المتنازعة استندت إلى تصريحاتها الصادرة في سياق الفقرة الأولى من المادة 287 من الاتفاقية لإظهار وجود اتفاق "accord"يرمي لاستبدال اختصاص محكمة التحكيم المؤسس على الإرادة المنفردة للبنغلاداش بخيار محكمة البحار الدولية، علما أن هذه العملية التي تمت من خلالها إعلانات قبول اختصاص المحكمة الأخيرة لم ترد على النحو المرجوا من العبارات العامة التي قصدها واضعوا الاتفاقية نتيجة تقييد نطاق اختصاص هذه المحكمة بمجاليه المكاني والشخصي فقط أي وروده بصدد نزاع محدد[40]. وعليه يمكن الجزم بأن عملية نقل النزاع إلى المحكمة الدولية لقانون البحار قد تمت بتقديم عريضة افتتاح دعوى ممثلة في رسالة وزير الخارجية البنغلاداش التي تضمنت الإشارة إلى طريقة تحريك اختصاص المحكمة إضافة إلى تسمية قاض خاصAd Hoc، وكان من أثرها دعوة رئيس المحكمة الطرفين المتنازعين لإجراء مشاورات بشأن المسائل الإجرائية وتحصيل اتفاق بخصوص ذلك إعمالا لمقتضيات المادة 45من لائحة المحكمة،بوصفه فقط كقالب إجرائي للتشاور بخصوص نقاط ومسائل إجرائية تهم الطرفين تحت إمرة رئيس المحكمة دون أن يرقى لمصنف الاتفاق بمعنى « compromis » أي ذلك الذي ينشىء حقوقا و التزامات قانونية دولية وفقا لأحكام اتفاقية فيين القانون المعاهدات[41].

و إذا كان التطابق الشبه التام في إعلانات قبول اختصاص محكمة البحار الدولية يفتح المجال لقراءتين مختلفتين فيما يخص تفسير أساس اختصاص المحكمة المذكورة، إذ يظهر من زاوية أولى أن قوام رضا الأطراف بخيار المحكمة الدولية لقانون البحار نابع عن هذه الإعلانات الواردة في إطار الفقرة الأولى من المادة 287 من الاتفاقية، أي في إطار نظام الولاية الإلزامية التلقائية الناتج عن نظام الخضوع الطوعي، فإن الاستناد إلى أحكام الفقرة الرابعة من ذات المادة كما ورد في مضمون رسالة وزير خارجية البنغلاداش يعد دليلا مدعما لفكرة انعقاد الاختصاص للمحكمة وفقا لهذا الأساس[42]، خاصة وأن مدلول المادة 287 فقرة أولى ينسحب كذلك على الإعلانات الخاصةAd hoc déclarationالمتعلقة بنزاعات معينة ومحددة كما هو الحال في هذه القضيـــة[43].

ومن زاوية أخرى، من جملة الأمور الملاحظة عند البحث في أساس اختصاص المحكمة و التي توحي بوجود تأويل أو قراءة مختلفة تلك الإشارة الصريحة الواردة في رسالة وزير خارجية دولة البنغلاداش بوجود اتفاق متبادل "mutual consent" بين الطرفين لتسوية نزاعهما الحدودي أمام هيئة هامبورغ. الأمر الذي يدعم فرضية انعقاد الاختصاص لهذه الهيئة القضائية بطريق الاتفاق الخاص "Spécial agreement"[44]المترتب عن الإعلانات الصادرة عن الطرفين، خاصة وأنها لم ترد في وقت متزامن ولا بموجب صك واحد فضلا على أن البنغلاداش من خلال رسالة وزير خارجيتها تكون قد اتبعت أسلوب الإخطار "notification"لرفع دعواها بدلا من تقديم طلب رسمي "formal application"[45] .ذلك أن انعقاد الاختصاص

بطريق الاتفاق الخاص يحدد نطاق اختصاص المحكمة لأنه يبين بوضوح موضوع النزاع والمسائل المراد إثارتها فضلا عن دخول النزاع حوزة المحكمة بمجرد استلامها إشعارا بهذا الاتفاق[46].

تحصيلا لما سبق بخصوص مسألة الأساس القانوني الذي انبنى عليه اختصاص المحكمة الدولية لقانون البحار، خلصت هذه الأخيرة إلى تأكيد اختصاصها نظر النزاع لكنها ارتأت تعمد عدم تبيان قناعتها حيال مسألة صادفتها في مواطن سابقة من قضائها، تتعلق بإعطاء تفسير واضح ورأي جلي بشأن قضية الاتفاقات اللاحقة عن تحريك الدعوى بصفة فردية أمام أي من محاكم الطرف الثالث الوارد تعدادها بالاتفاقية، والتي يكون من شأنها نقل القضية إلى محفل آخر بناء على اتفاق لاحق بين أطراف النزاع[47].ومع ذلك يرجح البعض في هذه القضية الكفة لمصلحة التفسير الأول إذ أكد منطوق الحكم بأن تسجيل القضية في جدول المحكمة يعزي لمضامين إعلانات قبول الاختصاص الإلزامي للمحكمة وفقا للفقرة الأولى من المادة 287 من الاتفاقية ورسالة وزير خارجية البنغلاداش[48].

II/المسائل المرتبطة بموضوع النزاع

تتسم منازعات الحدود البحرية ببعد مزدوج، فهي في الآن نفسه تجمع بين التعقيدات التقنية والأبعاد أو الرهانات السياسية، الاقتصادية، التاريخية وحتى البيئية [49].ونتيجة لذلك يتعين على القاضي توخي الحذر عند اختياره الطرق والأساليب الملائمة للقيام بعملية التحديد بالنظر إلى حجم مصالح الدول الإقليمية وادعاءاتها التاريخية، والتي لا يمكن عزلها عن الإطار القانوني المؤسس سواء وفقا لمبادئ عرفية أو اتفاقية [50]. ومتى كانت الحلول القضائية غير مقنعة أو لم تبلغ على الأقل متوسط الإشباع المصلحي للدول، أو يعجز سياقها القانوني عن بعث الإيمان بالموروث القضائي المتأتى عن المحاكم الدولية عبر اجتهاداتها وأحكامها، فإن مسألة تحديد الحدود البحرية ستظل رهينة نفور الدول من اللجوء إلى محاكم الطرف الثالث الملزمة، وبالتالي ترك الحال على ما هو قائم عليه statut quo تخوفا من فقدانها لسيطرتها على مناطق بحرية قد تستفيد منها واقعيا de facto حتى وإن اقتضى الأمر التكيف مع التوترات التي قد تنشأ فيما بينها نتيجة هذا الوضع.

في مثل هذه الوضعية وهذا السياق، تم اللجوء إلى المحكمة الدولية لقانون البحار من قبل البنغلاداش والميانمار لتحديد كل من البحر الإقليمي والمنطقة الاقتصادية والجرف القاري، بالرغم من أن هذه المنطقة الأخيرة ارتأت المحكمة بشأنها ضرورة التمييز بين عملية التحديد التي تمس منطقة الجرف القاري في إطار 200 ميل بحري وذات المنطقة البحرية خارج نطاق 200 ميل بحري [51].وكما هو مألوف عادة ما يعكس نزاع من هذا القبيل اختلافا في وجهات النظر وتضاربا في ادعاءات الدول حول الطريقة الواجب اعتمادها و إتباعها لتقسيم المناطق البحرية المتنازع عليها، لذلك يتعين تتبع المنهج الذي قاد المحكمة إلى إصدار حكمها في هذه القضية من خلال التعرض إلى كل منطقة على حدى.

أولا/ تحديد البحر الإقليمي

بالرجوع إلى الاتفاقيات الإطار[52]،نلاحظ بأن عملية تحديد الحدود البحرية لا تستند على منهجية دقيقة بل خلافا لذلك نجد بأن أحكام اتفاقية الأمم المتحدة الثالثة لقانون البحار أسست للإطار الاتفاقي دون أن تبين المسار التقني الواجب إتباعه لتجسيد ذلك، بحيث أوضحت فقط بأن عملية التحديد هي نتاج اتفاق مباشر بين الدول المعنية، ومتى تعذر تحصيل هذا الاتفاق تعين البحث عن الحل أو التسوية القانونية عن طريق القضاء الدولي.[53]

1/ القيمة الإلزامية لمحضري 1974و2008

قبل مباشرتها لمسار التحديد، تعين على محكمة البحار الدولية الإجابة على الإدعاء المقدم من قبل البنغلاداش والمتعلق بوجود اتفاق مع الميانمار لتحديد البحر الإقليمي تم التوصل إليه على مدار ثلاثة عقود من المفاوضات الثنائية في الفترة

الممتدة من سنة 1974 إلى غاية 2010 أفرغت في شكل محضرين، الأول تم التوقيع عليه في 1974 والثاني في 2008تضمنا من جملة أمور Inter alia وصف للخط الذي يحدد البحر الإقليمي للدولتين والضمانات المتعلقة بحرية ملاحة سفن الميانمار في محيط جزيرة St martin التابعة لسيادة البنغلاداش[54]. وواصلت هذه الأخيرة استراتيجيتها المؤسسة على إقناع المحكمة بوجود هذا الاتفاق الصريح بتأكيدها بأن العبارات المستعملة في المحضر الأول وكذلك الظروف المحيطة التي تم خلالها اعتماده والتوقيع عليه أوحت لها بأنه يمثل إطار لاتفاق ملزم Binding Agreement أكدت الميانمار قبولها إياه بموجب التوقيع على المحضر الثاني في 2008 رغم وجود بعض التعديلات الطفيفة التي لم تمس بجوهر الأتفاق[55].

من جهتها نفت الميانمار هذا الإدعاء معتبرة محضر 1974 لم يشكل في أي وقت اتفاق نهائي لتحديد حدود البحر الإقليمي بين الجارتين، ولا يعدوا أن يكون شأنه شأن محضر 2008 مجرد إطار « لأرضية توافقية » تمخضت عن المشاورات الثنائية و تبادل الآراء بين الوفدين مما يجعل هذا التوافق "entente"ذو طبيعة تقنية بحتة[56]، لاسيما وأن الميانمار صراحة وفي مناسبات عدة خلال عملية التفاوض لم تتوال في التأكيد على أنه لن يتم الاتفاق على البحر الإقليمي بصفة مستقلة قبل التوصل إلى حل بخصوص المنطقة الاقتصادية الخالصة والجرف القاري. ومشيرة بأنه تماشيا مع ذات السياق، اتجهت مساعي الدولتين إلى محاولة إبرام معاهدة في هذا الخصوص بالشكل المشار إليه في الفقرة الخامسة من محضر 1974 دون أن يكلل ذلك بالنجاح [57].

استنادا إلى قضائها السابق في قضيةHoshinmaruوالتي بمناسبتها أكدت محكمة البحار على الشروط المعتد بها لإمكانية اعتبار محضر رسمي بمثابة اتفاق ملزم، انتهت المحكمة إلى نتيجة مفادها غياب الطابع الملزم لمحضر 1974، مذكرة بأن المحاضر الرسمية قد تكون إلى حد بعيد مصدرا للحقوق والالتزامات بين أطرافها وبالتالي تعتبر في منظور القانون الدولي بمثابة اتفاق ملزم، غير أنه متى عكست هذه المحاضر اختلافا في وجهات نظر الأطراف بصدد مسائل معينة فإنه لا يمكن الإدعاء بوجود اتفاق أو إذعان تطبيقا للمقولة: «طالما أنه صامت يبدو أنه موافق ، وماذا إذا كان بإمكانه التكلم » Qui» « tacet consentirvidetur si laqui debuisset acpotuisset،وبذلك رفض قضاة المحكمة منح الصفة الإلزامية لمحضري 1974 و2008[58].

2/الإدعاء المؤسس على الاتفاق الضمني ووضعية إغلاق الحجة L'Estoppel

ادعت البنغلاداش بأنه حتى وإن جردت المحكمة المحاضر الموقع عليها من قبل وفدي الدولتين من طابعها الرسمي و الإلزامي فإنها تبقى بمثابة اتفاق ضمنيtacit agreement أو بحكم الواقع De Factoبالنظر للتدابير التي اتخذها الطرفان على مدار ما يزيد عن 30 سنة، مشيرة تحديدا إلى قيامها طيلة هذه الفترة بممارسة إدارة ورقابة سليمة وهادئة للمنطقة الواقعة على جانب خط حدود بحرها الإقليمي دون أن يقابل ذلك رفض أو منازعة من جانب الميانمار.كما استدلت كذلك بسلوك صياديها وقواتها البحرية وقوات حفر السواحل إضافة لسلوك القوات البحرية التابعة لميانمار الذين عكسوا امتثالا متواترا واحتراما لخط حدود البحر الإقليمي كما ورد في محضر 1974، بالإضافة إلى التصريحات الواردة عن اتحاد الميانمار في 1985 و2008.

لم تشاطر المحكمة منطق البنغلاداش فيما يتعلق بوجود اتفاق ضمني أو بحكم الواقع، واعتبرت أن الشهادات المقدمة من الصيادين لا تعدوا أن تعبر إلا عن وجهات نظر شخصية ولا ترقى لوصف الدليل المادي على وجود حدود موضوعة بموجب اتفاق في منطقة البحر الإقليمي، كما أن التصريحات الصادرة عن الجنود وأطقم البحرية وخفر السواحل هي بمثابة تصريحات صادرة عن أعوان دولة ولهم بذلك مصلحة مباشرة في مجريات الدعوى[59].

وتتبعا لقضاء محكمة لاهاي، أوضحت هيئة هامبورغ الدولية بأن عناصر الإثبات الدالة على وجود اتفاق ضمني والذي قد يشكل أساسا لسند إقليمي يجب أن تكون مقنعة نظرا لأهمية مسألة وضع حدود بحرية، وبالتالي لا يمكن الإدعاء بوجود اتفاق ضمني أو بحكم الواقع بسهولة لذلك رفضت الاعتداد بالتفسير المقدم من البنغلاداش. وبعد أن استدلت بما خلصت إليه محكمة العدل الدولية في قضية نزاع الحدود البرية والبحرية بين نيكاراغوا والهندوراس أين أكدت بأن :«...إقامة حدود بحرية دائمة هي مسألة ذات أهمية بالغة ولا يمكن التوصل بشأنها إلى اتفاق بسهولة »[60]، منحت المحكمة الدولية للبحار عناية خاصة للغة المستخدمة في محضر 1974 والظروف السياسية المحيطة باعتماده إضافة إلى الصفة القانونية للأطراف الموقعة عليه. واعتبرت بأنه من زاوية إجرائية بحتة، لا يمكن لدولة الميانمار أن تمنح لشخص المفوض برتبة عقيد في البحرية السلطة اللازمة التي تجعل دولته ترتبط بالالتزام المشروط وفقا لأحكام القانون الدولي[61]،أي ذلك الاتفاق الملزم قانونا والذي يرتب آثارا قانونية بالنظر إلى طبيعته ومحتواه بغض النظر عن تسميته أو شكله مشيرة إلى أن ذلك هو متطلب المادة 15 من الاتفاقية[62]. وفي ضوء المعطيات التي تدل على أن موضوع و هدف محضر 1974 المؤكد بموجب محضر 2008 ينصرفان إلى تحديد البحر الإقليمي بين الدولتين الجارتين ، فإن الأمر يتعلق بالنتيجة بخلق حقوق والتزامات لمصلحة وعلى عاتق الأخيرتين، وبالتالي فهذا المحضر لا يعدوا أن يكون مجرد تقرير أو أرضية لتوافق مشروط تم بصدد عملية التفاوض وليس اتفاقا بالمعنى المبتغى من المادة 15 من الاتفاقية طالما أنه تبين صراحة وبعبارات لا لبس فيها أن الميانمار لم تخف في أية مرحلة من مراحل التفاوض بأن عملية تحديد البحر الإقليمي يجب أن تكون جزء من معاهدة دولية شاملة يرتبط موضوعها بتحديد حدود مختلف المناطق البحرية الأخرى – في إشارة إلى المنطقة الاقتصادية و الجرف القاري – مما يفيد بأن ما توصلت إليه الدولتين المتنازعتين لا يتجاوز مجرد اتفاق تقني بخصوص مسائل معنية مرتبطة بالنزاع، ولا يعكس اقتران إرادتي الطرفين لخلق اتفاق ملزم طالما تخلق رضا الميانمار[63].كما رفضت المحكمة التفسير المعطى من جانب البنغلاداش لتصريحات اتحاد الميانمار في 1985 و 2008 باعتبار أن الأول أكدت من خلاله هذه الأخيرة بأنها لا تقبل خط الحدود المقترح من البنغلاداش إلا بشرط التسوية الشاملة لكافة المسائل البحرية الأخرى، أما الثاني فأشارت من خلاله إلى ضرورة التعاون المتبادل في إطار حسن الجوار طالما أن الطرفين لم يتمكنا بعد من تحديد حدودهما البحرية، وبالنتيجة فالتصريحان لا يعكسان نية الميانمار بقبول حدود البحر الإقليمي[64].

أما فيما يتعلق بمدى إمكانية الاستناد إلى وجود إغلاق حجة Estoppelفقد تأكد منذ عهد المحكمة الدائمة للعدل الدولي بأن وضيعة الإغلاق يجب أن تقوم على أساس إعلان أو تصريح واضح لا لبس فيه[65]، وأضافت لاحقا محكمة العدل في العديد من المناسبات ضرورة أن تكون التصرفات والتصريحات المستند إليها لإثارة وضعية إغلاق الحجة «واضحة وثابتة »[66]، ومن ذلك توصلت في قضية Elettronica Siculaبأنه متى تعلق الأمر بسكوت أحد الطرفين «من الصعب استنتاج وجود حالة إغلاق للحجة لمجرد عدم الإشارة كفاية إلى مسألة خلال أحد أطوار[التفاوض]أو التبادل الدبلوماسي»[67].

وعلى سند من ذلك، وردا على إدعاء البنغلاداش المبنى على إعمال هذه الوضعية نظرا لاستفادة الميانمارمن مزايا محضر1974 المتمثلة في وجود حدود بحرية مستقرة وحق المرور البرئ عبر المياه الإقليمية التابعة لها، انتهت المحكمة الدولية للبحار إلى أن البنغلاداش فشلت في تقديم أدلة واضحة توحي بأن الطرفان أدارا مياههما الإقليمية وفقا لما يقتضيه التطبيق المتواتر لمحضر 1974، وبالتالي غياب أفعال تشكل سلوك واضح وثابت من جانب الميانمار دفع البنغلاداش لتغيير موقفها بالشكل الذي يلحق بها ضررا استنادا لهذا السلوك ووفقا للإعمال الصحيح لقاعدة إغلاق الحجة، وعليه رفضت المحكمة الأخذ بهذا الإدعاء[68]مسايرة بذلك ما تأكد في الممارسة القضائية الدولية إذ يؤخذ سلوك الدول بصفة كبيرة في

الاعتبار، لأن إغلاق الحجة يمكن أن يقوم عبر سكوت الدولة، موافقتها، قبولها، تنازلها أو احتجاجها وبالتالي فهذه السلوكات إما قد تخلق أو قد تؤدي إلى سقوط وزوال سند على الإقليم[69].

3/المنهجية المعتمدة في عملية تحديد البحر الإقليمي

قبيل انعقاد المؤتمر الأول للأمم المتحدة لقانون البحار شكلت مسألة الطريقة المثلى لتحديد البحر الإقليمي بين الدول ذات السواحل المتقابلة أو المتجاورة عقبة تعذر على لجنة القانون الدولي تخطيها نظرا للطبيعة التقنية للمسألة. لذلك كان من الضروري استشارة لجنة الخبراء الذين اهتدوا إلى إحكام قاعدة المسافة المتساوية مع ضرورة إدخال بعض الاستثناءات في حال وجود جزر أو دواعي أخرى كالتي تخص الملاحة أو الصيد[70].ومن جهته عجز القضاء الدولي عن الثبات على طريقة معينة إلى غاية عشرية التسعينات أين رجح حكم محكمة العدل الدولية الكفة لصالح إعمال طريقة المسافة المتساوية بمناسبة قضية غرينلاند وجون ماين كخطوة أولى ضرورية ولازمة في مسار تحديد الحدود البحرية، لتتكرس بعدها بصفة متواترة سواء في قضاء هذه المحكمة أو محاكم التحكيم الدولية لدرجة التساؤل عما إذا أضحت هذه الطريقة تشكل جزء من القانون الدولي الإتفاقي[71].

ويعتبر حكم محكمة العدل الدولية في قضية البحر الأسود المناسبة التي كرست من خلالها هيئة لاهاي الطابع الملزم لطريقة المسافة المتساوية في مجال تحديد الحدود البحرية كما يعد كذلك النموذج الذي احتذت به محكمة البحار الدولية بعناية عند فصلها في قضية خليج البنغال[72].وبالتالي تعين على المحكمة إعمال أحكام المادة 15 من الاتفاقية و التي تنص على أنه :" حيث تكون سواحل دولتين متقابلة أو متلاصقة، لا يحق لأي من الدولتين، في حال عدم وجود اتفاق بينهما على خلاف ذلك، أن تمد بحرها الإقليمي إلى أبعد من خط الوسط الذي تكون كل نقطة عليه متساوية في بعدها عن أقرب النقاط على خط الأساس الذي يقاس منه عرض البحر الإقليمي لكل من الدولتين. غير أن هذا الحكم لا ينطبق حين يكون من الضروري بسبب سند تاريخي أو ظروف خاصة أخرى تعيين حدود البحر الإقليمي لكل من الدولتين بطريقة تخالف هذا الحكم ".

يتبين من عبارات هذا النص أن المبدأ الأساس يرتكز على قاعدة المسافة المتساوية لكن ما لم يكن هناك مجال للحديث عن وجود سند تاريخي historic title أو ظروف خاصة special circumstances.والملاحظ في هذه القضية أن أي من الطرفين لم يتمسك بوجود سند تاريخي وعليه على المحكمة البحث فيما أذا كانت هناك ظروف خاصة تبرر وتفرض التحول إلى صيغة بديلة تتم على أساسها عملية تحديد البحر الإقليمي[73].

في هذا الإطار، أثير موقع جزيرة St Martinمن جانب الميانمار باعتباره ظرفا خاصا نتيجة كون هذه الجزيرة في حقيقة الأمر توجد مقابل سواحلها وهي لا تعدوا أن تكون مجرد عنصر معزول عن النطاق الجغرافي للبنغلاداش. وبالتالي فإن العلاقة الساحلية بين الجزيرة و إقليم الميانمار لاتختزل في إطار التقابل وإنما تتعداه إلى علاقة الجوار أين تكون التشوهات الساحلية أكثر شدة مقارنة بحالة السواحل المتقابلة. لهذه الأسباب رأت الميانمار بأن منح الأثر التام لجزيرةSt Martinمن شأنه أن يحدث تشوها معتبرا بالنظر للإطار العام لساحلها، وبالتالي ينبغي النظر إلى هذه الجزيرة كمجرد "حادث الجغرافي" صغير وهي بذلك تشكل ظرفا خاصا يستدعي تغيير وتعديل خط الأساس الواجب رسمه بين سواحل الأطراف وإلا فسيكون في الحالة العكسية من شأن ذلك أن يجعل الجزيرة المذكورة في الجانب الخطأ من الحدود وفقا لطريقة المسافة المتساوية[74].

من خلال الإشارة للممارسة الدولية في مجال الحدود البحرية، ذكرت البنغلاداش بأنه يحق للجزر المجاورة لساحل الدولة أن يكون لها تأثير هام على مسألة تحديد الحدود متى استجابت لشروط المادة 121 من الاتفاقية بحيث يكون لها الحق في بحر إقليمي ومنطقة اقتصادية خالصة وجرف قاري. وبأنه حق الدولة في المطالبة ببحر إقليمي حول الجزيرة هو حق ثابت ومبدأ مستقر في القانون الدولي العرفي. وبناء على ذلك لم تتوال في التذكير بأن الجزيرة تتواجد على بعد 4,547 ميل من سواحلها وهي بذلك توجد داخل حدود 12ميل بحري أي جزء لا يتجزأ من سواحلها بمساحة تقدر بـــ8 كلم^2 وكثافة سكانية تبلغ 7000 نسمة وتعكس نشاطا اقتصاديا مهما لاسيما من خلال المظهر السياحي[75].وقد شاطرت محكمة البحار وجهة النظر المقدمة، ولأجل هذه المعطيات تحديدا اعتبرت بأن جزيرة St Martinتشكل مكونا أو عنصرا مهما، وأن موقعها وإن كان قريبا إلى سواحل الميانمار، فهو أقرب منه إلى سواحل البنغلاداش وفي إطار مياهها الإقليمية، لذلك يستحيل اعتبارها ظرفا خاصا مما يترتب عنه منح الجزيرة أثراكاملا[76].

وعلى مبنى مما سبق وإعمالا للمادة 15من الاتفاقية، تعين على محكمة البحار إجراء عملية تحديد البحر الإقليمي عبر مرحلتين متتاليتين، الأولى تمثلت في تحديد مكان خطوط الأساس ligne de baseأو نقاط الأساس points de basesفي ظل الاسترشاد بالمادة5 من الاتفاقية[77]،أما الثانية فتجسدت في خط المسافة المتساوية انطلاقا من نقاط الأساس المحددة.وعلى اعتبار حالة التجاور التي تجمع بين سواحل الدولتين، تعين على المحكمة الرجوع مبدئيا إلى الوضع الجغرافي العام لهذه السواحل، بحيث اتضح بأن جغرافيا المنطقة المحاذية لنهاية الحدود البرية للدولتين تمتد بصفة عادية نسبيا على طول نهر Naafثم تتوازى معه، وبالتالي فإن إقليمي الدولتين منفصلين عن بعضهما من الناحية البرية وبالنتيجة نهاية هذه الحدود البريـــة عند مصب النهر المذكور هي النقطـــة التي يبدأ منها رسم خط المسافة المتساويـــة إعمالا لقاعـــدة" الأرض تسيطـــر على البحـــر" "The land dominate the sea"ووفقا لنـــقاط الأساس العاديـــة[78].ثم تمتد جنوبا متبعة خط المسافـــة المتساويـــة الأبعاد بناء على النقاط المعينة في جزيـــرة St Martinوالساحل الرئيسي للميانمار[79].و لم يتوقف قضاة المحكمة عند هذا الحد، وإنما ارتأوا كذلك معالجة مشكلة الحق في الملاحة في المياه الإقليمية للبنغلاداش رغم أن الطرفين لم يثيرا هذه المسألة. وإعمالا للمادة 76من اللائحة الداخلية للمحكمة، طلب القضاة استفسارا من البنغلاداش بخصوص موقفها من استمرار احتـــرام التزاماتها بموجب تعهداتهـــا السابقة مع الميانمار والمتعلقـــة بالسمـــاح للأخيـــرة بحرية الملاحة عبر مياهها الإقليمية في محيط جزيـــرة St Martin[80].واعتبر تأكيد مثل هذا الالتزام من جانب البنغلاداش أمام المحكمة بمثابة وضع نظام من نوعية خاصةSui generisلحق المرور البريء لأنه لم يتضمن فقط الاعتراف بهذا الحق في إطار المادة 17من الاتفاقية، وإنما كذلك تفسيرا لمضمون الحق مما يجنب احتمال قيام نزاع بشأن مدلول ونطاق إعمالـــه بين الطرفين مستقبلا[81].

ثانيا/ تحديد المنطقة الاقتصادية الخالصة و الجرف القاري في نطاق 200 ميل بحري

في ظل قبول مبدئي بقاعدة المسافة المتساوية المكرسة بموجب المادة 15 من الاتفاقية لتحديد البحر الإقليمي،لم يبد المتفاوضون خلال المؤتمر الثالث للأمم المتحدة لقانون البحار أية ليونة حيال تطبيق ذات القاعدة فيما يتعلق بالمنطقة الاقتصادية الخالصة و الجرف القاري. وبالمقابل لم يوفقوا في تضمين الاتفاقية أية طريقة لتحديد المجالين المذكورين، لذلك لم تحمل المادتين74 و83 إلا التزاما واحدا يقضي بضرورة التوصل إلى حل منصف solution équitable في إطار اتفاقي ووفقا لأحكام القانون الدولي دون أدنى إشارة لمقومات ومتطلبات ما يمكن اعتباره حلا منصفا[82]. لذلك ينبغي منح مختلف الاعتبارات وزنا للتوصل إلى تحقيق هذا المقصد، ومن جملة الأمور الواجب أخذها في الحسبان المطالب المتباينة للأطراف

ومدى اعتمادها على شتى الموارد الحية والغير حية لتغطية احتياجاتها ثم وبصفة أكثر أهمية الخصائص المورفولوجية للسواحل[83].

1/تحديد السواحل ذات الصلةlescotespertinentes

في هذا الصدد تعين على محكمة هامبورغ الانطلاق من مسألة تحديد السواحل ذات الصلة باعتبارها مصدرا للإدعاءات المتباينة للأطراف على مناطقها البحرية وتقرير ما إذا كانت الوضعية الجغرافية لهذه السواحل تعكس وجود امتدادات متزاحمة ومتداخلة، وبالنتيجة مدى وجود تفاوتات disproportionsبين المناطق البحرية التي تمنح للدول المتنازعة وطول سواحل كل منهما[84]. وتأكيدا منها على أهمية ذلك، ذكرت المحكمة بأن :" الطريقة الواجب إتباعها يجب أن تسمح، ضمن السياق الجغرافي والظروف الخاصة بكل حالة، بالوصول إلى حل عادل"[85].

وفي ضوء المعطيات والادعاءات المقدمة من الطرفين المتنازعين، قامت المحكمة بتقسيم كل من سواحل البنغلاداش و الميانمار إلى جزئين، يمتد الجزء الأول من ساحل البنغلاداش من جزيرة Mandabaria من الجهة الحدودية مع الهند إلى غاية جزيرة Kutrebdia،أما الجزء الثاني فمن هذه النقطة الأخيرة إلى غاية نهر Naaf عند نهاية الحدود البرية مع المينمار[86].وبهذه الطريقة استوعبت المحكمة تعرجات وتقعرات ساحل البنغلاداش داخل النقاط التي قامت بتعيينها،وهذا ما يفيد أن إعمال فكرة السواحل ذات الصلة لا يرتبط بضرورة تتبع كافة التحديات والتقعرات الواجهة البحرية[87].أما ساحل الميانمار، فيمتد في جزئه الأول من نهر Naafإلى غاية"BhiffCap"ومن هذا الأخير إلى غاية "Negrais Cap "في جزئه الثاني[88].وتوصلت المحكمة من خلال هذه العملية إلى أن الجزء الأول من ساحل البنغلاداش نظرا لكثرة تقعره فهو من جهة يمتد داخل المنطقة البحرية المراد تحديدها ومن جهة أخرى يتضمن امتدادات تزاحم وتتداخل مع امتدادات مماثلة من جهة الميانمار، وبالنتجية فالأمر يتعلق بسواحل ذات صلة يجب أخذها في الاعتبار عند رسم خط الحدود، لأن مفهوم هذه الأخيرة ينصرف إلى تلك الأجزاء من ساحل الطرف الآخر[89]. وبقي في مرحلة لاحقة انتقاء الطريقة المثلى للقيام بعملية التحديد.

2/اختيار طريقة التحديد

بداية نشير إلى أن الطرفين اتفقا على أن عملية تحديد المنطقة الاقتصادية الخالصة والجرف القاري يجب أن تتم بناء على رسم خط حدود وحيد. وللتذكير سبق لمحكمة العدل الدولية أن أكدت في قضائها السابق على إمكانية تعيين الحدود البحرية بخط وحيد يتم باتفاق الأطراف المعنية في ضوء معيار أو مجموعة من المعايير التي لا يؤدي إعمالها إلى تفضيل منطقة بحرية على حساب أخرى[90].

وعلى مبنى من ذلك وتطبيقا لفكرة الحد البحري الوحيد، انتهجت المحكمة في هذه القضية ذات المنهجية المتبعة من جانب محكمة العدل الدولية في قضية البحر الأسود لتحديد منطقتي الجرف القاري والمنطقة الاقتصادية الخالصة عبر ثلاثة مراحل، حيث أكدت بصددها هذه الأخيرة بأن إتباع طريقة المسافة المتساوية سواء بالنسبة للدول ذات السواحل المتجاورة أو المتقابلة خلال المرحلة الأولى من مسار التحديد يعد إجباريا مهما كان مظهر الواجهة البحرية، مكرسة بذلك الطابع العرفي للطريقة المذكورة من جهة[91]وقائمة بسد فراغ قانوني Legal –vacumعجز المؤتمرون خلال وضع أحكام الاتفاقية تفاديه خلال صياغة نصي المادتين 74و83[92].وبناء عليه قامت هيئة هامبورغ مبدئيا باستبعاد طريقة منصف الزاوية Angle-Bissectriceالتي تمسكت بتطبيقها البنغلاداش بسبب جملة من الأسباب تخص أساسا تقعر ساحلها والآثار السيئة للتقطعات التي تسم تكوين واجهتها البحرية[93].وبالرغم من أن السوابق القضائية الدولية في مجال التحديد البحري لم تمنح أفضلية التطبيق لقاعدة المسافة المتساوية /الظروف الخاصة أو على الأقل لم تلجأ إلى تطبيقها بشكل آلي أو تلقائي

،شاطرت المحكمة المذكورة وجهة نظر الميانمار الرامية إلى اعتبار الطريقة الأخيرة تشكل في الظرف الحالي بتأكيد القضاء الدولي مفهوما عاما، و بأنها الطريقة المتبناة من قبل المحاكم الدولية الدائمة والمؤقتة في أغلب قضايا تحديد الحدود البحرية[94].ووفقا لذلك قامت أولا بتحديد نقاط الأساس لرسم خط المساوية المتساوية مشيرة إلى أنها غير ملزمة بإتباع النقاط التي حددها الأطرافّ، بلعوض ذلك الاستعانة بالوضعية الجغرافية لسواحل الطرفين[95].واستنادا إلى ما سلف قـــررت عدم استعمـــال جزيـــرة St Martinنظرا لكونها تقع بصفة مباشرة قبالة الإقليم البري للميانمار. وعليه فاتخاذ الجزيرة كنقطة أساس من شأنه أن يسد، يعيق ويغلق امتدادها وإطلالتها على البحر، مما يترتب عنه تشويه لخط الحدود .وعليه قامت المحكمة بتعيين نقطتي أساس على ساحل البنغلاداش وأربعة نقاط عند ساحل الميانمار إضافة إلى نقطة في منتصف مصب نهرNaaf ،ثم وفقا لهذه النقاط رسمت خط المسافة المتساوية المؤقت بناء على معايير حسابية وجغرافية بحتـــة[96].

وفي المرحلة الثانية من عملية التحديد،تعين على المحكمة البحث فيما إذا وجدت ظروف ذات صلة تستدعي تعديل الخط المؤقت للحصول على نتيجة منصفة[97].وللتذكير فكرة الظروف ذات الصلة هي وليدة حكم محكمة العدل في قضية بحر الشمال أين أشارت المحكمة إلى أنه: "لايوجد حد قانوني للاعتبارات التي قد تتخذها الدول لضمان تطبيق طرق منصفة "[98].ولعل أهم ما يميز هذه الفكرة ، كونها تمتاز بطابع التخصيص Unicumلذلك فهي تختلف في مضمونها باختلاف الحالة محل النزاع وبالمقابل تؤدي نفس الوظيفة وهي الوصول إلى حل عادل. وإلى هذا الأثر أشارت محكمة لاهاي في قضية البحر الأسود بقولها :" إن وظيفتها هي تمكين المحكمة من التأكد بأن خط المسافة المتساوية المؤقت الذي تم رسمه وفقا لطريقة هندسية انطلاقا من نقاط الأساس المحددة على سواحل الأطراف،لا ينظر إليه في ضوء الظروف الخاصة للحالة على أنه غير عادل"[99].

استنادا إلى ذلك، أثارت البنغلاداش وجود ثلاث أنواع من الظروف ذات الصلة تتعلق بكل من تقعر ساحلها وجزيرة St Martinإضافة إلى نظام الترسيب الذي يتضمن الكتلة البرية لهذه الدولة وامتدادها الجيولوجي غير المتقطع في وخلال الخليج [100].هذا العامل الأخير لم تأخذ به المحكمة معتبرة بذلك العوامل ذات المنشأ الجيولوجي والجيومرفولوجي المرتبطة بقاع المنطقة البحرية المراد تحديدها تستعبد من عملية التحديد لمصلحة عامل جغرافيا السواحل[101]الذي درجت مع الوقت محكمة العدل الدولية ومحاكم التحكيم على منحه دورا محوريا لإقامة التوازن المطلوب بين المستلزمات الموضوعية والعامة الواردة في نصوص الاتفاقية وخصوصية كل حالة[102]. لأن ما من شأنه أن يوصل إلى حل عادل ومنصف يختلف في ضوء جغرافيا المنطقة البحرية المعنية[103]،وبالتالي فالعوامل المرتبطة بالجيولوجيا والجيومرفولوجية تم استبعادها في مسار تحديد الحدود حتى على مستوى الممارسة ،إذ أضحت معظم الاتفاقات بين الدول تجردها من أثرها ولا تولي لها أهمية إلا بشكل ثانوي فقط وعند تحديد نهاية نقاط الحدود أو على أقصى تقدير تأخذ بها ضمن جملة عوامل مجتمعة كإلحاقها بالعامل الاقتصادي أو متطلبات الملاحة[104].

وردا على الإدعاء المؤسس على الأثر الواجب منحه لجزيرة St Martinومدى إمكانية تأثير ذلك على رسم خط الحدود الوحيد، قدرت المحكمة بأنه في حال منح الجزيرة أثرا في عملية ترسيم الحدود في المنطقة الاقتصادية الخالصة والجرف القاري واستعمالها كنقطة أساس لرسم خط الحدود النهائي، سيكون من شأن ذلك- نظرا للموقع الذي تحتله هذه الجزيرة- أن يحجب ويقطع إطلال الميانمارعلى عرض البحر وينتج عنه تشويه غير مبرر لخط الحدود .وبناء على ذلك رفضت المحكمة اعتبار الجزيرة المذكورة كظرف ذي صلة اعتمادا على الحقائق الجغرافية والظروف الخاصة للحالة

المعروضة[105].ففي حين تحتفظ الامتدادات البحرية للبنغلاداش بمداها التام دون أدنى تشوه، يختلف الوضع بالنسبة للميانمار التي طالما اعتبرت جزيرة St Martinواقعة في الجانب الخطأمن خط تساوي الأبعاد، لأن اتخاذها كظرف ذي صلة من شأنه أن يجعل هذا الخط يتراجع نحو الجنوب بشكل يؤدي إلى بتر حقيقي لحقها، ولن يتبقى لها في مثل هذا الوضع إلا إمكانية الحصول على رواق ضيق للوصول إلى عرض البحر في الجزء الشمالي من ساحلها [106].

في نهاية المطاف، لم تأخذ المحكمة إلا بالإدعاء المبني على تقعر ساحل البنغلاداش والذي يشكل حقيقة جغرافية لا يمكن بأي حال تجاهلها.فالازدواجية في التقعر التي يعاني منها هذا الساحل ما هي إلا مظهرا لطالما اتصف به خليج البنغال ككل مما أهله لأن يعتد به كنموذج ومثال خلال المؤتمر الثالث لقانون البحار عند الإعداد لأحكام الاتفاقيةالحالية للتدليل على الخصوصية الجغرافية[107].لذلك فالمنهجية التي اتبعتها المحكمة للتوصل إلى الحل العادل الذي اكتفت اتفاقية مونتي قوباي باشتراطه كمعيار لعملية تحديد الحدود دون توضيح محتواه تاركة الأمر للمحاكم الدولية [108]،استدعت عدم التعامل مع طريقة المسافة المتساوية بشكل هندسي أو حسابي. فبلوغ النتيجة المنصفة في مجال التحديديتطلب الأخذ بعين الاعتبار كافة الظروف ذات الصلة، أي الوقائع الواجب الإعتداد بها خلال مسار عملية التحديد[109]، والتي لا يمكن ترك تقديره اللأطراف المتنازعة أو أحدهما وإنما لتقدير المحكمة بسبب تأثيرها على عدالة النتيجة المتوصل إليها [110].

في هذا الصدد أشارت محكمة البحار إلى عدم وجود قاعدة عامة، وبالتالي فتحديد الظرف ذي الصلة يتم على أساس الحالة بحالة Unicum[111].ووفقا لمعطيات النزاع، ارتأت محكمة البحار بأن خط المسافة المتساوية من شأنه أن يسفر عن بتر "amputation" لبعض المناطق البحرية الممكن منحها للبنغلاداش بسبب ازدواجية تقعر ساحلها. وكما هو معلوم، يصبح ظرفا معينا ذي صلة إذا كان من شأن عدم الاعتداد به أن يرتب إعادة تشكيل للجغرافيا أو يمنع حماية مصالح الدول المعنية بكيفية منصفة وعادلة. وفي مثل هذا الوضع ونتيجة لهذا التقعر، يستحيل أن يرتب ساحل البنغلاداش آثاره بطريقة معقولة ومتوازنة لأن خط المسافة المتساوية المؤقت سيثني خطوط التحديد داخل التقعر وبالتالي تصبح المناطق المحاطة بهذه الخطوط في شكل مثلث رأسه موجه نحو عرض البحر[112].وبالتالي استنادا للظروف الجغرافية باعتبارها ظروفا حيادية "Circonstances Neutres"تمنح لها الأولوية في عملية تحديد الحدود مقارنة بالعوامل الأخرى[113]،قامت المحكمة بتعديل خط الحدود المؤقت بالشكل الذي تتفادى به آثار التقطع "Cut off effect" وتشوه الواجهة البحرية للطرفين، واختارت تعديل خط المسافة المتساوية عند النقطة التي يبدأ فيها هذا التشوه والتقطع في جنوب ساحل البنغلاداش باتباع خط السمت °215،(Azimut).وبالتالي تكون المحكمة قد احتفظت ببداية خط المسافة المتساوية المؤقت ثم بعد ذلك رسمت خط السمت المشار إليه إلى غاية 200 ميل بحري انطلاقا من نقاط الأساس التي تم من خلالها قياس البحر الإقليمي للبنغلاداش. وتبعا لذلك قررت هيئة هامبورغ أن تكون بداية الخط البحري الوحيد عند تقاطع نهاية الحد الخارجي للبحر الإقليمي في محيط جزيـــرة St Martinمع خط المسافة المتساوية الذي رسمته المحكمة، وبالنتيجة منح الجزيرة أثرا كاملا من خلال بحر إقليمي عرضه 12ميل بحري على حساب جزء صغير من المنطقة الاقتصادية الخالصة للميانمار وجرفها القاري[114].وبالرغم من أن المحكمة لم تقدم أية صيغة رياضية لعملية تعديل خط الحدود المؤقت، إلا أنها عمليا انتهت إلى ذات النتيجة التي سعت البنغلاداش من خلال قاعدة منصف الزاوية إلى تحقيقها[115].

وفي خطوة أخيرة قامت محكمة هامبورغ الدولية بإجراء اختبار التناسب "proportionality test"للتأكد من أن خط الحدود المعدل يؤدي إلى نتيجة منصفة وذلك بإجراء مقارنة نسب المجالات و المساحات البحرية المخصصة لكل طرف بالنظر لنسبة صلتها بسواحل كل منها، أي تقدير العلاقة بين المناطق المحددة وطول السواحل. وقد أوضحت محكمة العدل

الدولية مفهوم التناسب بقولها:«[هذا الاختبار] يتمثل في تحديد "السواحل ذات الصلة "و "المنطقة ذات الصلة " للجرف القاري، وإقامة العلاقات الحسابية بين طول الساحل و المساحات الممنوحة، وأخيرا مقارنة هذه العلاقات للتحقق من عدالة[عملية] التحديد »[116]. وعلى سند من ذلك قامت محكمة البحار بفحص علاقة التناسب بين المناطق البحرية الممنوحة للميانمار والبنغلاداش وهي المناطق التي تقع داخل "المنطقة ذات الصلة" أي المجال الذي تتداخل فيه حقوق الأطراف، دون أن تستبعد حقوق طرف ثالث في إشارة إلى الهند فيما يخص حدودها مع البنغلاداش ، وقد تبين عدم وجود خلل كبير في توزيع المناطق البحرية على الأطراف مقارنة بطول سواحلها يقتضي تغيير خط تساوي الأبعاد المعدل[117].

ثالثا/ تحديد الجرف القاري خارج نطاق 200 ميل بحري

تفيد العبارات الحرفية للمادة 76من الاتفاقية أنها لا تفرض التزاما على الدول الساحلية فيما يتعلق بتحديد الحدود الخارجية OuterLimits لامتداداتها القارية التي تتجاوز 200 ميل بحري،وإنما تشير إلى ضرورة التوصل إلى توصيات"Recommendations" بخصوص المسائل المتعلقة بوضع حدود لهذه المناطق بحيث تكون هذه التوصيات نهائية وملزمة وتعتبر بمثابة أساس للدولة المدعية لإنهاء ترسيم الحدود الخارجية لجرفها القاري الممتد،لذلك توصف بأنها تحديد بحري مستقل[118].

نزولا عند هذه المتطلبات، قامت الميانمار في 16ديسمبر 2008 بتقديم معلومات للجنة الجرف القاري (CLCS) بينت من خلالها أن الحدود الخارجية لجرفها تتراوح بين 240 و400 ميل بحري انطلاقا من ساحلها. وهو ما رفضته البنغلاداش جملة وتفصيلا نافية امتلاك الميانمار لامتداد طبيعي في المنطقة المحددة إضافة لاعتراضها على نقاط الأساس المستعملة من جانب الأخيرة.لذلك رفضت اختصاص اللجنة المذكورة تقديم توصيات بشأن الترتيبات المتعلقة بإقامة الحدود الخارجية لمنطقة الجرف القاري. وبالمقابل تقدمت بمراسلة في فيفري 2011 حددت بموجبها البنغلاداش جرفها بعرض يصل إلى 380 أو 390 ميل بحري. و بالنتيجة، تبين أن مطالب الدولتين أمام لجنة الجرف القاري شبه متطابقة مع تسجيل زيادة لفائدة الميانمار تصل إلى 130 ميل بحري جنوب الحد الخارجي الذي تقدمت به البنغلاداش[119].

وفي ضوء الاعتراض على اختصاص لجنة الجرف القاري من الطرفين، تم دعوة محكمة البحار الدولية لتحديد حدود الجرف القاري خارج نطاق 200 ميل بحري.و قبل قيامها بهذه المهمة تعين على المحكمة بحث مسألة اختصاصها مقارنة باختصاص اللجنة المذكورة.

1/اختصاص المحكمة

رفضت محكمة العدل الدولية طلب نيكارغوا المتعلق بتحديد جرفها القاري فيما يتجاوز نطاق 200 ميل بحري في نزاعها مع كولومبيا لقناعتها بأن هذه العملية تتم في إطار المادة 76 من الاتفاقية.وترتيبا على عدم تقديم نيكارغوا المعطيات المشترطة وفقا للمادة المذكورة للجنة حدود الجرف القاري وبالتبعية عدم تقديم دليل على امتداد عتبتها القارية إلى ما يتعدى 200 ميل بحري وتداخلها مع الجرف القاري لكولومبيا، امتنعت محكمة لاهاي عن الخوض في هذه المسألة[120].

وفي قضائها السابق أوضحت بأن أي إدعاء يتعلق بحقوق الدولة على جرف قاري يتعدى 200 ميل بحري يجب أن يتطابق مع مستلزمات المادة 76 من الاتفاقية ويتم بالنتيجة نظره أمام لجنة حدود الجرف القاري المنشأة بموجب اتفاقية مونتي قوباي[121].وبالتالي يبدوا جليا أن الجهاز القضائي الرئيسي للأمم المتحدة رفض دائما اختصاص النظر في منازعات الحدود البحرية المتعلقة بتحديد الجرف القاري خارج 200 ميل بحري.

أما بالنسبة للمحكمة الدولية لقانون البحار فقد ارتأت بأنها ليست فقط مخولة صلاحية تحديد حدود هذه المنطقة البحرية، بل علاوة على ذلك هي ملزمة بالقيام بالتزاماتها في إطار نظام التسوية القضائية للمنازعات كما ورد في الاتفاقية الثالثة لقانون البحار، وبأن ممارستها لاختصاصها في هذا السياق لا يمكن بأي حال اعتباره تعدي على اختصاصات لجنة تحديد حدود الجرف القاري[122].بل أن امتناعها عن ذلك سيبقي مسألة وضع الحدود الخارجية للجرف القاري عالقة لاسيما متى علمنا أن البنغلاداش قد اعترضت على اختصاص اللجنة نتيجة تخلف اتفاق مع الميانمار، مما نتج عنه عدم تمكين اللجنة من أدائها لمهامها[123].كما ذكرت المحكمة ، بأن أحكام الاتفاقية الثالثة لقانون البحار أوضحت كفاية مهام لجنة حدود الجرف القاري في إطار المادة 76 ومهام ميكانيزمات التسوية القضائية الوارد تعدادها في الجزء الخامس عشر في إطار المادة 83بالشكل الذي يفيد بأن هذه المهام مختلفة،مستقلة، ومتكاملة. لذلك فدور اللجنة يتعلق بترسيم الحدود"Délinéation"أما دور المحكمة فيرتبط بتحديد حدود الجرف القاري "Délimitation"[124]، وهو ما يستدعي ضرورة التفرقة بين المفهوم القانوني للجرف القاري خارج نطاق 200 ميل بحري ومفهوم حدوده الخارجية من جهة، وضرورة التسليم بعدم وجود فرق بين مختلف أجزاء الجرف القاري سواء داخل أو خارج 200 ميل بحري من جهة ثانية. ولهذه الاعتبارات قضت بثبوت اختصاصها تحديد الجرف القاري الذي يتجاوز مداه 200 ميل [125]،مكتفية في هذا الصدد بتبيان اتجاه نهاية الجرف القاري لا تحديد نهايتهTerminus ،لأن هذه المهمة الأخيرة ترجع لاختصاص لجنة حدود الجرف القاري لا إلى المحكمة، وبذلك تعمدت التأكيد على أن اختصاصها بهذا الشكل لا ينقص و لا يتعدى على اختصاص اللجنة.

2/ تحديد الجرف القاري خارج نطاق 200 ميل

قبل تعيينها للطريقة التي يجب على أساسها تحديد الجرف القاري، تعين على المحكمة التحقق بصفة مبدئية primafacieمن أن الطرفان المتنازعان لهما حقوق متداخلة في المنطقة المراد تحديدها. وللإشارة اختلفت وجهات نظر الطرفين حول مسألة الأساس القانوني الذي ينبني عليه الحق في المطالبة بجرف يتعدى 200 ميل بحري، إذ استندت البنغلاداش على فكرة الامتداد الطبيعي باعتباره أيضا مفهوما ماديا لا قانونيا فقط، الأمر الذي يجعل المطالب القانونية قائمة على قوة وحجية الأدلة الجيولوجية والجيومرفولوجية. في حين نفت الميانمار وصف الدلالة العلمية على مفهوم الامتداد الطبيعي لكونه مجرد مصطلح قانوني يستعمل في السياق الخاص لمفهوم الجرف القاري[126].

المحكمة في هذه الحالة ارتأت بأنه من الصعب القبول بأن مدلول الامتداد الطبيعي المشار إليه في الفقرة الأولى من المادة 76 من الاتفاقية يشكل معيارا مختلفا ومستقلا عن الدولة الساحلية وجب تلبيته لتقرير أحقيتها في جرف قاري يمتد إلى ما وراء 200 ميل. بل الإشارة في هذا السياق يجب أن تفهم في ضوء الأحكام اللاحقة للمادة 76 التي تعنى بتعريف الجرف القاري والعتبة القارية. لذلك أسست الحق في الجرف القاري على متطلبات الفقرة الرابعة من المادة 76أي بالنظر إلى الحد الخارجي للعتبة القارية لا من خلال موضوعه وهدفه[127].وارتأت المحكمة في ضوء الأدلة العلمية القطعية المثبتة للطبيعة الفريدة لخليج البنغال ومن خلال المعلومات التي تقدم بها الأطراف خلال مراحل سير الدعوى ، منح كلا الطرفين الحق في عتبة قارية تتجاوز 200 ميل نتيجة وجود طبقة مستمرة وكبيرة من الصخور الرسوبية التي تغطي تقريبا معظم أرضية الخليج بما في ذلك تلك التابعة للميانمار و البنغلاداش تطبيقا لأحكام الفقرة الفرعية (أ) من الفقرة الرابعة من المادة 76 من الاتفاقية. وبذلك يظهر بأن المحكمة الدولية للبحار أهملت معيار الامتداد الطبيعي لمصلحة الحد الخارجي للعتبة القارية[128].

بعد ذلك لاحظت المحكمة بأن المادة 83 من الاتفاقية لا تتضمن أدنى تفرقة بين الجرف القاري داخل وخارج نطاق 200 ميل، لذلك فلا داع لأن تختلف طريقة تحديد الجرف القاري في هذه الحالة عن تلك التي أعملتها المحكمة في نطاق 200 ميل بحري في إشارة منها إلى تطبيق قاعدة المسافة المتساوية /الظروف ذات الصلة والتي تستند على الاعتراف بأن السيادة على الإقليم الأرضي هي أساس الحقوق السيادية و الولائية للدولة الساحلية على منطقتها الاقتصادية وجرفها القاري مهما كان امتداده، مع ضرورة التميز هنا بين موضوع ونطاق هذه الحقوق وفقا للمنطقة البحرية التي تمارس فيها إعمالا للمادتين 56 و 76 من الاتفاقية . كما أن تقدير استمرار العمل بهذه الطريقة حتم على المحكمة عدم تجاهل مشكل التقطع الذي قد ينتج عن رسم خط المسافة المتساوية بالنظر إلى التقعر الملحوظ على ساحل أحد الطرفين، وبالتالي تطبيق مفهوم الإنصاف المصحح"L'Equité correctrice"[129].

للإشارة المحكمة عندما اختارت إعمال طريقة المسافة المتساوية لا الظروف ذات الصلة أكدت بأنها ذات تطبيق عام لعلاقتها القانونية بالمناطق البحرية، ولكنها بالمقابل استعملت إشارة دالة على أنها الطريقة الأنسب في قضية الحال، وهذا ما يفيد بأن هذه المنهجية قد لا توصل إلى الحل المنصف الذي تصبوا إليه المادة 83 من الاتفاقية إذا تعلق الأمر بحالة أخرى وفي ظروف مغايرة[130].

أخيرا، عمليا يستتبع خطوة تعيين الطريقة الواجب إتباعه التحديد الجرف القاري قيام الهيئة القضائية الدولية بتعيين خط المسافة المتساوية المؤقت، وما يلفت الانتباه أن المحكمة في قضية الحال تطرقت مباشرة لفحص الظروف ذات الصلة ،وهذا ما يفهم من خلاله بأن هذا الخط تحكمه ذات خطوط الأساس التي اختارتها لرسم خط الحدود المؤقت داخل 200 ميل بحري. ثم توصلت إلى أن حدود تداخل الحقوق القانونية لكل طرف في المنطقة الممتدة خارج 200 ميل بحري يجب أن تكون استمرار لخط الحدود البحري الوحيد إلى غاية الوصول إلى المنطقة التي قد تتأثر فيها حقوق دولة ثالثة في إشارة إلى الهند[131]، وهي خطوة جريئة خطاها قضاة المحكمة و لم يسبقهم إليها أحد من قبل.

3/ فكرة المنطقة الرمادية " Grey Area"

لعل أهم ما ميز حكم المحكمة الدولية للبحار إنشائها لما يعرف بالمنطقة الرمادية بمسافة تقدر بـــ 1100 كلم^2، إذ أفضى تحديد الجرف القاري وراء 200 ميل بحري عن وجود منطقة ذات مساحة محددة تقع على بعد 200 ميل عن سواحل البنغلاداش وفي حدود 200 ميل عن سواحل الميانمار على جانب خط الحدود من جهة البنغلاداش نتجت عن تعديل خط المسافة المتساوية المؤقت[132]. وقد لاحظت المحكمة بأن الرفوف القارية للطرفين تتداخل في هذه المنطقة وعليه فالمنطقة الرمادية لا تعني إلا الجرف القاري للدولتين مادامت المنطقة الاقتصادية قد تم تحديدها من قبل. وتبعًا لذلك ووفقًا للحد البحري الوحيد، تتحدد حقوق الأطراف على قاع البحر وباطنه في إطار الجرف القاري في حين أن عمود المياه يبقى خاضعًا للحقوق السياسية والولائية في إطار المنطقة الاقتصادية الخالصة للدولة التي تقع فيها المنطقة الرمادية لأقل من 200 ميل . ونتيجة هذا الوضع، ذكرت هيئة هامبورغ بأن النظام القانوني للجرف القاري قد تعايش دائمًا مع النظام القانوني للمناطق البحرية الأخرى سواء تعلق الأمر بأعالي البحار أم المنطقة الاقتصادية لدولة أخرى،لذلك أكدت على إعمال مفهوم إيلاء الاعتبارDue regardأين يتعين على الدولة الساحلية ممارسة حقوقها وأدائها التزاماتها مع إيلاء الاعتبار لحقوق وواجبات الدول الأخرى،وبالنتيجة ضرورة اتخاذ الأطراف المعنية الترتيبات التعاونية للتوصل إلى نظام مقبول تسير وفقا له هذه المنطقة[133].

رابعا: ملاحظات ختامية

لقد أثارت هذه القضية العديد من المشاكل القانونية، استدعت ابداء الملاحظات التالية بشأن كيفية تعامل المحكمة معها :

1/ في أول مناسبة لها مع قضايا تحديد الحدود البحرية، عكست المحكمة من خلال مختلف فقرات حكمها الالتزام بحماية قانون الحدود البحرية من التجزئة بتأسيس قناعتها حيال مسائل معينة على الأحكام القضائية السابقة لاسيما أحكام محكمة العدل الدولية ومحاكم التحكيم، وبالتالي أثبتت وفاءها للموروث القضائي الدولي .

2/تميز تعاملها مع العديد من مسائل القانون الدولي بالاحتشام، فالمحكمة تعمقت في تفسير هذه المسائل و تحليلها، ولكنها امتنعت في نهاية المطاف عن صياغتها في شكل مبادئ أو قواعد عامة التطبيق ،وتكفي الاشارة في هذا الصدد إلى استنتاجاتها بخصوص مسألة الأثر القانوني للجزر في عملية التحديد والاتفاقات الملزمة قانونا وضمان حق المور البرئ وغيرها من المسائل الأخرى.

3/لم تتوالى المحكمة في تقديم تفسيرات دقيقة لبعض أحكام الاتفاقية، ومن ذلك نشير إلى تفسيرها المنطقي للمادة83الذي أماط اللبس عن مفهوم الجرف القاري والمادة 76 التي أوضحت من خلالها العلاقة القائمة بين الأجهزة التي أنشأتها الاتفاقية، وحللت بدقة متناهية حدود مهام واختصاصات لجنة الجرف القاري مقارنة بتلك التي تؤول إليها و نطاق العلاقة التكاملية بينهما.

4/قدمت المحكمة توضيحات مهمة بشأن العلاقة القائمة بين المسائل القانونية والعلمية وبينت أهمية الأدلة العلمية في هذا الصدد،كما يعزى لها سبق تحديد منطقة الجرف القاري خارج200ميل بحري ومفهوم المنطقة الرمادية، وبالنتيجة الـــتأسيس لقانون قضائي احتذت به واستندت اليه مؤخرا محكمة التحكيم في النزاع الحدودي البحري بين البنغلاداش والهند، في انتظار ما ستكشف عنه هيئة هامبورغ الدولية في حكمها المرتقب في قضية النزاع الحدودي البحري بين غينيا و كوت ديفوار.

الهوامش

1-أنظر : Legal Analysis and Probable Outcomes ofBangladesh v. Myanmar "TafsirMatin Johansson, (ITLOS, case n°: 16)Bangladesh Seeks Equitable Maritime Delimitation forSustainable Energy Development",academia.edu,November, 2010, pp. 01–25.Available at : [https://www.academia.edu/7753958/Legal_Analysis_and_Probable_Outcomes_of_Bangladesh_v._Myanmar_ITLOS_ case_n°16Bangladesh_Seeks_Equitable_Maritime_Delimitation_for_Sustainable_Energy_Development](29/09/2015).

2-أنظر: Qbul kalem Azad,Demarcation of Maritime Boundary Between Bengladesh and Myanmar:Politico Security and Economic Implications, 7th Berlin Conference on Asian Security (BCAS)Territorial Issue in Asia Drivers, Instruments,WaysForward,Berlin,2013,p.05.

3-أنظر: Suri Balakrishna,Bay of Bengal,Encycloaedia Britannica, available at Research Online: [http://www.britannica.com/place/Bay-of-Bengal](02/02/2015).

4-أنظر: TafsirMatin Johansson,Ibid.,p.05.

5- راجع الرأي المنفرد للقاضي Gao متوفر على موقع المحكمة الدولية لقانون البحار:

Separate Opinion of Judge Gao, Dispute concerning delimitation of the maritime boundary between Bangladesh and Myanmar in the

Bay of Bengal (Bangladesh/ Myanmar), Case No. 16, International Tribunal for the Law of the Sea, para. 91, available at: [www.itlos.org/fileadmin/itlos/documents/cases/case_n°16/C16.sep_op.Gao.rev.Ewith_maps.pdf](02/06/2015).

6-أنظر: Balaram,A. Ravi," Case Study: The Myanmar and Bangladesh Maritime Boundary Dispute in the Bay of Bengal and Its Implications for South China SeaClaims", 31Journal of Current Southeast Asian Affairs,No. 3(2012), pp. 85-104,at.87-88.,Jared Bissinger,The Maritime Boundary Dispute Between Bangladesh and Myanmar: Motivations, Potential Solutions, and Implications,10Asia Policy, (2010),pp.103–142,at.pp.104-105.

7-أنظر: Riddhi Shah," Bangladesh–Myanmar ITLOS Verdict: Precedence for India?",37 Strategic Analysis,No2 (2013),pp. 178-185,at.178-179.

8-أنظر: Jared Bissinger,Ibid.,p.105.

9-أنظر: Balaram,A. Ravi, Op.Cit.,p.88., Rear Admiral Md. KhurshedAlani, "Delimitation of Maritime Boundary between Bangladesh and Myanmar by the ITLOS",3 The Northern University Journal of Law, (2012), pp.07-14,at.8.

10-راجع الفقرة الأولى من المادة 287 من الاتفاقية.

11-أنظر : La remarquable entrée en scène du TIDM dans le contentieux de la délimitation maritime", 17Annuaire du Droit de la Mer (2012),pp.93-118,at.p.96. "GéraldineGiraudeau,

12- فوفقا للمادة الثالثة المذكورة تتألف محكمة التحكيم من خمسة أعضاء تتولى كل دولة طرف في النزاع مهمة تعيين حكم و الاتفاق على الأعضاء الثلاثة المتبقين ، وفي حال تخلف هذا الاتفاق تؤول مهمة تعيين المحكمين المتبقين لرئيس محكمة البحار الدولية.

13- فيما يتعلق بقبول تسوية النزاع محل الدراسة أمام محكمة قانون البحار راجع الوثيقة الصادرة عن ميانمار في 04 نوفمبر2009 والبنغلاداش في 14 ديسمبر 2009على التوالي:

C.N.839.2009 treaties-13,C.N.881.2009 treaties-14,,available at : [htt://treaties.un.org/doc/pub](06/12/2015).

14- في 14جانفي2010 قام سفير الميانمار بألمانيا بإبلاغ مسجل المحكمة برسالة وزير خارجية دولته الموجهة للأمين العام للأمم المتحدة والصادرة بالتاريخ المذكور والتي بموجبها تسحب دولة الميانمار تصريحها القاضي بقبول اختصاص محكمة البحار الدولية، راجع :

TIDM, différend relatif à la délimitation de la frontière maritime entre le Bangladesh et le Myanmar dans le golfe du Bengale(Bangladesh / Myanmar),arrêt du 14 mars 2012,par.8.

16-راجع : Affaire Nottebohm (Liechtenstein/Guatemala).,(deuxième phase),Arrêt CIJ,Rec.(1955),p.19.

17-تنص الفقرة الأولى من المادة 287 على :" تكون الدولة، عند توقيعها أو تصديقها على هذه الاتفاقية أو انضمامها إليها أو في أي وقت بعد ذلك، حرة في أن تختار، بواسطة إعلان مكتوب واحدة أو أكثر من الوسائل التالية لتسوية المنازعات المتعلقة بتفسير هذه الاتفاقية أو تطبيقها :

أ) المحكمة الدولية لقانون البحار المنشأة وفقا للمرفق السادس؛

ب) محكمة العدل الدولية؛

ج) محكمة تحكيم مشكّلة وفقا للمرفق السابع؛

د) محكمة تحكيم خاص، مشكّلة وفقا للمرفق الثامن لفئة أو أكثر من فئات المنازعات المحددة فيه".

النقد التوثيقي في الرحلة المغربية

د. بوشيبة بوبكر
جامعة الجلفة

ملخص:
يعد نقد المرويات وتوثيقها ركنا من أركان المنهج العام في الرحلة المغربية[1]، وتتجلى قضايا هذا النقد من خلال حرص العبدري[2] على صحة المرويات التي يوردها في رحلته، استطاع من خلال ذلك الوصول إلى أدق خصائص تحقيق النصوص وتوثيقها، والكشف عن دواعي اختلاط المرويات وتداخلها، مبرزا قدرته الفائقة على تتبع المروايات وتوثيقها وتحقيقها.

تمهيد:
النقد التوثيقي هو امتحان المرويات، وتحقيق الروايات والأخبار، بالاعتماد على قواعد وأساليب وضعها علماء الرواية، لتصحيح المرويات والتثبت من مصادرها قبل روايتها، وذلك بالفحص الدقيق والمعرفة الأصيلة بمذاهب الرواة وأساليبهم من أجل تمييز الزائف والمنحول من صحيح المرويات، والهدف من التوثيق هو تصوير الوقائع كما وقعت بالفعل، سواء أكانت مادية أم معنوية كالقصائد والحكم والأمثال، وكذلك التأكد من صحة نسبة هذه الوقائع إلى ظروفها التاريخية التي حدثت فيها، وإلى أفرادها الذين صدرت عنهم، ولذلك فقد اتخذ النقد التوثيق أحد مظهرين:

الأول: منهج المحدِّثين، وهو الذي يستند إلى نقد السند، – أي: النقد الخارجي أو نقد الرواة – أكثر مما يستند إلى نقد المتن، أي: النقد الداخلي أو نقد النصوص نفسها، وهذا هو منهج علماء الحديث، فقد قسّموا الأحاديث إلى مراتب ودرجات بحسب قوتها وضعفها، وحددوا صفات من تقبل روايته ومن ترفض، وحددوا درجات الرواة، واعتمدوا منهج الشك في التجريح والتعديل، فقدموا بذلك أنموذجاً فريداً للدقة في توثيق النصوص[3].

الثاني: منهج المؤرخين، وهو الذي يهتم بنقد المتن أكثر من اهتمامه بنقد السند[4].

ولعل النقاد العرب القدماء قد استعانوا بهذين المنهجين في دراسة النصوص وتوثيقها، فقد وجهوا عنايتهم إلى جانبين اثنين، الأول: تحقيق عبارة النص بأن تكون مروية كما نطق بها الشاعر – وهو منهج المؤرخين –، والثاني: صحة نسبة النص إلى الشاعر – وهو منهج المحدثين –، وقد تطلب ذلك منهم معرفة واسعة بكل ما يرد في الشعر من أعلام وأماكن وحيوان ونبات وقبائل؛ لأن هذه الأشياء مما لا تلحق معرفتها بالفطنة والذكاء، ولا بد من معرفتها على وجه الحقيقة للتأكد من نطقها صحيحاً إذا وردت في الشعر، دون أن يدخلها تصحيف أو تحريف[5].

وترجع عناية النقاد العرب القدماء بتوثيق النص الشعري إلى ظهور الوضع والانتحال والافتعال في الشعر، فقد وُجد من الناس مَنْ وضع أشعاراً أضافها إلى جاهليين وتزيّد عليهم، وكان ابن سلام الجمحي من أوائل النقاد الذين أشاروا إلى أهمية هذا الجانب، فقد ذكر أنه حُمِل على حسان بن ثابت ما لم يُحْمَل على غيره من الشعراء لما تعاضهت قريش واستتبت، فوضعوا عليه أشعاراً لا تليق به[6].

وقد اتخذ هذا النقد التوثيقي عند العرب مظاهر متعددة، منها: تصحيح الروايات في الشعر، وإقامة الوزن، وإبعاد التصحيف والتحريف، والتنبيه على الاضطراب في نسبة النصوص إلى أصحابها، وعلى الانتحال إن وُجد، وكذلك الاهتمام بسلسلة السند.

نقد المرويات وتوثيقها عند العبدري:

ويعد النقد التوثيقي عند العبدري ركنا من أركان منهجه النقدي العام في رحلته، وتتجلى قضايا هذا النقد من خلال ممارسته العملية النقدية ممارسة تطبيقية، استطاع من خلال ذلك الوصول إلى أدق خصائص تحقيق النصوص وتوثيقها، والكشف عن دواعي اختلاط المرويات وتداخلها، مبرزا قدرته الفائقة على تتبع المرويات وتوثيقها وتحقيقها.

وبعد دراستنا لنقد العبدري للروايات وتحليل قواعده، وجدناها تنتظم في ثلاثة قضايا نقدية أساسية هي: قضية نقد السند، وقضية نقد الرواة، وقضية نقد الرواية، وما يتفرع عنها من شعب وفروع كثيرة، وما يرتبط بها من مقاييس ومعايير، مكنته من تحقيق العديد من النصوص، والروايات التي ضمتها رحلته والتي يمكننا أن نقسمها إلى ثلاثة أجزاء. جزء تمثله تلك الروايات التي لم تخضع رواياتها ورواتها لتحقيقه مباشرة، مما يوهم بأن العبدري قد أهمل ذلك فيها، وواقع الحال انه قد عمل على إيراد هذه الروايات من عدة طرق مختلفة، منها ما هو على سبيل الرواية الشفوية، ومنها ما هو على سبيل النسخ من الكتب والمدونات التي تؤكد صحة الخبر المروي، سواء كان قد جمع بين هذه الطرق كلها في صدر الرواية والسند، أم ذكره لعدد من الروايات المتتابعة، على اختلاف مصادرها، مع اتفاقها جميعا على صحة مضمونها.

وجزء يشمل سائر الروايات التي تخضع لتوثيقه المباشر وتحقيقه، في حدود القضايا النقدية التوثيقية التي أثارها خلال ذلك والتي قد أتينا على ذكرها قبل قليل.

وجزء آخر يمثل الروايات التي لم يفصل فيها العبدري، وإنما اكتفى بأدائها على الصورة التي تحملها عليها دون تحقيقها، وان كان في بعض الأحيان يشير إلى شكه فيها بقوله " ولا ادري هل هو له أو تمثل به ..."[7]. أو قوله في مواضع عدة " .. والله اعلم"، ومعظم هذه الروايات من نصوص أو أخبار تاريخية لم تسعفه مصادره من تحقيقها أو توثيقها.

ولم تكن هذه الأحكام كلها لترد مطلقة أو مجردة من التحليل النقدي عند العبدري، وإنما كانت تستند إلى عدد من القواعد النقدية والمنهجية الواضحة.

1- نقد السند :

السند لغة هو المتعمد، وسمي كذلك لان المتن يستند اليه ويعتمد عليه[8] أما في الاصطلاح فهو سلسلة الرواة، الذين نقلوا الخبر واحدا إلى أن يصلوا بالرواية إلى مصدرها الأصلي.

ويعتبر الإسناد في نقد الروايات العمود الفقري للخبر أو الرواية، والسند المتصل الصحيح من خصائص الرواية الصحيحة، وميزته انه يعطي طمأنينة وثقة بما يتم نقله عن هذا الطريق، إذ يمثل شهادة مجموعة من الرجال الثقات، مما يؤكد صحة الرواية أو النص المنقول وضبطه.

والسند أصل لازم من أصول الرواية والتأليف لدى العبدري، وقد أبدى حرصه الشديد عليه، وحقق من خلال التزامه به عدة غايات توثيقية هامة ومفيدة، تتجلى في نقده لرجاله، أو بحثه في صحة أصوله وأركانه. ومدى استيفائه لشروطه وقواعده، مستفيدا في ذلك من خبرته في رواية الحديث النبوي الشريف، مع ما يمكن أن يكون بين الرواية الأدبية ورواية الحديث من تباين واختلاف في عدة نواح وأمور[9].

ولذلك فقد كان العبدري حريصا على استيفاء السند لأدق شروطه في كثير من الأحيان كقوله : " قصيدة الشيخ الفقيد الصالح أبي زكريا يحي بن علي الشقراطسي التوزري وحدثني بها الفقيه أبي عبد الله محمد بن علي التوزري الشهير بالمصري قراءة منه عليه عن الشيخ الفقيه أبي عبد الله محمد بن أبي يحي الطولقي عن الشيخ الفقيه القاضي أبي عمرو عثمان

بن أبي القاسم عبد الرحمن بن حجاج عن الشيخ أبي محمد عبد الله بن عمر بن حمادي بفتح الحاء وتخفيف الميم وأخره ياء قبلها دال مكسورة عن الفقيه الخطيب المحدث أبي القاسم عبد الرحمان بن محمد بن محمد بن احمد النفطي عرف بابن الإمام وبابن الصائغ عن الشيخ الإمام أبي عبد الله محمد بن يخلف بن وطاس بطاء مشددة عن ناظمها المذكور"[10].

وتتجلى قيمة هذا الاستيفاء للسند، في انه يمكن العبدري من الوثوق في صحة نسبة القصيدة إلى قائلها، مما يمكنه من الحكم عليها على سبيل النقد من خارج النص، وكذا التأكد من أن النص قد وصله كما قيل، إذ أن أي بتر قد يخل بالقصيدة على المستوى الموضوعي، والفني على حد السواء.

وميزة السند عند العبدري أيضا أن الروايات المسندة أفضل بكثير من الروايات والأخبار غير المستندة، لان فيها ما يدل على أصلها، ويمكن التحكم في نقدها وفحصها بصورة أفضل من الأخبار الخالية من السند، ذلك أننا لم نجد في كامل الرحلة انه اثبت أخبار أو روايات غير مسندة، إلا في موضع واحد، في قوله : " وأفادني أبو علي المذكور حكاية عن أبي محمد الحريري لم يذكر لها سندا "[11].

وهكذا يبقى الهدف من السند تصحيح النصوص والأخبار، ومحاربة الوضع، والكذب فيها، كما يرتبط حرصه الشديد على الأسانيد بطبيعة المصادر الثقافية التي اعتمدها في رحلته، إذ كانت الرواية من أهمها، كما يرتبط بنقده التوثيقي بروابط متينة، لما لها من صلة بتوثيق المادة المروية من حيث صحة نقلها، وصدق حملتها ورواتها.

ولذلك عني العبدري بتحقيق الأسانيد والبحث فيها، وبذل غاية الجهد في تتبعها، وتقصيها، وقد كان السند العالي من أسباب رحلة العبدري [12].

وقد استقصى العبدري كل أشكال السند المتصل. من خلال تتبعه لصحة الروايات وصدقها ، فتحصل من هذه الدراسة عدة مسائل تتصل بقضية السند.

ونقصد بالسند المتصل هنا هو اتصال حلقات الإسناد، بان يكون كل راو من رواة النص الشعري أو الخبر قد أداه كما سمعه ممن فوقه حتى يبلغوا قائله.

ولأجل ذلك كان العبدري حريصا على أن يكون الإسناد متصلا يصل راويه بقائله، من ذلك قوله : " أنشدكم الفقيه أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن الحاج البلفيقي قال أنشدني أبو عبد الله بن فرحون السلمي قال أنشدني أبو عمران لنفسه"[13]. وقوله أيضا: " أنشدنا الشيخ الأجل العدل الفاضل عز الدين أبو القاسم عبد الله بن الحسن بن عبد الله بن رواحة الأنصاري الحموي قال أنشدتني الشيخة الأديبة أم علي تقية بنت الإمام أبي الفرج غيث ابن علي بن عبد السلام الارمنازي الصوري لنفسها ...."[14].

ومن أساليبه النقدية في تحقيق السند وتوثيقه هو اعتماده على السند الذي فيه: " حدثني فلان عن فلان " والذي يصطلح عليه علماء الحديث بالمعنعن[15]. من ذلك قوله : " قرأت عليه بعض كتاب فتح الوصيد في شرح القصيد للشيخ الإمام علي الدين أبي الحسن بن عبد الصمد السخاوي وجميع القصيد المشروح وحدثني بهما جميعا عن السخاوي المذكور سماعا عن ناظمه أبي القاسم "[16].

والسند المعنعن عند العبدري صحيح الرواية، سليم التوثيق خاصة إذا كان قد ثبت عنده لقاء الراوي لمن روى عنه بالعنعنة، ذلك أننا لا نعدم في كثير من أسانيده: " عن فلان سماعا " كما في النص السابق.

على أن العبدري يفضل الإسناد الذي قل عدد رجاله، مع اتصاله. وذلك واضح من خلال إيراده لذلك دون مقارنة أو تحقيق[17]. ولعل لهذا التفضيل ما يبرره، حيث أن الإسناد الذي كثر عدد رجاله لا يسلم من الخلل، لان كل رجل من

رجال السند يحتمل أن يقع الخلل من جهته سهوا أو عمدا، ففي قلتهم قلة جهات الخلل، وفي كثرهم كثرة جهات الخطل.

2- نقد الرواة:

معرفة الرواة لها أهمية بالغة في النقد التوثيقي، لان الأخبار والنصوص الأدبية تصلنا عن طريقهم، فهم الركيزة الأولى في معرفة صحة الأخبار وصحة نسبة النصوص لأصحابها، لذلك اهتم العبدري بالرواة اهتماما كبيرا، تجلى ذلك في انه حدد أشخاصهم تحديدا دقيقا، ابرز فيه هواياتهم كاملة، كي يتميز كل واحد عن غيره، فيبحث بعد ذلك عن حالهم ويحكم عليهم، ويترلهم منازلهم المناسبة، لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، ذلك أن الراوي ربما يشابه راو آخر معاصر له أو غير معاصر له في اسمه أو كنيته أو ربما يعرف الراوي بكنيته فيحتاج إلى الكشف عن اسمه، أو يحتاج إلى إزالة النقاب عن نسبه وقبيلته كي تتبين هوية شخصه، أو غير ذلك.

كانت دراسة أشخاص الرواة عند العبدري وتمييزهم من ناحيتين: الناحية الزمنية التاريخية، ومن ناحية الاسم وما يتصل به من الكنية أو النسب أو اللقب أو غيره.

درس العبدري أشخاص الرواة وحددهم من ناحية الزمن والتاريخ، بحيث لا تلتبس أشخاص بعضهم مع بعض، فتحصل من هذه الدراسة أنواع من معارف النقد التوثيقي وأساليبه، ولا يتسنى لنا معرفة أشخاص الرواة من الناحية التاريخية إلا بدراسة هذه المقاييس.

ومن أهم هذه المقاييس ما يلي :

معرفة تاريخ مواليد الرواة، ومقادير أعمارهم وأوقات طلبهم وسماعهم من الشيوخ، وارتحالهم لبعض البلدان، ونحو ذلك، فهو فن مهم جليل، لان بمعرفة ذلك يعرف من أدرك من الرواة ممن لم يدركهم من الوضاعين والمنتحلين، فيعرف اتصال أسانيد الرواية وانقطاعها، أي بمعرفة تاريخ مواليد الرواة ووفياتهم يحصل الأمن من دعوى المدعي لقاء بعضهم وهو لم يلقاهم و لم يأخذ عنهم.

ولذلك كان العبدري حريص على ذلك، جاد في طلبه فهو حين يعرض للرواية المسند أبي عبد الله الكناني الشاطبي يذكر تاريخ ميلاده : " و سألته عن مولده فاخبرني انه كان في التاسع و العشرين من ذي القعدة عام أربعة عشر و ستمائة "[18].

ولعل لهذا التحديد الدقيق لتاريخ ميلاد الرواة أهمية نقدية بالغة، فهو يفيد معرفة ما إذا كان الراوي قد أدرك من روى عنهم.

ويقول العبدري في صدر ترجمته للمؤرخ الراوية أبي زيد الدباغ : "... وسألته عن مولده فقال لي سنة خمس وستمائة..."[19].

أما ذكر تاريخ الوفاة، فقد أشار العبدري لها متى علمها ممن يثق بروايتهم، فهو يشير في ترجمة الشقراطسي إلى وفاته فيقول "... وانه والى البحث عن وفاة الشقراطي حتى اخبره من وثق به أنها كانت يوم الثلاثاء لثمان خلون من ربيع الأول سنة ستة وستين وأربعمائة"[20].

والحاصل أن العبدري أبدى اهتماما كبيرا بتاريخ الرواة فكان لا يتوان عن إيراد تواريخ ميلادهم ووفاتهم من خلال ترجمته لهم. ولمن ترجم لهم من الأعلام الذين لقيهم في رحلته أو روى عنهم أخبارها ونصوصها. ومثال ذلك قوله: "... وعندهم توفي عقب جمادى الأخيرة عام تسعين وخمسمائة "[21].

وقد أولى العبدري الرحلات عناية بالغة، فأشار إلى الرواة الذين قاموا برحلة علمية للتحصيل، كما نجد ذلك في ترجمته للرواية المحدث أبي جعفر احمد بن يوسف الفهري اللبلي، فقد أشار إلى انه " رحل قديما إلى المشرق فحج ولقي جماعة من الأئمة بالإسكندرية ومصر والشام والحجاز"[22].

لقد درس العبدري أشخاص الرواة من ناحية أسمائهم، وما يتصل بها من الكنى و الألقاب وغيرها. وميز كل واحد عن غيره، بحيث لا يلتبس اسم احدهم، أو كنيته، أو لقبه مع غيره مما عرف به.

من ذلك قوله عندما ترجم للرواية أبي علي ابن باديس : " وهكذا قيد لي اسم أبيه بخطه مخطوطا وقال لي انه اسمه و كنيته..."[23].

وعليه فإن معرفة كنية الرواية ممن اشتهر باسمه وله كنية، تجنب الالتباس، إذ لا يؤمن أن يأتي في بعض الروايات مكنيا فيظن انه آخر، وكذا معرفة اسم الرواية المشهور بكنيته وغير المشهور باسمه، ليكشف عن حاله، لئلا يظن الشخص الواحد اثنين، إذ ربما يذكر هذا الشخص مرة باسمه غير المشهور، ومرة بكنيته التي اشتهر بها، فيظنها من لا معرفة له بذلك شخصين وهو شخص واحد.

وقد اهتم العبدري بمعرفة الراوي الذي ذكر بأسماء مختلفة، أو نعوت متعددة من كنى وألقاب، من ذلك انه ذكر من عرف بلقبين مختلفين مثل ".. الفقيه الخطيب المحدث أبي القاسم عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن احمد النفطي، عرف بابن الإمام وبابن الصائغ"[24].

وذكر كذلك من عرف بكنيتين مختلفتين، فيقول عند ترجمته لشرف الدين الدمياطي: "... الشيخ الفقيه المحدث الراوية المسند المفتي الثقة الضابط، شرف الدين ذي الكنيتين أبي محمد و أبي احمد ..."[25].

ولا شك أن معرفة الألقاب والكنى المختلفة للراوية لها فوائد توثيقية جمة، ذلك أنها تجنب الظن أن تلك الأسماء، والنعوت لجماعة متفرقين، وهذا فن عويص صعب تمس الحاجة اليه.

كما تعرض العبدري من خلال توثيقه للرواية إلى ما يتلبس من أسماء الرواة، وهو ما تتفق في خط صورته، من الأسماء، والألقاب، أو الأنساب، وتختلف في التلفظ أو النطق صيغته، سواء كان مرجع الاختلاف في النقط أم الشكل. ومن أمثلة ذلك ذكره للقب الشيخ أبو محمد عبد الرحمن ابن عبد الله و هو ابن برطلة، فقال : " و أما ضبط هذا الاسم فقد قيدته على شيخنا أبي عبد الله : برطلة بتاء التانيث المنقلبة هاء في الوقف وبضم الباء والطاء "[26]. ومن ذلك أيضا في ذكر النسب قوله " الشيخ أبي محمد عبد الله بن عمر بن حمادي بفتح الحاء وتخفيف الميم واخره ياء قبلها دال مكسورة "[27].

ولا يخفي ما في هذا من فوائد توثيقية تكمن في منع وقوع الوهم في اسم الراوي، أو التباسه بغيره، وتجنب الخطأ وعدم الوقوع فيه، وقد صنفت كتب كثيرة في هذا الفن منها كتاب "الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف من الأسماء والكنى والأنساب، لابن ماكولا بن علي بن هبة الله المتوفى سنة 475ه و ذيله لأبي بكر بن نقطه"[28].

وبعد أن قام العبدري بدراسة أشخاص الرواة وميز كل واحد عن غيره، ذكر لهم أيضا صفات تحمل صاحبها على ملازمة التقوى، والورع، واجتناب الأدناس و ما يخل بخوارم المروءة عند الناس، حتى تحصل ثقة النفوس بصدقهم.

فقد وصف العبدري الرواية المسند أبي عبد الله الكناني الشاطبي بالورع والتقوى، وحسن الخلق فقال فيه : "... وهو شيخ على سنن أهل الدين، سالك سبيل المهتدين، مقبل على ما يعنيه مشتغل بعمر في طاعة الله يفنيه، دأبه الاقتصار على تجويد الكتاب، والتردد ما بين بيته والمحراب ... إلى خلق لو شاب ماء البحر صار فراتا، ودين ألزمه خشوعا واخباتا "[29]. ولعل

التقوى التي نسبها العبدري لأبي عبد الله الكناني الشاطبي هي ما جعلته يثق في روايته بوصف التقوى هيئة راسخة في النفس تحمل صاحبها على الاستقامة في السيرة والدين.

كما نفى العبدري عن رواته خوارم المروءة، وهي تلك القوادح التي تشين الشخص وتكون سببا في عدم اعتباره، والحط من قدره، واحتقاره في العرف الاجتماعي، ولعل العبدري يعد ذلك مقياسا لصحة الرواية، فهو يثبتها لرواته، من ذلك قوله في أبي عبد الله محمد بن عبد المعطي بن محمد النفري : "... ذا مروءة وأخلاق جميلة "[30].

ولعل ما أثبته العبدري من صفات لرواته، إذا اجتمعت حملت صاحبها على الصدق، وصرفته عن الكذب، لما توفر فيه من الدوافع الدينية، والاجتماعية، والنفسية، فالعبدري لم يذكر كل تلك الصفات حشوا واستطرادا، وإنما لتبيان أن من روى عنهم أهل ثقة وصدق.

و لم يتوقف العبدري عند هذا الحد بل ذهب إلى ابعد من ذلك، حيث نسب الحفظ والتثبيت لرواته، مما يجعلنا نعتقد أن هذه الصفات كانت لها أهمية كبيرة عنده في قبول الرواية، من ذلك قوله في ابن المنير : " وما رأيت أحدا اجتمع له حسن الحفظ وجوده اللفظ وذكاء الفهم ما اجتمع له ..."[31]، وقوله أيضا: " ... على علو سنه ولا تغير شيء من ذهنه "[32].

ولا شك أن الصفات التي ذكرها العبدري لرواة رحلته كانت عنده مقاييس تؤهل الراوية للأخذ عنه، حيث انه نفاها عن الشيخ أبي محمد عبد الله ابن عبد السيد "... لأنه ضيق الخلق، لين النظر وفي لسانه حبسة لا يكاد يفهم معها "[33]، مما جعله غير مؤهلا عند العبدري للرواية، فيقول عنه : " و أظنه لا رواية له "[34]. فعلى الراوية أن يكون إلى جانب تقواه وحسن خلقه، ضابطا لكلامه متقنا له، حافظا متثبتا في روايته.

2- نقد المرويات :

وبعد نقد السند ورجاله، ينتقل العبدري إلى نقد المرويات نفسها فيؤكد صحتها ويسعى إلى التحقق من ذلك، أو يصحح ما أثبته منها، وله في ذلك أساليب مختلفة متباينة.

ومن هذه الأساليب التوثيقية التي يعتمدها العبدري في توثيق مروياته، ونقدها نجد إيراد الخبر أو النص من طرق عدة من ذلك قوله : " و قرأت عليه أنشدكم أبو إسحاق البلفيقي عن غير واحد من شيوخه عن أبي محمد الحجري عن ...."[35].

وهذا نوع من الروايات هو الصحيح في نظر العبدري، لاختلاف طرقه، وتعدد مصادره، مع اتفاقها جميعا على صحته دون أن يجد في مضمونه مطعنا يخل بسلامته.

وقد يكلف العبدري نفسه عناء التأكد من صحة الرواية، خاصة إذا كانت الرواية منفردة من ذلك قوله : " قلت هكذا حدثني أبو عبد الله بهذه الحكاية وقد وقعت في كتابه، منشورة لم يذكر فيه إلا ما أثبته و بالله التوفيق "[36]، و في ذلك كله ما يؤكد صحة ما ذهب اليه.

وكثيرا ما يذهب العبدري إلى حد المقابلة والمقارنة بين الروايات قصد تأكيد صحتها وتوثيقها، من ذلك قوله : " و ذكره أبو علي البغدادي وانشد له :

أقاسي البلا لا أستريح إلى غد فيأتي غد إلا بكيت على أمس

سابكي بدمع أو دم اشتفي به فهل لي عذر إن بكيت على نفسي.

وقال البكري : انشده ابن الجراح و غيره لداود بن جهوة لم يتخلفوا في ذلك "[37].

ولعل ما يبين حرص العبدري الشديد على صحة مروياته، هو تبراه من العهدة في رواية بعض الأخبار، إما لضعف سندها، أو عدم اطمئنانه لروايتها، من ذلك قوله : " و لم اخذ هذه الحكاية ممن اطمئن إليه، وأحيل بالعهدة فيها عليه "[38].

و لم يقف العبدري عند هذا الحد من تتبع الرواية في نقده للأسانيد ، ورواته، وكذا نقده للروايات، بل تتعداه لتوثيق أخبار رحلته، ونصوصها من المدونات، والمصنفات للتأكد من صحة نسبة الأشعار إلى أصحابها، والتحقق من سلامة الأخبار والمرويات، ومن ذلك أمثلة كثيرة جدا في رحلته، منها قوله : " هكذا حدثني أبو عبد الله بهذه الحكاية وقد وقعت في كتابه منشورة لم يذكر فيها إلا ما أثبته "[39].

ولا يجد العبدري في نفسه من حرج في تتبع المرويات والبحث في أصولها، مما يكلفه ذلك من عناء شديد، ومشقة فائقة، كقوله في توثيق أبيات من الشعر، اختلف الرواة في نسبتها : " وأنشدني من حفظه قصيدة لم أقف عليها تامة، وانشد منها أبو علي في نوادره أبياتا، و لم ينسبها وهي قوله :

(يلقي السيوف بوجهه و بنحره) الأربعة أبيات وكذلك انشدها أبو عبيد البكري في كتابه التدريب غير منسوبة إلا لإنشاد العتبي، ووصلها بأبيات ونسبها في كتابه اللآلي لابن المولى، وهو محمد بن عبد الله بن مسلم مولى بني عمرو بن عوف قال وهو من شعراء الدولتين "[40]، فلم يكتف بالرجوع إلى كتاب التدريب للبكري وحده، بل مضى يبحث في مصنفات البكري، حتى وقع على ذلك في كتابه "الآلي "، و لم يقنع بذلك فحسب وإنما راح يبحث في أخبار هذا الشاعر، عما يمكن أن يؤكد صحة نسبة الشعر إليه، معبرا بذلك عن خلق علمي أصيل، قلما نجده لدى ناقد آخر غيره.

ويخضع الخط والكتابة عند العبدري إلى الفحص الدقيق للتأكد من صحة نسبة المرويات إلى أصحابها، أو لمعرفة أصحابها من خلال معرفة الخطوط ومعاينتها، كقوله:"... فقراه عليه وهو إذ ذاك كبير، وفارقه وهو عنده مجهول، وما عرف من هو حتى عرفته به حين رأيت خطه "[41].

وإذا اعتمد على كتاب ما، واثبت منه مادة أو رواية فانه يحرص أن يكون بخط صاحبه ما أمكنه كقوله : " وقد وقفت على بطاقة بخطه قيد فيها لصاحبنا أبي عبد الله جملة ممن لقيهم من العلماء والصلحاء ونصها ..."[42]، أو قوله : " و قد قرأتها (القصيدة) بتخميسها على صاحبنا ابي عبد الله محمد، حدثني بها عن مخمسها المذكور قراءة عن الأديب... و نقلت هذا السند من خط أبي عبد الله المصري مخمسها "[43]، أو قوله " وأنشدني أيضا قال أنشدني أبو عمرو بن الأشقر، عن أبي الحسن المقدسي، عن الإمام أبي الطاهر احمد بن محمد بن احمد السلفي، عن الخطيب أبي زكريا يحي بن علي التبريزي، عن أبي الحسن علي بن محمد الفالي لنفسه وهو بالفاء أخت القاف واللام المشددة كذا وجدته بخط ابن الأشقر ومنه نقلت السند والشعر ..."[44]. و لعل هذا ما ذهب ببعض النقاد إلى التساؤل حين أشاروا إلى طبيعة مصادره الثقافية[45]، هل اعتمد في وصفه على المصادر المكتوبة دون الملاحظة المباشرة؟.

وقد يطول الحديث إذا حاولنا تتبع العبدري في نقده للروايات ويتشعب، إذ أن فروعه كثيرة ومختلفة، وشواهده غزيرة ومتنوعة، وحسبنا من ذلك ما أتينا على ذكره منها، وما أمكن لنا استخلاصه من خلالها من خصائص هذا النقد لديه، وقد بينا ما أفاده وحصله من قضايا نقده للروايات من حيث سندها، ورواتها، والروايات موضحين غاياته من ذلك ومراميه.

قائمة المصادر والمراجع:

1- الرحلة المغربية هو العنوان الذي عرفت به رحلة العبدري، أما العنوان الذي وضعه العبدري لرحلته في الأصل هو " ما سما إليه الناظر المطرق في حين الرحلة إلى بلاد المشرق "، ينظر: أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري، رحلة العبدري- المسماة الرحلة المغربية -، تحقيق محمد الفاسي، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، الرباط، (د ط)، 1968، ص1.

2- هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد العبدري، صاحب الرحلة المسماة " الرحلة المغربية ".

1- سعد الدين السيد صالح، البحث العلمي ومناهجه النظرية، ، مكتبة الصحابة، ط2،جدة، 1993م، ص27.

4- سعيد إسماعيل صيني، قواعد أساسية في البحث العلمي، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، 1994م، ص64-65.
5- عبد السلام هارون، تحقيق النصوص ونشرها، مكتبة الخانجي، ط4، القاهرة، 1977م، ص53- 54.
6- محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1984م، ص19.
7- أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري، رحلة العبدري، ص71.
8- محمود الطحان، تيسير مصطلح الحديث، مكتبة المعارض، ط9، الرياض، 1417ه، ص157.
9- أحمد جاسم النجدي، منهج البحث الأدبي عند العرب، طبعة بغداد، 1978، ص178.
10- الرحلة، ص44.
11- الرحلة، ص44.
12- بوشيبة بوبكر، قضايا النقد الأدبي في رحلة العبدري، رسالة ماجستير مخطوطة، جامعة السانيا وهران، ص28.
13- الرحلة، ص44.
14- الرحلة، ص136.
15- الخطيب البغدادي، أحمد بن علي، الكفاية في علم الرواية، دار الكتب الحديثة، ط1، (د ت)، ص 291.
16- الرحلة، ص114.
17- ينظر: الرحلة، ص 119-136-154.
18- الرحلة، ص66.
19- الرحلة، ص67.
20- الرحلة، ص43.
21- الرحلة، ص44.
22- الرحلة، ص 43.
23- الرحلة، ص 43.
24- الرحلة، ص44.
25- الرحلة، ص 132.
26- الرحلة، ص31.
27- الرحلة، ص 44.
28- جلال الدين السيوطي، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1966.
29- الرحلة، ص27.
30- الرحلة، ص44.
31- الرحلة، ص100.
32- الرحلة، ص66.
33- الرحلة، ص77.
34- الرحلة، ص77.
35- الرحلة، ص252.
36- الرحلة، ص96.
37- الرحلة ، ص253.
38- الرحلة، ص25.
39- الرحلة، ص96.
40- الرحلة ، ص20.
41- الرحلة، ص33.
42- الرحلة، ص18.
43- الرحلة، ص52.
44- الرحلة، ص70.
45- حسن الشهدي، أدب الرحلة في المغرب في العصر المريني، دار توبقال، طبعة مزيدة ومنقحة، 1996، ص190.

أغاني الألعاب الشعبية للأطفال
- دراسة في الموروث الثقافي الشعبي لمنطقة الطارف-

د. ماسي سفيان
جامعة الطارف

الملخص
لكل مجتمع محلي موروث ثقافي مادي وغير المادي، والذي يعكس بطريقة أو بأخرى طبيعة هذا المجتمع وطرق حياته، وتعتبر أغاني الألعاب الشعبية للأطفال جزء لا يتجزأ من الموروث الثقافي والشعبي لمنطقة الطارف، وهذه الألعاب الشعبية قد ينظر إليها البعض على أنها مجرد وسيلة للهو والتسلية وقضاء وقت الفراغ لجأت إليها فئة الأطفال في الماضي للترويح عن النفس في ظل قلة الإمكانات ووسائل الترفيه، إلا أن الحقيقة أن هذه الأغاني تحمل معاني وقيم عميقة وأهداف مجتمعية، مما دفعنا في إلى البحث باستخدام المنهج السوسيوانثروبولوجي في طبيعة هذه الأغاني شائعة الحضور في الموروث الثقافي الشعبي للمنطقة، وعن أهدافها، أهميتها، أبعادها، ودلالاتها المختلفة والمتداخلة، سعيا منا إلى التذكير بهذا الموروث الشعبي المهدد بالانقراض.

المقدمة
نظرا للأهميّة البالغة للتّراث الشّعبي بشقّيه المادّي واللاّمادي في الحفاظ على هوية المجتمع الجزائري، ارتأينا تسليط الضّوء على إحدى مظاهره، والتي تجمع بين شقيه أغاني الألعاب الشعبية للأطفال، حيث أن هذا الموروث الثقافي الذي يعتبر جزء لا يتجزأ من الشخصية الوطنية التي تولد شعورا بالانتماء والاستمرارية، فالأمر يتعلق بثقافة وممارسة شعبية أكثر منه وسيلة للترفيه والتسلية.

أولا. مشكلة الدراسة
وتدل الوقائع المشاهدة أن هناك كثيراً من أغاني الألعاب الشعبية للأطفال والأناشيد والأهازيج والألعاب الشعبية قد اختفت وماتت في منطقة الطارف، كغيرها من مناطق الجزائر في ظل الثورة التكنولوجية والألعاب الالكترونية والذكية، وظروف الحياة المعاصرة، ولكن هناك منها ما زال باقياً، وما زلنا نلحظ في بعض الأحيان، مشاهد لأطفال وهم ينشدون، يغنون، ويلعبون، كما كنا نشاهدهم منذ زمن، في الوقت الذي نجد فيه بعض الأطفال يقلدون أغاني وأناشيد أجنبية ولاسيما الغربية منها وفي هذا تعود وظيفة ومسؤولية الأسر، العائلة، الأحياء والمدارس في الاعتراف بالغناء والموسيقى والألعاب الشعبية الخاصة بالأطفال، والسعي لإيصالها إلى الجيل الجديد، مما إلى التواصل بين الأجيال، ويمنع زعزعة الثقة بالموروث الثقافي، بناء على ما سبق يمكن بلورة إشكالية الدراسة في التساؤلات التالية:

(1) ما هي أغاني الألعاب الشعبية للأطفال شائعة الاستخدام في منطقة الطارف؟
(2) ما هي مضامين أغاني الألعاب الشعبية للأطفال في الطارف؟
(3) هل أغاني الألعاب الشعبية للأطفال تساهم في إثراء الموروث الثقافي الشعبي للمنطقة ؟
(4) ما المخاطر التي تواجه تراث أغاني الألعاب الشعبية للأطفال في المجتمع؟

1) أهداف الدراسة

تسعى الدراسة الحالية إلى تحقيق الأهداف التالية:

(1) مسح نوعي لموروث أغاني الألعاب الشعبية للأطفال، وخصوصاً الذائعة الشهرة والأكثر استخداماً في الوقت الحاضر، في المجتمع الطارفي للوقوف على أبعادها الاجتماعية.

(2) توضيح العلاقة بين أغاني الألعاب الشعبية للأطفال ودورها السوسيوثقافي.

(3) تحديد المضامين الثقافية لأغاني الألعاب الشعبية للأطفال في منطقة الطارف.

(4) تبيان دور وأهمية أغاني الألعاب الشعبية للأطفال الطارف، كي تكون مجالاً ثقافيا، تربويا، تعليميا واجتماعيا.

2) حدود الدراسة

تركز الدراسة الحالية على رصد أبرز أغاني ألعاب الأطفال الشعبية الأكثر شهرة واستخداماً في منطقة الطارف، تحليلها وتفسير أبعاد مؤثراتها على مختلف الأنماط الثقافية للطفل والمجتمع من خلال مسح الكتب، الوثائق والسجلات التي تناولت أغاني ألعاب الأطفال الشعبية بصورة أو بأخرى في المجتمع الطارفي على وجه الخصوص، أي دون النظر لأوجه الاتفاق أو الاختلاف بينها وبين ما هو سائد في مناطق الجزائر.

3) منهج الدراسة

فرض موضوع الدراسة ومشكلتها وأهدافها استخدام المنهج الوصفي بنوعية الوثائقي، والأسلوب التحليلي، بينما تولى المنهج الوصفي، وصف وتحليل شامل لمحتوى أغاني ألعاب الأطفال الشعبية، وتحديد العلاقات التي توجد بين الحقائق والوقائع المتضمنة في السلوك الاجتماعي، بهدف الوصول إلى استنتاجات توضح العلاقة بين تلك الأغاني والموروث الثقافي الشعبي لمنطقة الطارف واستخلاص مضامينها ورسالتها الثقافية، كما أن المنهج الوثائقي، "الجمع المتأني والدقيق للسجلات والوثائق المتوفرة ذات العلاقة بموضوع مشكلة البحث.

ثانيا. مفاهيم الدراسة

1) الطفولة

يمر الإنسان في رحلة وجوده في هذا الكون بمراحل متعددة تبدأ بالطفولة وتنتهي بالشيخوخة ولكل مرحلة خصائصها وصفاتها والطفولة هي الصبا كما ورد في لسان العرب، حيث يقال : رأيته في صباه أي في صغره، والطفل هو الصغير من كل شيء والصبي يدعى طفلا حين يسقط من بطن أمه إلى أن يحتلم [1] والطفل مفردا جمعه أطفال وهو الولد حتى البلوغ ويستوي فيه الذكر والأنثى.

ودراسة مرحلة الطفولة ليست مقتصرة على فرع واحد من العلوم الإنسانية، فقد اهتمت كثير من العلوم والتخصصات بمرحلة الطفولة، وذلك لأهميتها البالغة في التأثير على الأسرة والمجتمع، والتأثير العام على النواحي الاجتماعية والثقافية فليس غريبا أن يهتم علماء ومختصوا التراث الشعبي بدراسة الطفل " خاصة ما شهده المجتمع العربي في السنوات الأخيرة، وما غمره من إنتاج الحضارة الغربية الحديثة، عكست ذلك بوضوح في تغير الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه الطفل العربي تغيرا ملحوظا"[2] وخوفا مما سيكون للعولمة من دور في طمس التراث الثقافي الأصيل ومحاولة تشويهية " ولكي نواجه ذلك بفعالية وجدوى فلا بد أن نبدأ على مستوى الطفل العربي بتنشئته تنشئة أصيلة تنمي فيه الاعتداد بالنفس والمقدرة على الإبداع والإشعاع حتى يستطيع أن يقف من ذلك الغزو الثقافي المكثف بعد اجتيازه مرحلة الطفولة موقف المغربل الواعي لا موقف المستهلك السلبي لما يرد عليه باستمرار من الخارج".[3]

2) الأغنية الشعبية

ويعد الغناء بمفهومه البسيط أهم لغة وجدانية عرفها الإنسان واختصت بها الجماعات البشرية حضارية كانت أم بدائية ما ترتب عليه تعدد لهجاته وتنوعها حسب الجماعة والبيئة الاجتماعية والثقافة التي تعيشها.

وهو العنصر الذي يستغل في المحافل بإمتاع السمع يحظى بالمرتبة الثانية بعد الرقص مباشرة في عراقة القدم ولكنه لا يقل تأثيرا عنه .و أداته في التعبير هي تلك التموجات الصوتية التي تستطيع وحدها أن توحي إلى النفس فستحبب له حالة لكل ما يختلج في معترك العواطف وتلاطم الأهواء من ألوان الشعور.[4]

أما الغناء الشعبي فهو من أهم الأساليب المختلفة والمتعددة التي تتلاءم وألوان التعبير الفني ومتطلباته وحاجة الإنسان الشعبي للتعبير عن نفسه، أفكاره، أماله، معتقداته وهو أحد الفروع الرئيسية من مجموعة المأثورات الشعبية تحظى باهتمام خاص لما لها من دور في ربط النص الشعري واللحن الموسيقي وإن كان كلاهما ينبثق من المجتمع نفسه في اغلب الأحيان .

وقد حاول ثلة من الدارسين تعريف الأغنية الشعبية بمفهومات متعددة أهمها: تعريف فاروق أحمد مصطفى: "هي تلك المقطوعة الشعرية التي تغنى بمصاحبة الموسيقى في أغلب الأحيان، والتي توجد في المجتمعات فتتناقل آدابها عن طريق الرواية الشفوية كما يتم حفظها من غير حاجة إلى تدوين أو طباعة، فضلا على اعتماد موسيقاها على السماع" [5]، وبتحليل مضمون هذا التعريف نلحظ أن الأغنية الشعبية هي ذلك القالب الموسيقي ذو الشكل المعين ،يعتمد على اتحاد الكلمة بالنغم ضمن وزن شعري للكلام ومقام موسيقي خاص، تحفظ عن طريق الذاكرة الجماعية دون حاجة إلى تدوين.

سميت كذلك لارتباطها بالشعب أو بالجماهير الشعبية التي عبرت عن ألامها وآمالها، فقد التصقت الأغاني الشعبية بمناحي حياة الشعب ولازمت الإنسان الشعبي، وتغنت بقيمه الروحية والأخلاقية، إذ لكل شعب أغنية أو أغاني خاصة به ونابعة من أوساطه تعكس هويته وتعبر عن تقاليده.[6]

والأغنية الشعبية كما عرفها فوزي العنتيل هي قصيدة غنائية ملحنة مجهولة النشأة ظهرت بين العامة من الناس في أزمنة ماضية وبقيت متداولة أزمانا طويلة. [7]

ويحدد أحمد مرسي الفترة التي دخل فيها مصطلح الأغنية الشعبية إلى اللغة العربية كترجمة للمصطلحين الألماني (Wolk Lied) والإنجليزي (folk song) بعدما استقر مفهومها لدى الدارسين الأوروبيين وذلك منذ أن وضع الأديب الألماني يوهان جوتفريد هردر (Johann Gottfried Herder) (1744–1803) كتابه "أصوات الشعوب وأغانيها" عام 1779[8]

ومن خلال كل هذه التعريفات يمكننا أن نوجز تعريفا للأغنية الشعبية في أنها الأغنية التي يرددها الشعب ويستوعبها ويتناقلها، تصدر عن وجدانه لتعبر عن رغباته وأفكاره وليس شرطا أن يكون الشعب هو مؤلفها بل قد يتبناها من مؤلفها الأصلي لتصبح ملكا له.

3) أغاني ألعاب الأطفال الشعبية

تعرف المجتمعات الشعبية على اختلافها ألعابا خاصة ولا يلعبها إلا الأطفال في سن حياتهم الأولى لما لهم من تقليد خاص وعادات ملتزمون بها أثناء لعبهم.[9]

والأغاني التي يغنيها الأطفال تختلف عن الأغاني التي تغنى لهم كأغاني الترنيم وأغاني الترقيص وأغاني مناسبات الأطفال، حيث أن تلك الأغاني تلقى على مسامع الطفل أثناء تنويمه أو مداعبته وترقيصه، وتعد من أصدق الأساليب الأدبية في ترجمة العلاقات الاجتماعية، وتوضح مكانة الطفل في الأسرة العربية.[10]

أما أغاني ألعاب الأطفال فهي التي يقوم الأطفال بترديدها، وتتميز ببساطة الألفاظ في تركيبها ولغتها ومعناها القريب إلى فهم الصغار نظرا لقابليتهم اللغوية المحددة، كما أن نظرتهم إلى ما يحيط حولهم تختلف عن نظرة الكبار، فهي تحكي قصة أو خرافة بشكل عفوي وتتلاءم مع الحركات التي يقوم بها الأطفال خلال لعبهم من جري وقفز واستخفاء " كما تبرز فيه موهبة التأليف والغناء وذكاء تعامل الحس الطفولي مع قضايا الواقع".[11]

وتعدد ألعاب الأطفال في الموروث الثقافي الشعبي العربي وكذلك الأغاني المصاحبة لها وتتنوع بأشكال مختلفة وهي ذات أهمية كبيرة حيث ترتبط بمرحلة هامة من مراحل حياتهم، كما تعد لونا من ألوان نشاطهم قبل أن تكون مجرد العاب وأغاني، بحيث يشترك في اللعب والغناء مجموعة من الأطفال يخضعون لقواعد معينة تنظم ألعابهم فتبدو هنا أهمية هذا النوع من الأغاني في كونها تقوم بدور أساسي في القواعد التي تنظم حركة اللاعبين من الأطفال.[12]

وكما هو معلوم فإن هذه الأغاني قد نشأت في الأساس من أجل أن تلاءم حركات الأطفال من جري وقفز ويخضع إيقاعها لإيقاع الحركة التي يؤديها الأطفال أثناء لعبهم وإن كانت لا تتقيد بهدف معين وإنما بتنظيم الحركات فقط، غير أن ذلك لا يعني عدم وجود معنى محدد لتلك الحركة أو الأغنية الشعبية، فقد ترتبط أغاني الأطفال بأساطير موغلة ذات دلالات عقائدية حافظ الزمن على بقاياها من خلال كلمة أو عبارة في بنية الأغنية، تعالج مشكلة معينة أو تساند قضية محورية .

لذلك من الضروري أن تكون هناك وقفة تقييميه لما هو في مخزوننا الشعبي من أغاني والعاب وأشعار موجهة للأطفال، وأن يتم اختيار ما هو صالح منها وما يتلاءم مع نمو الطفل اللغوي من حيث المضمون، وأن يتم أيضا تحديد النواقص وتشجيع المختصين بدراسة التراث وتوجيههم من أجل تدوين مجموعة متنوعة من الأغاني تدور حول خبرات الطفل اليومية ومستوحاة منها.

ولتشخيص واقع أغاني الألعاب الشعبية في منطقة الطارف لابد من تسليط الضوء على وصف اللعبة ومغزى الأغنية وارتباطهما، ومدى أهميتها في بناء ثقافة الطفل، وأيضا تحديد الدلالات الرمزية لأغاني هذه الألعاب وما تحمله من معان وقيم في حياة الطفل.

ثانيا. أغاني الألعاب الشعبية للأطفال

1) أغاني الألعاب الشعبية للأطفال في الموروث الثقافي الشعبي

تعتبر أغاني وأناشيد الأطفال من الإبداعات المنظومة التي يتعامل معها الطفل حتى من قبل أن يدرك معانيها أو يحسن أدائها، وهي شكل من أشكال أدب الأطفال ووسيلة للسمو بحسهم الفني وذوقهم الأدبي من خلال الكلمة البسيطة المفهومة واللحن القادر على جذب الطفل وإمتاعه فيتماشى مع ميوله ورغباته وينمي قيمه واتجاهاته ولغته وفكره وخياله[13]

إذ تعد الأغنية التي يرددها الأطفال بشكل تلقائي وعفوي، وما ابتدعه الكبار وغنوه لأطفالهم وبخاصة أغاني المهد تراثا شعبيا من أغاني الأطفال بل هي جزء لا يتجزأ من هذا التراث بما تحمله من تواصل في المعنى والمضمون والشكل الموسيقي مع شيء مفن التبسيط بما يتلاءم وقدرات الأطفال الفنية والفكرية.

فهي قطع شعرية سهلة في طريقة نظمها وفي مضامينها تنظم على وزن مخصوص وتصلح لتؤدى جماعيا وفرديا [14]

وغالبا ما تأتي هذه الأغاني لتواكب لعبة معينة ارتبطت بها وانتشرت بين الأجيال المتعاقبة من الأطفال نسبيا، وقد تصدر ألحانها في حيز ضيق يتراوح بين درجة لحنية واحدة تؤدى بشكل تلقائي ضمن قفزات متغيرة .

وتعرض أغاني الأطفال في شكل موضوع أو فكرة تمثل صورة من صور الإبداع الفني التعبيري تصاغ بأسلوب لغوي به دليل على أن الموسيقى أقوى عناصر التأثير في النشء فتدرك الإحساس وتساعد على مخاطبة العواطف .

فقد كانت ولا تزال أغاني الأطفال المصاحبة للألعاب الشعبية لونا من ألوان الثقافة الشعبية التي تصور جوانب الحياة وتعبر عن العواطف الإنسانية وتصف الطبيعة ويشرح الحياة الاجتماعية، وترسم الطريقة إلى المثل العليا في أسلوب أخاذ يصل في تأثيره إلى أعماق النفوس فيوحي إليها بالعديد من الانفعالات التي تساعد على تكوين اتجاهات واضحة وقيم متعددة كما تنقل الممارسات، الأفكار، القيم والأساليب، وذلك بتقديم الخبرات البشرية في صورة نقية مهذبة من خلال اللغة الشعبية(العامية) .

2) الخصائص العامة لأغاني الألعاب الشعبية للأطفال

لأغاني الألعاب الشعبية للأطفال خصائص علينا مراعاتها حتى نحقق ما نصبوا إليه في هذه الدراسة، حيث تمتاز بطابع من البساطة والخفة والوضوح في اللحن والكلمات والمعاني فهي عبارة عن ترداد ألفاظ تسير على نغمة هادئة تصاحبها حركات بعض أطراف الجسم مع هزات خفيفة تقوم بما يتناسب مع النغمة الموجودة في الأغنية التي تردد، كما تعتمد في الغالب على التكرار في الصوت والمزاوجة بين النغم الرتيب والحركات البسيطة ما يخلق اهتزاز الجسم بطريقة توفر له الهدوء الانفعالي والنفساني.[15]

وهكذا تزاوج أغاني الألعاب الشعبية للأطفال بين النظم في صياغتها اللفظية واللحن في الموسيقى المصاحبة لأدائها وفق مفردات قريبة من محصلتهم اللغوية معبرة في ذلك عن بعض ميولهم الفطري كاللعب والتقليد.

كما يغلب عليها الجوانب الثقافية، التعليمية، التربوية والترفيهية لما فيها من إمتاع وترفيه للطفل يوظف في المساعدة أثناء العملية التربوية، "فضلا عما تعالجه الأغنية الخاصة بالطفل من مجالات ومفاهيم رياضية وسلوكيات علمية، اجتماعية، وطنية، دينية، وشتى جوانب المعرفة التي تهم الطفل وترتبط بخبراته".[16]

وبالإضافة إلى الجوانب السابقة الذكر لهذا النوع من الأغاني إلا أن معظمها يصاغ في قالب قصصي وهي بذلك تشكل أبسط واقصر القصص لما تكتسبه من صبغة البساطة في الشخصيات والموقف والأفكار، كما تصاغ في حبكة سهلة خالية من التعقيد يمكن للطفل إدراكها بسهولة، وتحفل الأغنية الشعبية الخاصة بالطفل بعنصر التشويق مما يجعلها مجالا ميسرا للحفظ والتذكر ولتكون أساسا متينا في تطوير شعر الأطفال فيما بعد [17]

نخلص إلى أن الأغاني الخاصة بالألعاب الشعبية للأطفال بشتى أنواعها لا تخلو من بساطة أفكارها وسهولة معانيها وتلقائية أدائها ومناسبتها للإيقاع الموسيقي، ضمن قالب يراعي سن الطفل والمستوى الاجتماعي واللغوي والوجداني عند الأطفال ومدى الإدراك العقلي لكل سن وكذا انسجامهم مع البيئة والواقع الاجتماعي في جو مشجع للتعلم والتقليد(الايجابي).

3)أهمية أغاني الألعاب الشعبية للأطفال في الثقافة الشعبية

لقد شكلت أغاني الألعاب الشعبية للطفل رابطا أساسيا ولبنة مهمة من لبنات البناء الذي يتشكل منه المجتمع الشعبي الواحد، فالأغنية بما تحمله من معان وقيم ورموز بالنسبة للأطفال تعد خليطا مما تحمله الأغاني الشعبية على وجه الخصوص وهي بذلك تنقل الدلالات والقيم ذاتها التي تحاكي حاجات المجتمع المحلي، ولهذا فإن الدلالات الرمزية في الأغاني وما تحمله من معان دينية وثقافية واجتماعية تعد محورا أساسيا في غناء الأطفال، وهذا سبب رئيسي لإبراز مكانة الأغنية ودورها الفعال في المراحل العمرية الأولى للفرد، وللثقافة الشعبية.

تعد ألحان الأغاني الشعبية المبتكرة على نمطها من أقرب الألحان إلى وجدان الطفل وارتباطها ببيئة وثقافة وتقاليد مجتمعة كفيل بإحيائها للمعاني الحسية التي تلبي حاجاته كما أن صياغة الكثير من الموضوعات المراد طرحها من خلال أغنية الطفل يجعله أكثر تقبلا واستيعابا لها كشرح ظاهرة معينة أو تعريفه حقا من حقوقه .

ولاسيما أن للموسيقى والغناء ميزة خاصة في قدرتها على تثمين الهدف المطروح في ذاكرة الطفل ضمن اللحن الذي أحبه وأصبح يردده بشكل عفوي وتلقائي فضلا عن أداء الأغنية بصوت إفرادي أو جماعي مع الدراية الكاملة لما هو مطلوب سيجعل منها عاملا مهما في تنميته ذوقا وفنيا وتقليدا [18]

فحين يوقع الطفل بعض الإيقاعات أو يردد بعض الأنغام أو الأغنيات فإنه يمارس لونا من ألوان التعلم بطريقة ترفيهية ممتعة وبسلوك لا شعوري تصبح الأغنية وسيلة لزرع مثل أو تقديم معلومة أو إثارة فكرة من الأفكار .

وتكمن الأهمية الكبرى للأغنية الشعبية في حياة الطفل في " تعبيرها الصريح عن متطلباته وحاجاته ورغباته، فهي انعكاس لحالته النفسية والوجدانية إذ تسير بالطفل في أجواء متعددة فتنمي قيمه واتجاهاته كما من شأنها تعليمه آلية تنغيم صوته واستخدامه فضلا عن تنمية المجال الفكري واللغوي والانفعالي عند الطفل". [19]

وبهذا الصدد تؤكد الدراسات في الثقافة الشعبية والانثروبولوجيا أن الأغنية الشعبية جسدت مرحلة الطفولة بكل تفاصيلها وبكل تداخلاتها ومكوناتها، ولذلك لا يمكن إغفال أهمية وجودها في حياة الطفل وقدرتها على تزويده بما يحتاجه علميا وثقافيا وتربويا .

ويختلف هذا النوع من الأغاني من مجتمع لآخر ومن منطقة لأخرى نظرا لاختلاف في الثقافة ومستوى التحضر، ولعل اللعب والغناء عند الأطفال من الدوافع الاستثنائية التي تجمع عملية الإبداع والخلق من جهة والتقليد من جهة أخرى، خاصة في ظل التطور الحاصل والمستمر عبر وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والذي ترتب عليه فقد ما كان سائدا لعقود خلت ومحو تلك الصورة التي يعطيها الأطفال في الحي الواحد عند اجتماعهم في أوقات الفراغ أو في المناسبات المختلفة. [20]

وفي هذا السياق أولى الدارسون اهتماما خاصا في العلاقة بين الأغاني الشعبية، اللعب والصحة الروحية للطفل، ومن ثم أصبحت معالجة بعض الأمراض النفسية والعقد المحيطة بالشخصية من القضايا الضرورية لفهم المواقف الاجتماعية والممارسات الشعبية ولا توجد طريقة أفضل مما يردده الطفل بذاته أثناء مرحه أو لعبه للكشف عما يختلج في ذاته في ضوء ما يسمى أغاني العاب الأطفال.

كما يمكن الاستفادة منها وتوظيفها بل وتضمينها في المناهج الدراسية للمرحلة الأساسية من الصف الأول إلى العاشر بشكل عام ومنهاج اللغة العربية لهذه المرحلة بشكل خاص، الأمر الذي من شأنه الارتقاء بالذائقة الأدبية والموسيقية للنشء، لكونها ترتبط ارتباط وثيقا بحاجات الطفل واهتماماته وهي اقرب إلى نفسه وإدراكه فضلا عن ما تقدمه هذه الدراسة من فرصة لمعلمي التربية الموسيقية باستخدام هذه الأغاني، لتعليم العزف على الآلات الموسيقية المختلفة وذلك لسهولة الجملة الموسيقية فيها والتي تعد سمة من سمات أغاني الأطفال الشعبية في الجزائر. [21]

ثالثا. البنية السوسيوثقافية في منطقة الطارف

يتألف المجتمع الطارفي من تركيبة متآلفة العناصر عديدة، تلاحمت وتفاعلت واندمجت فيما بينها بفضل مقومات الإسلام (اللغة والدين)، إلى هذه المنطقة في مطلع القرن السابع ميلادي (21 ه /642 م) وما ترتب عنهما من مظاهر حضارية نمت وترعرعت خلال خمسة عشر قرنا من الزمن.

وتتكون التركيبة البشرية للمجتمع الطارفي (القاعدة الهرمية) في نموذجها التقليدي من الأسرة (النووية) العائلة (الأسرة الكبيرة) ثم العرش (القبيلة والعشيرة)، وفي الأخير من عدة عروش مختلفة الأصل والمكانة والأعراف والتقاليد الاجتماعية والثقافية، ولكل منها كبيرها(زعيمها) الذي يمثلها في مجلس العروش ويدافع عن مصالحها، ويسمى بـــ : الشاوش أو الكبير

ويحدث أن يتألف العرش من قبائل ذات أصل واحد ويتزعمه شخص أو مجموعة أشخاص يختارون على أساس كبر السن والتجربة والثقافة والوعي والشرف والشجاعة والغنى أو بعضها، ويمثل الشريط الحدودي الرقعة الجغرافية التي تتمركز فيها مختلف العروش الممثلة للتركيبة البشرية في المنطقة.

والأمر الذي يستحق الذكر هو أن المحافظة على الانتساب إلى العرش تنتقل من جيل إلى آخر، وإن اختلفت أنماط تركيبها حاليا، ويتم تكريسها بصورة وسلوكات مختلفة من بينها احترام تراث الأسلاف المادي وغير المادي سواء في المناسبات الاجتماعية مثل: الأفراح أو المناسبات الدينية كالأعياد الإسلامية أو ما تعلق بأعياد العرش مثل: الزردة، الوعدة والوزيعة أو المناسبات الوطنية مثل: عيد الثورة وعيد الاستقلال، والغرض من المحافظة على ظاهرة الانتساب هذه هو تقوية التماسك الاجتماعي، ويبدو ذلك من خلال عبارات "البركة، الخير والشرف "

وكلها تعبر عن الموقع الروحي والاقتصادي والسياسي للعرش[22]، وينتظم المجتمع التقليدي في المنطقة مناط الدرس انتظاما واضح المعالم يهدف في مجمله إلى تكريس الولاء لإرث الأسلاف وضمان استمراريته، اعتقادا منه أن الولاء لإرث الأسلاف يضمن بقاء الشخص والجماعة، فهو بذلك من أقدس مقدسات الجماعة لارتباطه بعنصر "ضمان البقاء والاستمرارية"، ويعد التنظيم العائلي من ابرز مظاهر التنظيم الاجتماعي في المجتمع التقليدي بالمنطقة، فالعائلة التقليدية موسعة تعيش في أحضانها عدة عائلات تحت سقف واحد تسمى "الدار الكبيرة" ويمثل الأب والجد القائد الروحي للعائلة والمسير والمخطط والممون لها، والنسب في العائلة ذكوري والانتماء أبوي، ويبقي انتماء الأم لأبيها .

ومن المظاهر السوسيوثقافية أيضا تزويج البنت في سن مبكرة والحشمة من ذكر اسم الزوجة فتنادى بعبارات مثل : الدار، العيلة، أم الأولاد، الفميلة، المخلوقة .....الخ.[23]

ولـــ: ممثل وممارس الدين الإسلامي:" الإمام، المفتي، الطالب، مؤدب الأطفال"، مكانة خاصة لدى الأهالي، وبالإضافة إلى حضوره الأكيد في مختلف العبادات والممارسات العقائدية فهو يتواجد في شتى ميادين المعاملات والتعاملات المناسباتية واليومية مثل الخطبة، الزواج، الطلاق وتحديد الإرث، الشفعة، الرهن، ويستمر هذا التواجد إلى حد اختيار اسم المولود الجديد وذلك حتى تكون له صلة وثيقة بالدين الإسلامي ويحفظه الله من المصائب .

رابعا. نماذج من أغاني الألعاب الشعبية في منطقة الطارف

تحظى منطقة الطارف بتنوع ثقافي وموروث شعبي عن الأجيال المتعاقبة، ويعطينا هذا التراث تفاصيل عن الحياة السوسيوثقافية للمنطقة منذ الفتوحات الإسلامية عن طريق حفظها في أهازيج الأغاني، الرقصات، الألعاب، الطقوس الدينية والممارسات الاعتيادية التي لا تزال تمارس إلى حد الآن .

1) أغاني الألعاب في سن ما بين (4 إلى 6 سنوات)

أ) – أغنية الدوران :

دور دور يا عصفور

فاطمة بنت الرسول

عندها تمر وحنة

تكتب عباب الجنة

بـــاب النار للكفار

وباب الجنة للإسلام

ترتبط هذه الأغنية " بلعبة الدوران "، حيث يقف الأطفال في الغرفة أو الساحة بشكل عشوائي، ويبدؤون بإشارة واحدة بالدوران كل منهم حول نفسه وهم يرددون هذه الأغنية، ويزداد التسارع بالدوران ثم يقف الأطفال بإشارة واحدة، وعندها يكون منظرهم مثيرا للضحك، حيث يصيب بعضهم الدوار فيفقد توازنه ويتمايل، ويتزحزح، وربما يقع على الأرض.

إذ تدل هذه اللعبة على قدرة الاحتمال في الدوران، وربما بدأت أصولها بتقليد أتباع الطريقة المولوية عندما يؤدون الدوران الذي اشتهروا به والذي يستطيع من الأطفال الاستمرار أكثر بالدوران يكون هو الأقوى والفائز على رفاقه.

ب) – أغنية رمانة :

يا رمانة يا رميمي نا

يا ستة وسبعة في عشيرنا

خرجت رمانة تشري في الحليب

وقالها الرومي ما عنديش حليب

رمانة فوق الكرسي

شافوها البنات تبكي

شكون اللي يراضيها ؟

أبوها يراضيها

للصايغ يديها

وهي أغنية مصاحبة للعبة الدائرة حيث تتكون هذه اللعبة من عدد من البنات يشكلن دائرة بواسطة تماسكهن من الأيادي، وتضع الواحدة يدها بيد الأخرى ثم يتم انتخاب رئيسة تكون وسط الحلقة فتقوم بترديد هذه المقاطع، ويتزامن ترديدها مع المرحلة الثانية من اللعبة، حيث تكون اللاعبة الأخرى (البنت الغاضبة) خارج الدائرة وقد أدارت ظهرها عليهن، والبنات الأخريات يدرن حولها على شكل دائرة، وتستمر تذكر المرددة (الطفلة) لهذه المقاطع بذكر أسماء جميع البنات المشاركات في هذه اللعبة، وأخيرا تدخل الفتاة الغاضبة إلى الدائرة، وتشارك البنات في اللعب، وهي تردد معهن المقاطع في هذه اللعبة إلى نهايتها وهكذا.

ت) - صندوق الأحمر :

صندوق الأحمر مسكين

ما يعرفش يسب الدين

يعرف قرآن الكريم

صدق الله العظـــيم

السبت – الأحد – الاثنين – الثلاثاء – الأربعاء – الخميس – -الجمعة

تختص هذه الأغنية بلعبة صفق الأيادي، حيث يلجأ الأطفال لهذا النوع من الألعاب خاصة في أيام الشتاء البارد ليزداد نشاط الدورة الدموية ويشعرون بالدفء، وتزامن هذه الأغنية كل مراحل اللعبة، حيث تتم بين طفلين يقفان متقابلين ويبدأ اللعب بأن يصفق كل منهما يديه ببعضهما صفقة واحدة ثم يصفق كل منهما الصفقة الثانية بيمينه مع يمين زميله والصفقة الثالثة كل منهما بيديه، والرابعة كل منهما بيساره مع يسار اللاعب الآخر، وتشتد الحركة تسارعا مع ازدياد نشاطهما والمهارة أن يحافظ على تسلسل الحركات كما ذكرت رغم سرعة الحركة.

ث) – أغنية الدكتيلو

ما عنديش الدكتيلو

عندي ورقة وستيلو

قالي بابا سانيلو

قالي بابا طامبيلو

قالي بابا اكتبلو

قالي بابا صرفقلو

تنتمي هذه الأغنية للعبة نفسها " التصفيق بالأيدي " مرفوقة ببعض الإشارات البسيطة من قبل الأطفال والتي تتماشى مع الأفعال الموجودة في الأغنية.

2) أغاني الألعاب في سن ما بين (6 –10 سنوات)

أ) – أغنية الخطافة والام

الخطافة : أنا الذيبة الخطافة

الأم : أنا أمو ونلمو

الخطافة : ناكلو ونشرب دمو

الأم : خلي لوليد لامو

الخطافة : ضاعت لي قفة زرقا

الأم : إن شاء الله ما تلاقيها[24]

تردد هذه الأغنية الخاصة بلعبة الخطافة والأم، بحيث تجتمع الفتيات في مكان فسيح، وتقوم المجموعة باختيار من تقوم بدور الأم، ودور الذئب ،ودور العروس ،بعد ذلك يبدأ اللعب حيث تقف الفتيات في صف واحد، وتبدو الأم في مقدمة الصف ثم تليها العروس، ثم باقي الفتيات، حيث تقوم كل واحدة منهن بمسك خصر من تتقدمها، في المقابل تقف الفتاة التي تلعب دور (الذئب) في مواجهة الأم وبناتها وما بين صد وهجوم يبدأ الحوار الغنائي الذي يتوسط اللعبة.

يستمر اللعب على نفس المنوال، وإذا تمكن الذئب من افتراس مجموعة من الفتيات تقوم الأم بانحناء ظهرها انحناءة بسيطة رافعة يدها (على شكل سقف الخيمة)، ثم تدخل العروس وتمر من تحت يد الأم في حالة اختباء في الخيمة تتطور اللعبة لنرى الأم وقد ذهبت إلى السوق لشراء احتياجاتها بينما تبقى (العروس) مخبئة وتنتهز الفتيات الأخريات فرصة غياب الأم فيخبئنها، وعند عودة الأم ولا تجد العروس تبدأ محاورات وعمليات البحث عن العروس من مكان لآخر، وفي حالة يأس الأم من العثور عليها تنتهي اللعبة .

ب) – أغنية أبوتي

أبوتي بوتي بوتي

أبت واسة أفريل

أشوتي وحدي وحدي

على قد وحق ربي

ومنير خرج يدور

حكموه زوج أسبانيول

داوه للماغازي وأعطاوه ثلاثة كراسة

واحد فضة وواحد ذهب ولآخر يحكم في العرب

أخرج أخرج أ مسكين تعلم ضرب السكين

ترتبط هذه الأغنية بلعبة "خروف مسلسل" وهي لعبة يمارسها الأطفال من الجنسين تحتاج إلى ساحة أو ملعب وعدد من الأطفال لا يقل عن سبعة، حيث يجلس رئيس المجموعة على الأرض ويمسك برجل من وقعت عليه القرعة مرددا هذه المقاطع من الأغنية وبمجرد أن يصل إلى المقطع الأخير "أخرج أخرج أ مسكين نتعلم ضرب السكين" يفلت الأطفال فيتراكضون منه خشية قبضته عليهم وحينما يمسك بأحدهم يأتي به إلى كبيرهم الجالس ليكون هو الخروف المسلسل وتتكرر اللعبة نفسها.

ج) – أغنية شمس قمر :

شمس قمر، نجوم الليل

صباح الخير مساء الخير، كوكب كواكب قف

زينة ونحول سيتزوجان في شهر رمضان.

بوسعدية مات خلا ثلاثة بنات

وحدة عمية ولخرى صمية ولخرى تضرب بالشاقور

تخص هذه الأغنية ألعاب القفز بالحبل وهي لعبة خاصة بالإناث، تجتمع البنات ومعهن حبل للقفز، ويخترن بطريقة القرعة أربع بنات ويقسمن أنفسهن إلى مجموعات رباعية وكل فريق يقوم باللعب بنفسه كما تتسمى كل مجموعة مثل : شمس، قمر، نجوم .... تمسك اثنتان بالحبل للتلويح به وتقوم الأخريات بالقفز عليه بشكل فردي أو ثنائي ومن يلامس الحبل قدميها تخرج من اللعبة والتي يلفظ اسمها في الأنشودة تدخل كبديلة ومن تكون صامدة إلى النهاية تتوج فائزة على الجميع.

3) أغاني ألعاب في سن ما بين (10 –13 سنة)

أ) – أغنية الخطابة :

نحن جينا خطابين أوريا بلونجي

ماعدناش بنات ملاح أوريا بلونجي

ها هي طفلة مليحا أوريا بلونجي

نديها ونربيها ويجي الشاذلي يفرح بيها

ترتبط هذه الأغنية بلعبة العروس وهي لعبة يؤديها فريقان من البنات فتؤدي على الكيفية الآتية : تتشابك أيدي كل فريق ويكون الفريقان متقابلين ثم يقوما بأداء رقصة غنائية جماعية تزامن كل مراحل اللعبة، ويكون محور الأغنية اختيار عروس لواحد من الفريقين، ويقترب الفريقان ويبتعدان عن بعضهما البعض بطريقة راقصة، بحيث ترافق الحركات هذه الكلمات الغنائية.

ب) – أغنية فلسطين

أو باصي باصا، أنا بنت العقدة

أسيا راحت تزور ولقاوها زوج اسبانيول

واحد فضي وواحد ذهبي

أضرب اضرب يا مسكين

ما تضربش فلسطين

فلسطين الحبيبة

جعلت مني طبيبة

كاتبة وأدبية

باباها يبغيها

جاب اللوطو وداها

خوها يكرها جاب الخدمي واذبحها

هذه الأغنية من بين الأغاني الخاصة "بألعاب الغميضة"، يقف الأطفال في حلقة دائرية ويختارون أحدهم للقرعة عن طريق هذه الأغنية، ومن تنتهي عنده الأغنية يخرج لتنفيذ اللعبة ويغمض عينيه وهو يعد من 1- 10 ليعطيهم فرصة الاختباء، ويقوم بعدها بالبحث عنهم وأول طفل يمسكه يقوم بتنفيذ الدور.

ج) أغنية فنفاني:

فنفاني فاني فاني فنفاني

ولباس حجاب عرابي اسلامي

واخطيك ملحيب الطلياني

فنفاني فاني فاني فنفاني

ولباس سروال بوتكة عرابي

واخطيك مدجين الديلافي

فنفاني فاني فاني فنفاني

واركب حمار بوربعة دواري

واخطيك مطيارللماني

تنتمي هذه الأغنية لألعاب التصفيق التي تم وصفها في النموذج الأول .

ح) أغنية بوبرارج بوقرقبو:

بوبراج بوقرقبو

طاح تكسر في زمزمو

خرجت عيشة ملفاليزا

لابسة خاتم تاع لويزا تيبوك تيبوم

باب يذبح تيبيوم تيبوم

خويا يشوي تيبوم تيبوم

أختي مريضة تيبوم تيبوم

ونا نشوف تيبوم تيبوم

تحت الصوف تيبوم تيبوم

كالحلوف تيبوم تيبوم

تردد هذه الأغنية في القرعة الخاصة بلعبة "عظم بوبيا" أي في بدايتها حيث ينصب لكل فريق قائدا ليقوم بترتيب فريقه، ويقابل قائد الفريق الآخر في إجراء القرعة التي من خلالها يردد أحدهم هذا المقطع لمعرفة لمن تكون بداية اللعبة، وبعد إجراء القرعة يقوم الفريق الذي صارت له بداية اللعبة بانتداب أعد أعضائه باستلام "عظم بوبيا" ورميها إلى أي مسافة يريدها، بينما يكون أعضاء الفريقين حوله، وبعد إلقاء العظمة يقوم الأعضاء جميعا بالبحث عنها في تحفظ وحرص شديدين ومراقبة بعضهم البعض ذلك لأنه يترتب على الشخص الذي يعثر على العظمة أن يحاول قدر المستطاع التمويه على أعضاء الفريق الآخر محاولا التسلل والوصول إلى نقطة الانطلاق، وفي تلك الأثناء يكون قد لاحقه أعضاء الفريق المنافس فإذا تمكنوا من التأكد من وجود العظمة معه فعلا فإن عراك كبيرا يحدث بين أعضاء الفريقين، وقد تخلص العظمة من حاملها فيعاود أعضاء الفريق الآخر تخليصها أيضا ويقومون بدورهم بالهرب نحو نقطة الانطلاق والذي يتمكن من إيصال العظمة إلى الهدف من الفريق الأول ضمن بذلك نقطة لفريقه وحق له رميها مرة أخرى، والعكس صحيح فإن خلصها الفريق الآخر وأوصلها إلى نقطة البداية حق له رميها بنفس الطريقة الأولى ليقوم الجميع بعملية التفتيش، وبهذه الطريقة تستمر اللعبة وتسجل النقاط في كل مرة على أن الفائز هو من تكون نقاطه أكثر.

خ) – أغنية حمحومي:

حمحومي البنات حمحومي

كي يطيب الزعفراني مقرودي

مقرود الدالية والدالية العالية

والدجاج يقوقي بين السواقي

قول لماما ما تبكيش وقول لبابا ما يشكيش

راني رايح مانوليش

ترتبط هذه الأغنية بألعاب القفز ولكن هذه المرة بدون حبل، حيث يتم رسم مربعات على الملعب، فيأخذ كل لاعب حجرة صغيرة مسطحة ويبدأ اللاعب الأول إذ يدخل الملعب برجل واحدة والرجل الأخرى مرفوعة ولا يحق له وضع رجليه إلا في الخانات المقطوعة طولا، وبعد العودة يبدأ بوضع الحجر الذي بيده في الخانة الأولى ويقفز وهو رافع رجله

على الحجر تلك ثم يبتعد عنها قليلا ويرفعها برجله إلى الأرض دون أن يضع الرجل الأخرى إلى الخانة الثانية ويقفز مرة أخرى فوق الحجر وهكذا يستمر بالقفز على كل خانة من الخانات حتى يصل إلى الخانة الأخيرة، وهو يردد هذا المقطع الغنائي الذي يرافق كل مراحل اللعبة ثم يعيدها إلى الخانة الأولى بنفس الطريقة السابقة دون أن يضع رجله المرفوعة ويمشي على رجل واحدة فقط، والذي يضع رجله المرفوعة أثناء اللعب يعتبر هو المهزوم ويخرج ليدخل بدله لاعب آخر، حيث يكون الفائز هو الذي يقوم بإيصال الحجر ركضا برجله من الخانة الأولى إلى الأخيرة والعكس.

- أخرج أخرج أ مسكين تتعلم ضرب السكين

وأصلها يا مسكين

- أ بابا سليسلي والعمي وليدلي

واصلها يا بابا

4) أنا الذيبة* الخطافة أي (* أنثى الذئب)

نحن جينا* خطابين (*بمعنى جئنا)

تحتاج لعبة القفز إلى أدوات بسيطة فهي تتميز بسهولتها، والأدوات والمواد المستخدمة في هذه اللعبة ما هي إلا مواد وخامات أولية (الحجر) متوافرة في البيئة المحيطة بهم وفي متناول أيديهم في أغلب الأحيان، فهي تحتاج إلى أحجار ذات زوايا متقاربة قدر الإمكان بحيث يمكن أن ترمى هذه الأحجار على الأرض لتسقط في المكان المناسب لها.

تخضع معظم الألعاب الشعبية في منطقة الطارف إذا لم يكن غالبيتها للتنميط الجنسي، ولكل لعبة من الألعاب الشعبية فئات عمرية معينة يمكنها ممارستها، وهذا لا يعني أن الألعاب الشعبية نشاط لمرحلة طفولة معينة بل يمكن أن يشارك فيها فئات مختلفة من الأطفال بتفاوت سنهم، والألعاب الشعبية ليست ألعاب مخصصة لجنس دون آخر(للفتيان دون الفتيات) بل يمكن أن يتشاركا فيها الجنسين مع العلم أن بعض هذه الألعاب توصف في الموروث الثقافي الشعبي للمنطقة على أنها ألعاب ذكورية وأخرى أنها مخصصة للإناث وذلك نظرا لطبيعتها أو أنها تتطلب جهد جسدي (ذكوري) وأخرى عقلي(أنثوي)، وتعتبر نوع الالعاب المنتشرة في المنطقة هي ألعاب جماعية كحال باقي الألعاب الشعبية حيث من النادر أن نجد لعبة شعبية فردية، أما عن عدد الأطفال الذين يشاركون في هذه اللعب فلا يقل عددهم عن 3 أطفال وقد يصل إلى مجموعة يتجاوز عددها اثني عشر، وتتراوح أعمارهم ما بين الثلاثة سنوات (03) والثلاثة عشرة (13) سنة، ولا يسمح للأطفال الأصغر من هذا العمر باللعب الا في بعض الحالات.

ومن خلال ما لمسناه في الأغاني للألعاب الشعبية للمنطقة نجد أن الطفل يغني دون أن يعي ما يقول بشكل متكامل فهو لا يلجأ إلى التفتيش عن المعنى بقد ما يفتش عن اللحن الموسيقي والقافية وهذا بالطبع ما يناسب حركات اللعب، وسنجد كثيراً من الكلمات التي ليس لها معنى سوى أنها أتت كي يضبط الوزن وتضبط القافية.

يعتبر تقدم السن عاملاً في تغيير نوع الألعاب، فالطفل يدرك أن هذه اللعبة لا تناسب عمره، يشعر بالحياء مثلاً أو يسخر من لعبة بسيطة كان يؤديها ويلجأ إلى الألعاب المعقدة أو الأكثر نشاطاً كلما تقدم به السن، وعندما يبلغ الطفل سن الرشد تخف لعبه وتضمحل شيئاً فشيئاً وذلك لينتقل إلى ألعاب تناسب سن الشباب والرجولة، مما يقودنا إلى القول إن الطفل رهن لعمره، وإن أغاني الألعاب التي نطلق عليها، ألعاب الأطفال، هي التي يؤديها الطفل الذي تفاوت عمره بين ثلاث سنوات والثلاثة عشرة سنة، بيد أننا سنشاهد ألعاباً هي أساساً للكبار لكن الأطفال يقلدونها فإما تأتي ناقصة أو يضاف عليها، ومع مرور الزمن قد تصبح لعبة شعبية متداولة بين جيل الأطفال.

في الأخير يمكن القول: إن غياب القيم الموروثة من حياة الطفل، يؤدي إلى فقدان الكثير من ملامح الموروث الشعبي لاسيما أغاني الألعاب الشعبية المخصصة لتنمية مهارات وثقافة الطفل الحركية والفكرية والتفاعلية وانتزاع الكثير من العادات والتقاليد واستبدالها بثقافات أخرى .

غير أن الرجوع إلى الماضي والاستفادة من تراثه لم يأتي من فراغ علمي، وإنما لأن ذلك الموروث ومنه أغاني الألعاب الشعبية يقوم على بناء الطفل وغرس الكثير من القيم التي تربطه بمجتمعه من حيث اللغة والعادات والتقاليد بل والربط بين الموروث الشعبي[25] للمجتمعات المحلية(المجتمع الطارفي أنموذجا للدراسة)، ويبدو ذلك جليا في الكثير من أغاني الألعاب الشعبية المعروفة والمشتركة بين الأطفال في الجزائر.

الخاتمة

تسود المجتمع الطارفي-كعينة مصغرة لبعض مناطق الجزائر- مفاهيم وممارسات حاصرت أغاني ألعاب الأطفال الشعبية في ركن هامشي من حياة الأطفال وضيقت الخناق عليه، حتى أن الكثير من أغاني الأطفال الشعبية قد توارى واختفى خجلاً من حياة الأطفال، وحرمت الأطفال من التفاعل التلقائي مع موروثهم الإنساني الممتد عبر الأجيال.

يمكن إحياء التراث الشعبي الخاص بأغاني الألعاب الشعبية المخصصة للأطفال في ضوء التراجع الحالي لأدوارها، من خلال العمل المشترك والمستمر على تثبيت ذلك الموروث، وذلك من خلال إستراتيجية مؤسساتية(بمساهمة المجتمع والدولة على حد سواء) تقوم على خدمة الطفل والمجتمع لنشر الثقافة الشعبية المراد توصيلها والسعي في بناء الشخصية الوطنية للطفل وتهيئة المناخ الصحي المناسب للعب وبهذا تكون الحصيلة متميزة في تكوين الطفل (ثقافيا، معرفيا، تربويا، مهاراتيا...) على أسس سليمة تنمي القيم السوسيوثقافية الايجابية مثل: الهوية، روح التعاون والعمل الجماعي، اتخاذ القرارات، المشاركة، المسؤولية.

المراجع والهوامش:

(1)- ابن منظور، لسان العرب، بيروت: دار صادر، مج 14، مادة(صبا)

(4)- محمد عباسة، مجلة حوليات التراث ع 6، الجزائر: جامعة مستغانم، 2006، ص71.

(5)- المرجع نفسه، ص 71.

(4)- نادية الدمرداش و علا توفيق، مدخل إلى علم الفولكلور، مصر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية القاهرة، ط 1، 2003، ص27.

(5)- فاروق أحمد مصطفى و مرفت العشماوي عثمان، دراسات في التراث الشعبي، الإسكندرية: دار المعرفة، مصر ط1، 2008، ص 204.

(6)- شقرون غوتي، الأغنية البدوية الثورية بين فترتي الثورة والاستقلال "19541962"، مذكرة ماجستير، جامعة ابي بكر بالقايد، تلمسان: كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم الثقافة الشعبية (2004-2005)، ص 88.

(7)- فوزي العنتيل، بين الفولكلور والثقافة الشعبية، القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب،1987، ص245.

(8)- نعيم فاعور، الأغنية الشعبية من سفح المجتمع إلى قمته، مجلة أفق، بيروت: مؤسسة الفكر العربي، ع25، أكتوبر 2013، ص5.

(9)- المرجع السابق، ص 11.

(10) أحمد أبو سعد، أغاني ترقيص الأطفال عند العرب (منذ الجاهلية حتى نهاية العصر الأموي)، لبنان: دار العلم للملايين، 2002 ص 19.

(11) عبد الأمير جعفر، الفن الغنائي في الخليج العربي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد: دار الجاحظ، 1980، ص47.

(12)- صبحي إبراهيم شرقاوي و أكرم عادل البشير، أغاني الأطفال في الأردن ودلالتها الرمزية، المجلة الأردنية للفنون مج6، ع6، الأردن: كلية الفنون، 2013، ص178.

(13)- انشراح إبراهيم المشرفي، أدب الأطفال مدخل للتربية الإبداعية، مصر: مؤسسة حورس الإسكندرية، ط1، 2005، ص 104.

(14)- شيرين عبد اللطيف أحمد بدر، بعض التقنيات التكنولوجية المستخدمة في أغنية الطفل العربي الدينية الملحنة في مقامات، المجلة الأردنية للفنون، مجلد2، عدد1، 2009، ص 86.

(15) عبد الفتاح أبو المعال، أدب الأطفال وأساليب تربيتهم وتعليمهم، الأردن: دار الشروق للنشر والتوزيع، ط1، 2005، ص237.

(16)- انشراح إبراهيم المشرفي، مرجع سابق، ص 104.

(17)- عبد الفتاح أبو المعال، مرجع سابق، ص221.

(18) - شيرين عبد اللطيف أحمد بدر، مرجع سابق، ص87.

(19)- هدى قناوي، أدب الأطفال، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1990، ص56.

(20)- سوزانا ميلر، سيكولوجية اللعب، ترجمة: حسن عيسى، الكويت: مطابع الرسالة، ط1، 1987، ص11.

(21)- عبد الفتاح أبو المعال، مرجع سابق، ص177.

(27)- مولدي بشاينية، التراث الثقافي غير المادي في منطقة الطارف -الواقع والآفاق-، الملتقى الوطني: الأدب الشعبي في الجامعة الجزائرية - واقع وآفاق-، قسم اللغة العربية وآدابها، المركز الجامعي بالطارف، 22- 23 نوفمبر 2011.

(28)- المرجع السابق.

(24)- المرجع السابق.

(25)- فاروق أحمد مصطفى، الانثروبولوجيا ودراسة التراث الشعبي، الإسكندرية: دار المعارف الجامعية، 2008، ص- ص 169، 170 .

تحليل نفسي اجتماعي للجماعات المنحرفة والإجرامية في أحياء السكنات الاجتماعية بالجزائر

د.سعد الدين بوطبال
جامعة خميس مليانة

الملخص:
أنجزت الجزائر في السنوات الأخيرة العديد من أحياء السكنات الاجتماعية بغية تلبية احتياجات السكن من جهة، والقضاء على الأحياء الفوضوية من جهة أخرى، إلا أنّ عمليات الترحيل نجم عنها بروز السلوكات المنحرفة ومظاهر الجريمة في الأحياء الجديدة، وتأزّم الوضعية الأمنية خاصة في أوساط المراهقين والشّباب، وذلك نتيجة انتقال الجماعات الإجرامية المُشَكَّلَة في الأحياء الفوضوية إلى أحياء السكنات الاجتماعية، واصطدامها بجماعات أخرى قادمة من أحياء فوضوية أخرى، ولعلاج هذا المشكل وجب التفكير الجدّيّ في كيفية البناء الآمن لأحياء السكنات الاجتماعية، والتركيز في الوقت نفسه على أسباب انتشار الأحياء الفوضوية، مع العمل على تفكيك أفراد الجماعات الإجرامية في أحياء بعيدة ومتفرقة لضمان تفكيك الجماعة الإجرامية، وكذا العمل على تحقيق التنمية الاجتماعية والاقتصادية بشكل عادل بين المدن الداخلية والأرياف والمدن الكبرى، كل ذلك في سبيل التقليل من الجريمة انطلاقا من مصادرها.
الكلمات المفتاحيّة: – الجريمة – السّلوك المنحرف – الجماعات الإجراميّة – السّكن الاجتماعي – الأحياء الفوضويّة – المراهقة – الشّباب.

Résumé:
L'Algérie a réalisé plusieurs projets de logements sociaux ces dernières années, Pour répondre aux besoins en matière de logement d'un coté, et pour éliminer les bidonvilles d'autre coté. Cependant, l'opération de relogement a donné lieu à l'émergence de la délinquance et la criminalité dans les nouveaux quartiers. En effet, la situation sécuritaire est aggravée en particulier chez les adolescents et les jeunes, par la transmission des groupes criminels de plusieurs quartiers bidonvilles vers des nouvelles cités de logement sociaux, et leurs confrontation avec d'autre groupes criminels pour maitriser l'endroit.
Tout bien considéré, pour traiter ce problème il faut réfléchir sérieusement, non seulement à la façon de construire des quartiers sécurisés, mais aussi par la prise en considération des causes de la propagation des bidonvilles, en suite, il faut faire la dispersion des groupes criminels vers des déférents cartiers. Pour conclure, il est inévitable de travailler pour réaliser un développement socioéconomique équitable entre les villes et les zones rurales, et les grandes villes, afin de réduire les crimes de leurs sources.
Mots clés :
Le Crime - comportement déviant - groupe criminel - logement social – les bidonvilles

مقدمة:

تشهد الجزائر منذ سنين عدّة تغيرات مسّت جميع جوانب الحياة الاجتماعية، وانعكست آثارها على المؤسسات الاجتماعية، الأمر الذي أدّى إلى بروز عدة مشكلات نفسية واجتماعية متعددة الجوانب ومتشعبة الأسباب، ولعل من أبرزها – في الآونة الأخيرة– ظاهرة تفشي السلوكات المنحرفة والإجرامية على نطاق واسع في أحياء السكنات الاجتماعية، وانتشارها لدى فئة الشباب بصفة خاصة، وتهديدها للأمن والاستقرار الاجتماعي في بلادنا.

بالفعل؛ تحتل شريحة الشباب الاهتمام الأكبر عند بناء الاستراتيجيات التنموية بمختف أبعادها، وذلك مبرّر لأنّ الشباب يمثل أكبر شريحة عمريّة في المجتمع الجزائري من جهة؛ ولأن الشّباب كذلك هم عماد وعدة المستقبل لأي مجتمع، كما يحمل الشباب طاقات متعددة؛ والتي إن استغلت في مسار سليم وعقلاني كان لها الأثر الايجابي على جميع نواحي الحياة

الاجتماعية التفاعلية. ويجمع علماء النّفس الاجتماعي على أنّ ظاهرة الشّباب أصبحت تشكل أحد الموضوعات البالغة الأهميّة في مجال البحث النفسي الاجتماعي، ويرجع سبب ذلك إلى ما تحمله هذه الظاهرة من خصائص ومقومات المرحلة السابقة واللاحقة و لها تأثير على النّسق الاجتماعي المعيش.

تعترض الشباب في مجتمعنا عدة مشكلات، ساهمت في تبديد الطاقات الشبابية وثنيها عن خدمة نفسها ومجتمعها في طار إيجابي ومتكامل، ولعل من أبرز ما يعاني منه الشباب في وقتنا الحالي مشكلة الانحرافات السلوكية والابتعاد عن معايير وقيم المجتمع التي تجعله متماسكا، زيادة على تفشي الإجرام بشكل أصبح نمطا يميز بعض المدن في كل أرجاء الوطن وخاصة أحياء السكنات الاجتماعية، حيث أصبح يتطلب الأمر في كثير من الأحيان تدخل قوات أمنية كبيرة، ومرابطتها هناك لمدة طويلة، وهذا أمر يدعو إلى البحث والتمحيص في هذه السلوكات الإجرامية ومصادرها؛ بغية بناء إستراتيجيّة لمواجهة السلوكات الإجرامية انطلاقا من التحكم في المصادر التي تفرخ السلوكات المنحرفة والإجرامية في هذه الأحياء.

بالفعل؛ شهدت الجزائر في السنوات الأخيرة بناء عدة تجمعات سكنية لمواجهة تزايد حدة مشكل السكن، ومحاولة القضاء على السكنات القصديرية والفوضوية التي تنتشر في جلّ الولايات على نطاق واسع، حيث تمّ ترحيل مجموعات من العائلات من مختلف الأحياء الفوضويّة ودمجهم في حيّ واحد، وقد أدّى هذا الوضع إلى تزايد حدة المواجهات والأعمال الإجرامية بين الوافدين الجدد على السكنات الجديدة، وكذا بين الوافدين الجدد والسكان المحليين، علما أنّ الأحياء القصديرية في أصلها كانت تعجّ بكل السلوكات المنحرفة والإجرامية نتيجة غياب التأطير والتغطية الأمنية وطبيعة السكنات القصديرية والتفاعلات الاجتماعية العنيفة داخل تلك الأحياء، زيادة على غياب أساسيّات الحياة من كهرباء وقنوات الصرف الصحي وتغطية صحية، وأمام هذا الوضع المزري للحياة اليومية في الأحياء القصديرية ينشأ الفرد في ظروف قاسية نفسيا واجتماعيا واقتصاديا وصحيا، الشيء الذي يجعله ناقما على وضعه وعلى المجتمع الذي يعيش فيه، فتنشأ لديه ما يسمى بالشخصية المضادة للمجتمع، وهنا يكون دخوله عالم الجريمة والإنحراف بسهولة.

والواقع يشير إلى انتشار العديد من السلوكات الإجرامية مثل: السرقة، الاعتداءات الجسدية بالسلاح الأبيض (السيوف والخناجر)، القتل بشتى الوسائل، الخطف والتعذيب والقتل والتنكيل، التحرش الجنسي، السّبّ والشتم، استهلاك والمتاجرة في المخدرات والحبوب المهلوسة والمشروبات الكحولية، الدعارة والتحريض على الفسق، تصفية الحسابات والثأر والانتقام بالقوة، حرب العصابات..... إلخ، وهنا يطرح التساؤل حول تجاهل خصوصيّة الأحياء القصديرية، وتركيبتها البشرية، وخصوصية التفاعلات والعلاقات الاجتماعية فيها، للتخطيط لعملية الترحيل إلى أحياء السكنات الاجتماعية لجعلها آمنة تعيش في كنف السّلم والأمان.

أولاً: مفاهيم أساسيّة

1- الجريمة: يُقصد بالجريمة بنظرة تكامليّة بين جميع توجهات تعريفها القانونية والاجتماعية حسب (الربايعة، 1994) على أنّها « كل فعل يعاقِب عليه القانون وينتهك القيم والمعايير الاجتماعية السائدة انتهاكا صارما يتجاوز حدود التسامح الممكنة». وعليه يمكن القول إنّ الجريمة هي كل سلوك يتوفّر فيه الأذى، وينتهك القيم الأخلاقية والمعايير الاجتماعية، ويلحق الضرر بالفرد و/أو الجماعات.

2- السّلوك المنحرف: يقصد به «السلوك الذي لا يتماشى مع القيم والمعايير، والعادات والتقاليد الاجتماعية التي يعتمدها المجتمع في تحديد سلوك أفراده» (دينكن ميشال، 1986: 73). أي أن السلوك المنحرف هو تصرف منبوذ ولا يتوافق مع ما هو سائد في المجتمع.

3- الجماعة الإجرامية: تمثل مجموعة من الأفراد يقودهم شخص واحد مطاع من طرف جميع الأفراد، يكون عادةً شخصا مسبوقا قضائيا وله تاريخ في الإجرام؛ حيث يُعتبر الأقوى والأخطر في الجماعة، ليثير الخوف والهلع والطاعة في صفوف جماعته من جهة، كما يثير الفزع والرهبة في صفوف المواطنين من جهة أخرى؛ بغية عدم مواجهته أو التبليغ عنه والشهادة ضده في المحاكم إن اقتضى الأمر، كما أنّ للجماعة الإجراميّة ضوابط صارمة يحترمها جميع أفراد الجماعة؛ حيث تقوم هذه المجموعة بأعمال إجرامية مثل: الاعتداءات، القتل...إلخ.

4- السكن الاجتماعي: يمثل السكن الاجتماعي الشقق والأحياء التي تبنيها الدولة عن طريق ديوان التّسيير العقاري والتي تُوجَّه للفئات المحرومة من المجتمع، أي الأفراد الذين لا يملكون سكن أو عقار، أو يقطنون في أحياء قصديريّة تنعدم فيها ظروف الحياة الكريمة، وذلك قصد القضاء على أزمة السكن والأحياء الفوضوية القصديرية المنتشرة في الولايات.

5- الأحياء الفوضويّة: ويطلق عليها أيضا تسمية الأحياء العشوائية والإسكان غير المشروع وهو حسب (النعيم، 2004) « الإقامة في المدن دون التقيد بقوانين ملكية الأراضي، ودون التقيد بنظم ولوائح التخطيط العمراني. وعادةً ما تشيّد المساكن العشوائية من الصفيح أو الزنك أو الخشب أو الكرتون في شكل أكواخ متفرقة، وذات أزقة ضيقة يصعب تحرك المركبات داخلها. وغالباً ما تفتقر مناطق السكن العشوائي للخدمات الضرورية كالصحة والصرف الصحي وإصحاح البيئة والخدمات الأمنية وغيرها من الخدمات الأساسية». ونقصد بالأحياء الفوضوية تلك الأكواخ القصديرية المنشأة بطريقة غير قانونية على حواف المدن؛ حيث لا تتوفر فيها أي خدمة ولا أي منشأة تابعة للدولة، ولا تتوفر على تهيئة عمرانية.

6- المراهقة: يقصد بها « مرحلة انتقال تنحصر بين الطفولة والرشد» (Perrien, 1999:25). «هي مرحلة تبدأ من البلوغ الجنسي وتكتمل عند اكتساب الهوية وتتميز بظهور أزمات كثيرة بسبب التغيرات الفيزيولوجية المؤدية إلى النضج الجسمي والضغوطات الاجتماعية» (سهير أحمد كامل، 1994 : 123). وهذا يعني أنّ المراهقة يمكن أن تمتد من البلوغ أي في حدود 12 سنة إلى غاية 20 سنة وتتميز بتسارع في النّمو الجسمي والفيزيولوجي، وعدم توازن في النّمو النّفسي والاجتماعي بسبب رغبة المراهق في تحقيق شخصيّة مستقلة عن الآخرين.

7- الشباب: تنقسم فترة الشّباب إلى مراحل هي :

– مرحلة البلوغ وتمتد من 15 إلى 18 سنة .

– مرحلة الشّباب المبكّر وهي المرحلة التي تشمل الفترة من 18 إلى 21 سنة من العمر.

– مرحلة الشّباب البالغ التي تمتد من 21 إلى 25 سنة والتي يحقق فيها الفرد النضج والتأقلم للحياة الاجتماعية. (محمد عمر الشيباني، 1983 : 35 - 36)

تخضع مرحلة الشّباب وتحديد فترتها العمرية إلى معطيات اجتماعية ثقافية؛ حيث يمكن أن تتمدد فترة الشباب إلى سن الثلاثين.

8- العنف: يقول ميشو في تعريفه للعنف: « يوجد العنف في وضعيّة تفاعل عندما يقوم أحد أو مجموعة من الفاعلين بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، بصفة فردية أو جماعية بالمساس بأحد أو بمجموعة وبدرجات متفاوتة سواء تعلق الأمر بسلامتهم المادية أو المعنوية أو بممتلكاتهم أو بمساهمتهم الرمزية أو الثقافية». (Michaud, 1978 : 20)

كما ينظر إلى العنف على أنّه ظاهرة اجتماعية تشمل العديد من التصرفات العنيفة ذات الدرجات المتفاوتة والتي تهدد في مجملها توازن الفرد (Medhar, 2004 : 13)

ومنه؛ يمكننا أن نعتبر بأن العنف هو كل سلوك أو تصرف يؤدي إلى إلحاق الأذى النفسي أو الجسمي بفرد أو جماعة.

ثانياً: الجماعة الإجرامية

1- مفهوم الجماعة: يقصد بها « تجمّع عدد قليل نسبيا من الأفراد بما يمكّنهم من التفاعل المستمر من خلال اللقاء والمواجهة المباشرة وجها لوجه ويشعرون بالتجاوب النفسي فيما بينهم من خلال إحساسهم بالانتماء والعضوية في الجماعة»(العطية، 2003: 135). كما تُعرَّف الجماعة أيضا بأنها« تجمع عدد من الأفراد لا يقل عن اثنين ويرتبطون فيما بينهم بعلاقة سيكولوجية ظاهرة، وفي خلال فترة زمنية ثابتة نسبيا، ويتقاسمون فيما بينهم قيما واتجاهات متقاربة ويتبعون في تصرفاتهم قواعد سلوكية معينة» (عبد الباقي، 1999: 151)، وعليه يمكن القول بأنّ الجماعة بمثابة مجموعة من الأفراد يتفاعلون فيما بينهم بأي شكل من الأشكال سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وذلك وفق شعور بالانتماء عبر أدوار محددة لكل عضو في إطار آليات تحقيق الأهداف التي تتبناها الجماعة.

وللجماعة مجموعة من الخصائص نبرزها كالآتي:

- تتكون من فردين أو أكثر ويقودهم شخص.
- يوجد تفاعل واتصال وتعاون بين أعضاء الجماعة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.
- وجود أهداف مشتركة وقيم واتجاهات مشتركة.
- هناك دور لكل عضو في الجماعة في إطار تكاملي وشعور وجداني يربط بين أفراد أعضاء الجماعة.
- وجود قواعد محددة يلتزم بها أعضاء الجماعة بغرض حماية جماعتهم وفعالية نشاطها.

2- تفسير تكوين الجماعات:

يمكن أن نورد ملخص لأهمّ النظريات المفسرة لتكوين الجماعة بصفة عامة بالرجوع إلى ما بينه كلا من (خضير، 2002، ص 96-98) و(قهواجي، 2007، ص 40-41) كما يأتي:

النّظرية	التّفسير
نظرية التّقارب المكاني (القرب)	تنشأ الجماعات من التقارب المكاني للأفراد (القرب والجوار).
نظرية الأنشطة والتفاعل والعاطفة جورج هومانز George Homans	أساس تكون الجماعة هو طبيعة النشاط الذي يقوم به الأفراد ممّا يولد بينهم تفاعلا ومشاعر تقوي الرابطة فيما بينهم (الأنشطة، التفاعل، المشاعر).
نظرية التبادل الاجتماعي Peter Blau	أساس تكون الجماعة هو تبادل المنفعة فيما بين أعضائها؛ أي العوائد المتحققة للفرد عند انتمائه لجماعة ما والكلفة المقترنة بذلك.
نظرية التوازن New Comb	أساس تكوين الجماعة هو المعتقدات والاتجاهات والأهداف المشتركة للأفراد التي تجعلهم ينجذبون لحالة توازن بين اتجاهاتهم وأهدافهم المشتركة.

كما أنّ الجماعة تتطور وفق مراحل أساسية؛ حيث قسمها توكمان(Tuchman,1965) كما بينه (عبوي والعطاري، 2012) إلى خمس مراحل تتميّز كل مرحلة بخصائص معينة، ونوجز هذه المراحل فيما يلي:

المرحلة	وصفها
مرحلة التشكيل	تجميع الجماعة وتعارف أفرادها وتشكيل الأهداف.
مرحلة العصف الذهني	إنشاء الجماعة والاعضاء يكونون فكرة عن بعضهم البعض؛ أي مرحلة الصراع والتناقض بين أفراد الجماعة لتحديد سبل تحقيق الأهداف.

مرحلة التطبيع	إنشاء القوانين وتحديد ضوابط ومعايير سير الجماعة ونشاطها.
مرحلة الأداء	التعاون والنشاط الفعلي لتحقيق الأهداف؛ أي مرحلة العمل وتدني مستوى الصراع.
مرحلة حل الجماعة التفكك	تتفكك الجماعة سواء بسبب افتراق الأعضاء أو تحقيق الأهداف.

3- تكوين الجماعة الإجراميّة:

تُعتبر الجماعة الإجراميّة بأنّها مضادة للمجتمع، وأهدافها سلبيّة تتعارض وتطلعات المجتمع وقيمه وعاداته وتقاليده، وأعضاؤها يتوافقون على تحقيق تلك الأهداف بطرق غير مشروعة.

وبصفة عامة أشار الباحث (shaw, 1981) نقلا عن (عدنان يوسف العتوم، 2008) إلى أنّ الانضمام إلى الجماعات يتمّ وفق أسس أهمّها:

- إشباع حاجات داخل الجماعة.
- الجاذبية بين الأفراد.
- الجاذبية لأهداف الجماعة وأنشطتها.

وفي ما يتعلق بالجماعة الإجرامية فإنّها تلك التي تتّخذُ من الإجرام وسلوكات الانحراف وسائل وآليات لتحقيق أهدافها وإشباع، حاجاتها والتي من أهمها الحصول على المال بطرق غير مشروعة، كما أنّ لأعضاء هذه الجماعة تجاذب وانتماء بين أفرادها؛ لأن أفكارهم المنحرفة والإجرامية هي نفسها، ثم إن تحقيق المال وبسط السيطرة بالطرق غير المشروعة تمثل أهدافا مشتركة بينهم.

ويمكن إضافة بعض العناصر لتوضيح آليّة تكوين جماعة إجرامية أو الانضمام إليها، وهي موضحة في الشكل الآتي:

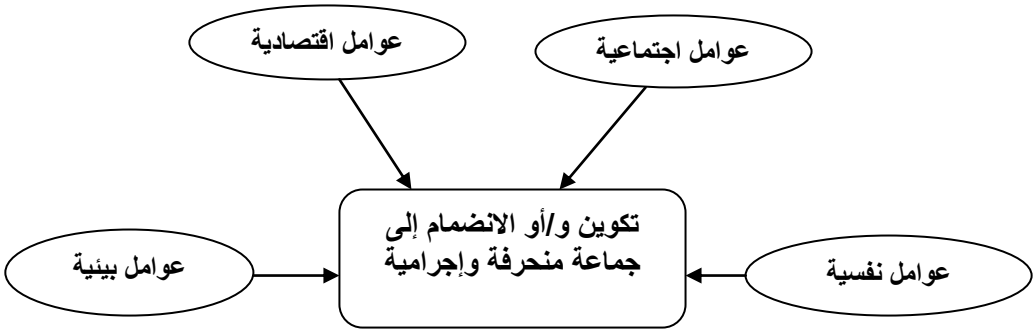

الشكل رقم (01): يبين أهم عوامل تكوين الجماعات الإجرامية أو الانضمام إليها

من خلال الشّكل السّابق يتبين لنا أن تكوين الجماعات الإجرامية يستند إلى عدة عوامل، من أهمها العوامل الاجتماعية والمتعلقة بآلية التنشئة الاجتماعية للأفراد وتربيتهم وتكوين عاداتهم وتقاليدهم واتجاهاتهم نحو مختلف عناصر الحياة الاجتماعية التفاعلية، وفي هذا المحنى غالبا ما تكون تنشئة المنحرف أو المجرم غير سليمة، فتتشكل لديه سلوكات سلبية ومضادة للمجتمع، ثم إنّ المؤسسات التربوية تساهم في انحراف الفرد من خلال عدم الاهتمام بمشكلاته وغياب التوجيه والإرشاد الفعلي للمتعلمين في جل مؤسساتنا التربوية؛ فلا يمكث الذي فشل في التعلم حتى يجد نفسه في الشارع بدون أي كفاءة أو حرفة تمكنه من إيجاد مكانة اجتماعية ودور يؤديه في الحياة اليومية لتحقيق حاجاته وطموحاته، ويزداد الأمر سوءا بتأثير وقت الفراغ في ظل انعدام أماكن التسلية والترفيه وتكوين المراهقين والشباب في جل أحياء السكنات الاجتماعية المنجزة، فيصير الفرد حينها ناقما على نفسه ووضعه الاجتماعي والاقتصادي، ومن هنا تتكون بذور الشخصية

المضادة للمجتمع لدى المراهق والشاب، وحينما يلتقي مع نظرائه في الوضعية ذاتها وبالأفكار والقناعات نفسها تتبلور لديهم فكرة محاولة إثبات الذات، وتحقيق الحاجات بمختلف أنواعها عن طريق السلوكات المنحرفة والإجرامية، وهنا تبدأ الجماعة الإجرامية في التّشكل بدءا بنواة بين شخصين، وغالبا ما يقود هذه الجماعة الفرد الأكثر انحرافا وإجراما.

ومن جهة أخرى تساهم العوامل النّفسية التي يعيشها المراهق والشابّ في دفعه إلى الانضمام إلى جماعة إجرامية، فمن المفترض أنّ للبيئة الأسرية تأثيرا في صقل شخصية الطفل بمبادئ متّزنة، ولكن كيف يتأتى هذا إن كانت الأسرة مفككة يسودها العنف والشجار؟! هنا يكون المراهق أو الشاب ناقما على نفسه وأسرته، فيلجأ إلى الشارع أين يجد رفقاء السوء فيمهدون له الطريق للانضمام إلى جماعة منحرفة وإجرامية.

كما أنّ البيئة التي يعيش فيها المراهق أو الشاب، وقرب المنحرفين والمجرمين جغرافيا من مكان سكنه يمكن أن يكون سببا في الانضمام إليهم.

أمّا العوامل الاقتصاديّة وخاصة قلة فرص الشغل فإن أثرها بارز؛ فلا شكّ في أنّ إشباع الحاجات الاقتصاديّة وتوفير المال يمكنه أن يساهم في الاستقرار النفسي والاجتماعي للشاب، فبفضل العمل يمكن أن يحقّق الشاب مكانة اجتماعية ويُكوّن أسرة وأولاد ويساهم في خدمة مجتمعه، وفي حالة العكس سوف لن يجد الشاب أمامه سوى قسوة الفراغ وأفراد يماثلونه في وضعيته وتطلعاته، فيكون انضمامه لجامعات الانحراف والجريمة من أوسع أبوابه.

4- الإجرام في أحياء السكنات الاجتماعية:

لفهم سلوكات الإجرام في أحياء السكنات الاجتماعيّة ينبغي التفصيل فيما يأتي:

4-1- تكوين الجماعة الإجرامية في الأحياء الفوضويّة:

يتمّ ترحيل العائلات القاطنة بالأحياء الفوضويّة عادة إلى أحياء السكنات الإجتماعية، ومتابعة تفاصيل التّفاعل الاجتماعي في الأحياء الفوضويّة يجعلنا نخلص إلى النقاط الآتية:

- الحي الفوضوي مُكوّن من مجموعة من الأكواخ القصديريّة التي تنعدم فيها شروط الحياة الكريمة، وغالبا ما تحتوي على عدد كبير من الأفراد في الكوخ الواحد.

- بناء الأكواخ يتمّ بطريقة عشوائية وفوضوية تنعدم فيها الطرق المناسبة، وتفتقر لشبكات الصّرف الصّحي وشبكات الإنارة القانونيّة، كما نجد تداخل في الأكواخ في شكل تكديس بشري.

- غالبا ما تكون العائلات قد نزحت من ولايات داخلية هروبا من صعوبة العيش وانعدام فرص الشغل، فالحي الفوضوي يتكون من مزيج من العائلات النازحة من الولايات الداخلية المتاخمة للولاية محل الحي الفوضوي.

- انتشار البطالة بشكل كبير في الأحياء الفوضوية، فالعائلات أغلبها ذات دخل محدود ومنخفض جدا.

- تعاني الأحياء الفوضويّة من نسبة تسرب مدرسي كبيرة لأفرادها.

- انتشار كبير للانحراف والجريمة مثل: السرقة، الاعتداءات الجسدية، الخمور والمخدرات استهلاكا ومتاجرة، ممارسة الدعارة .... إلخ.

- انتشار الأسواق الفوضويّة بجانب الأحياء الفوضوية في الطرقات العمومية مما يشكل إعاقة لحركة المرور.

- عدم وجود وسائل النقل بداخل الأحياء الفوضوية ولا أي منشأة عمومية أخرى؛ أي أنّها منطقة مغلقة ومعزولة، مداخلها متعددة ومخارجها صعبة جدا بالنسبة لغير القاطنين بها.

- انتشار الأمراض وتدهور المستوى الصحي نتيجة انتشار التلوث في هذه الأحياء.

أمام هذا الوضع السائد في الأحياء الفوضويّة تبدأ نواة تشكيل جماعة إجرامية في كل حي، بدءا من انقطاع المراهقين والشباب عن الدراسة، وقربهم مكانيا من بعضهم البعض، واكتسابهم اتجاهات سلبية نحو المجتمع من خلال عدم وجود سكن لائق وانتشار البطالة، حيث يكتسبون شخصية مضادة للمجتمع، ويتوافقون في الانفعالات والاتجاهات السلبية، فيسعون إلى تجسيد سلوكات وتصرفات تتوافق مع اتجاهاتهم وحاجاتهم لتكتسي هذه السلوكات طابع العنف والانحراف والجريمة ولو على حساب الآخرين، ممّا يهدد الاستقرار الاجتماعي برمته، لينتقل العمل من الفردي كالسرقة بطريقة النشل مثلا أو اقتحام منزل إلى الفعل الإجرامي الجماعي أي جماعة إجرامية، وعادة ما تبدأ هذه الجماعة نشاطها بالجرائم البسيطة كالسرقة مثلا؛ لتتطور أهدافها لتحقيق مقابل مادي أكبر، فيلجأ أعضاؤها إلى السرقة ذات المقابل المادي الكبير والمتاجرة في المخدرات، وسرقة السيارات.... إلخ. وهنا يتمّ هيكلةُ الجماعة الإجرامية في الحي الفوضوي بشكلٍ منظمٍ وسرّي؛ يقودهم شخص هو أكثرهم إجراما وعنفا، ولديه سجل قضائي حافل بارتكاب الجرائم المختلفة.

تضمّ الجماعة الإجرامية في الغالب مراهقين وشباب يسيّرهم نظام سرّي بينهم، يستخدمون الحراسة لمداخل مواقعهم في الأحياء الفوضوية بواسطة الدراجات النّارية والهواتف النّقالة، ويمكن لهذه الجماعات الإجراميّة أن تضمّ فتيات يتمّ استغلالهنّ في شبكات الدعارة أو في ترويج المخدرات.

4-2- الجماعات الإجرامية في أحياء السكنات الاجتماعية:

الملاحظ في بناء أحياء السكنات الاجتماعية أنّها مجرد عمارات مرصوصة بها مداخل ومخارج قليلة وضيقة، تحتوي على عدد كبير جدا من الشّقق؛ حيث تعد بالمئات والآلاف، كما تحتوي على ظروف الحياة الكريمة ولكنها تفتقر إلى أماكن التّرفيه والتّرويح عن النّفس والتّكوين وقضاء وقت الفراغ، أمّا طريقة بناء هذه المساكن وتموقعها فإنّهما يساعدان على نشاط الجماعات الإجرامية خاصة مع الكثافة السكانية الكبيرة والطرقات الضيقة والمداخل والمخارج المحدودة.

ولفهم آلية انتقال الجماعات الإجرامية إلى أحياء السكنات الاجتماعية نعتمد على الشّكل التّوضيحي الآتي:

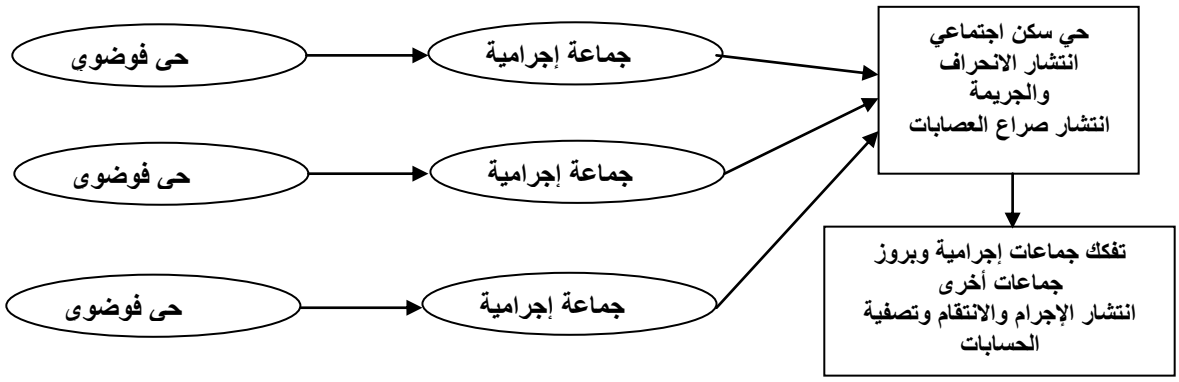

الشكل رقم **(02)** : يوضح آلية انتقال الجماعات الإجرامية إلى أحياء السكنات الاجتماعية الجديدة

في العادة يتمّ ترحيل القاطنين في هذه الأحياء الفوضوية إلى أحياء السّكنات الاجتماعية جماعات جماعات ومن أحياء فوضوية مختلفة، أي أنّ الجماعات الإجراميّة تأتي مهيكلة من الأحياء الفوضوية إلى أحياء السكنات الاجتماعية، لتباشر إعادة ترتيب نفسها وممارسة إجرامها في المنطقة الجديدة.

من الممكن أن تتعدّد الجماعات الإجرامية وتتعدد زعامات تلك الجماعات، ومن ثَمّ يبدأ الصراع في السيطرة على منطقة نشاط لممارسة أفعال الإجرام من سرقة ومتاجرة في المخدرات والمواد الممنوعة.... إلخ. وهنا يظهر ما يسمى بحرب العصابات في أحياء السكنات الاجتماعية؛ وهي عبارة عن شجارات تستعمل فيها كل الأسلحة البيضاء والزجاجات

الحارقة (المولوتوف) واقتحام البيوت وتخريبها، حرق وتخريب السيارات، الاعتداء على عامة النـــاس وممتلكـــاتهم....إلخ، وينجم عنها خراب مادي وحتى حالات قتل وتنكيل.

يؤدّي هذا الصّراع في أحياء السكنات الاجتماعية إلى انتشار اللاأمن والانحراف والجريمة بسبب الصراع بين الجماعـــات الإجرامية للسيطرة على منطقة نفوذ، كما يؤدي أيضا إلى تفكك جماعات إجرامية إمّا لعدم قدرتها على مواجهة جماعات أخرى لتسود الجماعة الأقوى والأكثر خطورة وإجراما، أو نتيجة تفكيكها من طرف مصالح الأمن، كما يمكن أن تتشكل نواة أخرى لجماعة إجرامية بناء على الجماعات الوافدة إليها وأعضاء آخرين جدد، وهكذا تبقى الجماعـــات الإجراميـــة تتشكل وتمارس الإجرام ثم تتفكك لتبرز جماعات إجرامية أخرى.

أمّا فيما يتعلق بنشوء الجماعة الإجرامية فهي في العادة تبدأ بلقاء اثنين منحرفين يشتركان في الأفكار نفسها والمعتقـــدات التي تتعلق بتقبل السلوك المنحرف والإجرامي، ثم تبدأ الجماعة في التّوسع من خلال قضاء وقت أكبر مع بعـــض، بحكـــم قربهم مكانيا في منطقة السكن، وغالبا ما يتسامرون لوقت متأخر من الليل لبناء اتجاهات سلبية مشتركة؛ حيث يتم احتدام المناقشة والصراع بين الجماعة ليبرز قائدهم الذي يكون الأجرأ على ممارسة الانحراف والإجرام، فيتمّ تحديـــد أهـــداف الجماعة وطبيعة نشاطها الإجرامي لتبدأ عادة بالسرقة، ثم المتاجرة بالخمور، ثم المخدرات، لتتطوّر إلى أفعال إجرامية أعقد وأخطر لأنها تدر مقابلا ماديا كبيرا، وتسير الجماعة بنظام محكم من حيث السّرية والتّواصل من حيث المكـــان والزمـــان والوسيلة، حيث يُكلَّف كلّ عضو بمهمة قد تكون مراقبة الهدف، أو حراسة مكان النّشاط حتى لا يقعوا في قبضة رجال الأمن، أو تنفيذ خطة الفعل الإجرامي المتفق عليها بإحكام. وتعتمد الجماعة الإجرامية على التخويف والترهيب للقاطنين في الحي الذي تتواجد فيه حتى يضمنوا عدم الوشاية بهم، وقد يمارسون حتى الانتقام بطريقة بشعة عبرة للآخرين.

ثالثاً: العوامل النفسيّة والاجتماعيّة الداعمة لانتشار الانحراف والجريمة لدى المراهقين والشّباب

1. الاندفاعيّة والتّهور: يتميّز الشّباب عامة بالاندفاعيّة والاستثارة وحب المغامرة في سلوكاتهم بصفة عامة، وهو ما ينطبق على سلوكاتهم المنحرفة والإجرامية التي تتّسم بالجرأة والمخاطرة والتّهور بثقة خادعة مفرطة في النفس.

2. محدوديّة الخبرة الاجتماعيّة: يتّسم الشّباب بمحدوديّة الخبرة الاجتماعيّة في التعامل مع المشكلات والقضايا التي تعترض سبيلهم في حياتهم الشخصية والاجتماعية، فمثلا نجدهم لأتفه الأسباب يتورطون في سلوكات إجرامية حـــتى يعتـــادون عليها، وخاصة إذا تمّ دخولهم للمؤسسات العقابيّة؛ بحيث يصبح لديهم تقبل بل وسمة تميزهم في محيطهم الاجتماعي.

3. الشخصيّة المضادة للمجتمع: قد يحدث وأن تبرز الشخصية المضادة للمجتمع لدى المراهقين والشباب نتيجة ظـــروف معيشتهم في الأحياء القصديرية مثلا، أو انتشار العنف في الوسط الأسري، فيصبحون على استعداد تـــام لولـــوج عـــالم الانحراف والإجرام وحتى الجريمة المنظمة في شكل جماعات.

4. الدور السلبي لوسائل الإعلام: أضحت بعض القنوات الفضائية وبرامج شبكة الانترنت تقدم برامج فيها الكثير مـــن نماذج السلوكات المنحرفة والإجرامية، فيتمّ تعلمها عن طريق الملاحظة والاقتداء ومن ثم تجسيدها في الواقع الاجتمـــاعي المعيش.

5. الأحياء القصديريّة أو الفوضويّة: تنتشر الأحياء القصديرية كثيرا في بلادنا، وهي بؤر للانحراف والإجرام.

6. ضعف الوازع الديني: تمثل تعاليم ديننا الحنيف نبراسا نهتدي به في حياتنا الاجتماعية، وقد حرّمت في مجملها الانحراف والجريمة، إلا أنّ ضعف الوازع الديني والالتزام بتعاليم ديننا الحنيف يساهم في استدخال قناعات واتجاهات ســـلبية لـــدى

المراهقين والشباب، خاصة في ظل الفراغ الروحي من الإيمان، الأمر الذي يؤدي إلى ضعف مستوى ضبط السلوك الفردي والجماعي بما يتوافق مع مبادئ الشّريعة الإسلاميّة.

7. التفكك الأسري والإهمال العائلي: كثيرا من نلاحظ في حياتنا الاجتماعية مراهقين يتسامرون إلى ساعات متأخرة من الليل أو إلى أولى ساعات الصباح دون رقيب، وكأنهم لا ينتمون إلى أسر، ممّا يفتح أمامهم الطريق للانحراف، وشيئا فشيئا يلجون عالم الإجرام أين يجدون أنفسهم أعضاء في جماعات إجرامية.

8. ضعف التواصل الأسري: من شأن انعدام أو ضعف التواصل الأسري أن يؤدي بالمراهق أو الشّاب إلى افتقاد خدمات التّوجيه الأسري وهو في أمس الحاجة إليها، فيُفضّل المكوث أكبر وقت ممكن في الشارع، وفيه يتعلم كل السلوكات المنحرفة والإجرامية ويندمج في جماعات إجرامية.

9. الإدمان على المخدرات والمشروبات الكحولية والمواد المهلوسة: يلجأ بعض الشباب إلى تناول المواد المخدرة هروبا من مشاكلهم، إلا أنّهم يقعون في مشاكل أعقد من خلال انحرافهم وانضمامهم لجماعات إجرامية نتيجة الحاجة للمال لتلبية متطلباتهم من المواد المخدرة، فسرعان ما يجدون أنفسهم يتاجرون فيها، وقد يحدث وهم فاقدون للوعي أن يرتكبوا جرائم قتل.

10. انتشار البطالة ووقت الفراغ وعدم الاهتمام بالتعلم والتكوين: إنّ انتشار البطالة لدى الشباب يمكن أن يساهم في دفعهم للانضمام إلى جماعات إجرامية بغية تلبية حاجاتهم المادية، خاصة وأننا نلاحظ في حياتنا الاجتماعية عزوف المراهقين والشباب عن متابعة تعليمهم بجدية، أو متابعة برامج التكوين المهني المفتوحة للجميع لتعلم حرفة أو مهنة تساعدهم في أداء دور اجتماعي وتحقيق مكانة اجتماعية تساهم في استقرارهم النفسي والاجتماعي.

رابعاً- آليات الوقاية من الانحراف والجريمة في أحياء السكنات الاجتماعية:

إنّ الوقاية من الانحراف والجريمة في أحياء السكنات الاجتماعية يتطلّب اللجوء إلى آليات وقائية فعّالة من أهمها:

-الاهتمام برعاية المراهقين والشباب وذلك من خلال تضافر جهود جميع مؤسسات التنشئة الاجتماعية؛ حيث تعتبر هذه الأخيرة عملية سامية، لما لها من دور محوري في بناء شخصية الأفراد وتفاعلاتهم الاجتماعية، كما تمثل العامل الرئيس لاكتساب المعارف والعادات والتقاليد والاتجاهات والقيم السائدة في المجتمع، وتتمّ عملية التنشئة الاجتماعية من خلال وسائط متعددة من أهمها: الأسرة، المدرسة، المسجد....إلخ. وهي تهدف إلى إعداد الأفراد للحياة الاجتماعية، والمساهمة في تنميتها بفاعلية وفق متطلبات الأمن والاستقرار الاجتماعي، وبذلك يمكن اعتبار التنشئة الاجتماعية عملية مستمرة تستند إلى مكونات نفسية واجتماعية وثقافية تؤسس لتجسيد السلوك القويم لدى المراهقين والشباب، وتدفعهم إلى نبذ ورفض مجمل السلوكات المنحرفة والإجرامية.

- بناء سكنات اجتماعية مدروسة نفسيا اجتماعيا وأمنيا قصد التحكم في بسط الأمن فيها والحد من تَكوُّن الجماعات الإجرامية بها.

- تفكيك الجماعات الإجرامية أثناء ترحيلهم من الأحياء الفوضوية إلى أماكن متفرقة بناء على معلومات مصالح الأمن والقاطنين في تلك الأحياء.

- ضرورة تكامل المؤسسات التربوية ومؤسسات التكوين المهني لتأطير المراهقين والشباب وتكوينهم بصفة إلزامية وإشراك الأسر في هذه العملية.

- المواجهة الصارمة لتكون الأحياء الفوضوية.

– التوعية الأمنية لبناء الوعي الأمني لدى المراهقين والشباب.

– ضرورة إدراج مادة الوعي الأمني في المنظومة التربوية ومنظومة التكوين المهني.

– ضرورة وضع سياسة تنموية ذات بعد اجتماعي واقتصادي بطريقة متوازنة بين المدن الكبرى والمدن الداخلية والأرياف لتفادي الهجرة الداخلية الفوضوية.

– ضرورة فتح آفاق متعددة للشغل لدى الشباب والتي من شأنها أن تمكنهم من تحقيق مكانة وأدوار اجتماعية، وتؤدي آليا إلى انخفاض نسبة انخراطهم في الانحراف والجريمة.

– توفير كل متطلبات الحياة بما فيه وسائل الترفيه والراحة في أحياء السكنات الاجتماعية لملء وقت الفراغ بصفة مناسبة.

خاتمة:

تعتبر الجريمة في أحياء السكنات الاجتماعية وليدة الانحراف والجريمة التي تكونت وتطورت في أحياء السكنات الفوضوية التي تنتشر بشكل لافت على تخوم المدن الكبرى، نتيجة الهجرة العشوائية من المدن الداخلية والأرياف للحصول على فرص عمل وظروف حياة أفضل، والواقع أن المدن في حد ذاتها تعاني من مشكل نقص فرص العمل والسكن، الشيء الذي يتسبب في تفاقم الوضع، لذلك وجب بلورة سياسة اجتماعية واقتصادية فاعلة، من خلال توفير التنمية الاجتماعية والاقتصادية للأرياف والمدن الداخلية، حتى لا يفكر قاطنوها في الهجرة نحو المدن، زيادة على ما يتعلق بالمؤسسات الخدماتية، إلى جانب مؤسسات اقتصادية ناجحة. الأمر الذي قد يساعد على الاستقرار الاجتماعي والاقتصادي للشباب واهتمامهم بعملهم وتحقيق ذواتهم وتطوير مسارهم المهني، ومن شأن هذا الإستقرار أن يؤسس لبناء أمن واستقرار اجتماعي حتى يعيش أفراد المجتمع بأمان واطمئنان.

قائمة المراجع:

- الشيباني، محمد عمر (1983). الأسس النفسية والتربوية لرعاية الشباب، بيروت : دار الثقافة.
- العتوم، عدنان يوسف (2008). علم نفس الجماعة – نماذج نظرية وتطبيقات عملية-، عمان: دار إثراء للنشر والتوزيع، ط1.
- العطية، ماجدة (2003). سلوك المنظمة: سلوك الأفراد والجماعات، عمان: دار النشر والتوزيع. ص 135
- النعيم، عبد الله العلي (2004) . الأحياء العشوائية وانعكاساتها الأمنية، ندوة (الانعكاسات الأمنية وقضايا السكان والتنمية)، 22 ديسمبر 2004، القاهرة.
- الياسين، جعفر عبدالأمير (1981). أثر التفكك العائلي في جنوح الأحداث، بغداد: وزارة الثقافة والأعلام، ط 1.
- اليوسف، عبد الله وآخرون (2006). العنف الأسري، السعودية: وزارة الشؤون الاجتماعية.
- خضير، كاظم حمود (2002). السلوك التنظيمي، عمان: دار صفاء للنشر والتوزيع، ط1.
- دينكن ميشال (1986). معجم علم الاجتماع، ترجمة :إحسان محمد حسن، بيروت: دار الطليعة، ط2.
- عبد الباقي، صلاح الدين محمد (1999). السلوك الفعال في المنظمات، الإسكندرية: دار الجامعة الجديدة للنشر.
- عبوي، زيد منير والعطاري، يوسف ذيب (2012). الاتجاهات الإدارية الحديثة في العمل الفريقي (فريق العمل)، عمان: دار الخليج للنشر والتوزيع.
- عوض، عباس محمود (1999). المدخل إلى علم نفس النمو، القاهرة: دار المعرفة الجامعية.
- قهواجي، أمينة (2007). ديناميكية الجماعة والعمل الفريقي في المنظمة، مذكرة ماجستير غير منشورة، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير والعلوم التجارية، جامعة بومرداس، الجزائر.
- كامل، سهير أحمد (1994). سيكولوجية نمو الطفل، القاهرة: النهضة المصرية.
- محمد سليمان، سناء (2008). مشكلة العنف والعدوان لدى الأطفال والشباب، القاهرة: عالم الكتب.
- مظهر، سليمان (2010). علم النفس الاجتماعي: نظرية المواجهة النفسية الاجتماعية، الجزائر: منشورات ثالة.

La bibliographie :

- Medhar, Slimane et AChaibou, Mahfoud (2004). Typologie de la violence a travers la société Algérienne, Alger : édition LARPSO .
- Michaud, Yves (1978) .violence et politique, Paris : Gallimard.
- Perrieu, Nicolas (1999). Larousse, grand dictionnaire de la psychologie, Montréal, Québec.

صورة لإعجاز النص القرآني في لغة الفكر الإسلامي المعاصر

أ.صونيا حسيني

جامعة باتنة 01

ملخص البحث:

جاءت بعثة النبي ﷺ في زمن كان العرب أهل اللغة العربية، التي ملكت عالمهم الصحراوي. أين أقاموا لها الجلسات والنوادي وتفاخرت القبائل بينها بالشاعر الفحل، وقد كان سوق عكاظ منتدى الشعراء من قبائل الجزيرة العربية في مكة، فكانت رسالة محمد ﷺ معجزة إلى القوم. وكان وحي الله تعالى إلى نبيه آيات قرآنية بلسان عربي مبين. يتحدى به العرب أن يأتوا بمثله قرآنا يُتلى على أسماع العرب.

ولبيان أهمية هذا الموضوع جاء هذا البحث لدراسة إعجاز القرآن الكريم من زمن البعثة النبوية إلى يومنا هذا. فكان لا بد من طرح السؤال، هل إدراك الإعجاز القرآني هو بنفس الصبغة التي عرفت زمن النبي ﷺ؟، فكان لهذا البحث مقدمة لتحديد الموضوع تحت مسمى: صورة لإعجاز النص القرآني في لغة الفكر الإسلامي المعاصر. أما خطوات الموضوع جاءت كما يلي :

أولا: اللغة العربية، ثانيا: العلم، ثالثا: الوحي.

وفي الخاتمة كان محاولة لتحديد مفهوم الإعجاز القرآني وفق اللغة العربة، والمفهوم الاصطلاحي، واستعمال القرآن الكريم للفظ "إعجاز"، وتحديد مظاهر إعجاز القرآن الكريم.

وعن أهمية هذا الموضوع فهي بيان دراسة علمية لموضوع الإعجاز القرآني اليوم، والاستفادة من الدراسات القرآنية الموضوعية في الجامعات الإسلامية.

Résumé.

Les miracles du Coran dans la langue de la pensée contemporaine

Mission du Prophète, paix soit sur lui et est venu à un moment où les peuples arabes de la langue arabe, qui possèdent leur désert du monde, où ils ont installé leurs réunions, les clubs et les tribus vantés, y compris l'étalon poète, était Okas poètes du marché forum tribus de la péninsule arabique à la Mecque. Était le message du Prophète Muhammad miracle pour les gens, et a été inspiré par Dieu au Prophète versets porte-parole a indiqué arabe, défie les Arabes à venir en nature.

Pour illustrer l'importance de ce sujet est venue cette recherche pour étudier les miracles de l'époque de la mission du Saint Prophète à nos jours.

Il ne était pas nécessaire de poser la question : Reconnaissez-vous le miracle du Coran est le même pigment cette époque connaissait la prophétie ? Cette recherche était de déterminer l'introduction au sujet et est venu étapes comme suit :

Tout d'abord, la langue arabe. Deuxièmement : la science. Troisième : Apocalypse.

En conclusion, ce était une tentative de définir la notion de miracle coranique selon la langue arabe, et le concept et l'utilisation idiomatique le Coran au mot «miracles» et identifier les aspects de miracle coranique.

المقدمة

القرآن الكريم كتاب الله الذي نزله على عبده محمد ﷺ، وحمله النبي رسالة إلى العالمين ليُخرج العرب من عبادة الأصنام والأوثان، إلى عبادة الله سبحانه وتعالى.

خاطب القرآن الكريم عرب الجاهلية بلغتهم الفطرية، ورغم تعنتهم وصدهم عن سماع آياته المنزلة، إلا أن تأثيرها كان كبيرا في كثير من القوم، جعل الكثيرين منهم يؤمنون بوحدانية الله تعالى؛ وعمر بن الخطاب أصدق مثال على هذه الصورة التي تكررت مرات عدة.

هذه اللغة التي حملها القرآن الكريم في طياته، جاءت من خلال بناءات تركيبية تُعرف بالسور القرآنية التي تتكون بدورها من جمل بيانية هي الآيات. "وقد افتتحت بعض السور القرآنية بحروف هي من كيان هذا القرآن"[1]، جاءت للدلالة على لغة هذا الكتاب، ومن خلاله كانت معجزة النبي ﷺ هي هذا الكتاب المقدس، هذه المعجزة التي اختلفت عن عصا موسى عليه السلام وسحره زمن فرعون، وعن القدرة الربانية للنبي عيسى عليه السلام في إبراء الأكمه وإحياء الموتى، وناقة صالح عليه السلام التي قاسمت القوم ماءهم.

القرآن هو رسالة الإسلام إلى العرب في نزوله الأول، جاء يحمل قانونا تشريعيا متكاملا لبناء المجتمع المسلم، وسرد مجموع قصص الأنبياء، والغابرين من الأقوام السابقة، كما أظهر بعض الأمارات المستقبلية في مجموع سوره وآياته...

الإشكالية المطروحة اليوم، تكمن في صورة الإعجاز القرآني التي يمكن للعقل الإنساني أن يدركها؟

هل نضع الإعجاز القرآني في إطار نزوله الأول زمن البعثة النبوية؟

أم نفهم الإعجاز القرآني في إطار واقعنا المعاصر اليوم؟، وبأي منهج يكون هذا الفهم وتحت مسمى الإعجاز القرآني بأي وصف يكون، علمي، أم لغوي، أم نوع آخر لم يتحدد منهجه؟

العرب في الجاهلية كانت هوايتهم في لغتهم، فلم يقتصروا على استخدامها في ضرورات الحياة اليومية، شأن الشعوب الأخرى، وإنما كان العربي يتفنن في استخدام لغته، فينحت منها صورا جمالية لا تقل جمالا عن صور النحت العالمية. أي هناك تركيبة فطرية عربية للذوق البياني، عكس ما يحدث اليوم لشعوب الدول العربية، "فمنذ وقت طويل لم نعد نملك في أذواقنا عبقرية اللغة العربية"[2].

القرآن الكريم يحمل بين دفتيه الدليل القاطع على أنه فوق كلام البشر، وأنه معجزة النبي ﷺ، وهذه حقيقة لا يمكن إغفالها، وفهم إعجاز القرآن يتطلب إدراك وجه الإعجاز فيه،"إن إعجاز القرآن يدرك ولا يمكن التعبير عن وصفه"[3]، وللوصول إلى نتيجة في هذه الدراسة يجب تحديد معنى الإعجاز أولا.

مفهوم الإعجاز:

1- الإعجاز لغة: العين والجيم والزاي أصلان صحيحان، يدل أحدهما على الضعف والآخر على مؤخر الشيء[4].

والجرجاني يجعل الإعجاز في الكلام، أن يؤدي المعنى بطريق أبلغ من جميع ما عداه من طرق أخرى[5].

والإعجاز مشتق من العجز، نقيض الحزم، وعجز عجزا أي صار عاجزا، وهو أيضا الفوت والسبق، يُقال أعجزني فلان أي فاتني وقال الليث: أعْجَزَني فلان أي عجزت عن طلبه وإدراكه[6].

الإعجاز اصطلاحا: الإعجاز في الكلام هو أن يؤدي المعنى بطريق هو أبلغ من جميع ما عداه من طرق[7].

2- الإعجاز اصطلاحا:

أما المعجزة فهي من العجز أي عدم القدرة، يقول السيوطي: "المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة، وهي إما حسية، وإما عقلية"[8]. وقد تعددت آراء العلماء في تحديد مفهوم الإعجاز، وذلك تبعا لتعدد أوجه الإعجاز القرآني المختلفة، ولعل المتقدمين اتفقوا على أن الإعجاز القرآني، هو عجز القدرة البشرية على الإتيان بمثله بينما اختلفوا في نوع العجز، فمنهم من أرجعه إلى نظم القرآن الكريم، كونه في أعلى درجات الفصاحة والبلاغة، ومنهم من

أرجعه إلى ما تضمنه من الإخبار عن الغيب، ومنهم من أرجعه إلى التشريع الدقيق لأمور الحياة، وأشار إلى التشريع المتكامل الذي جاء في هذا الكتاب المعجز، وما تضمنه من أحكام لسياسة الأخلاق والمجتمعات والدول، ومنهم من أرجعه إلى صنيعه في القلوب، وتأثيره في النفوس، وغيرها من الوجوه التي استدل عليها العلماء في بحوثهم المختلفة[9].

ومنهم من أرجعه إلى الهداية التي امتلكها هذا الكتاب، من خلال معانيه ومقاصده[10].

أما عن معناه في القرآن الكريم فقد قال الراغب الأصفهاني: "العجز أصله التأخر عن الشيء وحصوله عند عَجُز الأمر، وصار في التعارف اسما للقصور عن فعل الشيء وهو ضد القدرة قال تعالى: ﴿ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ (سورة المائدة:31)، وأعجزت فلانا وعجزته وعاجزته: جعلته عاجزا. قال: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ (التوبة:2)، ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ (الشورى:31)"[11] وإذا أراد اللغويون بالإعجاز الضعف والغلبة، فصورته اللغوية هي نسبة العجز إلى الآخر، يقول مالك بن نبي: "وأهل الاصطلاح يرون أن الإعجاز هو الحجة التي يقدمها القرآن إلى خصومه من المشركين ليعجزهم بـــها"[12] وهناك من عرّف الإعجاز على أنه "الإعجاز عموما إثبات عجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله، وهو برهان ساطع ودليل قاطع على صدق النبي ﷺ في دعواه ذلك أن النبي بُعث إلى الثقلين دون الملائكة"[13].

اختلاف العلماء في تحديد مفهوم الإعجاز في القرآن الكريم باختلاف وجوهه وأنواعه، شكل منه مفاهيم مختلفة حسب تحليل وتفسير كل مفسر ومفكر مسلم، والثابت من كل هذا عجز الإنسان عن الإتيان بمثله في كل زمان ومكان، قال ﷻ: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء:88).

إن الإعجاز القرآني يتحدد كون القرآن هو المعجزة العقلية للنبي ﷺ، وعلى اعتبار أن المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة، وهي إما حسية أو عقلية[14]؛ فالتحدي المقرون بالقرآن الكريم جعل العرب يوصفون بالعجز للإتيان بمثله، ولذلك فالكتاب وصف بالإعجاز الذي تنوعت معانيه ودلالاته عند العلماء على اعتبار تنوع وجوه الإعجاز القرآني.

ونتيجة لذلك كان لعلماء القرآن الكريم آراء وتعريفات في تحديد مفهوم الإعجاز القرآني، ومن خلال الدلالة اللغوية فإن الإعجاز القرآني مصطلح ودلالة تؤكد عجز القدرة البشرية على تحدي القرآن وآياته، والإتيان بمثله، لكن الاختلاف الأساس هو تحديد نوع العجز.

الإعجاز القرآني، هو تلك الحجة التي أظهرها الله تعالى على يد نبيه ﷺ ليتحداهم بها، ومتى ثبت التحدي وقع الإعجاز.

وإذا كان الإعجاز هو إثبات عجز الإنس والجن عن الإتيان بمثل القرآن، فذلك برهان قاطع على صدق النبي ﷺ في دعواه، لأن النبي ﷺ بعث إلى الثقلين من دون الملائكة[15].

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء:88).

المذاهب المختلفة في تحديد الإعجاز وتفسيره، شكلت منه صورا للإعجاز في القرآن الكريم، ولبيان إطار هذه الدراسة نجمل عناصرها في نقاط ثلاث: 1- اللغة، 2- العلم، 3- الوحي.

أولا: اللغة العربية:

نزول الآيات البينات على النبي ﷺ في مكة المكرمة، جاء تحديا للعرب للإتيان بمثله، لأنهم أهل اللغة والبيان، "الإعجاز الذي وقع به التحدي كان وجها بيانيا صرفا"[16].

حيث كان القرآن مفتاحا لقلوب العرب، كما يفهم الساحر العملية السحرية، فهذه التركيبة لا تقع إلا إذا ملك العربي الفطرة اللغوية في التذوق البياني، "هذا التحدي لون من ألوان الإعجاز التي اشتمل عليها القرآن وهذا اللون يختص به العرب لأنهم أهل العربية التي نزل بـــها القرآن"[17].

هذا عن الإنسان العربي الفحل الذي يجوب الصحراء محتميا بنسبه وشعره، الذي يحفظه ويحفظ أبيات غيره من فحول الشعر، أما عن المسلم اليوم فهو لا يكاد يحفظ مجموع السور القرآنية القصيرة التي يرددها في كل صلاة، ولا يكاد يفهم الكثير من المفاهيم القرآنية.

وبعد فن الخطابة والشعر العربي الفصيح، انتشر اليوم مصطلح آخر في الأمة العربية والمسلمة، إنه الأمية وآثارها العظيمة على الشعوب العربية، جعلتها عوالم ثالثة، ومتخلفة عن ركب الأمم بالإضافة إلى نعتهم بالأمة التي لا تقرأ.

وغدت الأمية اليوم من الآفات الاجتماعية التي عبأت لها الدول برامج وهياكل مختلفة من أجل التخفيف من ثقلها وآثارها السلبية على الدول.

والأمية في تعريفها البسيط هي: عدم القدرة على القراءة والكتابة.

والمختصون اليوم يجعلون الأمية أنواعا، ويجعلونها في عدة تصنيفات[18].

1- أمية كلية: وهي عدم القدرة على القراءة والكتابة، وتعرف أيضا بالأمية الأبجدية.

2- الأمية الجزئية: التي تشمل مجموع الأشخاص الذين يعرفون الحروف الأبجدية، لكنهم يعانون من عجز كبير في فهم المعاني الحقيقية للمصطلحات.

3- الأمية الثقافية: ونعني بها الأشخاص الذين يعرفون القراءة والكتابة، وليست لهم معلومات ثقافية كبيرة.

4- الأمية المعرفية: ويقصد به الأشخاص الذين لهم مستوى تكوين عال، ولكن يفتقدون للمعارف العلمية العالمية.

5- الأمية الإلكترونية: وهي عدم التمكن من الوسائط الحديثة كالمعلوماتية والانترنيت.

ومن النتائج التي تنشرها هيئة اليونسكو في تقاريرها السنوية[19]، أن الأمية بلغت في أقطار العالم العربي ثمانية وستون مليون أمي (68 مليون) في سنة 2009 ميلادية. منها(68%) بالمائة من الإناث، أي ستة وأربعون مليون (46 مليون) امرأة لا تعرف القراءة والكتابة.

وأظهرت الدراسات المنجزة سنة 2000 ميلادية، أن عدد الأطفال الذين لا يلتحقون بالمدارس في الوطن العربي يقدر بـــتسعة ملايين، والذين يتسربون من المنظومات التربوية في سن مبكرة بـــ اثنا عشر مليون طفل[20].

من خلال ما تقدم، والأمية التي شاعت في الدول العربية، والجهد الذي قامت له الأجهزة والهيئات من أجل تحرير الإنسان العربي من براثن الجهل عموما والأمية على الخصوص، يُطرح السؤال مرة أخرى:

إذا كان التحدي الذي أعلنه القرآن الكريم مستمرا وقائما إلى قيام الساعة، وأن التحدي جاء للعالمين في كل العصور والأمكنة، على اختلاف الألسنة والألوان، فأي معنى لهذا التحدي إذا كان الناس في ما وراء عصر النبوة غير قادرين على فهم وتذوق ومعرفة لغة العرب، ومن ثم فهم غير قادرين على معرفة خصائص بيان القرآن وبلاغته، والذي أصبح القرآن به معجزا حسب قول علماء البلاغة؟ وأي معنى لتحدي الإنس والجن أن يأتوا بيان لا يعرفه ولا يفهمه معشار خلق الله تعالى من وراء أمة العرب؟ .

لذلك كان التحدي القرآني للعرب زمن البعثة النبوية أمرا واقعا، لأن الخطاب القرآني كان موجها إليهم بداية، وكان تحديا بيانيا لغويا لمن عاصر نزول الآيات البينات على رسول الله ﷺ، يختبر فيها القرآن بلاغة العرب وفصاحتهم.

في عهد البعثة النبوية، ومحمد ﷺ يدعو قومه المشركين إلى عبادة الله وحده، كانت الآيات القرآنية تتنزل عليه تباعا، وحينها كان التأثير الواضح للآي القرآني على مشركي قريش.

حيث بلغ من تأثير القرآن على العرب، أن خاف سادة القوم في مكة، أن يستمع إليه الفصحاء والبلغاء فيهم، قال الله ﷻ:﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآَنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت:26)، والغوا فيه أي لا تمكنوا الناس من سماع القرآن يتلى عليهم وحاولوا التشويش عند قراءة القرآن، أو سماع قراءته.

إن هذا الخوف الذي أحدثه القرآن الكريم في قلوب المشركين يدل على إعجازه البياني واللفظي، كما أن التردد الكبير والانهزام أمام سلطان كلمات الحق سبحانه وتعالى، كانت تتجلى من خلال تحدي القرآن الكريم للقوم بالإتيان بمثله، أو عشر سور منه، أو سورة واحدة فقط. والتحدي هنا كان لون من ألوان الإعجاز التي اشتمل عليها القرآن، وهذا اللون يختص به العرب، لأنهم كانوا مطالبين بصياغة جمل من جنس حروف القرآن الكريم.

والتحدي في تعريفه هو: إظهار القرآن الكريم عجز العرب على أن يأتوا بمثله، لأنه من عند الله تعالى، وليس بكلام بشر.

ومن أهم أسباب هذا التحدي الذي جاء في القرآن الكريم، أن الدين الذي جاء به النبي ﷺ، بلغ شأوا بعيدا، وعلا ذكره وكثر أتباعه في أرجاء مكة وخارجها، حاول الكفار النيل من محمد ﷺ، بالطعن في القرآن الكريم، وإنزاله منزلة الكلام المكذوب، فقالوا: ﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (الفرقان:5)، وبلغ العناد أقصاه حين تمادوا في غيهم، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آَيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾(الأنفال:31).

فجاء تحدي القرآن الكريم في سوره وآياته، ليثبت بإعجازه حجيته لنفسه، وحجيته على من أنزل عليه، رسول الله وخاتم الأنبياء والمرسلين، محمد ﷺ، مرسلا به وداعيا إلى الله تعالى .

نزل القرآن الكريم على النبي ﷺ، في زمن كانت اللغة العربية في قمتها عند أهل الحجاز، والبلاغة اللغوية هي مجال كل إنسان عربي للإبداع والبروز بين القوم، "جاء القرآن الكريم أفصح كلام وأبلغه لفظا وأسلوبا ومعنى، ليجد السبيل إلى امتلاك الوحدة العربية التي كانت معقودة بالألسنة يومئذ، وهو متى امتلكها استطاع أن يصرفها، وأن يحدّث منها، وكانت رأس أمره وقوام تدبيره، إذ هي بصيغتها العقلية ومعناها النفسي؛ وهو لا ينتهي إلى هذه الوحدة ولا يستدلي عليها إلا إذا كان أقوى منها فيما هي قوية به، بحيث يشعر أهلها بالعجز والضعف والاضطراب، شعورا لا حيلة فيه للخديعة والتليين على النفس والتضريب بين الشك واليقين"[21].

القرآن الكريم كلام الله تعالى المعجز بوحيه أولا وببيانه ثانيا، وتصويره الحي للأحاسيس والمشاعر الإنسانية، وكذا وصفه للأشياء المحيطة بالإنسان، جعل الإنسان العربي يتأثر بالقرآن وجدانيا، بعد إقامة الحجة والبرهان على صدق القول والمنطق. فالآيات القرآنية المتدرجة في نزولها ألمت بالقلوب الإنسانية بتصويرها الحي، ومَلكت التفكير العقلي بحججها، حين استخدم القرآن اللغة العربية في أحسن صورة لها للتعبير عن فصاحة مطلقة وبلاغة بينة، فكان التصوير البياني أروع إعجاز للقرآن حين نزوله على سيدنا محمد ﷺ.

إن الكلمة القرآنية بمجموع حروفها، هي واحدة وصف وتسمية، تصف المسمى وصفا مطلقا يرتبط بعلم الله تعالى المطلق غير المحكوم بقوانين المكان والزمان.. لذلك فالكلمة القرآنية التي تصف الشيء، تعطي لكل جيل ما يناسب علمه وحضارته حول ماهية الشيء الذي تصفه، دون أن يناقض ذلك المفاهيم التي تعطيها هذه الكلمة لغيره من الأجيال[22].

في هذا السياق بين العلماء أنه لا معنى لتحدي العاجز، وأن التحدي يعني في مفهومه أن العرب الذين عاصروا نزول الوحي، قد وصلوا في البيان والتفنن في ضروب المعاني والبلاغة أعلى درجات الإمكان، ومع ذلك فقد عجزوا واستسلموا للتحدي غير قادرين على رده وكان شأوهم في هذا قول العاجز المستكبر: ﴿ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (الأنفال:31)، ومن هنا يقرر الجرجاني: أن الجهة التي قامت منها الحجة بالقرآن وبانت وبهرت، هي أن كان على حد من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر، وكان محالا أن يُعرف كونه كذلك إلا من عرف الشعر الذي هو ديوان العرب، ثم بحث العلل التي بها كان التبيان في الفضل[23].

ثانيا: العـــلـــــم:

من العهد النبوي إلى الراشدي، كان الإعجاز القرآني يشكل قسما كبيرا من الروح الإنسانية للصحابة ﷺ وتابعيهم، وبتطور الدولة الإسلامية وامتداد رقعتها إلى أقاصي الأرض، ودخول أجناس مختلفة اللهجات في الإسلام، كان السبب أن يحول مفهوم الإعجاز إلى منحى آخر، هو منهج العلوم التي نمت في العهود الجديدة، ذلك أن علماء المسلمين اهتموا بتصنيف الكتب وشرح العلوم، فتحول جانب الإدراك في القرآن الكريم إلى إعجاز علمي، فجاءت المصنفات العديدة لإعجاز القرآن.

والجانب العلمي يمثل محورا هاما في التاريخ الإسلامي، منذ كانت الحضارة الإسلامية تتحكم في مختلف العلوم والمناهج، إلى العهد الحديث أين سار العالم الغربي مركز العلوم حين نهل من الحضارة الإسلامية الكثير.

فأصبحنا اليوم في عصر الذرة والإلكترون في المجال الفيزيائي، والانترنت وتكنولوجيا الاتصال، وهو بداية لثورة في مجال الطب وفسيولوجيا الأعضاء.

إن كل هذه العلوم والاكتشافات والصناعات الدقيقة، سيكون لها الأثر الكبير في تغيير عدد من المفاهيم الإنسانية والاجتماعية والفكرية مستقبلا، من ذلك ما توصل إليه فريق من العلماء الذين بحثوا في علم الجينات حيث قالوا: من المتوقع أن يصل الإنسان للكشف عن أسباب كثير من الأمراض التي كان يعتقد في الماضي بأنها عصية على الفهم الإنساني، وما طرحه عدد آخر من العلماء من إنشاء مجموعة من الثلاجات الحافظة لخلايا الإنسان، والتي يستخدمها الشخص عند الضرورة، وهو ما يعرف بالبنوك البشرية.

هذا التقدم المذهل الذي أدركه العالم الغربي اليوم، يأتي ضمن السؤال الذي طرحته مجلة "العلم والحياة" الفرنسية، لماذا نؤمن بالله من الوجهة العلمية ؟

وهذه مجموعة من الأمثلة في مجال البحوث العلمية، والأبحاث المتطورة التي وصل إليه العلماء، من خلال الفرضيات والنظريات التي تطرح حديثا.

الإنسان في تكوينه الأول في الرحم، يمر بأطوار عدة، من نطفة إلى مضغة فعلقة، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ (الحج:05) ، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (المؤمنون:14) وهو

يعيش في ظلمات ثلاث، يقول ﷻ: ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾(الزمر:06).

القارئ المسلم يصدق هذه الحقيقة العلمية، ويقرأها في كتابه، ولكنه لا يدرك الكنه العميق للفكرة العلمية، ولا يبرهن على إعجاز القرآن من هذه الوجهة، لأنه لا يملك التوصل إلى هذه الحقيقة بمنظاره، ففي كتاب: "أساسيات علم الأجنة" نقرأ ما يلي: "الحياة في الرحم تكون على ثلاث مراحل المرحلة الأولى وهي مرحلة ما قبل الجنينية وتكون في الأسبوعين والنصف الأولى، ثم تليها مرحلة الحميل وتستمر حتى نهاية الأسبوع الثامن، ثم تأتي بعدها مرحلة الجنين التي تمتد من الأسبوع الثامن وحتى الولادة"[24].

مثال آخر، الكون العظيم الذي ننتمي إليه خُلق منذ ملايين السنين، وتشكل ضمن قوانين فيزيائية مدهشة، قال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (الطلاق:12).

وهناك نظريات مختلفة في هذا التكوين، نظرية الانفجار العظيم، نظرية السوبرنوفا، نظرية الكوكب الآخر، كلها نظريات تفقد حقيقتها إلى حين، ونحن نقف مبهورين بهذا الاكتشاف دون أي تفسير أو فهم للواقع الذي وضع فيه. حين توصل علماء الفيزياء الفلكية إلى نتيجة مفادها أن الكون بكل أبعاده المادية والزمنية نتج عما يعرف بـــ"الانفجار العظيم" Big (bang) الذي حصل في وقت قصير جدا، وهو ما يثبت أن الكون خلق من العدم، وأنه نتيجة انفجار نقطة واحدة. ودوائر العلم الحديث تتفق على أن الانفجار الكبير هو التفسير العقلاني الوحيد المقبول عن بداية الكون وكيف وجد[25].

قال تعالى:﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ (الرحمن:20-19).

ثبت أن عدم اختلاط مياه الأنهار ومياه البحار، نعمة من نعم الله تعالى، حيث يحتفظ ماء النهر بعذوبته، ويحتفظ ماء البحر بملوحته، وأيضا فإن أحياء كل منهما لا تختلط بأحياء الآخر، والمشاهد أن مستوى النهر عادة أعلى من مستوى ماء البحر، وقد لوحظ هذا عند التقاء فرعي نهر النيل عند دمياط[26]، قـــال ﷻ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴾(الفرقان: 53) .

واكتشف العلماء أن مياه البحر المتوسط ومياه المحيط الأطلسي لا تختلط البتة، ويعود ذلك إلى قوة فيزيائية تعرف بـــ"الانشداد السطحي" ، تمنع اختلاط المياه المتجاورة، وهذا الانشداد السطحي الذي يسببه اختلاف في كثافة المياه يمنعها من الاختلاط مع بعضها تماما كما لو أن بينها حائطا رقيقا[27]، هل نظر أي مسلم إلى هذا الأمر من وجهته وفلسفته، حتى يقتنع أن الأمر حقيقي، ويدرك إعجازه ﷻ بالرغم من وجود المنطقة[28] قرب سواحل عربية.

إذا كانت نصوص الوحي مجموعة من المعارف يمكن إدراكها، فيجب علينا أن نتذكر أن أول آية نزلت كانت تدعو إلى العلم صراحة، قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (سورة العلق:1)، لأن امتلاك المعرفة يسهل على المسلم الوصول إلى مجموع العلوم المختلفة التي تجعله يفهم، ويدرك إعجاز القرآن الكريم من الناحية العلمية.

ومن وصول الإنسان إلى إدراك المعارف العلمية، والنظريات المبرهن عليها، إلا إذا بدأ من النقطة الثانية بعد القراءة والمعرفة، وهي التأمل والتبصر في خلق الله تعالى فهو سبيل إلى الملاحظة والتفكر في خلق الله وبدأ عملية البحث والاكتشاف.

قال ﷻ: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت:53).

1- الأفـــق:

هذه الآيات التي جعلها الله تعالى في حياة الإنسان، قسمها إلى نوعين، كما نقرأ في الآية الكريمة: القسم الأول جعله الله سبحانه وتعالى في الأفق، وهو المحيط الخارجي الذي يعيش فيه الإنسان، من لحظة ميلاده إلى وفاته، ولهذا وجب على الإنسان التأمل في هذا الفضاء الواسع والتبصر بخلق الله تعالى العجيب، واكتشاف عظمة الخالق ووحدانيته تجلت قدرته.

قال الله تعالى: ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (النمل:88).

من الحقائق العلمية التي أظهرها العلم اليوم، أن للأرض حركتان[29]: واحدة حول نفسها (محورها الوهمي) وأخرى حول الشمس.

والأرض تدور حول نفسها في مدة (23 ساعة و56 دقيقة و4.096 ثانية) قي حركة من الغرب إلى الشرق .

تبلغ سرعة دوران الأرض في المنطقة الاستوائية (1670) كم في الساعة أي حوالي (465) مترا في الثانية، ثم تتباطأ مع خطوط العرض العليا حتى تصل إلى (312) مترا في الثانية عند درجة العرض (50) وتنعدم السرعة تماما في القطبين.

وينتج عن حركة الأرض المحورية (أي دورانها حول نفسها) ثلاثة ظواهر فلكية:

أ- حدوث الليل والنهار وتعاقبهما.

ب- اختلاف التوقيت على سطح الأرض حسب شروق الشمس وغروبها.

ج- نشوء القوة النابذة المركزية التي أدت إلى انتفاخ الأرض في المنطقة الاستوائية.

وجه الإعجاز في آية سورة النمل، أنها أشارت إلى دوران الأرض، من خلال دلالة قوله تعالى: ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾، وهو ما كشفه العلم في القرن السابع عشر الميلادي.

وقد أثبت القرآن الكريم حركة دوران الأرض قبل قرون، وكان وصفه للظاهرة بشكل دقيق ليس فيه محل للظن أو الشك، قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾(النمل:88).

إن هذه الآية القرآنية تقرر أن جميع الأجسام التي تخضع لجاذبية الأرض مثل الجبال والبحار والغلاف الجوي... تشترك مع الأرض في دورتها اليومية حول محورها، ودورتها السنوية حول الشمس، وينتج عن كلا الحركتين الليل والنهار، وتعاقب الفصول الأربعة على الأرض وساكنتها في السنة .

كروية الأرض، لم تحصل للكثير من البشر فرصة، لإدراك هذه الجاذبية التي تحمينا من السقوط.

قال الله ﷻ: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ (الزمر:5)

ومعنى الآية: أي يغشى الليل على النهار، ويغشى النهار على الليل، وكأنه يلف عليه لف اللباس على اللابس. والمنقول عن قتادة أن تكوير الليل على النهار تغْشيته إيَّاه حتى يُذهِب ضوءه، ويُغشي النهار على الليل فيُذهب ظلمته[30]. وقال عبيدة: وأصل التكوير اللف والجمع ومنه كوَّر العمامة[31].

وفي قوله تعالى نقرأ: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾(الحجر:19). يعني أن الأرض مبسوطة في رؤية الإنسان لها، والمعنى هنا يجمع بين الإعجاز اللغوي والإعجاز العلمي في آن واحد.

الحقيقة الظاهرة للعين توافق الحقيقة العلمية، التي لم تظهر للناس زمن أُنزل القرآن على النبي ﷺ، لأن الأرض المبسوطة المذكورة في الآية القرآنية غير محددة بأرض معينة، ومعنى ذلك أن الإنسان إذا وصل إلى أي مكان يسمى أرضا يراها أمامه ممدودة، أي منبسطة.. في القطب الجنوبي أو في القطب الشمالي، أو في أمريكا أو أوروبا أو في أفريقيا أو آسيا. ولا يمكن لهذا الأمر أن يحدث إلا إذا كانت الأرض كروية الشكل وفي ذلك إعجاز الله تعالى في خلقه.

ومثاله إذا بدأ الإنسان في السير من نقطة معينة على سطح الكرة الأرضية، وواصل سيره سيصل إلى نقطة البداية، وهكذا من أي نقطة سار وصل إلى نقطة البداية، ويرى خلال مشواره الطويل أن الأرض ممدودة أي منبسطة، فكان الإعجاز القرآني الذي لا يتصادم مع العلم الحديث، أول كتاب يُظهر الحقائق العلمية ويدلل على صدقها من خلال الآيات القرآنية قبل أربعة عشر قرنا.

التوقف عند ظاهرة الخسوف التي تحدث بين الفينة والأخرى، ومعرفة تفاصيل الحدث، عدا الانبهار الذي يحدث للإنسان من هذا الموقف أمام عظمة الكون الفسيح.

2- النفس الإنسانية:

قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات:20-21). وقال: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت:53).

هذه الآيات القرآنية توجه الإنسان إلى ما ينطوي عليه خَلقُه من الآيات البينات التي لا تنتهي، وتبين للناس بأن الله تعالى سيبنها جلية واضحة، حتى يتبين لهم أنه الحق من ربهم، وهذه حقائق أظهرها العلم من خلال الدراسات العلمية، والأبحاث التي استغرقت أعمار الباحثين[32]، .

- في معدة الإنسان يوجد(35) مليون غدة معقدة التركيب لأجل الإفراز. أما الخلايا الجدارية التي تفرز حمض كلور الماء فتقدر بمليار خلية.

- في مخاطية الفم يوجد (500000) خلية تعوض فورا وذلك كل خمسة دقائق.

- يوجد في اللسان (9000) حليمة ذوقية لتمييز الطعم الحلو والحامض والمر والمالح.

- لو وضعت الكريات الحمراء لجسم واحد بجانب بعضها في صف واحد، لأحاطت بالكرة الأرضية التي نعيش عليها (5-6)، وعددها 5 ملايين كرية حمراء في كل مليمتر مكعب من الدم.

- القلب هو مضخة الحياة التي لا تكل عن العمل، عدد ضرباته (60-80) ضخة في الدقيقة الواحدة، وينبض يوميا ما يزيد عن (مائة ألف مرة)، يضخ خلالها (8000) لترا من الدم.

قال الله ﷻ: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت:53).

وقال ﷻ: ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات:21).

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ (النجم:32)

قال اللهﷻ:﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴾(الفجر:27-28)

قال عز من قائل:﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ (الشمس:7).

الآية الأولى تذكر بآيات الله في الآفاق؛ أي في أقطار السمواتِ والأرضِ من الشمسِ والقمرِ والنجومِ وما يترتبُ عليها من الليلِ والنهارِ، ومن النباتِ والأشجارِ والأنهارِ، وفي أنفسهم من لطيفِ الصنعة وبديعِ الحكمةِ في تكوينِ الأجنةِ في ظلماتِ

الأرحامِ وحدوثِ الأعضاءِ العجيبةِ والتركيباتِ الغريبةِ، كقولِه تعالى: ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾، وذكر الله تعالى أنّ الرؤية قد حصلتْ قبلَ ذلكَ، وذلك دليل أنه تعالَى سيطلعُهم على تلك الآياتِ زماناً فزماناٍ ويزيدُهم وقوفاً على حقائِقِها يوماً فيوم ﴿حتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ﴾ بذلكَ ﴿أَنَّهُ الحق﴾ من ربهم الواحد الصمد[33] .

وقوله تعالى:﴿ فَلاَ تُزَكُّواْ أَنفُسَكُمْ﴾ يقول الزمخشري: "فلا تنسبوها إلى زكاء العمل وزيادة الخير وعمل الطاعات: أو إلى الزكاء والطهارة من المعاصي، فقد علم الله الزكي منكم والتقي أوّلاً وأخرا قبل أن يخرجكم من صلب آدم"[34].

الآيات القرآنية تتحدث عن النفس، الجزء الإنساني الذي يحمل الخير والشر، فهو الكيان المعنوي الذي أودعه الله تعالى في الإنسان، ومنه يحمل تقوى الشخص، أو شره.

الإنسان خلق إلهي معجز، جعله الله تعالى في هذه الأرض حتى يكون خليفة فيها، وهو من المعجزات العظيمة التي أشار إليها القرآن الكريم، في دعوته البشر إلى تدبر الآيات التي تصف هذا الخلق، تكوينه ودورته في الحياة الدنيا ثم مآله في الحياة الآخرة .

إن أعظم خلْق في هذا الإنسان، النفس بكل مفاهيمها ومعالمها التي ذكرها الله عز وجل، " إن حقيقة خلق الإنسان في أصله وتكوينه هي أسمى آيات الألوهية في الإعجاز لبني البشر، وشواهد التحدي الرباني تكمن في ذات الإنسان نفسه، وفي أنه آية، ومن آيات ربه تجلت قدرة الله في كمال خلقه، وحسن سريته حافزا للإنسان أكثر مخلوقات الأرض للتفكر والتأمل في ذاته، وكيفية خلقه، وهي أقرب آيات الله إلى عقله، وبصره"[35].

إن دعوة القرآن الكريم إلى التبصر في هذه النفس، والنظر إلى هذا الخلق البديع، هي دعوة للذكر وبيان الإعجاز الإلهي في خلق الإنسان، والحكمة الإلهية قضت بأن يكون هو الحامل لهذه النفس والمتأمل فيها والمتفكر في خلقها، فما هي النفس؟ وما هو تكوينها؟.

والإجابة عن هذه الأسئلة وَجبَ ذكر المفاهيم اللغوية لمصطلح النفس، ثم تحديد مفهوم للنفس.

النفس لغـــة: جمع النفس أنفاس ونفوس، والنفس في اللغة تطلق على عدة معان[36]:

– النفس بمعنى الروح، يقال خرجت نفس فلان أي روحه.

– النفس بمعنى ذات الشيء وحقيقته تقول: قتل فلان نفسه وأهلك نفسه؛ أي أوقع الإهلاك بذاته كلها، فالنفس هنا تطلق على الإنسان جميعه.

وقد ورد ذكر النفس في القرآن الكريم في آيات عديدة، وتعددت معانيها بحسب سياق النص ومدلولات اللفظ الوارد في الآية القرآنية.

1– النفس بمعنى الروح: قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (الأنعام:93)، لأن الكافر إذا حضرت وفاته تتفرق روحه في جسده، فتخرجها الملائكة وتنتزعها بشدة، ويقال لأصحابها ﴿ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ ، أي أرواحكم، وذلك توبيخا وزجرا[37].

2– النفس بمعنى الإنسان كله روحا وجسدا، قال الله ﷻ: ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (لقمان:28).

3– النفس بمعنى القوة المفكرة في الإنسان، قال الله ﷻ: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾(النمل:14)

4- النفس بمعنى القلب، وما يتصل بـــه من الصدر والفؤاد، قال الله تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (الأعراف:205)، وقال: ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ (يوسف:77)

5- النفس بمعنى قول الخير والشر في الإنسان، ومعظم آيات القرآن الكريم التي يرد ذكر النفس فيها، يشار فيها إلى هذا المعنى.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾(ق:16)، وقال ﷻ: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (النازعات:40-41)، وقال ﷻ:﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ (القيامة:2).

فالنفس شيء داخلي في كيان الإنسان، لا تدرك ماهيته وتكوينه، قابل للتوجه إلى الخير أو الشر، جامع لكثير من الصفات والخصائص الإنسانية التي لها آثار ظاهرة في السلوك البشري.

والنفس بهذا المعنى تشمل الروح والقلب وكل ما في الإنسان من قوى الإدراك التي يميز بـــها الخير والشر[38].

النفس البشرية هي تلك القيمة التي وضعها الله تعالى في كيان الإنسان، وكرمه من دون خلقه أجمعين، فهي الروح والعقل والقلب والفؤاد وكل ذلك جميعا، يحملها الإنسان ليدرك بها وجود الله سبحانه وتعالى، وحقيقة توحيده، وهي بناء عظيم لحياة الإنسان إذا أحسن استغلالها، وسخرها لطاعة الله تعالى وعبادته.

والحديث عن النفس وتركيبها الإدراكي، يقود إلى الحديث عن الدراسات الحديثة، التي أظهرت أن التحكم في الأداء الشعوري، والاختيار التعاملي مع المؤثرات البيئية والداخلية يكون مصدره النفس، وذلك من خلال معلومات موجودة على مستوى الشعور، وسرعة الربط بين المؤثر والمعلومات الموجودة، يدخل ضمن الاعتبارات الهامة في هذه اللحظة، مدى كفاءة الجهاز العصبي.

والربط بين علاقة النواحي النفسية بأداء الجهاز العصبي والحواس المختلفة، من خلال الداء التكاملي البديع، فالخلايا العصبية عن نقل المؤثر وتفسيره وفهمه وإدراكه والاستجابة، بناء على المعلومات النفسية الموجودة في بؤرة الشعور[39]

قال الله تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فألهمها فجورها وتقواها﴾(الشمس:7-8).

من خلال الآيات القرآنية التي تتحدث عن النفس، وتدعو الإنسان إلى التأمل في خلق الله تعالى، والتبصر في عظمة هذه التركيبة الإلهية، ومن خلال هذه المعجزات يأتي بيان الإعجاز القرآني في وصف خلق الله، وقدرته في تكوين هذه النفس، ووصف عملياتها وتأثرها وتأثيرها في المحيط الداخلي والخارجي، وإدراكها للخير والشر، والتفريق بينهما.

والنتيجة الهامة لكل ما سبق، أن الإنسان يعيش عمرا ما، ثم يأتي أجله المحتوم، قال الله تعالى: ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَاب ﴾ (الرعد:38)، أحيانا تغيب عن الإنسان هذه الصورة التي أوجده الله تعالى عليها، وأبدع في صنعها بهذا الشكل الدقيق، هذا عن المظهر الخارجي، أما عن البناء الداخلي للإنسان، فهو صورة حية من الخلايا المكونة لجسمه، والخلايا العصبية، والأعضاء... المعقدة التركيب والتكوين، والعمل العضوي، إن هذه الجمالية البيولوجية والفسيولوجية، يقف البشر أمامها عند كل خلل طارئ أو للعلاج والاستطباب.

ثالثا: الوحـــي:

الوحي في اللغة:

في معجم مقاييس اللغة: "الواو والحاء والحرف المعتلّ: أصلٌ يدلُّ على إلقاء عِلْمٍ في إخفاء أو غيره إلى غيرك. فالوَحْيُ: الإشارة. والوَحْي: الكتابُ والرِّسالة. وكلُّ ما ألقيتَه إلى غيرك حتَّى علِمَهُ فهو وَحيٌ كيف كان. وأوْحَى الله تعالى ووَحَى"[40].

وأوْحَى إليه وأومَي بمعنًى، ووحَيْتُ إليه وأوحيتُ إذا كلّمته بما تخفيه عن غيره، وأوحى الله إلى أنبيائه.﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ (النحل:68)"[41] .

فالوحي يدل على الإشارة والكتابة والمكتوب والرسالة، والإلهام والكلام الخفي، وكل ما ألقيته لغيرك.

قال الراغب الأصفهاني: أصل الوحي الإشارة السريعة، ولتضمن السرعة قيل: أمر وحي وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح وبالكتابة. وقد حمل على ذلك قوله تعالى عن زكريا: ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ (مريم:11)، أي أشار إليهم و لم يتكلم.

وقد أشار محمد رشيد رضا أن معنى الوحي عند علماء اللغة، يدور حول الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره[42].

وقد سمى الله تعالى إعلام أنبيائه ورسله بتوحيده، ودعوة أقوامهم إلى ذلك بالوحي، قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ (النساء:163)، وأكثر ما وردت كلمة "وحي" في القرآن الكريم بمعنى إخبار الله تعالى من اصطفاه من عباده برسالته إلى القوم، وإرادة هدايتهم، وذلك يتم بطريقة سرية وخفية.

وردت لفظة الوحي في كتاب الله عز وجل بمختلف الاستعمالات؛ في اثنين وتسعين موضعاً، ولو أردنا أن نصنف هذه المواضع ونجمع المتماثلات مع بعضها، وننظر في المعنى الذي دلت عليه في كل موضع، فإننا نجد أنها تدور على معانٍ متعددة في كتاب الله عز وجل، أهم هذه الدلالات: معنى خاص، ومعنى عام، وأكثر استعمالاتها في المعنى الخاص[43].

ترد لفظة الوحي في كتاب الله عز وجل ويراد بها: الوحي بالمعنى الخاص، والمقصود بالمعنى الخاص للوحي: الوحي إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد ورد ذلك في مواضع كثيرة من كتاب الله تبارك وتعالى؛ كما قال الله ﷻ:﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾ (النساء:163) وقال سبحانه: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾(الشورى:13)، وكقوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الزمر:65)، وقوله جل شأنه: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ (يوسف:3)، وقـــوله: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا﴾ (الشورى:52)، وقوله: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (الشورى:7). فهذه الآيات وغيرها كثير، فيها يصرح الله عز وجل بالوحي إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومنها ما يصرح فيها بأنه أوحى إلى النبي ﷺ.

فالوحي بالمعنى الخاص: هو إعلام الله لأنبيائه ورسله بما يريد إبلاغه لهم من شرع أو كتاب بالكيفية التي يريدها.

والطريقة والكيفية التي جاء بها الوحي أملتها أية الشورى في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (الشورى:51) .

والتعريف الشرعي لمصطلح الوحي ينقسم إلى قسمين:

1- عندما يطلق الوحي ويراد به المصدر .

2- يطلق ويراد به اسم المفعول (الموحَى) .

فالوحي في الاصطلاح الشرعي، هو كلام الله تعالى ورسالته إلى أنبيائه، والتي تتضمن الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، والقيام على تحكيم الله في أمور الحياة الدنيا، واللجوء إليه.

فالوحي هو ذلك الاتصال الخفي الذي يتم بين المـــُوحي وهو الله تعالى، والمتلقي وهو النبي، مع واسطة بينهما تتمثل في الناموس الذي يرسلها الله عز وجل بهذه المهمة. والقبول الذي يصدر من النبي، هو درجة من الصفاء البشري، والاستعداد لتلقي هذا الأمر العظيم بكل إرادة وثقة. "الأنبياء لهم من سمو فطرتهم، وصفاء أرواحهم، وإعداد الله سبحانه لهم إعدادا خاصا: جسمانيا، وروحيا ما يؤهلهم لتلقي الوحي من الله، أو الملائكة والفهم منهم، والتجاوب معهم، وليس لنا أن نقيس الغائب على الشاهد، أو عالم الروح على عالم المادة[44].

إن الأدلة القرآنية الكثيرة التي تؤكد إمكانية الوحي ووقوعه، منها الآيات القرآنية التي تعطي مفهوما للوحي، وأخرى تذكر أنواعه، وكذا مظاهره وكيفيته.

عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ﴿ مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ من الآيات مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾[45].

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: ﴿ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ﴾[46].

ومن الوحي الذي جاء على لسان خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ معجزة الله تعالى إلى العرب بداية وانتشر في أصقاع العالم بعد ذلك وهو يملك القلوب قبل العقول.

وللإعجاز القرآني وجوه، تعدد ذكرها بحسب إدراك الناس لها، في كل مرحلة من مراحل تدرج نزول القرآن الكريم، وبعد اكتمال إنزاله على النبي ﷺ، وكذا في مرحلة حفظ الصحابة والتابعين لكتاب الله المعجز في صدورهم، ثم تدوينه في المصاحف.

إن التحدي القرآني للعرب زمن تنزله على محمد ﷺ، للإتيان بمثل القرآن الكريم ولو بأقصر سورة فيه، كان نتيجة للمستوى الذي وصل إليه العرب من الإبداع الفني في نظم اللغة العربية والشعر الجاهلي، والتحدي الذي يطلبه القرآن من الإنسان اليوم، يدل على مستوى فهم آخر وصل إليه الإنسان، كما يبين مدى الإدراك العقلي الذي اختص به الإنسان في القرن الواحد والعشرين، فما هو نوع العجز الذي وصل إليه الإنسان ليحقق معنى التحدي في الآيات القرآنية؟.

القوة الكامنة في أسلوب هذا الكتاب المعجز هي السر في إعجازه البياني، وذلك السر النفسي الذي يملأ نواحي الشعور الإنساني، دون أن يستطيع أبرع الناس بيانا وأبلغهم عبارة وأنصعهم مقالا التعبير عن الإعجاز القرآني، بعبارة محدودة مضبوطة بقواعد العلم[47]، ولذلك يقول السكاكي: "إن إعجاز القرآن يدرك ولا يمكن التعبير عن وصفه"[48].

النقاط المطروحة في الإعجاز مسائل ثابتة، أولها أن القرآن الكريم يحمل في بيانه الدليل على أنه ليس من كلام البشر.

الأمر الثاني وقوع التحدي، وبيان القرآن من خلال دعوى الرسول ﷺ عجز العرب عن الإتيان بمثله، لأنه من عند الله تعالى.

وقد مر القرآن الكريم بمراحل ثلاث في تحدي العرب وبيان عجزهم أمام آياته المعجزة، لإثبات العجز الكلي للعربي ابن الصحراء الواسعة، البليغ الفصيح على الإتيان بثلاث آيات من القرآن.

الأمر الثالث، معجزة النبي ﷺ، معجزة علمية، وآية نبوته آية عقلية[49]، فهي أدل على صدقه، قال الله ﷻ: ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (العنكبوت:47-52).

الخاتمة

من خلال هذه النقاط الثلاث، ندرك أن الإعجاز القرآني باق، ما بقي كتاب الله تعالى بين أيدينا على مدى التاريخ، وثباته وتغير معناه على اعتبار العقل البشري وإدراكه في مختلف الأزمان. والنقطة الأساسية التي يرتكز عليها الأمر، الإمكانية اللغوية للعرب، وإدراكهم أن القرآن ليس من كلام البشر، جيل العرب الذين عاصروا نزول القرآن وشوفهوا به، لأنهم كانوا أقدر على نظم الكلام في صورته البشرية العليا، كما كانوا أقدر على إدراك مواطن الإعجاز في أسلوب الكلام المعجز.

إن اختيار المكان والزمان لتنزل الرسالة الخاتمة على رسول الله ﷺ، حكمة إلهية مطلقة، ظهرت آثارها في طبيعة الاستجابة من طرف العرب، وعمقها وسرعتها وانتشارها، وثباتها واستمرارها. وما كان ذلك ليحدث لولا أن طبيعة القوم الذين اختارهم الله تعالى لحمل الرسالة، وطبيعة لغتهم وظروفهم التاريخية لحظة تنزل الوحي، تؤدي وفق سنن الله تجلت قدرته وقـــدره الغالب إلى مثل تلك النتيجة، قال الله ﷻ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام:124).

وقد من الله تعالى على المسلمين بالفتح المبين في مختلف العلوم والمعارف، ومكن لهم من الوسائل والمناهج ما يحصل لهم من مدارسة القرآن الكريم والتعمق في أخباره وقضاياها، والتبحر في علومه ومعارفه، ما يمكن المؤمن من الكشف أكثر لأغوار هذا الكتاب المعجز، وبيان فنون إعجازه الظاهرة، والبحث أكثر عن عناوين للإعجاز القرآني .

والملاحظ أن علماء المسلمين اليوم، لا يبحثون في القضايا اللغوية والبيانية فحسب، إنما ينطلقون من محاور أخرى تعتمد على المعاني والقضايا والتوجيهات والموضوعات، ويحاول الجميع الوصول إلى النتيجة الوحيدة، التي يدركها العلماء قديما وحديثا، أن تحدي القرآن قائم وأن قدرة البشر على الاستجابة ومقابلة التحدي بكل مجالاته أمر خارج عن الإمكان البشري حتى وإن تطورت له العلوم والوسائل والمناهج المعتمدة.

هوامش البحث:

1- السيوطي: أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، دار حجازي، القاهرة، (د.ت)، 55/1.

2- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، الجزائر، ط4، 1407هـ/1987م، ص 57.

3- السكاكي: أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1407هـ/1987م، ص416.

4 - ابن فارس: أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، ت:عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ/1979م 232/4،مادة عجز.

5 - الجرجاني: علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، التعريفات، ت: عبد المنعم الحنفي، دار الرشاد، القاهرة، ص40.

6 - ابن منظور: ، لسان العرب المحيط، دار الجيل، بيروت، (د.ت)، 91/2، مادة عجز.

7 – الجرجاني، التعريفات، ص 40.

8 - السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، 148/2.

9 ينظر: الباقلاني، إعجاز القرآن، ص33، الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ص26-31، الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص32، الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 90/2-91، ابن عطية، المحرر الوجيز، 38/1، الألوسي، روح المعاني، 32/1-33.

10 - محمد الصادق إبراهيم عرجون، القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين، دار القلم، دمشق، ط1، 1410هـ/1989م، ص147.

11 - الراغب الأصفهاني: أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب، معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،ط1، 1418هـ/1997م، 136/2، مادة عجز.

12 - مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص 60 .

13 - السيوطي، الإتقان ، 158/2.

14 - السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، 148/2.

15 - السيوطي، ، الإتقان في علوم القرآن، 158/2.

16 - عدنان زرزور،مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، لبنان، ط2، 1419هـ/1998، ص .150

17 - محمد الصادق إبراهيم عرجون، القرآن العظيم، هدايته وإعجازه، ص145.

18 - ينظر: متولي فؤاد بسيوني، مشكلة الأمية، مصر، 1998م.

19 - ينظر: UNESCO, 2009, forum mondial sur l éducation, Dakar.

20 - عبد الكريم بن أعراب، العولمة وأثرها على المنظومات التربوية العربية، ورقة للملتقى الدولي المنظم من طرف رئاسة الجمهورية، المجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر، 2004م.

21 – محمد صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1421هـ/2000م، ص.139

22 – عدنان الرفاعي، الحق المطلق، نظرية قرآنية في الروح القرآنية، دار الفكر، سوريا، 1998م، ص75.

23 –الجرجاني: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، دلائل الإعجاز، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1995م، ص25.

24 – هارون يحيى، المعجزات القرآنية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ/2003م، ص62، نقلا عن: .Williams basic humain embryology 3 édition 1984 p 64

25 – نفسه، ص12.

26 – السيد الجميلي، الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، دار ومكتبة الهلال، دار الوسام، بيروت، لبنان، ط2، 1992م، ص27.

27 – هارون يحيى، المعجزات القرآنية،نقلاعن: Daves Rechard A, jr, 1972, principales of oceanography, Don Mills Ontario Addison publishing.pp 923.

28 – هناك أمواج عاتية وتيارات قوية، ومد وجزر في البحر الأبيض المتوسط، تدخل مياه البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلسي عبر مضيق جبل طارق ولكن حرارتها وكثافتها ونسبة ملوحتها لا تتغير لأن هناك حاجزا يفصل بينها.

29 – يوسف الحاج أحمد، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة المطهرة، مكتبة ابن حجر، دمشق، ط2، 1424هـ/2003م، ص206-.207

30 – ينظر: الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار هجر، القاهرة، ط1، 1422هـ/2001م، 160/20. والقرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ت، عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1427هـ/2006م، 248/18-249.

31 – القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 248/18. ينظر: ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، 163/7.

32 – يوسف الحاج أحمد، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة، ص90.

33 – تفسير أبي السعود، 6/ 68. وينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 140/27.

34- الزمخشري: جار الله أبو القاسم محمود بن عمر، الكشاف، دار العبيكان، الرياض، ط1، 1418هـ/1998م، 245/5.

35– غازي عناية، حقائق العلم في القرآن والسنة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1417هـ/1997م، ص145-146.

36 - ابن منظور، لسان العرب، 233/6، مادة (نفس) ، والراغب الأصفهاني، المفردات، ص.501

37 – ينظر: ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، دار طيبة، الرياض المملكة العربية السعودية، ط2، 1420هـ/1999م، 302/3.

38 – عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، دار القلم، دمشق، ط5، 1420هـ/1991، 229/1، بتصرف.

39- عبد الباسط الجمل، عالم الحياة بين القرآن والعلم، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1421هـ/2001م، ص73، بتصرف.

40 – ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 6 /93، مادة (وحي).

41- الزمخشري: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد، أساس البلاغة، ت: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1419هـ/1998م، 324/2، مادة: (وحي).

42 – محمد رشيد رضا، الوحي المحمدي، مؤسسة عز الدين، بيروت، لبنان، ط2، 1352هـ، ص81.

43- أرشيف ملتقى أهل التفسير1، الحلقة الثانية من المهمات في علوم القرآن، الشيخ خالد السبت، 1850/1.

44- محمد بن محمد أبو شهبة، المدخل لدراسة القرآن الكريم، دار الجيل، بيروت، 1412هـ/1992م، ص82.

45 – رواه الشيخان واللفظ للبخاري، كتاب: فضائل القرآن، باب: كيف أنزل القرآن وأول ما نزل، رقم:4981، و7274، 336/3.

46 – رواه البخاري في صحيحه، كتاب: بدء الوحي، رقم:3، 14/1،. ومسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، 97/1.

47 – محمد الصادق إبراهيم عرجون، القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين، ص164.

48 – السكاكي، مفتاح العلوم، ص60.

49 – ينظر: بدرية بنت حسن العثمان، من بلاغة القرآن الكريم في مجادلة منكري البعث، دار الراية، المملكة العربية السعودية، ط1، 1417هـ، ص20-24.

صدى اغتيال النقابي التونسي" فرحات حشاد"5ديسمبر1952 في الصحافة الجزائرية – جريدة المنار أنموذجا -

د.محمد السعيد عقيب

جامعة الولدي

الملخص:

يعالج هذا المقال، صدى اغتيال الزعيم النقابي التونسي فرحات حشاد في صحيفة المنار الجزائرية، فلقد عرفت القضية التونسية خلال مطلع الخمسينيات من القرن العشرين، العديد من التطورات التي كان لها صدى داخليا وخارجيا، ومن أهم تلك الأحداث اغتيال الزعيم النقابي فرحات حشاد، وكان لذلك أثرا في تونس والأقطار المجاورة، من ابرز مظاهره تناول الصحافة للحدث، ومن بين تلك الصحف جريدة المنار الجزائرية، التي تتبعت ظروف وأسباب حادثة الاغتيال، و مميزات شخصية فرحات حشاد، وتفاصيل تلك الحادثة وانعكاساته على القضية التونسية.

Résume

Cet Article traite l' écho de l'assassinat du dirigeant syndical tunisien" Farhat Hached" dans le journal algérien" Al-Manar". depuis le début des années cinquante du XXe siècle, la question tunisienne vu de nombreux évènements qui ont eu un écho, intérieurement et extérieurement, et les plus importants de ces événements l'assassinat du dirigeant syndical "Farhat Hached ", et était donc un effet en Tunisie et dans les pays voisins, les manifestations les plus importantes adressées à la presse pour l'événement, et parmi ces journaux le journal algérien "Al-Manar", qui ont suivi les circonstances et les causes de l'incident d'assassinat, et les caractéristiques personnelles "Farhat Hached", et les détails de l'incident et les effets sur la question tunisienne.

1- مقدمة:

عرفت الأوضاع في تونس مطلع خمسينيات القرن العشرين تصاعدا في حدة التوتر في العلاقة بين الوطنيين التونسيين وسلطات الحماية، فرغم التوصل إلى إنشاء حكومة تفاوضية ومشاركة الحزب الدستوري الجديد في عضويتها إلا أنها وصلت إلى الفشل.

وأقرت السلطات الفرنسية بعض الإصلاحات التي لم تكن في مستوى طموح التونسيين الذين بدورهم انخرطت جل فئاتهم في النضال الوطني، وكان من أبرزهم العمال الذين استطاعوا الاندماج في مسار تبني القضية الوطنية والوقوف إلى جانب الحركة الوطنية التونسية من أجل تحقيق رغبات الشعب التونسي في التحرر من الاستعمار.

ومن مظاهر هذا التلاحم سلسلة الإضرابات التي شنها العمال بين سنتي 1950-1952، ومن أهم الشخصيات التي قادت النضال في هاته الفترة "فرحات حشاد"[1].

الذي استطاع تأطير العمال وربطهم بالقضية الوطنية، فشكلوا رافدا متينا مندمجا في صف الدفاع عن القضية التونسية وحقوق التونسيين، وكان من نتائج هذا النشاط الكبير الذي قام به فرحات حشاد، أن أقلق السلطات الاستعمارية، ومن يدور في فلكها. مما أدى إلى اغتياله في 05 ديسمبر1952. وكان لذلك صدى واسعا تعدى تونس ليصل الأقطار المغاربية والعربية والدولية .

فكيف كان صدى اغتيال فرحات حشاد في الصحافة الجزائرية ممثلة في جريدة المنار؟ و ماهي روايتها للحادثة وتصورها لانعكاساتها على القضية التونسية؟.

2- التعريف بالجريدة:

المنار جريدة جزائرية نصف شهرية ظهرت في مدينة الجزائر، وهي صحيفة سياسية ثقافية، دينية حرة، وكان أول عدد لها بتاريخ: الجمعة 21 جمادي الثاني 1370هـ الموافق 29 مارس 1951، واستمرت في الصدور إلى غاية يوم الجمعة : 26 ربيع الثاني 1373هـ الموافق 1 جانفي 1954، وتعود فكرة تأسيسها لعام 1950، وفي هذا يقول محمود بوزوزو صاحب الجريدة في المقدمة التي وضعت لتقديم سلسلة الجريدة الصفحة الثالثة:((وجاء عام 1950 فعرض علي بعض الأصدقاء المنتمين إلى حركة الانتصار للحريات الديمقراطية، إصدار جريدة وطنية غير متحزبة تكفل لها حقوق الطبع والتوزيع، مع استقلال التحرير بشرط بث الروح الوطنية، وهكذا نشأت جريدة" المنار"))[2].

عرفت أثناء مسيرتها نوعا من التذبذب في الحفاظ على المدة الزمنية المحددة للظهور، وكانت تتوقف عن الصدور أثناء العطلة السنوية للمطبعة، وذلك خلال شهر سبتمبر من كل سنة، واحتجبت لمدة تجاوزت الشهرين خلال شهري سبتمبر أكتوبر سنة 1953، وهذا لأسباب مادية، وعند عودتها للصدور في العدد رقم :48 المؤرخ بيوم: 6 نوفمبر 1953، ظهرت في صفحتين فقط، مما يدل على سوء حالتها المادية، وفي نفس العدد قال صاحبها: ((فصدور المنار في هذا الحجم الصغير بعد هذا الاحتجاب الطويل من أوضح الأدلة على حالتها المادية، ولولا مساعدة بعض الفضلاء الأخيار من هذه الأمة لطال احتجابها إلى أمد بعيد، أو لكان هذا العدد يحمل إلى قرائها تحية الوداع الأخير ...غير أنه حال دون ذلك عزم صادق لدينا في مواصلة خدمة قضيتنا العادلة، وحب عميق للحق الخالد و إرادة صلبة في سبيل تحقيق المثل العليا التي تهفو إليها قلوبنا وسعي جدي في إثبات حقوق الفكر الحر في هذه الأرض التي أنزل بها الاستبداد والطغيان ألوان من الأمراض الفتاكة بجميع أنواع الحرية)).

وأبدى محمود بوزوزو أسفه عن السبب المادي لعدم صدور الجريدة قائلا: ((فلو كان احتجاب "المنار" ضربة استعمارية لهان الخطب، إذ من عادة الاستعمار أن يضايق حرية التعبير ، ولأقمنا الدنيا وأقعدناها وبرهنا له أننا نصمد لضرباته...أما أن تحتجب "المنار" بتفريط من قراءها ومشتركيها ومقدري مهمتها خصوصا في وقت الكفاح، وهي تخدم القضية القومية بتراهة وإخلاص، فذلك لا يمكن تصوره والصمت عنه، إلا إن ماتت الضمائر ولم يبق للفكر الحر مناصر، وهذا ما لانتصوره، وهل صرختنا هذه إلا دليل على إيماننا بحياة ضمائرنا وحرية أفكارنا))[3].

وبهذا التوقف أصبحت حياة الجريدة واستمرارها في مرمى الخطر الذي يهدد مواصلة صدورها، وهو ما حدث فعلا، إذ نجد أنها تتوقف عند العدد رقم :51، إلى الأبد، أما عن ثمنها فكانت قيمته عشرون فرنكا، ثم ارتفع إلى خمس وعشرون فرنكا ابتداء من العدد الثامن، الصادر يوم الجمعة: 29 ذي القعدة 1370هـ الموافق 31 أوت 1951، أما عدد صفحاتها، فقد كانت الانطلاقة بأربع صفحات إلا أن العدد: 18 من السنة الثانية، الذي كان بتاريخ الجمعة 13 جمادي الثاني 1372هـ الموافق 27 فيفري 1953م، كان عدد صفحاته ست صفحات.

وابتداء من العدد رقم: 48 أصبحت تصدر في صفحتين فقط، نتيجة الأزمة المالية التي مرت بها، وظلت كذلك حتى عددها الأخير رقم:51. الذي احتوى على أربع صفحات.

وكان الاشتراك السنوي لها يقدر بـ : 500فرنك عن كل خمس وعشرون عددا، أما اشتراك المناصرين فيقدر بـ: 1000 فرنك، وابتداء من العدد 12 من السنة الأولى، صار الاشتراك السنوي يقدر بـ: 600 فرنك، أما اشتراك المؤيدين فبقي ثابتا.

أما عن سر تسميتها بالمنار، فيقول صاحبها في العدد الأول الصادر بتاريخ 29 مارس 1951 في صفحتها الافتتاحية: ((وقد سميتها المنار تفاؤلا ، ورجاء أن يؤتيها الله نورا من لدنه تنقشع به الظلمات الحالكة التي تخيم على أمتنا من جميع الميادين، وسيرسل المنار أشعته تطارد الظلام، أينما حل، فتنير السبل للسائرين أنى كانت وجهته السياسية أو الثقافية أو الدين أو الحرية)) [4].

أما طريقة كتابة العنوان فقد عرفت تغيرا، إلا أنها استقرت على كتابته بالخط الفارسي، ويفصل حرف النون عن الألف منارة تنبعث منها أشعة.

ورفعت الجريدة شعار: جريدة، سياسية، ثقافية، دينية، حرة، لكنها ابتداء من العدد العاشر من سنتها الأولى ، أضافت إلى ما سبق بيتين شعريين من نظم الشاعر محمد العيد آل خليفة وهما:

طوينا للمطالب كل بحـــــر *** طمى وبدت معالمها الكبار

فحيتنا الشواطئ من بعيد *** وأومأ بالشعـــــــــاع لنا المنـــــار.

وكانت لغتها عربية بسيطة سهلة، وذات أسلوب صحفي راق، وعادة ما تتبع المواضيع بصور معبرة عن الأحداث التي تتناولها المواضيع التي توردها على صفحاتها، وكان عنوانها: صندوق بريد رقم : 3 الجزائر،– Alger-Bourse أما مقرها ففي 28 شارع -Mulhouse – بالجزائر ، وكان المدير المسؤول عنها هو: محمود بوزوزو.

3– نبذة عن حياة صاحب الجريدة:

ولد محمود بوزوزو يوم 23 فيفري 1918 في مدينة بجاية شرق الجزائر وحصل على إجازة في الفقه، ثم اتجه إلى قسنطينة للدراسة في المدرسة الرسمية، وكان إذ ذاك في السادسة عشرة من عمره، اتصل بالشيخ عبد الحميد ابن باديس، فأوصاه – حسب ما جاء في مقدمة سلسة الجريدة – : ((إياك أن تتردد علينا، فإنهم إذا رأوك أضروك ، ولا أريد أن يصيبك ضرر بسببنا، أتمم دراستك وبعد ذلك كن مسلما))، وكان عمره حينها في السادسة عشرة من عمره فعمل بالوصية، إلا أنه كان يذهب ليلا إلى الجامع الأخضر لحضور دروسه في التفسير، وأتمم دراسته بقسنطينة، وانتقل إلى المدرسة العليا بالعاصمة، وأنهى بها الدراسة ونال الشهادة العليا.

التحق بجمعية العلماء المسلمين، وانخرط في سلك المصححين والمحررين بجريدة "البصائر"، وكان إلى ذلك المرشد العام للكشافة الإسلامية الجزائرية، وانعقد مؤتمر عام للكشافة في صيف 1947 فعين على إثره رئيسا لها[5].

واشتغل في الجزائر معلما للغة العربية و قبل أن يشتغل بالصحافة ويصدر مجلة " المنار". أودع الشيخ بوزوزو السجن، ثم نفته سلطات الاحتلال الفرنسي بعد الإفراج عنه، فتوجه إلى المغرب أولا ومنها إلى سويسرا في عام 1958، وأقام في إحدى القرى الصغيرة بالقرب من مدينة مونترو الشهيرة الواقعة على ضفاف بحيرة ليمان، ثم جرب العيش في برلين، لكن الحياة هناك لم ترق له، فقرر العودة إلى سويسرا التي منحته حق الإقامة الدائمة، وعاش في جنيف منذ عام1962 [6]، وبها عمل إماما وخطيبا في المركز الإسلامي في جنيف، أول مركز إسلامي في سويسرا أسسه الراحل المفكر الدكتور سعيد رمضان، كما عمل أستاذا للغة العربية في مدرسة جنيف الدولية للترجمة حتى سن التقاعد، وكان يعتزم العودة إلى الجزائر وافتتاح صحيفة خاصة، لكنه آثر البقاء في جنيف.

وساهم الشيخ بوزوزو في تأسيس المؤسسة الثقافية الإسلامية في جنيف، وعمل خطيبا بها لبعض الوقت، وهو من الأعضاء المؤسسين لمؤسسة "قرطبة للحوار بين الحضارات وتبادل الثقافات" ومقرها جنيف. وكان يحرص على اللقاء مع النخبة من المثقفين المقيمين في سويسرا من حين لآخر لتدارس أحوال العالمين العربي والإسلامي، وتبادل الآراء والأفكار[7].

وهو أب لأربعة أبناء وكان عضوا نشطا بجمعية قرطبة الثقافية، وعرف بأنه كثير المطالعة في الفنون والعلوم المختلفة، وله مكتبة خاصة تعد قرابة 10.000 كتاب[8].

توفي – رحمه الله – بتاريخ الخميس 15 رمضـــان 1428 هـــ الموافق لـــ : 27 سبتمبر 2007 في جنيف بسويسرا بعد عمر ناهز 89 سنة[9].

4- تطورات الأحداث بتونس قبل اغتيال فرحات حشاد :

كانت تونس مطلع خمسينيات القرن الماضي تعيش ظروفا سمتها التدهور في المجالات الاقتصادية والاجتماعية، و السياسية وحتى الثقافية، مما جعلها تعيش على وقع نوع من التذمر التونسي العام من السياسة الفرنسية المتعجرفة إزاء التونسيين، الذين كانوا ينتظرون انفراجا في الأوضاع بعد مطلبهم بتحسينها.

ولقد تبنى الباي التونسي ذاته مطالب الوطنيين التونسيين التي كانت تمثل مطالب الشعب التونسي، حيث طلب الأمين باي من المقيم العام جون مونص– Jean Mons – بمناسبة عيد الفطر إدخال إصلاحات جوهرية ضرورية جديرة بأن ترض رغبات التونسيين وتحقق مطالبهم، وكان هذا الطلب بتاريخ 27 جويلية 1949، وزاد الباي تمسكا بفكرته عندما راسل رئيس الجمهورية الفرنسية في 11 أفريل1950 قائلا بأنه: ((يخشى أن تؤول مظاهر الملل السائدة في الشعب التونسي إلى يئس من شأنه أن يثير ما نود اجتنابه))[10].

وسار الحزب الحر الدستوري الجديد وفق هذا التوجه أيضا، فنجد أنه في مؤتمره المنعقد في 29/28 ماي 1950 نشر في لوائحه التأكيد على ضرورة ضبط رزنامة تصل بمقتضاها البلاد التونسية للاستقلال، وسافر بورقيبة إلى باريس حاملا لائحة مطالب حددها ديوان الحزب كحل للقضية التونسية الذي عرف ببرنامج النقاط السبع.التي تمحورت في: ((إعادة اعتبار السلطة التنفيذية التونسية، وتكوين حكومة تونسية، وإلغاء خطة الكاتب العام الفرنسي الذي يراقب أعمال الحكومة، وإلغاء كل المراقبين المدنيين الذين يمثلون الإدارة الاستعمارية المباشرة، وإلغاء الجندرمة – الدرك – الفرنسية، وانتخاب بلديات لا يدخلها الفرنسيون إلا في المدن التي تكون لهم فيها مصالح، وانتخاب جمعية وطنية – مجلس نواب – عن طريق الاقتراع العام توكل إليها أولا وبالذات مهمة تحرير دستور ديمقراطي يضبط العلاقات الفرنسية التونسية على قاعدة احترام مصالح فرنسا والسيادة التونسية))[11].

وتم لاحقا اعتراف الحكومة الفرنسية على لسان وزير خارجيتها بحق التونسيين في حكم بلادهم، وعلى أساس هذا الاعتراف قامت وزارة محمد شنيق للتفاوض مع الفرنسيين في نقل السلطة الداخلية إلى التونسيين[12].

وتم تأسيسها في 17 أوت 1950 وتكونت من ستة وزراء تونسيين وستة آخرين من الفرنسيين وشارك فيها الحزب الحر الدستوري الجديد بعد مناقشات داخلية كبيرة[13].

وتتابعت الشهور على هذه التجربة التي دخلها الحزب الدستوري إلى أن أعلنت إصلاحات 8 فيفري 1951، وكانت مخيبة للآمال رغم التنازلات التي أقدم عليها الحزب المذكور باشتراكه في الحكومة[14]، وبهذا فتح المجال نحو توتر العلاقات من جديد فجاء خطاب الباي في 15 ماي 1951، ليعلن حق تونس في التمتع بسيادتها الكاملة وحريتها الشاملة أسوة بالدول الحرة، ووحد التونسيين كلمتهم، ووقفوا يسعون بالطرق السلمية– طرق التفاوض– وانتقل الممثلون التونسيون إلى باريس للتفاوض مباشرة مع الحكومة الفرنسية، وتقديم مذكرة اشتملت على عرض للحالة التي كانت سائدة وكذلك على مقترحات للحل في شتى الجوانب التشريعية والتنفيذية، وذكرت الفرنسيين بالمعاهدات السابقة[15].

وكان رد الحكومة الفرنسية في مذكرة بتاريخ 15 ديسمبر 1951، وجهت إلى السيد شنيق اقترح فيها إنشاء لجنة مختلطة فرنسية- تونسية ابتداء من جانفي 1952 لتدرس كيفية تعويض المجلس الكبير للبلاد التونسية بالنظام النيابي، ويتبين من هذا الرد أن الحكومة الفرنسية لم ترد بها إرضاء التونسيين على حساب إغضاب المعمرين الفرنسيين، فاستعملت أسلوب المراوغة لإيهام التونسيين وامتصاص غضبهم[16].

فردت الحكومة التونسية بدورها على هذا الجواب الفرنسي مبينة أنها على استعداد تام لضمان مصالح فرنسيي تونس، وإن لم تتفق وجوبا مع مصالح فرنسا، إلا أن هذه المصالح وإن كانت مرعية لا يمكن بحال أن تكتسب صبغة سياسية تسوغ لهم المشاركة في دواليب الحكم والنيابة.ومما جاء في الرد: ((إنه عندما تقدم الحكومة الفرنسية هذا الإصلاح كوسيلة أولية ضرورية تنمية الديمقراطية التونسية تصرح الحكومة التونسية بغاية من الارتياح أن القاعدة الأساسية لكل ديمقراطية هي أولا وبالذات — السيادة الموحدة – فبدون وحدة السيادة الواجب الاعتراف بها قبل كل مداولة تصبح الديمقراطية التونسية صورة مشوهة للديمقراطية الحقة، ويصبح الوضع الذي تتمثل فيه هذه الديمقراطية وهما وغرورا)) وفي ختامها يقول الوزير الأول: ((وإنني وزملائي لما لنا من الشعور السامي بمسؤوليتنا، لنحتفظ لأنفسنا تجاه هذه الحالة بحق استخلاص جميع العبر والنتائج، لإتباع السلوك الذي تقتضيه المصالح العليا التي أنيطت بعهدتنا))[17]. ويظهر هذا الرد استياء الحكومة التونسية من الرد الفرنسي على مذكرتها، لأنها تجاهلت العديد من القضايا التي يطالب التونسيين بها.

ومن الجدير ذكره أن مشاركة الحزب الدستوري الجديد في الوزارة التفاوضية أثار العديد من ردود الفعل داخليا وخارجيا، ولقد سجلت "المنار" رؤيتها لهذه المسألة وكتب صاحبها " محمود بوزوزو " بالمناسبة مقالا تحت عنوان " قضية المغرب واحدة وكفاحه واحد ".

تعرض من خلاله للدرس الذي يؤخذ من هذه التجربة بالقول:((فالدرس الذي نستخلصه من التجربة التونسية هو أن سياسة المفاوضات في نطاق الوضع الاستعماري غير مجدية، فإخفاق هذه السياسة في تونس، قد بين سداد الخطة التي خطتها لجنة تحرير المغرب العربي[18]: الاستقلال التام قبل كل مفاوضة ...فهو يتطلب من إخواننا التونسيين العودة إلى هذه الخطة السديدة وسيجدون بجانبهم إخوانهم الجزائريين والمراكشيين الثابتين على هذه الخطة وللاستعمار جزيل الشكر على هذا الإخفاق الذي تتلقى منه أقطار المغرب كلها درسا جديدا، فهمها أهدافه الميكيافلية، ونبهها إلى بناء كفاحها على الأساس المتين الذي وضعته لجنة تحرير المغرب العربي، وبين لها سداد هذه اللجنة فيما قررته من أن قضية المغرب واحدة، فيجب أن يكون كفاحه واحد))[19]. وهكذا فالجريدة حذت حذو لجنة تحرير المغرب العربي، وساندت موقفها المندد بهذه التجربة ذاكرة سلبياتها وآثارها التي تتعدى حدود إقليم تونس إلى غيره، واعتبرت ميثاق اللجنة مرجعية يجب أخذها في الاعتبار عند كل تصرف مصيري في قضية أي قطر من أقطار المغرب العربي.

5- حادثة اغتيال فرحات حشاد :

أ- ظروفها وأسبابها:

إثر التهديد الذي وجهته الإدارة الفرنسية إلى الباي، وبينما تناقش القضية التونسية من طرف اللجنة السياسية التابعة لهيئة الأمم المتحدة في هذه الظروف يغتال أكبر زعيم نقابي تونسي وذلك يوم 5 ديسمبر 1952، من هو هذا الرجل الذي اغتيل؟ إنه فرحات حشاد الذي جمع شتات العمال التونسيين، وولى وجهه شطر توجيههم وإرشادهم خلال السنين الطوال ليدافعوا عن مصالحهم الطبيعية.

إنه فرحات حشاد الذي استطاع بفضل عزيمته وجهاده، تحقيق تجمع الجماهير التونسية لمناهضة نظم الحماية الفرنسية القائمة على التمييز بينهم وبين المعمرين[20].

إن من الأسباب المباشرة لاغتياله، تتضح في كونه شخصية محورية في العمل السياسي التونسي، فرغم كونه شخصية نقابية، إلا أن ارتباطه كان وثيقا بالعمل السياسي الوطني، ليس بالنسبة له كشخص بل لجميع العمال التونسيين والاتحاد العام التونسي للشغل.

وهذه الخاصية هي من أهم خصائص الحركة النقابية التونسية في عهد الاستعمار وهي التسيس السريع، وكانت الحركة تشارك في النضال الوطني الذي عبأت له كل الطاقات، خاصة في عهد فرحات حشاد الذي كتب سنة 1949 قائلا:((هل يكون للعمل النقابي معنى بدون الضمانات الأساسية للحريات التي يطمح إليها كل رجال العالم؟ وهل يمكن تحقيق الانجازات الاجتماعية لدى شعب لا ينعم بخيرات الديمقراطية؟ وكيف يمكن للحركة النقابية أن تتطور في بلد لا يوجد فيه أي ضمانات للحرية الفردية والطبيعية))[21].

ونجده في ديسمبر 1948 يحمل مسؤولية كل المصائب التي عانت منها تونس إلى الاستعمار بقوله:((انظروا ما حولكم تجدوا أيادي الاستعمار، وراء كل نكبة من نكباته))، وقال أيضا:((إن سعادة الطبقة الشغيلة مقترنة بسعادة الوطن وبراحته ولا يمكن تحقيق الازدهار الاجتماعي تحت نفوذ النظم الاستعمارية، وضغطها، والطبقة العامة التونسية التي تشعر كل الشعور بهاته الحقائق تبذل أقصى الجهد لتكون خير مثال في كفاح البلاد حتى بلوغها غايتها المنشودة))[22].

ثم إنه أعطى تشخيصا للاستعمار بالقول: ((إن الاستعمار كما قلنا ذلك مرارا وتكرار هو شكل الرأسمالية الأكثر دناءة، ورغم قوته الظاهرية فقد عرف هذا النظام هزائمه الأولى، إذ ترك الهند والصين و الباكستان واندونيسيا، إن يقظة الشعوب أصبحت تهدد الاستعمار بالانهيار وتجدر الإشارة إلى أن هذا الأخير (أي الاستعمار) ساهم في تدمير نفسه عن طريق الأعمال التناقضية التي يسير عليها في سياسته الرامية دوما إلى احتكار المال فيقضي بذلك على القدرة الشرائية في أوساط الطبقات العاملة، ويعرقل الاستهلاك لمنتوجات مؤسساته الاقتصادية مما يؤدي إلى احتكار السلطة والعبث بكل مظاهر القومية للشعوب المولى عليها، فيوجد بذلك جبهة المقاومة ويعجل بالثورة ضده، والتي تقوم بها كافة طبقات الشعب والتي تجعل مصيره الفناء))[23].

ووفق هذا التصور للعمل النقابي وضرورة العمل على تحرير البلاد من الهيمنة الاستعمارية، نجد أن الاتحاد التونسي للشغل يساند احتجاجات الشعب التونسي بالإضرابات التي كانت تشمل شتى المجالات، والتي منها إضراب 21 إلى 23 ديسمبر 1951 احتجاجا على الرد السلبي الذي قدمته السلطات الفرنسية يوم 15 ديسمبر1951، وكذلك إضراب أفريل 1952 عقب تعيين حكومة البكوش، فكان هناك تكامل من أجل تحقيق الاستقلال.

ب- مميزات شخصية فرحات حشاد:

إن شخصية فرحات شخصية فذة، كانت له أعمال عظيمة، وهو متواضع وبسيط، وكان ذا خلق متين، وبساطة في المظهر والحديث والاتزان في الأعمال والأقوال وضبط النفس في الشدة واليسر. وكان مناضلا بسيطا متواضعا، لا يلفت أنظار الناس إليه بمنظره وإنما يلفت أنظارهم بأعماله التي تطير أنباؤه إلى مختلف أطراف البلاد التونسية وتتجاوز أحيانا حدود البلاد التونسية إلى أطراف العالم . هذا المناضل البسيط المتواضع لا يمكن أن يخلفه أحد بعينه لأن شخصيته الفذة وأفكاره النيرة وأعماله العظيمة طبعت جيلا كاملا من الشغالين التونسيين وتركت خطة واضحة المعالم لرفاقه المقربين

ومساعديه الأوفياء، فهذه النخبة المختارة من مساعديه وهذا الجيل الذي طبعه فرحات حشاد بطابعه الخاص هو الذي يخلف فرحات حشاد ويضطلع بإتمام رسالته في البلاد التونسية[24].

وقد قدم السيد عبد الحميد مهري أوصافا لفرحات حشاد قائلا : ((...فرحات حشاد شخصية قوية ولكنها كانت لا تفرض نفسها على الناس فرضا عنيفا بل كان الناس يحبون قوتها فينجذبون إليها مختارين ويهرعون اليها يلتمسون العون في الملمات، وكانت هذه الشخصية القوية تتدثر بدثار من الخلق المتين والبساطة في المظهر والحديث والاتزان في الأعمال والأقوال وضبط النفس في الشدة واليسر، وكان هذا الجانب اللين الناعم هو كل ما يظهر من شخصية فرحات حشاد القوية لمن يعرفونه من بعيد لو يجتمعون به مرة أو مرتين. وكان فرحات حشاد واسع الأفق متين الثقافة السياسية والاجتماعية، وكان مع هذا واقعيا لا يجمح به اتساع أفقه عن الرأي الصائب والخطة الحكيمة في كليات الأمور وجزئياتها، كان يرى أن واجب الطبقة العاملة في بلاد محتلة هو أن تكون في طليعة الكفاح التحريري قبل كل شيء. وكان يرى أنه من الغلط الفاحش أن يتروي العمال في نقابتهم ويعكفوا على خويصة أنفسهم يطالبون بترفيع الأجور وتحسين ظروف العمل في بلاد مهددة كلها بالابتلاع من طرف الأجنبي. وهذا هو الذي ينقمه عليه المستعمرون ويصفونه بالعمل السياسي))[25].

وقد أدرك فرحات حشاد بتقديره الواقعي الرزين أن الاتحاد العملي بين الأقطار المغربية ضروري لنجاح قضاياهم فكان لهذا شديد الإيمان بالوحدة المغربية وكان يصنع الخطط لتنظيم العمل التونسي والجزائري والمراكشي في جامعة نقابية واحدة.وكان يقول:((ما معنى إضراب عمال الفسفاط في تونس، إذا كانت الشركات المستغلة توجه كل قواها لإنهاك عمال الفسفاط في مراكش لتعوض خسائرها؟)).وكان لهذا شديد الاهتمام بكفاح العمال الجزائريين والمراكشيين كثير الاتصال بهم وله بينهم أصدقاء عديدون، و لم تكن هذه الجامعة النقابية المغربية غاية عند حشاد بل كان يراها خطوة أولى تفتح الطريق لتكوين جبهة سياسية بين الأحزاب والهيئات المغربية، و لم يغب عن فرحات حشاد – وهو الرجل الواقعي- أهمية كسب الأنصار في الخارج، فكان يعمل جاهدا في هذا المضمار يراسل ويسافر ويحضر المؤتمرات ويكتب في المجلات العالمية ويدعو الشخصيات العالمية لحضور المؤتمرات والاجتماعات التي يشرف على تنظيمها وإدارتها ويعرضها على العالم صورة حية ناطقة لمجهود الطبقة العاملة التونسية وقدرتها على التنظيم في الكفاح.[26]

إن فرحات حشاد استطاع أن يحول ضعف العمال إلى قوة ، واتحادهم إلى سيف بتار لينقذهم من عهد الاستعمار الفرنسي ، عهد الظلم والاستبداد ، عهد أبشع أنواع الاستغلال و أفظع أشكال العنف والاضطهاد، وقد تمكن بفضل جهاده المستميت وعزيمته الصلبة ونصحه الثمين وغيرته الوطنية الصادقة أن يوحد صفوف العمال التونسيين، ليلعبوا دورهم التاريخي في طليعة المناضلين الأحرار لتشرق شمس الحرية على ربوع البلاد التونسية. واستطاع أن يحقق تجمع الجماهير التونسية حوله لمناهضة نظم الحماية الفرنسية القائمة على الميز العنصري.[27]

ومما يدل على مساعيه الوحدوية وتأثيره في نفوس الجزائريين والمراكشيين تلك الحركات والإضرابات الاحتجاجية التي أعلنت عقب اغتياله، فحدثت بعدها اضطرابات في مراكش، وتضامنا واسعا في الجزائر، وعندما أحيا التونسيون أربعينيته أقاموا صلوات في المساجد وعقدت عدة اجتماعات نقابية في النوادي الخاصة لإحياء هذه الذكرى[28].

و لم يحل عام 1951 حتى غدا البعد المغاربي في فكر الاتحاد العام التونسي للشغل وعمله واضحا وبلغ أوجه حيث وقع إضراب عام احتجاجا على القمع الفرنسي في المغرب الأقصى، فأكد الاتحاد العام التونسي للشغل هذا الاتجاه التوحيدي على لسان زعيمه فرحات حشاد في المؤتمر الرابع إذ قال: ((أن الوحدة المغاربية شيء واقعي وعميق لا جغرافي فقط،

وإنما وحدة في المصاب الذي سلطه على أقطارنا المغلوبة على أمرها ، ووحدة الكفاح المجيد في سبيل الحرية والعدل في العمل الذي سيفضي في نهاية الأمر بفضل جهاد الشعوب المغاربية وتضحيتها إلى الفوز بحياة العزة والكرامة)) [29].

لقد أصبح فرحات حشاد مشكلا كبيرا حير السلطات الفرنسية، فالكل يعلم أن غياب بورقيبة الذي كان منفيا آنذاك سمح بظهور حشاد كرمز للمقاومة ومنشطها الرئيسي كما أن حشاد لم يكن يشكل خطرا على المصالح الاقتصادية الفرنسية في المنطقة فحسب بل كان يصعب تحقيق أي وفاق سياسي معه، لكن السلطات لم تكن تجرأ على إيقافه مخافة تعقد الأمور على المستوى العالمي لذلك تم اغتياله[30].

ج- بعض تفاصيل حادثة الاغتيال:

وبخصوص تفاصيل حادثة اغتيال فرحات حشاد نقلت " المنار" عن مجلة "لوبسير فاتور الباريسية "- L'observateur - مقالا بقلم "روجي ستيفان" يحمل معلومات تخص حادثة الاغتيال ، لخصتها الجريدة في مايلي :

يقال أن الشرطة عمدت إلى سد الطريق بين رادس وتونس بعد ما خرج السيد فرحات حشاد بسيارته من رادس قاصدا العاصمة تونس، وأكد العامل الأوربي الذي حمل السيد فرحات حشاد في سيارته عندما جرح لمراسل جريدة " لموند " بأن السيد حشاد لم يتلفظ قط وهو يريد أن يستقل السيارة الثانية التي أجهز عليه ركابها بجملة "أن هؤلاء أصدقائي"خلافا لما ادعاه الناطق باسم السفارة الفرنسية بعد يومين من اغتيال فرحات حشاد[31].

لم يستطع السيد عبد الباقي قاضي البحث التونسي معاينة سيارة السيد فرحات حشاد المخرقة بالرصاص والتي تعتبر من الوثائق الأساسية في هذه القضية كما لم يستطع معاينة آثار الجريمة التي يقال أن الشرطة أسرعت بمحوها. نحي السيد عبد الباقي قاضي البحث التونسي عن مهمة البحث في القضية وعوض بـــ: م.سولي المعروف بميوله الاستعمارية وعين الم. بيطو نائبا له ولكن هذا الأخير عزل أيضا بمجرد "تسميته" وهو معروف بالاعتدال والإنصاف. [32]

عرف أن السيارتين اللتين اشتركتا في اغتيال الزعيم فرحات حشاد كانت إحداهما نوع "سيتروان" وهي التي أطلق ركابها النار على السيد حشاد. والثانية من نوع " سيمكا اروند" وهي التي أجهز ركابها عليه بعد حمله ولا يوجد في البلاد التونسية من نوع سيمكا اروند إلا 350 سيارة ومع ذلك ، فيما يعلم كاتب المقال لم يبحث حتى الآن أصحاب هذه السيارات عن تنقلاتهم يوم الجريمة. و ثبت من رسالة أرسلها حشاد لنائبه البودالي قبل اغتياله بأيام ومما أدلى به الفقيد إلى الم.دنيال قيران ، و الم.الكسندر رويث المراسل الصحفي الانكليزي أن السيد حشاد يعلم أنه مهدد بالاغتيال، وأنه نقل زوجته وأولاده الأربعة لمحل آخر وكان يبيت عند جيرانه احتياطا بل أنه ذكر الم. قيران بعض التفاصيل عن الأشخاص الذين ينتمون لعصابة اليد الحمراء وهم عين الأشخاص الذين ذكرهم له الدكتور الصادق المقدم عند التقائه به، وقد نفي الدكتور المقدم غداة اغتيال السيد فرحات حشاد وطلب الم. قيران هذا من قاضي البحث ومن المقيم العام مواجهته للدكتور المقدم للتحقيق من أسماء الأشخاص وألح في الطلب دون أن يجاب إلى رغبته. [33]

يقول كاتب المقال فيما وصل إلى علمه أن موظفا كبيرا من الموظفين الفرنسيين الذين يحرصون عن إبعاد المسؤولية عن العناصر الطاهرة من رجال إلى الإقامة العامة مؤخرا قائمة الأفراد الذين ينتمون إلى عصابة اليد الحمراء وأنه أرسل منها نسخة إلى باريس من باب الاحتياط، ومع ذلك لم يلق القبض حتى الآن على أي فرنسي من الذين شاركوا في الحوادث الماضية. ويختم كاتب المقال داعيا الرأي العام الفرنسي إلى عدم السكوت حتى لا يتهم بالتواطؤ مع المجرمين فيقول: ((يجب أن نتذكر ما قيل للألمان من أنهم كانوا يعلمون وجود المحتشدات ولكنهم يتظاهرون بأنهم لا يعلمون)) [34].

وللتذكير فإنه وعندما اغتيل فرحات حشاد تكونت لجنة للتحقيق في الحادث ولكن لم تسفر هذه اللجنة عن أية نتيجة مما يظهر أن هناك أهدافا استعمارية مبيته ومتواطئة لإخفاء تلك الحقيقة، ورغم أن أصابع الاتهام موجهة لمنظمة اليد الحمراء، إلا أن السلطات الفرنسية لم تلق القبض على أعضائها بل وجهت قبضتها بشدة نحو التونسيين.

6- انعكاساتها:

لقد كان لاغتيال حشاد عظيم التأثير على الشعب التونسي خصوصا وعلى شعوب المغرب العربي عموما ، وظهر هذا التأثر في تلك الأعمال التي نظمت بالمناسبة ، ومثلت رد فعل أولي، وما دأب على تنظيمه إحياء لذكراه كل سنة هذا من جهة .ومن جهة أخرى فإن دم فرحات حشاد عجل بإشعال فتيل الثورة التونسية التي عملت على استهداف الاستعمار ومصالحه في تونس.

فعند وصول خبر اغتياله للتونسيين ارتدت الأمة التونسية رداء الحزن على ابنها البار حشاد، وخيم ظل الحداد على ربوع البلاد التونسية إجلالا له وتعظيما لكفاحه و إكبارا لوطنيته[35].

وكان صدى الاغتيال عنيفا على الساحة المغاربية، ففي الدار البيضاء وعديد مدن المغرب الأقصى أعلن الإضراب العام احتجاجا على اغتيال الزعيم النقابي الذي اعتبر ضربة موجهة لوحدة الحركة النقابية في المغرب العربي، وقد قرر الاتحاد العام للنقابات المغربية بالاتفاق مع حزب الاستقلال المغربي، إعلان الإضراب لمدة يوم واحد. وأصدر الاتحاد نداء ندد فيه بهذا العمل ودعا إلى إعلان الحداد والإضراب يوم 8 جانفي 1953. وفي الجزائر حدثت اضطرابات مشابهة ففي التاسع من ديسمبر1952 أعلنت الإضرابات في العاصمة الجزائرية ووهران ونظمت مظاهرات احتجاجية على اغتيال فرحات حشاد، وعقدت الاجتماعات العامة في أغلب المدن الجزائرية [36].

وهكذا فإن الأساليب الاستعمارية ما زادت التونسيين إلا تصميما على المضي قدما في تحقيق استقلال بلادهم، وأثارت بين جوانح أبناء الشعب التونسي البررة استياء عميقا أخذ في النمو والازدياد على مر الأيام مغذيا روح المقاومة والتمرد على صنوف الاستبداد وأنواع الاضطهاد، ومن هنا لا غرابة أن تخرج إلى عالم الوجود حركة تحررية سارع إلى الانضواء تحت لوائها المؤمنون بالعدالة الإلهية وأصاب هؤلاء المجاهدين الأحرار ما أصابهم من المحن والنكبات ﴿﴿فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ﴾﴾- الأحزاب، الآية23- ومرت الأيام وتعاقبت الشهور وتوالت السنون والصراع قائم بين إخواننا التونسيين والمستعمرين الفرنسيين وعندما تفاقم تيار المقاومة القومية بمقدار المظالم الفرنسية، مما دعا الساسة الفرنسيين إلى إعلان استعدادهم لفتح مفاوضات مع ممثلي الأمة التونسية[37].

ورغم توفر إمكانيات جديدة بفضل جو الاندهاش الذي تبع اغتيال فرحات حشاد وإرادة الباي في الشروع في محادثات مباشرة، لكن المقيم " دي هوتكلوك " أسرع في إخمادها استجابة لإلهام عبقريته، فنقض روح رسالة 26 نوفمبر وعاد إلى وفائه لطريقة التظاهر بالقوة التي استعملها لطرد وزارة شنيق، فأحرز على استسلام الباي الذي وقع في 20 ديسمبر على الأمرين الخاصين بمجالس الأعمال والبلديات، وهما الأمران الوحيدان اللذان لم يعارض فيها التجمع التونسي، ولكن ما قيمة هذا القبول وقد أخذ تحت التهديد بإحداث مجلس وصاية على العرش ويمكن فسخه في الوقت المناسب؟. [38].

وقد أدى استغلال التونسيون فرصة إحياء ذكرى استشهاد مجموعة من التونسيين للإعراب عن استنكار النظام الاستعماري وللبرهنة من خلالها على تمسكه بقضيته، فأضرب العمال عن العمل وشمل ذلك شتى أنحاء تونس[39] .

وبالمقابل تمكن عدد من رجال التحرير التونسيين الذين لا يزيد عددهم على ثلاثة آلاف مقاتل من السيطرة على معظم المناطق الجنوبية في الأقاليم وظهر صدى عملياتهم في أوساط العمال والفلاحين وانتشرت حركة الإضرابات والاعتصامات

أكثر، فأدى ذلك إلى اشتباكات مستمرة فاستعملت الحكومة الفرنسية القوة لإخضاع التونسيين لمشاريعها،((لكن المشكلة التونسية لا تزال قائمة، والاعتقالات لم تنقطع قط والمحاكم العسكرية تصدر الأحكام القاسية والشعب التونسي لازال ثابتا مما بين رغبة في الإفراج عن زعمائه وغيرهم، وأن يجعل حدا للقمع على مختلف أنواعه وأن يحل بدل الحماية عهدا جديدا يكفل الحرية والسعادة والأمن للجميع وأن تعطى له الكلمة في تأليف حكومة تسهر على حقوقه وتدافع عن مصالحه))[40] ولقد قرر المقيم العام دي هوتكلوك الشروع في الانتخابات البلدية ورشح لها فرنسيين وبعض المتعاملين مع الإدارة الفرنسية فقررت الحركة الوطنية إفشال هذه الانتخابات[41].

وأجريت هذه الانتخابات رغم إعراض الشعب التونسي عنها وقاطعها مقاطعة تامة مؤكدا بذلك عزمه على متابعة الكفاح ضد الفرنسيين وهذا الأمر جعل من الباي يرفع احتجاجا ضد هذه التدابير ويشير من خلاله إلى عدم رضاه عن الانتخابات في خطاب وجهه إلى الوزير الأول البكوش[42]، والواقع الذي عاشته تونس آن ذاك عرف توترا شديدا خاصة عندما بدأت الحركة التحريرية باغتيال الذين قبلوا بالترشح للانتخابات متحدين بذلك رفض التونسيين، وكان الشاذلي القسطلي أول من اغتيل منهم في وضح النهار في شارع الكنيسة بتونس من قبل أحد الوطنيين يدعى الناصر بن الساسي الدقاشي[43] .

وبدأت بوادر تكوين جيش التحرير التونسي وكان أول من بادر إلى ذلك الطاهر الأسود و بلقاسم البازني وسعد بعر، وعلي بو الشنب المرزوقي، وأحمد الأزرق ومصباح الجربوع، وغيرهم وكان الجنوب التونسي هو مركز قيادته ومسرح عملياته ونشاطه، وكان السلاح الذي يستعملونه من مخلفات الحرب العالمية الثانية وبعض الأسلحة التي يتم الاستيلاء عليها من عند القوات الفرنسية، وكان رد فعل الفرنسيين على ذلك في اعتقال الهادي نويرة، والأمين العام المساعد للحزب المشرف على المكتب السري، وامتدت الاعتقالات إلى خارج تونس، فاعتقل "محمد المصمودي" مندوب الحزب الدستوري الجديد بفرنسا، واغتالت اليد الحمراء الهادي شاكر، بعد اختطافه يوم 13 سبتمبر 1953، وأصبحت البلاد التونسية تعيش مرة أخرى في جو رهيب، ومع هذا اشتدت المقاومة واتسعت حتى بلغت أوجها سنة 1954[44] .

وكانت السلطة الفرنسية تتخذ في كل حادثة اغتيال ذريعة للزجر والتنكيل ، الذي اتسع نطاقه ليشمل الطلبة التونسيين بباريس وأصدرت المحكمة العسكرية بتونس أحكاما تقضي بإعدام ثمانية من التونسيين، وكذلك قامت بعمليات تطهير بقابس، وأوعزت الإدارة الفرنسية للبكوش للسفر إلى لندن لتوهم الرأي العام العالمي بأن حالة تونس هادئة[45].

واستمرت عمليات الاغتيال حتى مست الأمير عز الدين المعروف بموالاته للفرنسيين، ولقد أذاع الحزب الحر الدستوري الجديد إثر اغتياله بلاغا استنكر فيه العملية، وأعرب من خلاله استعداده التام لاستئناف المفاوضات في دائرة احترام الأماني القومية للأمة التونسية[46] .

وعندما أدركت الحكومة الفرنسية عدم القضاء على روح المقاومة لدى الشعب التونسي صرحت بإظهار استعداداها مرة أخرى للتفاوض بتعيين " بيار فوازار" مقيما جديدا بدلا من "دي هوتكلوك" في شهر سبتمبر 1953، وقد بدأ هذا المقيم خطواته الأولى بمحاولة التخفيف من حدة التوتر وذلك بإتباع الطرق الآتية :

1- استمالة الباي وحاشيته.

2- تشكيل وزارة برئاسة" محمد الصالح مزالي"، وأوكل إليها إصلاحات.

3- إطلاق سراح بعض السياسيين .

4- إلغاء المحتشدات .

ولكنه بالمقابل استمر في التشديد على الوطنيين المحكوم عليهم بالإعدام بتنفيذ هذا الحكم[47]، واتخذ هذا المقيم تدابير تقضي برفع الرقابة عن الصحافة وإلغاء منع التجول في بعض المناطق وبإطلاق سراح بعض المساجين السياسيين[48]، إضافة إلى هذا الأمر وبمناسبة المولد النبوي الشريف 12 ربيع الأول 1373هـ الموافق 18 نوفمبر 1953م، أطلق سراح عدد من المعتقلين إضافة لمن سبقهم[49].

إن هذه الإجراءات تعد مؤشرا ايجابيا من قبل "فوازار" لاتخاذ سبيل سليم لحل الأزمة التونسية ومحاولة لاجتناب ما وقع فيه سابقه من مماطلة وقوة ، إلا أن هذه الأمور لم تكن في مستوى طموح الشعب التونسي الذي عانى الويلات الكثيرة وقدم ثلة من أبنائه فداء للوطن.

وفي ذكرى اغتيال فرحات حشاد 5 ديسمبر 1953، ظهرت الأمة التونسية في مظهر الأمة الواعية المدركة الشاعرة بما لها وما عليها من الحقوق والواجبات ذلك أنها اشتركت بأعداد كبيرة في إحياء ذكرى بطلها المغوار حشاد والأمة التي تعير اهتمامها بإحياء ذكرى أبنائها الأبطال يسهل عليها أن تصعد سلم الرقي كما يسهل عليها أن تحيا حياة طيبة ، فقد أقامت الأمة التونسية الحجة على أنها لم تنس حشادا وعلى أنها لم تحد قط عن الطريق القويم الذي سار فيه حشاد بشجاعة تثير الإعجاب إلى أن سقط تحت رصاص عصابة "اليد الحمراء".وبرهن التونسيون على أن مقتل حشاد لم يرعبهم ، وبعثوا من خلال تظاهراتهم لغلاة الاستعمار أن فكرة حشاد لم تمت بمجرد مقتله [50].

وهكذا عبر الشعب التونسي طيلة هاته الفترة على مواصلة كفاحه وتضامنه رغم العراقيل والأساليب التي كانت تقوم بها الإدارة الفرنسية لتحطيم المشاعر الوطنية التونسية، وبدا من خلال إحياء ذكرى فرحات حشاد مواصلة التونسيين على النهج الذي رسمه حشاد، وهو المتمثل في تحقيق الاستقلال التام وإلغاء عهد الحماية الفرنسية.

7- الخاتمة:

حرصت جريدة "المنار" على تناول التفاصيل التي عرفتها الأزمة التونسية سنوات 1951-1954، بدءا بالمشاركة في الحكومة من طرف الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد، ومآل هذه المشاركة ونتائجها، وصولا إلى تأزم الوضع في تونس، ثم حادثة اغتيال النقابي الكبير فرحات حشاد، وانعكاسات الحادثة على العمل الوطني داخليا وخارجيا.

حيث خصت هذا الحدث باهتمام بالغ من خلال التعريف بالزعيم فرحات حشاد و نضالاته وتصوره للعمل النقابي وللاستعمار، ومميزات شخصيته التي أهلته لأن يتبوأ مكانة مرموقة في قياد النضال الوطني بتونس من جهة، ولفت غليه أنظار السلطات الاستعمارية ومن يساندها من جهة أخرى، مما جعله هدفا للاغتيال.

وتتبعت الجريدة انعكاسات حادثة الاغتيال على تصاعد وتصلب العمل الوطني التونسي وجنوح بعض المناضلين للعمل على استهداف المؤسسات الاستعمارية وممثليها في تونس، من خلال الاستعداد والتهيئة، ثم الانطلاق في الثورة والعمل المسلح ضد السلطات الاستعمارية الفرنسية، مما أدى إلى التفاوض الجدي من أجل الوصول إلى حل للقضية التونسية ، وبعد مفاوضات تم تحقيق الاستقلال لتونس في مارس 1956.

وقد تتبعت الجريدة صدى اغتيال فرحات حشاد على مستوى تونس، وعلى المستوى المغاربي، لما أثارته الحادثة من ردود أفعال بكل من الجزائر والمغرب الأقصى اللتان شهدتا اضطرابات وتظاهرات منددة بالحادثة، ومعبرة عن التضامن بين الوطنيين والشعوب المغاربية.

إضافة لهذا تضمنت جريدة المنار العديد من المواضيع الخاصة بالقضية التونسية مطلع خمسينيات القرن الماضي، وذلك تطابقا مع الخط الذي رسمته لنفسها في معالجة مختلف القضايا الوطنية و المغاربية والعربية والإسلامية.

وتعتبر المادة العلمية التي تضمنتها الجريدة مهمة للدارسين لانعكاسات النضال التونسي وصداه في الصحافة ولدى الرأي العام الجزائري خلال فترة صدور هذه الجريدة. عاكسة وجها من أوجه التضامن والروح الوحدوية التي أظهرت التعاطف بين الوطنيين المغاربة على العديد من الأصعدة، مبينة نوعا من التنسيق الذي كان واقعا في اطلاع الجزائريين عن الأحداث التونسية، وعلى أوجه السياسة الاستعمارية وتحولات العمل الوطني بتونس وتطوراته خلال مطلع الخمسينيات من القرن العشرين،انطلاقا من روابط صلة الجوار أو الدين أو غيرها من الروابط الأخرى من جهة، ومن جهة أخرى باعتباره تجربة مهمة في النضال ضد الاستعمار.

الهوامش:

1-ولد فرحات حشاد في قرية العباسية بجزيرة قرقنة في صفاقس عام 1914 من عائلة كانت تعيش على صيد السمك، مارس عدة أعمال فعمل على رصيف الميناء ثم عمل محاسبا في إحدى الشركات الفرنسية ، ثم قام بعد ذلك بالاهتمام بالأمور النقابية فانضم إلى نقابة شركة النقل عام 1936م، ثم صار بعد ذلك عضوا للاتحاد المحلي بسوسة عام 1937م ثم عمل بعد ذلك على تكوين الاتحادات النقابية الوطنية، واستمر نضاله إلى أن اغتالته عصابة اليد الحمراء في 5 ديسمبر 1952م. ينظر:- سعد توفيق عزيز البزاز، ((العلاقات الخارجية للاتحاد العام التونسي للشغل 1946-1956))، مجلة كلية التربية الأساسية، جامعة بابل، العدد13، سبتمبر2013، ص466.

2- مقدمة سلسلة جريدة المنار، الصفحات الخمس الأولى.سلسة التراث، رقم1، المنار، الرغاية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982.

3- المنار، العدد 48 ، السنة الثانية، 6 نوفمبر1953، ص1.

4- مقدمة سلسلة المنار.

5- http://algerianaffairs.freehostia.com/news.php?readmore الاطلاع بتاريخ2011/09/21. - وكذلك مقدمة سلسلة جريدة المنار، الصفحات الخمس الأولى.

6- لقاء شخصي مع السيد " محمد قنانش " في بيته بشوفالي – الجزائر العاصمة- مساء يوم الثلاثاء 12 مارس 1996.

7- http://abdellatif-bettayeb.blogspot.com/2007/09

8- نفس المرجع.

9- http://benbadis.org/vb/showthread.php?t=7921 الاطلاع بتاريخ2011/09/21.

10- شارل أندري جوليان، إفريقيا الشمالية تسير- القوميات الإسلامية والسيدة الفرنسية- تر: المنجي سليم وآخرون، ط3، تونس، الدار التونسية للنشر، 1976، ص211.

11- منصف الشابي، صالح بن يوسف حياة كفاح، ط1، تونس، دار الأقواس، 1990، ص100.

12- المنار ، العدد4، السنة الثانية، 23 ماي 1952، ص4.

13- المنار، العدد6، السنة الأولى، 30جويلية1951، ص4.

14- مثل التونسيين في هذه الحكومة بكل من: صالح بن يوسف وزيرا للعدل، محمود الماطري، وزيرا للدولة، محمد الصالح مزالي وزيرا للتجارة والصناعة، ومحمد بن سالم وزيرا للصحة، ومحمد بدرة وزيرا للشؤون الاجتماعية ، ومحمد سعد الله وزيرا للفلاحة، للمزيد انظر: منصف الشابي، المرجع السابق، ص102.

15- المنار ، العدد4، السنة الثانية ، 23 ماي 1952، ص3. وكان انتقال الوفد إلى باريس يوم 18 اكتوبر1951، بحيث سافر محمد شنيق ، ثم لحقه صالح بن يوسف ومحمد بدرة ومحمد سعد الله، وبعد اتصالات عديدة قدمت إلى الحكومة الفرنسية مذكرة يوم 31 أكتوبر1951 .

16- شارل أندري جوليان، المصدر السابق، ص239.

17- المنار، العدد 14، السنة الأولى، 19 جانفي 1952، ص3.

18- لجنة تحرير المغرب العربي: هي لجنة ضمت الأحزاب الاستقلالية في كل من تونس والجزائر ومراكش (المغرب الأقصى) وتم تأسيسها يوم 5 جانفي 1948 برئاسة الأمير عبد الكريم الخطابي. للمزيد انظر: محمد بلقاسم، وحدة المغرب العربي فكرة وواقعا 1954-1975، ط1، الجزائر، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع،2013، ص 107.

والأحزاب التي ضمتها اللجنة هي: الحزب الحر الدستوري التونسي القديم، والحزب الحر الدستوري التونسي الجديد، وحزب الشعب الجزائري، وحزب الوحدة المغربية، وحزب الإصلاح الوطني، وحزب الشورى والاستقلال وحزب الاستقلال، وأسست هذه اللجنة على أساس مبادئ "الميثاق

الذي نص على أن : ((المغرب العربي بالإسلام كان وللإسلام عاش وعلى الإسلام سيسير في حياته المستقبلية، وهو جزء لا يتجزأ من بلاد العروبة وتعاونه في دائرة الجامعة العربية على قدم المساواة مع بقية الأقطار العربية أمر طبيعي ولازم. الاستقلال المأمول للمغرب العربي هو الاستقلال التام كافة أقطاره الثلاثة : تونس والجزائر ومراكش. لا غاية يسعى إليها قبل الاستقلال.لا مفاوضة مع المستعمر في الجزئيات ضمن النظام الحاضر.ولا مفاوضة إلا بعد إعلان الاستقلال.للأحزاب المنضمة إلى "لجنة تحرير المغرب العربي" أن تدخل في مخابرات مع ممثلي الحكومتين الفرنسية والاسبانية على شرط أن تطلع اللجنة على سير مراحل هذه المخابرات أولا بأول وحصول قطر من الأقطار الثلاثة على استقلاله التام لا يسقط عن اللجنة واجبها في مواصلة الكفاح لتحرير البقية)).ينظر: الرشيد إدريس، ذكريات عن مكتب المغرب العربي في القاهرة، تونس، الدار العربية للكتاب، 1981، ص 140.

19- المنار، العدد 14، السنة الأولى، 19 جانفي 1952، ص3.

20- المنار، العدد13، س2، 12ديسمبر1952، ص1.

21- عبد السلام بن حميدة، ((النقابات والوعي القومي: مثال تونس))، المستقبل العربي، العدد83، جانفي1986، س8، ص44

22- نفس المرجع، ص45.

23- محمود آيت مدور ، الحركة النقابية المغاربية بين 1945-1962، الجزائر وتونس نموذجا، الجزائر ، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، 2013.، ص ص240-241.

24- المنار، العدد13، س2، 12ديسمبر1952 ص- ص1-4 .

25- نفسه .

26- نفس المصدر، ص4.

27- نفس المصدر، ص01..

28- المنار، العدد16، س2، 23 جانفي 1953، ص1.

29- سعد توفيق عزيز البزاز، المرجع السابق، ص460.

30- آيت مدور، المرجع السابق، ص243

31- المنار، العدد16، س2، 23 جانفي 1953، ص2.

32- نفسه.

33- نفسه.

34- نفسه.

35- المنار، العدد51، س3، 01 جانفي1954، ص2.

36- سعد توفيق عزيز البزاز، المرجع السابق، ص460.

37- المنار، العدد19، س2، 14 مارس1953، ص2.

38- شارل أندري جوليان، المصدر السابق، ص ص 295- 296.

39- المنار، العدد17، س2، 06فيفري1953، ص2.

40- المنار، العدد15، س2، 9 جانفي 1953، ص1.

41- الطاهر عبد الله، الحركة الوطنية التونسية، رؤية شعبية قومية جديدة(1830-1956)، ط1، بيروت، مكتبة الجماهير، 1976، ص127.

42- المنار، العدد41، س2، 24أفريل1953، ص1.

43- الطاهر عبد الله، المصدر السابق، ص127.

44- نفس المصدر، ص128.

45- المنار، العدد43، س3، 5 جوان1953، ص1.

46- المنار، العدد45، س3، 10جويلية1953، ص1.

47- الطاهر عبد الله، المصدر السابق، ص129.

48- المنار، العدد48، س3، 06 نوفمبر1953، ص1.

49 - المنار، العدد49، س3، 20نوفمبر1953، ص1.

50- المنار، العدد51، س3، 01 جانفي1954، ص2.

قانون حق الحصول على المعلومات ومدى معارضته للمعايير الدولية

لينا نظمي الخشاني

باحثة قانونية المؤسسة العامة للضمان الاجتماعي

الأردن

الفصل الاول : الاطار المنهجي للبحث

الملخص

منذ عام 1990 حدثت زيادة ملفتة في عدد القوانين التي تكفل حق الحصول على المعلومات ، ويبلغ عدد الدول التي اقرت تشريعا يضمن هذا الحق (93) دولة حتى الان[1] ، وكان الاردن اول دولة عربية تقر قانونا بهذا الشأن وذلك عام 2007 وباسم قانون حق الحصول على المعلومات.

وتبين الدراسة انه بعد مرور اكثر من تسع سنوات على اقراره لم يعمل القانون على تحقيق الاسباب الموجبة التي كانت خلف اقراره ، وتسهيل تدفق المعلومات بالطريقة المأمولة من الحكومة الى الصحفيين بصفتهم الاكثر استعمالا للقانون ، والمواطنين المستفيدين النهائيين منه . كما تبين ان القانون لا يتوافق مع المعايير الدولية .

كما لم يترافق اقرار القانون مع حملة توعية تعرف بوجوده وكيفية الاستفادة منه للحصول على المعلومات ، فلم تلتزم معظم الوزارات والدوائر المشمولة بأحكامه في تدريب موظفيها المسؤولين عن تنفيذ القانون على كيفية تطبيقه ، ولم يتم تخصيص الموارد الكافية لتدريب الفئات الاكثر استعمالا للقانون على كيفية استخدامه وتقديم طلبات المعلومات وكيفية التظلم في حال الرفض ، ولم يتخذ مجلس المعلومات الخطوات العملية لضمان تسهيل حصول المواطنين على المعلومات ، اضافة لعدم اصدار تقارير دورية على الملأ تبين مدى استجابة المؤسسات الحكومية بتقديم المعلومات وحجم الرفض والاسباب وبيان جهود مجلس المعلومات في الترويج للقانون.

Abstract

The right of access to information and the extent of opposition to international standards law

The world is witnessing an increasing demand of passing freedom of information laws (FOI) . 75 countries have adopted such new law since 1990. Jordan was the first Arab country to enact it's FOI in 2007.

The study found that after nine years the Jordanian FOI didn't guarantee the flow of information from the government neither to journalists nor to citizens who are the final beneficiaries .

The government didn't pay effective efforts to raise the public awareness on the law . It didn't also allocate enough resources to make enough training to civil servants who are vested in implementing the law.

المقدمة:

يعتبر الحق في الحصول على المعلومات من أهم حقوق الانسان المدنية والسياسية التي تنادت المواثيق الدولية والإقليمية لتأكيده وكفالته في نصوص الاتفاقيات والمعاهدات الدولية الخاصة بحقوق الإنسان، كما دعت هذه الاتفاقيات والمعاهدات الدولية والإقليمية الدول الأطراف إلى تكريس مثل هذا الحق في تشريعاتها الوطنية من خلال صياغة قوانين جديدة أو تعديل القائم منها بما يتناسب مع التأكيد على حق الفرد في الحصول من السلطات العامة على المعلومات التي يراها ضرورية.

يعد حق الجمهور في المعرفة وفي الاطلاع على المعلومات من احد اهم ركائز البناء الديمقراطي لاي دولة في العالم ، فالمشاركة الفاعلة للمواطنين تعتمد على المعلومات ، وهي اداة اساسية في مكافحة الفساد وكشف اخطاء الحكومات ، وبها يتمكن الصحفيون والمنظمات غير الحكومية والمواطنون من تسليط الضوء على الاخطاء وعلى اوجه القصور بما يساعد في معالجتها .

كما ان الوصول الى المعلومات يعد متطلبا سابقا لكل فرد للمشاركة في الحياة العامة في المجتمع واتخاذ قرارات حكيمة من بين عدة بدائل في مسائل مثل الانتخاب والمشاركة في الشؤون العامة للدولة ومناقشة السياسات ومشاريع القوانين ، ومراقبة الحكومات ، وكشف انتهاكات حقوق الانسان ، وكشف الفساد وترهل اجهزة الحكومة ، وتسهيل اقامة المشاريع التجارية والاقتصادية ([2]). وتعتبرالمعلومات من افضل الوسائط للحوار بين المواطنين للوصول الى اكبر قدر من الاتفاق حول مختلف القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

مشكلة الدراسة :

تسلط هذه الدراسة الضوء على ان اقرار قانون حق الحصول على المعلومات في الاردن و لم يحدث نقلة نوعية في تدفق المعلومات من الجهات الحكومية لوسائل الاعلام او المواطنين ، كما لم يغير القانون من " ثقافة السرية " الشائعة عند المؤسسات الحكومية .

ويعزى عدم احداث القانون لنقلة نوعية انه يتنحى امام قانون حماية اسرار ووثائق الدولة رقم (50) لسنة 1971 الذي يضع نظاما كاملا للسرية وحجب المعلومات ، حيث يجعل قانون حق الحصول على المعلومات اولوية التطبيق للتشريعات النافذة وليس للقانون نفسه ، سواء صدرت هذه التشريعات في وقت سابق او لاحق على اقرار قانون حق الحصول على المعلومات ، ويعد قانون حماية اسرار ووثائق الدولة اكبر معيق لتطبيق القانون .

لذلك توجب علينا دراسة مدى مطابقة قانون حق الحصول على المعلومات في الاردن والمواثيق المعايير الاقليمية والدولية .

اهداف الدراسة :

تهدف هذه الدراسة الى بيان مدى معارضة قانون حق الحصول على المعلومات في الاردن مع المواثيق والمعايير الاقليمية والدولية .

اهمية الدراسة :

تكمن اهمية الدراسة في انضمام الاردن الى شراكة الحكومة المنفتحة (OGP) " Open Government Partnership" ، التي يعد حق الحصول على المعلومات احد مكوناتها الرئيسية الاربعة ([3]). وبموجب هذه الشراكة التزم الاردن " بتحسين سبل الحصول على المعلومات من خلال اعتماد تعديلات لقانون حق الحصول على المعلومات لعام 2007 بهدف تحسينه وموافقته مع الممارسات الدولية "([4])

منهجية الدراسة :

تقوم الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي لاحكام قانون حق الحصول على المعلومات في الاردن ومقارنتها مع المواثيق والمعايير الاقليمية والدولية.

تساؤولات الدراسة :

1. ماهو قانون حق الحصول على المعلومات في الاردن لعام 2007 وتعديلاته لعام 2012؟
2. ماهي المواثيق والمعايير الاقليمية والدولية لحق الحصول على المعلومات ؟

3. مدى معارضة قانون حق الحصول على المعلومات في الاردن مع المواثيق والمعايير الاقليمية والدولية للحصول على المعلومات ؟

حدود الدراسة :

تشمل الدراسة قانون حق الحصول على المعلومات الاردني رقم (47) لعام 2007 وتعديلاته لعام 2012 والمواثيق والمعايير الاقليمية والدولية ذات الصلة بحق الحصول على المعلومات.

مصطلحات الدراسة :

اولا : حق الحصول على المعلومات :

هناك تسميات مختلفة لحق الحصول على المعلومات ابرزها : " حرية المعلومات " Freedom Of Information ، او " الوصول على المعلومات " Access Of Information ، او " الحق في المعرفة " Right To Know . فالحق في الاطلاع او حرية الوصول الى المعلومات ، او الحق في المعرفة او حرية المعلومة ، مصطلحات تعني شيئا واحدا وهو " حق الفرد الذي يعيش في مجتمع ما ان يحصل على معلومات كافية عن الادارة او السلطة التي تحكم هذا المجتمع حول الامور التي تعنيه ويرغب في معرفتها " ([5])

ثانيا : المواثيق والمعايير الاقليمية والدولية للحصول على المعلومات:

هناك عشرة مباديء تعد قواسم مشتركة لقوانين الوصول الى المعلومات والتي ينظر اليها بمثابة المعايير الدولية الابرز في هذا المجال . وتستند هذه المبادىء الى قوانين وقواعد اقليمية ودولية تطور ممارسة الحصول على المعلومات . اضافة الى المبادىء العامة للقانون التي تعترف بها مجموعة الامم. كما تم تطبيق هذه المبادىء على المعلومات التي تملكها هيئات اخرى كالامم المتحدة والاتحاد الاوروبي . والبنك الدولي . وجاءت هذه المبادىء نتيجة دراسات طويلة واستشارات اشرفت عليها منظمة المادة 19 التي تتخذ من لندن مقرا لها . وهي :

1. مبدأ الكشف الاقصى Maximum disclosure .
2. ترويج ثقافة الحكومة المنفتحة Open Government ، والكشف الاستباقي Proactive duty to publish وواجب مساعدة طالبي المعلومات Duty to assist requestors .
3. محدودية استثناءات النشر Limited scope of exceptions.
4. الحق الاجدر بالرعاية Overriding right .
5. تحديد الوقت اللازم والمناسب للاجابة على طلب المعلومات Appropriate timelines for responding to requests .
6. امكانية الطعن بقرار رفض الحصول على المعلومات Right to appeal the refusal application .
7. وجود هيئة مستقلة لضمان حق الحصول على المعلومات Independent body to insure the right of access to information.
8. تحديد مدة قصوى لحماية المعلومات Overall historical time limits .
9. التكلفة المعقولة والعادلة Fair cost .
10. حماية المسربين لاخطاء الحكومة Leaking and whistle – blowers protection.

ثالثا : القوانين المجاورة (ذات الصلة) :

ورد مصطلح الحقوق المجاورة كثيرا في عدد من القوانين وخاصة قوانين حماية حق المؤلف ومنها على سبيل المثال : قانون حق المؤلف والحقوق المجاورة في سويسرا ([6]) . كما ان هناك مايعرف بقضاء الجوار حيث ثبت المجلس الدستوري في فرنسا عام 2002 الصحة القانونية لانشاء قضاء الجوار ([7]) (قضاة ، مواطنين ، محترفين ، عهد اليهم بممارسة جزء محدود من الاختصاصات العائدة للمحاكم البدائية ومحاكم المخالفات) . اما مصطلح القوانين المجاورة فلم يرد كثيرا لكونه مصطلحا فقهيا اكثر منه قانونيا ، ومثال ذلك : الوثائق المصنفة : اي المعلومات المصنفة على انها سرية او وثائق محمية وفق احكام التشريعات النافذة . مع مراعاة احكام التشريعات النافذة ، على المسؤول ان يمتنع عن الكشف عن المعلومات المتعلقة بما يلي :([8])

1. الاسرار والوثائق المحمية بموجب اي تشريع اخر.
2. الوثائق المصنفة على انها سرية ومحمية والتي يتم الحصول عليها بالاتفاق مع دولة اخرى.

الدراسات السابقة :

اولا : دراسة شقير ، يحيى (2001) . الحريات الصحفية في الاردن ، دراسة مقارنة في التشريعات ، عمان ، مطابع الدستور . وهي من الدراسات الرائدة التي دعت الى اقرار قانون للحصول على المعلومات في الاردن ، لكنها لم تتطرق الى العناصر الرئيسة التي يجب ان يتضمنها القانون ، و لم تشر ابدا الى المعايير الدولية لحق الحصول على المعلومات.

ثانيا: دراسة مركز الاردن الجديد للدراسات (2009) . حق الحصول على المعلومات في التشريع الاردني ، عمان ، وهي دراسة تناولت حق الحصول على المعلومات في قانون المطبوعات والنشر ، اشارت الى قانون حق الحصول على المعلومات ودعت الدراسة الى تعديل القانون (بما يسمح بتمثيل منظمات المجتمع المدني ونقابة الصحفيين في عضوية مجلس المعلومات) ، وتعديل المادة 13 من القانون التي (تتوسع في حماية ومنع الكشف عن المعلومات توسعا مفرطا).

ثالثا : دراسة عليوي ، عمر (2011) . قانون حق الحصول على المعلومات في الاردن – دراسة مقارنة (رسالة دكتوراة غير منشورة) ، جامعة عين شمس ، مصر . وهي اول رسالة دكتوراة تتضمن دراسة وافية لقانون حق الحصول على المعلومات في الاردن ومقارنتها مع التجربتين الامريكية والفرنسية ، ودور القانون في تحقيق الحكومة المفتوحة والمشاركة الشعبية في ادارة الشؤون العامة . وتركز الدراسة ، والتي تقع في 950 صفحة ، على تحقيق الشفافية الادارية لضمان تطبيق قانون حق الحصول على المعلومات ، لكن توصياتها بشأن تعديل القانون عامة .

رابعا : دراسة المدهون ، سعيد (2012) . الحق في الحصول على المعلومات في منطقة الشرق الاوسط وشمال افريقيا . ولا تعدو ان تكون عرضا عاما لاخر التطورات والمستجدات في الجهود المبذولة في سبيل اقرار قوانين تضمن حق الحصول على المعلومات في الدول التي لايوجد فيها مثل هذا القانون كالمغرب ولبنان وتحسين القانون في كل من الاردن وتونس.

خامسا : دراسة البنك الدولي (Governance and Development 1992) التي اشارت الى ان الشفافية والحصول على المعلومات يدخلان ضمن المبادىء السبعة للحكم الرشيد .

سادسا : دراسة منظمة المادة 19 (Article 19 2005) لمشروع قانون حق الحصول على المعلومات الاردني قبل اقراره كقانون دائم بعنوان : (Memorandum on Jordanian draft law on Guarantee of Access to information) وتقدم الدراسة تحليلا لمشروع القانون في ضوء التزامات الاردن الدولية خاصة فيما يتعلق بالعهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية ، كما تقدم توصيات لتعديل مسودة القانون ليتوافق مع المعايير الدولية .

الفصل الثاني : قانون حق الحصول على المعلومات الاردني والمعايير الدولية

تعزى فكرة اقرار قانون حق الحصول على المعلومات في الاردن الى " رغبة تولدت انذاك لدى مطبخ صنع القرار في الاردن بسن قانون معلومات يحسن صورة البلاد في مجال حرية التعبير".([9])

وشكلت قضية حجب المعلومات او المماطلة والتسويف في تقديمها للاعلاميين حالة مربكة في مسيرة الاعلام ، وكانت دائما مدار شكوى من الجسم الاعلامي في كافة اللقاءات ، حتى وصل الامر الى بروز الاشاعة والتشكيك بمصداقية اي اجراء وطني ، والاعتماد على مصادر معلومات مشوشة ، والارتكاز الى مصادر متباينة وغير صريحة او واضحة ، وكان لابد من بلورة جهد وطني يعي ان تطوير الاعلام القائم على الوضوح والصراحة ، والدقة والموضوعية ، والنزاهة والمهنية العالية ضرورة وطنية تتناسب مع مكانة الاردن ، وتتوافق مع متطلبات المرحلة الاعلامية والتكنولوجية المتسارعة ([10]).

لذلك قام المجلس الاعلى للاعلام باعداد مسودة مشروع القانون بمشاركة عدد من الخبراء لم يتجاوز عددهم اصابع اليد الواحدة ([11]).

وفي ظل هذه الظروف صدر قانون حق الحصول على المعلومات رقم 47 لعام 2007 بتاريخ 2007/6/17 كأول قانون من نوعه في الوطن العربي .([12])

وجاء في الاسباب الموجبة لمشروع القانون ، من المعلوم ان اغلب المعلومات موجودة عند السلطة التنفيذية ومؤسساتها ، ولترجمة مبدأ الشفافية والمشاركة في اتخاذ القرار يجب التسهيل على الصحفي والمواطن بالحصول على المعلومات لنشرها وايجاد سوق حر لمناقشتها والوصول الى اكبر قدر من الاتفاق عليها ، لهذا جاء هذا القانون.

نص الدستور الأردني على الحقوق والحريات الممنوحة للفرد ، بالإضافة إلى ما تم المصادقة عليه من إتفاقيات ومعاهدات تمنح الأفراد حقوقاً وحريات إضافية تُرك أمر تنظيمها للقوانين . ومن هذه الحقوق ما يمكن تسميته بحق المعرفة والحصول على المعلومة المرتبط بحرية التعبير عن الرأي المنصوص عليها في المادة 1/15 من الدستور الأردني ، بالإضافة إلى حرية الصحافة والإعلام التي كرست في المادة 2/15 من الدستور. ولتحقيق ذلك أُقر قانون حق الحصول على المعلومات لعام 2007 الذي نظم في مواده العشرين آلية حصول الفرد على المعلومات .

كما ان المشرع عند اصداره للقانون جاء في تسميته ليتوافق مع المعاهدات والمواثيق و اكد ان الحصول على المعلومة هو حق وكما اكد على وجوب ضمانه .

يتوجب على طالب المعلومة وفقاً للمادة التاسعة ، أن يقدم طلباً مكتوباً بحسب الأنموذج المعد مسبقاً لهذه الغاية ، واضعاً إسمه ومكان إقامته وعمله ، محدداً موضوع المعلومات التي يرغب في الحصول عليها بدقة ووضوح . ويجب مراعاة أن لا تكون المعلومات المطلوبة ذات طابع تمييز ديني أو عنصري أو عرقي أو تمييز بسبب اللون أو الجنس . وفي ذلك تكريس لمبدأ المساواة المنصوص عليه في المادة السادسة من الدستور الأردني ([13]) . وعلى طالب المعلومة أن يقوم بدفع الرسوم المقررة وفقاً للمادة 11 /1 والمترتبة على تصوير المعلومات المطلوبة إن كانت محفوظة بصورة تمكن من نسخها أو تصويرها .

وعلى المسؤول أن يجيب على هذا الطلب بالموافقة عليه أو برفضه خلال المدة التي حددها القانون وهي " 30 " يوم . وإن كان قراره بالرفض فيتوجب عليه أن يعلل سبب الرفض او ان يبين ان كانت المعلومات غير متوافرة أو تم إتلافها سابقاً .

ويحق لمقدم الطلب في حال رفض طلبه أو عدم الإجابة عليه :-

إما أن يرفع دعوى لدى المحكمة المختصة والتي حددها القانون بأن تكون محكمة العدل العليا ، وذلك خلال "30 " يوما من إنتهاء المدة الممنوحة للمسؤول لينظر في الطلب . أو أن يقدم شكوى ضد المسؤول أمام مجلس المعلومات الذي نصت على تشكيله المادة الرابعة من هذا القانون ، على أن يصدر القرار خلال ثلاثين يوماً من تاريخ تقديم الشكوى .

إلا أن هذه الإجراءآت لا يمكن أن تخلو من الإنتقادات ، كخلو القانون من أي نص يضع عقوبات يمكن أن يفرضها المجلس على المسؤول في حال امتناعه عن تقديم المعلومات . لم يوضح ايضا إن كان قرار المجلس يعد إلزامي أم لا . ثم أن إجابة المسؤول بأن المعلومات غير متوفرة أم تم إتلافها لمرور الزمن ، سوف تمنح المسؤول حرية أكبرفي حجب المعلومات

وفي مقارنة الاجراءات كنصوص قانونية مع الواقع التطبيقي لهذا القانون و خاصة من الفئة التي يفترض ان تستفيد منه فئة الصحافة و الاعلام يتضح و من الدراسات التي اجراها " مركز القدس للدراسات السياسية و على عينة شملت 502 صحفي و صحفية و قادة رأي ان ما نسبته33% منهم لم يتقدموا بطلب للحصول على المعلومات لدى اي جهة رسمية و من ابرز اسباب امتناعهم عن تقديم هذه الطلبات كانت صعوبة اجراءات الحصول على المعلومة و تعقيداتها . وايضا بالاستطلاع الذي اعده مركز الدراسات الاستراتيجية بالجامعة الاردنية اذي شمل 130 صحفي تبين ان ما نسبته49% منهم لم يقم بإستخدام هذا القانون لإعتقادهم بوجود وسائل اخرى اكثر فاعلية "([14])

اما بالنسبة للمعايير الدولية لحرية الرأي والتعبير كما جاءت في المادة 19 من الاعلان العالمي لحقوق الانسان لعام 1948 ، والمادة 19 من العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية لعام 1966 ، وتعليقات اللجنة المعنية بحقوق الانسان التابعة للامم المتحدة والتي تشرف على تطبيق العهد حول المادة 19 من العهد خاصة فيما يتعلق بالالتزامات الايجابية Positive Obligation التي تقع على الحكومات والمتمثلة بضمان كشف المعلومات التي في حوزتها للجمهور الا ما كان منها مستثنى من الكشف حسب المعايير الدولية ، ونشأ حق الحصول على المعلومات في حضن حرية التعبير وحرية الصحافة ، فالمواطنون المطلعون يعتمدون على قدرة الصحفيين في الوصول الى مصادر المعلومات .([15])

- الاعلان العالمي لحقوق الانسان ([16]) :

اول وثيقة دولية تنص على " حق كل شخص في استقاء الانباء والافكار وتلقيها " ([17]) . ويذهب البعض الى ان الاعلان شانه شأن غيره من اعلانات حقوق الانسان له تاثير ادبي وفلفسي محض،الا انه يكتسب قوه نظرا لاتساع تطبيقه واشارة كثير من دساتير الدول وقوانينه اليه. واكدت محكمة العدل الدولية على اهميته القانونية بقولها انه بين"المبادئ الاساسية للقانون الدولي" ([18]). وذهبت المحكمة الدستوريه في المانيا الى ان المبادى العامة للقناون الدولي تاخذ قوه القانون الاتحادي([19]). ويرى كثير من الباحثين ان الاعلان يعتبر على نطاق واسع"جزء من القانون العرفي الدولي"([20]) ويرى بعض القانونيين ان الاعلان اصبح بمثابه الجنس البشري ([21]).

- العهد الدولي الخاص في الحقوق المدنية والسياسية : ([22])

من المعروف ان المعهاده او الاتفاقية الدولية او الميثاق او العهد الدولي جميعها عبارة عن نصوص دولية ثنائية او متعدده الاطراف (اقليمية او دولية) تتضمن مجموعه من الحقوق والالتزامات التي يجب على الدول ان تحترمها وتعمل على تنفيذها.ويحسن قبل التطرق الى معاير حرية التعبير في العهد الدولي الخاص في الحقوق المدنية والسياسية معرفه موقع المعاهدات والاتفاقيات الدولية الخاصه بحقوق الانسان في النظام القانوني الاردني.

تنص المادة (33\2) من الدستورالاردني:"المعاهدات والاتفاقيات التي يترتب عليها تحميل خزانه الدوله شيئا من النفقات او المساس في حقوق الاردنيين العامة او الخاصه لاتكون نافذه الا اذا وافق عليها مجلس الامة ولايجوز في اي حال ان

تكون الشروط السرية في معاهدة او اتفاق ما مناقضه للشروط العلنيه". وبمفهوم المخالفه فان المعاهدات والاتفاقات والاتفاقات التي لايترتب عليها تحميل خزانه الدوله شيئا من النفقات او ليس فيها مساس بحقوق الاردنيين العامة او الخاصه تكون نافذه حتى لو لم يوافق عليها مجلس الامة ([23]).ومن المعاهدات والاتفاقيات التي لايتطلب موافقة مجلس الامة عليها،ويكتفى بنشرها في الجريدة الرسمية مواثيق حقوق الانسان.وتنص بعض الدساتير على وجوب ان تأخذ الماحكم الوطنية في الاعتبار القانون الدولي في قرارتها في القضايا التي تعرض عليها ([24]).

ويجب التمييز بين القوة الالزامية للاتفاقيه المتعلقة بحقوق الانسان بما لها من قوة القانون الداخلي بعد التصديق عليها طبقا للدستور، وبين الشرعية الدستوريه لهذة الحقوق. فالقوة الالزامية للاتفاقيه هي القانون،اما الشرعية الدستورية فهي قوه الدستور اي اعطاء قيمة دستورية لحقوق الانسان اي كان مصدرها القاعدي([25]).

وهناك عده قرارات لمحكمة التمييز(حقوق وجزاء) :"ان الاتفاقيات الثنائية او الدولية واجبة الالزام ويجب العمل بها وهي اعلى مرتبة من القانون الداخلي في حال تعارضهما" ([26]). اي ان المعاهدة تسمو على التشريع الوطني وتعطل تطبيقه. كما تنص الماده 27 من اتفاقيه فينا لقانون المعاهدات لعام 1969 على عدم جواز التمسك في القانون الدولي للامتناع عن العمل بالاتفاقيات الدولية.

ويشكل العهد الدولي الخاص في الحقوق المدنية والسياسية ([27]). معاهدة دولية ملزمة International binding treaty ، بما يعني سموه على القوانين الوطنية وواجب التطبيق عند التعارض. وهذا يفرض على المشرع الاردني بشكل مباشر عند قيامه باي تعديل قانوني على القوانين التي لها علاقه في الصحافه والاعلام وتوثر فيها ان يضع نصب عينيه نص الماده(19) من العهد الدولي الخاص في الحقوق المدنية والسياسية وكذلك نص الماده 32 من الميثاق العربي لحقوق الانسان.

وحسب الماده الثانية من العهد فان انضمام دوله اليه يعني قبولها الالتزام في:

1. تبني تشريعات جديده وتعديل القائم منها لضمان الحقوق المعترف بها في العهد.
2. توفير سبيل فعال للانتصاف لاي شخص انتهكت حقوقه او حرايته المعترف بها في هذا العهد،حتى لو صدر الانتهاك عن اشخاص يتصرفون بصفتهم الرسمية،بأن تكفل لكل متظلم على هذا النحو ان تبت في الحقوق التي يدعي انتهاكها سلطه قضائيه او ادارية او تشريعيه مختصه، او اي سلطه مختصه اخرى ينص عليها نظام الدولة القانوني، بأن تكفل قيام السلطات المختصة تنفيذ الاحكام الصادرة لصالح المتظلمين.
3. نشر الاتفاقيات الدولية لحقوق الانسان على نطاق واسع،لضمان ادراك وتوعيه المواطنين بحقوقهم

تنص المادة 19 من العهد :

1. لكل انسان الحق في اعتناق اراء دون مضايقة .
2. لكل انسان الحق في حرية التعبير . ويشمل هذا الحق حريته في التماس مختلف ضروب المعلومات والافكار وتلقيها ونقلها الى اخرين دونما اعتبارا للحدود سواء على شكل مكتوب او مطبوع او في قالب فني او باية وسيلة اخرى يختارها.
3. تستتبع ممارسة الحقوق المنصوص عليها في الفقرة 2 من هذه المادة واجبات ومسؤوليات خاصة . وعلى ذلك يجوز اخضاعها لبعض القيود ولكن شريطة ان

تكون محددة بنص القانون وان تكون ضرورية :

1. احترام حقوق الاخرين او سمعتهم.

2. حماية الامن القومي او النظام العام او الصحه العامة او الاداب العامة.

- الميثاق العربي لحقوق الانسان :

اقر مؤتمر القمة العربية في تونس 23 ايار 2004 الميثاق العربي لحقوق الانسان، وبدء نفاذه عام 2008 بعد المصادقه عليه من ثمان دول لبدء تنفيذه.

وتنص الماده 32 من الميثاق على حرية الراي والتعبير كالتالي :

1. يضمن هذا الميثاق الحق في الاعلام وحرية الراي والتعبير وكذلك الحق في استقاء الانباء والافكار وتلقيها ونقلها الى الاخرين في اي وسيله ودونما اعتبار للحدود الجغرافيه.

2. تمارس هذة الحقوق والحريات في اطار المقومات الاساسية للمجتمع ولاتخضع الا للقيود التي يفرضها احترام حقوق الاخرين او سمعتهم او حماية الامن الوطني او النظام العام او الصحه العامه او الاداب العامه.

ويتضح من نص المادة 32 من الميثاق العربي لحقوق الانسان انها تقارب نص المادة 19 من الاعلان العالمي والعهد الدولي للحقوق المدنية والسياسية، الا ان الميثاق العربي لم يقدم قيمه مضافه لما سبقه من مواثيق خاصة العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية، فمثلا اضاف الميثاق الافريقي حقوق الانسان والشعوب لعام 1981 في الماده 9\1 منه([28]): " من حق كل فرد ان يحصل على المعلومات". كما يوخذ على الميثاق العربي عدم وجود محكمة عربية لحقوق الانسان تتولى تلقي الشكاوى من مواطني الدول الاطراف على غرار المحكمة الاوروبية لحقوق الانسان ومحكمة الدول الامريكية لحقوق الانسان.

الفصل الثالث:قانون حق الحصول على المعلومات الاردني ومدى مطابقته والمعايير الدولية

سيتناول هذا الفصل قانون حق الحصول على المعلومات ومدى معارضتها مع المعاير الدولية لاقتراح بعض التعديلات على القانون الاردني ليتوافق مع هذه المعايير، بما يعمل على تحسين وتسهيل تدفق المعلومات من السلطة التنفيذية الى الصحفي والمواطن.

حاول المشرع أن يضع في قانون ضمان حق الحصول على المعلومات الاردني بعض القيود لتتماشى مع المعايير الدولية . إلا أنه يتضح للدارسين أن هذه القيود التي وضعت تعتبر تعسفية ومخالفة في معظمها للمعايير الدولية وتحد من استخدام هذا الحق .

وأول هذه القيود ما ورد في نص المادة السابعة من القانون والتي اشترطت أن تكون المصلحة المرجوة من طلب الحصول على المعلومات مشروعة ، دون أن يضع أي حدود لمبدأ المشروعية . وترك الأمر في تحديد المشروعية من عدمها بيد المسؤول بسلطة مطلقة . وهذا ما يؤدي إلى التوسع في استخدام هذا المفهوم للإمتناع عن تقديم المعلومات . بالإضافة إلى المادة 9/د التي جاء فيها أن الامتناع عن الرد ضمن المدة المقررة ، يعتبر رفضاً والتي تمنح المسؤول حرية اكبر لعدم الاجابة على الطلب بالرفض ليتهرب من وضع الاسباب التي دعته لإتخاذ هذا القرار

وبالتالي ان تم الطعن بقراره سيتحجج بأمور اخرى كأن يقول ان الطلب لم يرد اليه. وفي ذلك مخالفة لمبدأ الكشف الأقصى عن المعلومات الذي وضعته الأمم المتحدة كضمانة قانونية يتوجب أن تتوافر في التشريعات ، والذي يقوم على افتراض أن جميع المعلومات التي تحتفظ بها الهيئات العامة يمكن الوصول إليها من قبل افراد الشعب ، وأن أي قيد على ذلك يجب أن يطبق في ظروف محدودة جداً .

وثاني هذه القيود هو أن المادة السابعة أعطت الحق في الحصول على المعلومات لكل أردني وهذا ما يعارض أو يتناقض مع المعاهدات والمواثيق الدولية والاقليمية التي ضمنت هذا الحق للجميع ، وجاء متناقضاً مع تعريف الأمم المتحدة لهذا الحق ، عندما قالت ب : " حق الإنسان في الوصول الآمن إلى المعلومات التي تحتفظ بها الجهة العامة ، وواجب هذه الجهة في توفير هذه المعلومات له " .

وثالث هذه القيود هي المدة التي منحت للمسؤول ليجيب من خلالها على الطلب أو أن يرفضه ، فقد حددها المشرع بمدة "30" يوم . وهذا موافق للمعايير الدولية التي أجازت أن تكون المدة بين أسبوعين إلى ستة أسابيع . إلا أن الواقع العملي يتطلب أن لا تزيد المدة عن اسبوعين ، لكي لا تفقد الغاية المرجوة من طلب الحصول على المعلومة .وهذا ما اكده النواب في المذكرة التي اختصت باقتراح التعديلات على قانون ضمان حق الحصول على المعلومات و التي وقعها 13 نائب اقترحوا ليشكل امر الحصول على المعلومة فائدة ان تكون المدة الممنوحة للمسؤول هي 24 ساعة وان تكون المدة نسبية لأن الصحفي غير المواطن وغير التاجر وغير رجل الاعمال وغير المستثمر.

ورابع هذه القيود هو ما ورد في المادة 13/ أ حيث اوجبت على المسؤول أن يمتنع عن كشف المعلومات المتعلقة بالأسرار والوثائق المحمية بموجب أي تشريع آخر وايضا ما اكدته المادة السابعة من مراعاة لاحكام التشريعات النافذة و ما ورد بنص المادة 14 حيث اوجبت على كل دائرة ان تقوم بتنظيم المعلومات و الوثائق و تصنيف ما يعد سرياً منها وفقاً للتشريعات النافذة ،هذا ما سيقودنا إلى قانون حماية وثائق وأسرار الدولة رقم 50 الصادر لسنة 1971 والذي لا يزال مؤقتاً و لم يتم عرضه على مجلس النواب ويشكل أبرز القيود والعقبات القانونية التي ترد على الحق في الحصول على المعلومات . وهذه الفقرة تخالف مبدأ تفسير القوانين الأخرى بما ينسجم مع أحكام قانون حق الوصول إلى المعلومات الذي وضعته الأمم المتحدة والذي يعني إخضاع جميع القوانين المتعلقة بالمعلومات في الدولة ، وانسجامها مع المبادئ الأساسية لقانون حق الحصول على المعلومات([29]).

هذه القيود بمجملها تعتبر قيدا على حق الإنسان في الحصول على المعلومة وليس ضمانة له .

في ضوء التقدم والتطور الذي حصل في المجتمعات ولكون أهمية المعلومات قد زادت واصبحت سهلة الإنتقال ، وحيث أن الحصول على المعلومات قد أصبح حجر الأساس لحقوق الإنسان ويجب اعتباره من ضمن الحقوق الاساسية لكل فرد تضمنت ونظمت العديد من المعاهدات والمواثيق الدولية في نصوصها حق الحصول على المعلومات.

ومن أهم تلك المواثيق ، العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية ، حيث جاء في الفقرة الثانية من نص المادة التاسعة عشرة منه " لكل إنسان الحق في حرية التعبير عن الرأي ويشمل هذا الحق حريته في إلتماس مختلف ضروب المعلومات والأفكار وتلقيها ونقلها للآخرين دونما اعتبار للحدود سواء على شكل مكتوب أو مطبوع أو في أي قالب فني أو بأي وسيلة أخرى يختارها ". فقد كفل هذا العهد للجميع الحق في الحصول على المعلومات ونقلها ، شريطة الالتزام بعدم المساس أو التعرض لحقوق الآخرين أو سمعتهم . كذلك عدم التعدي على الأمن القومي أو النظام العام أو الآداب العامة ([30]) . التي كان يفترض أن يوضع لها تعريف لكي لا تترك بشكل مطلق ، فهي مصطلحات واسعة وفضفاضة قد تتيح الحرية للدول في التوسع باستخدامها كقيود في قوانينها في مجال الحق في الحصول على المعلومات . ([31])

وهذا ما أكده التعليق العام رقم "34" الصادر عن اللجنة المعنية بحقوق الإنسان ([32]) ، حيث تناول في الفقرة 18 منه أن هذه المعاهدة تضمن الحق للأفراد في الاطلاع على المعلومات التي تكون بحوزة الهيئات العامة بغض النظر عن الطريقة التي تحفظ بها أو مصدرها .

الخلاصة :

يتضح من المقارنه بين قانون ضمان حق الحصول على المعلومات الاردني والمعايير الدولية لممارسة هذا الحق مايلي:

- لم يلتزم المشرع بشكل عام بهذه المعايير والمبادئ و كان التزامه بعدد قليل منها.
- وضع المشرع قيودا على اعطاء المعلومات المصنفة .
- حدد المشرع استثناءات واسعه على المعلومات المتاحه للاطلاع من خلال القانون ومن خلال القوانين الاخرى كقانون حماية اسرار ووثائق الدوله.
- ان كان المشرع قد تماشى مع المعايير الدولية فيما يتعلق في مدة الاستجابة لطلب من جهة، الا انه اعطى المسؤول حق الامتناع عن الرد خلال هذه المدة واعتبر ان عدم الرد قرار بالرفض .
- من اشد المآخذ عليه فهو انه لم يتطلب ان تنسجم التشريعات الاخرى معه بل على العكس فقد تتطلب ان يراعي القوانين الساريه واهمها قانون حماية اسرار ووثائق الدوله.

• هذه المخالفات دعت العديد من القانونيين والمحامين وعلى الاخص الصحفيين والنواب الى انتقاد القانون بشده والمطالبه باجراء تعديلات جوهريه عليه .

• ان مجلس المعلومات بنفسه طرح موضوع تعديل القانون في العام 2010 لتسهيل حصول الاردنيون على المعلومات التي يردونها وقام بتاريخ 2011/3/17 بتفويض وزارة الداخليه بوضع مسودة تعديلات على القانون .

• وعليه فقد وضعت الحكومه مشروع لتعديل القانون في العام 2012 حاول من خلاله موائمة القانون مع المعايير والمبادئ الدولية والاخذ بعين الاعتبار الانتقادات والمقترحات التي تم اثارتها بخصوص القانون. ومن خلال الاطلاع على المشروع نجد انه:

- جاء مشروع القانون لتسهيل حق الحصول على المعلومات والسماح لغير الاردني المعني بالحصول على المعلومات تنفيذا للاتفاقيات التي تكون المملكة طرفا فيها والتي تلتزم بموجبها بتزويد غير الاردني بالمعلومات. الا ان المشروع اشترط ان تكون له مصلحة مشروعة او سبب مشروع و بشرط المعاملة بالمثل.
- كما جاء لتعزيز تمثيل منظمات المجتمع المدني في مجلس المعلومات حيث وسع عضوية مجلس المعلومات لتضم نقيبا المحامين والصحفيين الاردنيين .
- اوضح بانه سيتم رفع تقرير عن اعمال حق الحصول على المعلومات الى كل من رئيس الوزراء ومجلسي الاعيان والنواب وذلك لضمان المزيد من الشفافية بعد ان كان رفع التقارير مختصرا على رئيس الوزراء.
- عرف مشروع القانون المعلومات بانها اي بيانات مكتوبة او صور او اشكال او اصوات او رموز او جداول او قواعد بيانات محملة او مخزنة الكترونيا او باي وسيلة اخرى تقع تحت ادارة المسؤول او ولايته، في حين عرف مشروع القانون الوثائق المصنفة على انها المعلومات التي تقرر التشريعات النافذة انها وثائق محمية وهو تعريف اوسع مما ورد في القانون .
- يشكل بموجب مشروع القانون مجلس يسمى مجلس المعلومات برئاسة وزير الثقافة وعضوية كل من : مفوض المعلومات نائبا للرئيس وامين عام وزارة العدل وامين عام وزارة الداخلية ومدير عام دائرة الاحصاءات العامة ومدير عام مركز تكنولوجيا المعلومات ومدير عام دائرة المطبوعات والنشر ومدير التوجيه المعنوي في القوات المسلحة والمفوض العام لحقوق الانسان ونقيب المحامين الاردنيين ونقيب الصحفيين الاردنيين.

– ووفقا لأحكام مشروع القانون على المسؤول اجابة الطلب او رفضه خلال 15 يوما من اليوم التالي لتاريخ تقديمه وبذلك فيكون قد قصره مدة الاجابه على الطلب وهي مدة معقوله نسبيا.

– اجاز المشروع لمقدم طلب الحصول على المعلومات التظلم امام المجلس بوساطة مفوض المعلومات خلال 15 يوما من تاريخ رفض طلبه او الامتناع عن اعطائه المعلومات المطلوبة خلال المدة المقررة قانونا وعلى المجلس اصدار قراره في التظلم خلال 15 يوما من تاريخ تقديمه والا اعتبر التظلم مرفوضا وهو بذلك قد قصر هذه المدد مما يستدعي القول الى ان هذا التعديل ايجابيا لسرعة اتخاذ الاجراءات القانونيه اللازمه من مقدم الطلب الذي رفض طلبه او تم الامتناع عن اعطائه المعلومات.

– يجوز لمقدم الطلب بموجب المشروع الطعن امام محكمة العدل العليا بهذا القرار خلال ستين يوما من اليوم التالي لتبليغه القرار او انتهاء المدة المحددة فيها شأنه شأن اي قرار اداري يتم الطعن به .

• وفي النهايه تامل الباحثة ان يتم اقرار تعديلات جديدة مناسبة وملائمة نظرا لحساسية القانون ولمحاولة اقرار التوازن بين حرية الراي والتعبير و حق الحصول على المعلومه لممارسة هذه الحرية وبين المصالح العليا للدوله وبين حقوق الاخرين ،خاصة بعد انضمام الاردن الى شراكة الحكومه المنفتحه (OGP) التي يعد حق الحصول على المعلومات احد مكوناتها الرئيسيه.

المراجع والهوامش:

[1] شقير ، يحيى ،مدى توافق ضمان الحصول على المعلومات في الاردن والمعايير الدولية ، رسالة ماجستير في الحقوق غير منشورة ، جامعة الشرق الاوسط ، عمان ، 2012 ، ص 6

[2] Novel,A,S (2006) . Press freedom and Poverty. An analysis of the correlations between the freedom of the press and various aspects of human security, poverty and governance, UNESC0 – CPHS Research Project released in July 2006 by UNESCO and the center for peace and Human Security, Sciences Po. Paris. P. 10

[3] http://www.opengovpartnership.org/about

[4] خطة العمل الوطني للاردن ، كانون الثاني 2012 على : http://www.opengovpartnership.org/sites

[5] http://www.article19.org/work/regions/latin-america/FOI

[6] Switzerland Federal Law on Copyright and Neighboring Rights adopted on 9 oct. 1992 look : http://www.wipo.int

[7] روسو ، دومينيك ، (2006) . مجلة القانون العام وعلم السياسة ، العدد 1 ،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع الجزائرية للكتاب ، ص 264.

[8] انظر المادة 2 و 13 من قانون ضمان حق الحصول على المعلومات رقم 47 لعام 2007 المنشور في الجريدة الرسمية العدد 4831 ص 4142 بتاريخ 17\6\2007

[9] http://www.sahfi.jo

[10] مقابلة مع امين عام المجلس الاعلى للاعلام –سابقا – الدكتور امجد القاضي . انظر : http://www.samaalordon.net\print.asp.

[11] http://www.sahafi.jo\files

[12] الجريدة الرسمية عدد 4831 ص 4142 بتاريخ 17\6\2007

[13] الدستور الاردني – المادة 6– 1" الأردنيون أمام القانون سواء لا تمييز بينهم في الحقوق والواجبات وإن اختلفوا في العرق أو اللغة أو الدين"

[14] الزبيدي ، خالد (2010). التزام الموظف العام بعدم افشاء اسرار الوظيفة العامة في القانون الاردني (دراسة مقارنة) ، بحث مقدم الى المؤتمر العلمي الذي تقيمه كلية القانون في جامعة اليرموك ، تحت عنوان المسؤولية المهنية للفترة من 13-15 نيسان 2010.

[15] كروغ ، بيتر وبرايس ، مونرو(2005) . البيئة المواتية لوسائل الاعلام ، في الحق في الابلاغ – دور وسائل الاعلام الجماهيرية في التنمية الاقتصادية ، معهد البنك الدولي ، دراسات تنموية ، الاهلية للنشر والتوزيع ، عمان ، ص 261

[16]القرار 217 أ(3)،10كانون الاول 1948انظر :http://www.un.org\ar\documents

[17] تنص الماده 19 من الاعلان:"لكل شخص الحق في حرية الراي والتعبير،ويشمل هذا الحق حريه اعتناق الاراء دون اي تدخل ،واستقاء الانباء والافكار وتلقيها واذاعتها بايه وسيله كانت دون التقيد في الحدود الجغرافيه"

[18] د.سرور ،احمد فتحي، الحماية الدستورية للحقوق والحريات، ص70

[19] المصدر نفسه ، ص 72

[20] Colivar,S,(1995) The Right to know , Human Right and Access to Reproductive Health information . Article 19 and Univ. of Pennsylvania Press. P. 47

[21] Article 19 (1993) . The Article 19 Freedom of Expression Hand book , London, UK. P. 10

[22] القرار 2200 أ(21)،16كانون الاول1966،الذي اصبح ساري المفعول في 23اذار 1976انظر:http\\www.1.umu.edu

[23] انظر :قرار المجلس العالي لتفسير الدستور رقم(2)لسنه 1955

[24] Kirby.m.(2006). International low-The impact on national constitutions. In American Univ. International law review, Volume 21,Issue 3 Article 1, 2006

[25] د. سرور ،احمد فتحي ، مصدر سبق ذكره ، ص81

[26] انظر : تمييز حقوق القرار 2426لعام 1999 مجله نقابه المحاميين 2002 ص1788

[27] نشر العهد في عدد الجريدة الرسمية رقم 4764 بتاريخ 15حزيران 2006

[28] http://www.1.umn.edu

[29] الراعي ، اشرف – حق الحصول على المعلومات دراسة مقارنة ، الطبعة الاولى- دار الثقافة – عمان – 2010، صفحة 71

[30] هذا ما ورد في الفقرة 3 من نص المادة 19 من العهد الدولي للحقوق المدنية والسياسية لسنة 1966

[31] الراعي ، اشرف، مصدر سبق ذكره ،ص 81

[32] العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية ، اللجنة المعنية بحقوق الإنسان – الدورة الثانية بعد المائة – جنيف 11-29تموز2011 – التعليق العام رقم 34

نقد فكر بن خلدون مابين الانصاف والتحيز

د/جلود رشيد

جامعة الجلفة

الملخص:

– إن الاهتمام بما قدمه بن خلدون يتزايد في الغرب منذ قرنين من الزمن. وأكبر دليل على حالة الانحطاط والجمود التي نعاني منها نحن العرب هي أن الأوروبيين هم الذين اكتشفوا أهميته في بداية القرن التاسع عشر وليس نحن! نحن أهملناه طيلة القرون المتتالية، بل و لم نهتم به الا بعد ان لاحظنا أن الآخرين يهتمون به ويدرسونه ويحققون كتبه ومخطوطاته. وهذا ما فعلناه مع ابن رشد أيضا وبقية المفكرين الكبار مهما يكن من أمر فإن باحثي الغرب لم يصدقوا أعينهم عندما قرأوا مقدمة ابن خلدون الشهيرة وفلسفته العميقة للتاريخ والحضارة البشرية. وقد وصل الأمر بالمؤرخ الانجليزي الكبير أرنولد توينبي إلى حد رفعه إلى أعلى المستويات عندما قال بأنه أكبر منظر لفلسفة التاريخ في كل الأزمنة وكل العالم.. فقد بلور نظرية متكاملة عن صعود الحضارات وانهيارها وأسباب ذلك. ورغم ذلك ففكر بن خلدون واجه الكثير من الانتقادات وهذا ما سيتم التطرق إليه في هذا المقال من خلا مجموعة من المحاور: بن خلدون في مرآة الغرب – بن خلدون يعلم الغرب كيفية قراءة المشهد الراهن.– بن خلدون في مواجهة سوء الفهم عند طه حسين واحمد امين. – قراءة في كتاب نهاية اسطورة بن خلدون للدكتور محمود اسماعيل.–

Summary

The interest in the information presented by the Ibn Khaldoun is growing in the West since two centuries. The biggest evidence of the state of decay and stagnation that we have, we Arabs is that the Europeans are the ones who discovered its importance in the beginning of the nineteenth century, not us! We forget him throughout successive centuries, but did not care about him, but after he noticed that other people.

الكلمات المفتاحية: بن خلدون، الغرب، طه حسين، نهاية اسطورة بن خلدون.

مقدمة:

يعتبر فكر ابن خلدون حدثاً هاماً في مجال الإبداع الثقافي والعلمي العالمي؛ حيث نرى ذلك جليا في مقدمته لأنها أسست لبحث علمي جديد ولموسوعة علمية ولتمحيص للتاريخ إذ أن البحث في «العمران البشري» يشكل مدخلاً لتفهم مجريات التاريخ. وإذا كانت «المقدمة» تحتوي على استطرادات، فإن هذه الاستطرادات متعمدة لتوضيح وإثبات الأفكار الأساسية ولتكوين موسوعة لما وصلت إليه المعرفة في زمن ابن خلدون، فالمقدمة هي بالفعل مدخل لنزعة إنسانية أكثر منها مقدمة لكتاب تاريخ...

ورغم ذلك إلا أن فكر بن خلدون تعرض لمجموعة من الانتقادات أو ما يمكن اعتباره تحيزا وسيتضح ذلك من خلا ل عرض مجموعة من المحاور التي سنستعرضها في هذا العمل.

-1ابن خلدون في مرآة الغرب:

المؤرخ الفرنسي المعروف **فيرنان بردويل** صاحب التنظيرات الشهيرة عن مجرى التاريخ البشري وحركته فقال عنه: ابن خلدون يعتبر من قبل المفكرين المعاصرين بمثابة أحد مؤسسي علم الاجتماع السياسي. وكانت فلسفته للتاريخ تقول بما معناه: الإمبراطوريات أو السلالات، كالبشر، لها حياتها الخاصة. فهي تولد وتكبر حتى تصل إلى الذروة،

ثم تنحدر وتموت، لكي تحل محلها إمبراطوريات أخرى، وهكذا،.. وكان يعتقد بأن عمر السلالة الحاكمة لا يتجاوز عادة المئة وعشرين سنة. وهذا ما استنتجه من خلال دراسته الدقيقة للسلالات الإسلامية التي حكمت الأندلس، والغرب، والشرق. ومعلوم أنه عاش في ظل العديد من هذه السلالات، بل وكان وزيراً لدى بعضها، بل ودخل السجن أيضا! وبالتالي فهو يعرف عما يتحدث لأنه درس نظام الحكم من الداخل وشاهد بأم عينيه كل المناورات والمؤامرات السياسية.[1].

أما المستشرق **مونيتل** الذي اعتنق الإسلام بعد طول دراسة ومحبة فقد ترجم «مقدمته» وقال عنه ما يلي: «لقد سبق ابن خلدون فلاسفة التاريخ الأوروبي وبخاصة العالم المسيحي الشهير «بوسويه» بثلاثة قرون إلى فهم التاريخ وتفسير مغزاه ودلالته. ولكن ابن خلدون سبق أيضاً أوغست كونت إلى تأسيس علم الاجتماع بخمسة قرون، لقد طبق ابن خلدون، وللمرة الأولى، منهجية جديدة على دراسة المجتمع الإنساني والحضارة البشرية، وكفاه ذلك فخراً..

ثم يردف المستشرق المعروف قائلاً: لقد درس ابن خلدون بشكل تجريبي محسوس طبيعة الحضارة وجوهرها، أي الحياة البدوية والحياة الحضرية، ومفهوم العصبية الذي يؤدي إلى تشكل السلالات البشرية، وآليات الهيمنة والسيطرة وكيفية تشكل السلطة والسلالات والطبقات الاجتماعية، والمهن والحرف التي يكسب بها الإنسان رزقه، والعلوم والفنون.

أما الباحث الفرنسي المعاصر **كلود هوروت** فقد أصدر كتاباً مهماً بعنوان: ابن خلدون: هل يمثل إسلام التنوير، والواقع أن بعضهم يعتقد بأن ابن خلدون يمكن أن يمثل نموذجاً يحتذى بالنسبة للمثقفين العرب اليوم. ويمكن أن يقدم لنا بديلاً عن الأصولية المتطرفة والحداثوية المستغربة في آن معا ً.

ولكن البعض الآخر يقول إن ابن خلدون الذي كان نافذ البصر فيما يخص علم الاجتماع البشري لم يكن من أنصار الفلسفة إلى الحد الذي نتصوره، بل كان فقيهاً لاهوتياً أكثر مما كان فيلسوفاً، وهكذا جمع بين النقيضين في آن معاً. ولكن لماذا لا نقول بأنه جمع بين العلم والإيمان، أو بين العقل والدين، أليس هذا ما نحتاجه اليوم في العالم العربي والإسلامي ككل؟ للأسف فهذا ليس رأي الفيلسوف الفرنسي «بوميان»[2] الذي كرس لابن خلدون كتاباً مهماً،

وقد صدر أيضاً في المكتبات الباريسية عن دار نشر **غاليمار** الشهيرة تحت عنوان: ابن خلدون في مرآة الغرب، فهو يعتقد أن ابن خلدون رفض الفلسفة بالمعنى الإسلامي للكلمة، وربما فعل ذلك لأنه خشي من أن تؤدي إلى الخروج عن الدين، ولكنه كان مخطئاً في ذلك، فالفلسفة التي تعني دراسة العالم الطبيعي بشكل منطقي وعقلاني قد تكون طريقاً نحو الله أيضاً،

ومن خلال دراسة الظواهر الفيزيائية أو الطبيعية قد نتوصل إلى اللاهوت والميتافيزيقا ونرتفع إلى مستوى الإيمان، وبالتالي فالفلسفة لا تؤدي اتوماتيكيا إلى الكفر، على عكس ما يظن الأصوليون بل بما أدت إلى عكس ذلك، وعندئذ يكون إيماننا مستنيراً وعقلانياً لا مذهبياً ولا طائفياً.

ولكن أليس هذا الكلام يعني أننا نطلب من ابن خلدون أكثر مما يستطيع تقديمه لنا؟ وهل كان بإمكانه أن يفعل أكثر مما فعل؟ ينبغي ألا نسقط عليه مقولات العصور اللاحقة وإنجازاتها. فهو لا ينتمي إلى القرن الثامن عشر الأوروبي، أي عصر التنوير الكبير، وإنما إلى القرن الرابع عشر الإسلامي، حيث كان الانحطاط من حوله عاماً شاملاً،

وبالتالي فكفاه ما قدمه في ساحة علم الاجتماع السياسي ودراسة القوانين التي تتحكم بنشوء الحضارات، ونضجها، فموتها، فابن خلدون على الرغم من عظمته، ليس فولتير ولا مونتسكيو ولا جان جاك روسو، ناهيك عن أن يكون دور كهايم أو كارل ماركس، ولكنه سبق كل هؤلاء إلى الدراسة العلمية للمجتمعات البشرية. صحيح أن هذه الدراسة حققت بعده قفزات هائلة في أوروبا، ولكن يكفيه أنه كان له شرف الريادة والسبق.

في الواقع ان موقفنا من الحضارة الغربية الحديثة ينطبق عليه كلام ابن خلدون الذي ينص حرفياً على أن «المغلوب مولع بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيّه ونحلته وسائر أحواله وعوائده». وهذا قانون سوسيولوجي ينطبق على كل المجتمعات والعصور، بل وينطبق على الغرب نفسه عندما كان متخلفاً ونحن المتقدمون، فقد كانوا يترجمون الفارابي وابن سينا وابن رشد وينبهرون بهم مثلما نترجم نحن الآن كانط أو هيغل وننبهر بهما.

وأخيراً فلابد من الإشارة إلى أن ابن خلدون كان سباقاً إلى فن السيرة الذاتية في الأدب العربي، فقد تحدث عن حياته الشخصية قبل أن ينتقل إلى الحديث عن التاريخ والاجتماع البشري. وكم كان مؤثراً أن يقول لنا بأن زوجته وأولاده ماتوا غرقاً في البحر قبل أن يصلوا من تونس إلى شواطئ الاسكندرية لكي يلتحقوا به وينعموا بطيب العيش معاً! نعم لقد دفع ابن خلدون ثمن علمه باهظاً، وهذا ما يزيد من إنسانيته، ولولا إيمانه كمسلم بقضاء الله وقدره لفقد أعصابه كلياً بسبب هذا الحدث المفجع أو لجنّ جنونه.

2- بن خلدون يعلم الغرب كيفية قراءة المشهد الراهن

قال الكاتب البريطاني **إد ويست**إن نظرية "العصبية" وعلاقة الفرد بجماعته أو "عُصْبته" التي وضعها أبو علم الاجتماع عبد الرحمن بن خلدون، تنطلي اليوم أكثر من أي وقت مضى على أحداث الشرق الأوسط.

وأضاف **ويست**-في مقال نشرته مجلة **الـ(اسبكتاتور)**- أن نظرية ابن خلدون تكشف مدى قصور النظرة الغربية المتمحورة حول الفرد، في قراءة المشهد العالمي بوجه عام منذ سقوط الشيوعية، ومنطقة الشرق الأوسط بوجه خاص وبعد أن عدّد الكاتب الغربي مناقب ابن خلدون وشهد بمكانته السامية بين رواد علماء الإنسانية مقارنا إياه بـ"هيرودوت" و"ثوسيديديس" بين آخرين، رصد قوله "إن العصبية هي القوة المحركة الأساسية للتاريخ، والمسؤولة عن قيام دول وممالك وحضارات وسقوط أخرى .. وأن الدول تقوم لها قائمة إذا جمعت بين أفرادها عصبيةٌ قوية، ولكن ما أن تقوم حتى تبدأ في خسارة ما يمكن أن يُسمى أمس بالتضامن الاجتماعي أو رأس المال الاجتماعي، ثم ما تلبث هذه الدول بدورها أن تدول على أيدي وافدين جدد.[3].

ويرى صاحب المقال أن نظرية "العصبية" لابن خلدون تُطلّ بقوة على صورة المشهد العالمي أمس لأن طبيعة العصبية أو "الرابطة بين الفرد والجماعة" في دولة ما تتوقف عليها طبيعة حكومة تلك الدولة ومؤسساتها؛ فالعراق على الرغم من أنه مهد للحضارة لكن قيام الدولة العراقية أمس يبدو مهمة صعبة لما يكتنفه من طائفية بين سُنة

وشيعة وأكراد وغير ذلك من قبائل وعشائر لا تُحصى .. وبسبب العصبية، تنزل العراق في المنزلة رقم 170 من أصل 175 بين دول العالم من حيث الشفافية، بحسب تقارير منظمة الشفافية الدولية..

ومع ذلك، فإن التحليلات قبل الاجتياح الأمريكي للعراق وبعده، طالما ركزت على عوامل مثل الدين أو الأيديولوجياأو الاقتصاد، دون الالتفات إلى عامل "العصبية."

وبحسب ابن خلدون، فإن الدو اعش إنما استطاعوا الاستيلاء على مدينة الموصل رغم أن نسبتهم العددية مقارنة بالجيش العراقي المزوّد جيدا بالعتاد كانت (40:1)، لا لشيء إلا لأنهم أشد عصبية من مقاوميهم، على نحو يدفعهم إلى الرغبة في الموت في سبيل أهداف عُصْبتهم أو جماعتهم التي يتعصبون لها.

وعليه، يرى **إد ويست** أن العصبية هي مفتاح فهْم أسباب سقوط بعض الدول وقيام أخرى، ونجاح الديمقراطية في بعض الأحيان وفشلها في بعض آخر، وفهْم السرّ وراء بقاء الدولة القومية بمثابة الأساس للمجتمعات الأساسية الناجحة.

واختتم الكاتب قائلا "أيا كان ما سيحدث، فإن المستقبل في القرن الحادي والعشرين سيعتمد على "العصبية"، التي تبقى بمثابة الأساس الحقيقي للوجود الإنساني.

3-بن خلدون في مواجهة سوء الفهم عند طه حسين واحمد امين

واجَة ابن خلدون العَديدُ من الخصومات و الحَمَلات التي قُصدَ منها التَشهير به و ذَلك بدافع الغيرة فَقَد اتهمه **ابن عرفة** مُفتي تونس' كما هاجمُة **الجمال عبدالله البشبيشي** و غَيرهُم الا أن هُناك الكَثير من المُدَافعين عَنُه مثل العَلامة المَصري

و المؤرخ **تَقي الدين المَقريزي** و كَذَلك **ابو العَباس القَلقَشَندي** صاحب كتاب (صُبح الأعشى في صُنع الأنشاء) اما المُفَكرين الغَربيين فَقَد انصَفوا ابن خلدون .

ولَقَد واجَه حَمَلات من خُصومُة الذينَ اساؤا اليه من بَعض المُفكرين المُحدثين المَصريين و علىَ رأسُهُم :

- **الدكتور طه حسين**
- **الأستاذ أحمد أمين**[4]

و بالنسبة للدكتور **طه حسين** فَلقَد اساء فَهم ابن خلدون في رسالته للدكتوراه المُقَدَمة في فرنسا عام 1922 عن (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية) – حَيثُ ذَكَرَ أن ابن خلدون ادَعيَ كذباً دراسته لكتاب المُختَصر ' و لتصحيح ذلك الأمر)فَلَقَد كَتَبَ ابن خلدون في مقدمته فصلاً كاملاً عن الفقه و عن مُختَصر بن الحاجب و تاريخ دخوله المَغرب و اثرُة في دراسة الفقه المالكي مع تحليل كامل(فالأول اسمُة (المُختَصَر الكَبير)' و الثاني (المُختَصر الصغير و قَد شَرَحَ ابن خلدون المُختصَرين شرحاً و افياً و المُختَصر' الأول في (الفقه و الثاني في (أُصول الفقه)' و العجيب أن يُتهم ابن خلدون و هو اماماً في الفقه المالكي و قاضي قُضاة المالكية في مصر' و تولَّيَ تدريس الفقه الإسلامي في المغرب ثم كَبير العلماء بالأزهر)الرد من الأبحاث و الدراسات اليونانية المُقدمة عن فلسفة التاريخ الإسلامي للدكتور أمين عزالدين بكلية العلوم السياسية – أثينا – عام 1980[5] (هذا و قَد أنصفَهُ من معاصريه العلامة المقريزي حيثُ قالَ :

– كما وصفُة المُؤرخ أبو المحاسن بِن تَغري بردِي يشاطر شَيخَة المقريزي تقديره لأبن خلدون قال (باشر القضاء بحرمةٍ و افرة و عظمةٍ زائدة و حمدت سيرته .

و لقد أخذ أبو العباس القلقشندي صاحبُ كتابُ (صُبح الأعشى في صناعِة الانشاء) عن ابن خلدون و موسوعته أشياء كثيرة' و بذلك نري هذا المُؤرخ العظيم ابن خلدون قد هاجمةُ البعضُ' اما المفكرين الغربيين فقد انصفوا ابن خلدون حيثُ قال عند الفيلسوف و المؤرخ (ارنولد توينبي(أن ابن خلدون في المقدمة التي كتبها لتاريخه العام قد ادرك و تصور و أنشأ فلسفة للتاريخ هي بلا شك أعظم عمل من نوعه خلقة أي عقل في أي زمان مكان.[6]

كما كتب الأستاذ المؤرخ (روبرت فلينت) عنة فقال :

–من وجهة علم التاريخ أو فلسفة التاريخ يتحلى الأدب العربي باسم من المع الأسماء' فلا العالم الكلاسيكي في القرون القديمة و لا العالم المسيحي في القرون الوسطي يستطيع أن يقدم أسما يضاهي في لمعانة ذلك الاسم . إنه أول كاتب بحث في التاريخ بموضوعية حيث اكتشفوه علماء الغرب و بعثوا تراثه من أحضان النسيان' كما ادركوا المعاني الخاصة لكلماته' و أن علي من يريد أن يقرا مقدمة ابن خلدون يجب أن يكون ذا عقل علمي حر خالي من المؤثرات المختلفة' فليس من شيء تضيع الحقائق معه كعدم التجربة أثناء البحث العلمي .. ولَسنا هنا في مجال المُهاجمة للفريق الذي يتزعمه الدكتور طه حسين

و الأستاذ أحمد أمين' و لكن نضع الحقائق أمام القارئ حتي يستطيع أن يُحدد بالبحث المُجرد لشخصية ابن خلدون الذي أعتبره العُلماء الغربيون حدثاً فريداً'

و في نفس الوقت نحاول أن ادفَع الظُلم بعين العدل و الأنصاف عن واحد من خَيرة ابناء هدة الأمة العربية .... كما اساءَ طه حسين و عدد اخر من الباحثين الفهم لمدلول كلمة العرب عند ابن خلدون و ذلك لأنُهم لم يمعنوا النظر في قراءة المقدمة حيثُ ذَكَرَ طه حسين في رسالته للدكتوراه ص. 100–102 أن ابن خلدون يكره العَرب و العروبة كما اتهمه بالشعوبية و انه من الكافرين بَالعروبة و يقترب من هذا الفكر الأستاذ أحمد أمين في كتابة (ضُحي الإسلام و فَجر الإسلام) و لقد اشَار الدكتور امين احمد عزالدين الي اخطاء طه حسين و أحمد أمين في هجومهم علي ابن خلدون من خلال عدد مقالات اهمها

1–مجال الحضارة العربية ' الصادرة في أثينا في العدد 55 ص. 7 بتاريخ 18 ديسمبر عام 1984 تحت عنوان "قضية العروبة عند ابن خلدون

2– جريدة الرأي العام القاهرية في العدد 59 بتاريخ 13 يونيو عام 1985 تحت عنوان "قضية العرب و العروبة

3 –رسالة الدكتوراه الأولي بجامعة باندیوس للعلوم السياسية تحت عنوان "فلسفة الاجتماع السياسي" – أثينا اليونان

4–رسالة الدكتوراه الثانية تحت عنوان "فلسفة التاريخ عند ابن خلدون" بجامعة كريت – اليونان –2012.[7]

و برغم ان الدكتور طه حسين من دعاة التنوير و من رواد التغريب اِلا ان الإسلاميين يؤكدون ان الغرب هُم الذين لقبوة بلقب عميد الأدب العربي و مهما كان الأمر فأن طه حسين بطبيعته كان يجد متعة في نقد العلماء و الأساتذة علي مبدأ (خالف تُعرف) و كان عَنيداً ' محباً للظهور و هو أول من نقد استاذُة (المنفلوطي) ' هذا

بجانب كتابُة في الشعر الجاهلي الذي أُخذَ عليه بسبب هجومه علي سيدنا ابراهيم و سيدنا اسماعيل و شكك فيهم تاريخياً بل شكك في زيارتهم الي الكعبة ' كما أُتهم بالكفر و الألحاد و كانَ عادةً يُخطئ في العلن و يعتذر عن الخطأ في السر ' انه المُعلم الذي قام بتحكيم العقل و دعي الي الشك و النقد و المعارضة ' و علي نفس المنوال سار الأستاذ أحمد أمين الذي كان مُتشككاً' مُتردداً تختلف وجهة نظرُة حسب الزمان و المكان و لم يترك لنا فكر محدد ذو صبغة محددة و قال عنه الأخرين انه (مُتَقلب . (

4- قراءة في كتاب نهاية اسطورة بن خلدون للدكتور محمود اسماعيل:

تعزز رصيد الأدب الخلدوني بإصدار تأليف الدكتور **محمود إسماعيل** ومن خلال العنوان الذي اختاره لهذا التأليف: **"نهاية أسطورة: نظريات ابن خلدون مقتبسة من رسائل إخوان الصفا"** [8] وكذا الأطروحات والمحاور التي عالجتها صفحات هذا الكتاب يتضح أننا بصدد اتجاه جديد ومنطلق معاكس في التعامل مع تراث ابن خلدون عامة وكتاب المقدمة خاصة، ويتمفصل هذا الاتجاه في تحامل د. محمود على ابن خلدون، وتشكيكه الحاسم فيما نسب إليه من مفاهيم ونظريات، والحديث بالجزم على أن ابن خلدون لا يعدو كونه سارقا سطا على إبداع ونتاج سابقيه وهم إخوان الصفا، وبالتالي، فهو لا يستحق حسب زعم الباحث، المكانة الأسطورية التي تبوأها لما يزيد عن سبعة قرون.[9]

في المبحث الثاني، تناول، محمود إسماعيل بالتعريف، "ابن خلدون الأسطورة" فخلص إلى أن ابن خلدون "أشهر من أن يعرف به" وذلك لغنى وتنوع المصنفات التي أفردت للتعريف به ومتابعة سيرته ودقائق رحلاته، لهذا الغرض، ولسطوه على نتاج غيره، يدعو محمود إسماعيل إلى مراجعة ما كتب عن ابن خلدون وعدم الاطمئنان إلى ما هو مبسوط بشأن حياته وجوانب شخصيته، ويؤكد أن غايته إثبات لا أخلاقية ابن خلدون، وتفنيد أحكام وشهادات أولئك المفكرين والمؤرخين العرب والأجانب الذين انبهروا به وروجوا لأسطورته (سعد زغلول عبد الحميد – مصطفى الشكعة – عبد الله العروي – محمد عابد الجابري – أرنولد توينبي – إيف لاكوست – ولوكاتش – ونور الدين حقيق).

وبعد الاعتراف بالإسهام في الترويج لابن خلدون والإفادة من نصوصه يؤكد الباحث أنه اطمأن في التسعينيات إلى "أن كل ما نسب لابن خلدون" مأخوذ عن إخوان الصفا"، ومن ثمة يحق. إنصاف هؤلاء الرواد" وعدم التمادي في الصمت على ما حازه ابن خلدون بدون وجه حق، والملفت للانتباه، أن اطمئنان **محمود إسماعيل** هذا جاء انطلاقا من براهين واكتشافات سبق إثباتها والتفطن لها ومن قبل بعض الدارسين الذين رماهم د. محمود بالانبهار والترويج لريادة ابن خلدون ثم ينتقل الباحث للنبش في أخلاقيات ابن خلدون، فيربط بين عدم أمانته العلمية وبين ما ساد عصره من نقل وسطو في المشرق والمغرب. وانطلاقا من سيرة ابن خلدون، يخلص إلى أن طموحه السياسي قد فوت عليه فرصة التفرغ للعلم وطوح به في أحضان الانتهازية والوصولية. وساهمت الاخفاقات التي تعرض لها، وما حل به وبأسرته من اضطهاد ومصادرة وسجن في تخليق "شخصية غير سوية" دفعها الإحباط والفشل السياسي إلى احتراف السطو والانتحال المعرفي كوسيلة لإثبات الذات ومعانقة النجاح والشهرة في ميدان العلم والمعارف.[12]

أفرد المبحث الثالث لإثبات "جسد الجريمة" من خلال بسط النصوص التي نقلها ابن خلدون عن إخوان الصفا، والتي تمثل الحجة والسند القطعي لهدم أسطورة ابن خلدون ووضع حد نهائي لرواجها أو الترويج لها،

وفي خاتمة الكتاب يخلص الدكتور محمود إسماعيل إلى أنه لم يعد لديه أدنى شك في عدم مصداقية ابن خلدون وما ادعاه من سبق في استحداث صنعة علم العمران، ويسوق بعض الأسباب التي حالت دون فطنة معاصري ابن خلدون ولاحقيه لواقعة سطوه على فكر إخوان الصفا، ومنها: إحراق الرسائل، وانفراط عقد جماعة الإخوان نهائيا، وكذا ما أشيع حولهم من زندقة ونعت بالمروق والإلحاد، وعدم اهتمام المعاصرين بدراستهم لا في أقسام الفلسفة، وعدم وجود من اهتم بدراسة الرسائل والمقدمة في أن واحد، هذا إلى جانب تناثر أفكار الإخوان وآرائهم عن العمران البشري بين ثنايا رسائلهم وتحت عناوين لا تثير الانتباه ووسط أفكار فلسفية غاية في التعقيد، وكذا نجاح ابن خلدون في إحكام فعلته بالقدر الذي يصعب معها الكشف والانتباه. ويذيل بلائحة للمصادر والمراجع، بلغت سنة وعشرين مصنفا، من ضمنها ثلاثة مصادر (رسائل الإخوان، مقدمة ابن خلدون – الإمتاع والمؤانسة للتوحيدي).[13]

ويحق لنا أن نتساءل عن وزن وقيمة الأدوات المنهجية والمصدرية التي وظفها محمود إسماعيل للقيام بهذه التعرية الأركيولوجية لنص المقدمة، وإلى أي حد أخطأ أم أصاب في رهانه؟ ونبادر إلى التأكيد أن كثيرا من الأحكام العامة التي يصدم بها قارئ هذا الكتاب لابد من الوقوف منها بما يلزم من الحذر والحيطة لما قد يكون فيها من المبالغة والعسف، فعكس المنحى الذي تصدر عنه أحكام الدكتور محمود فإن ما جرى عليه الباحثون المعنيون بالتراث الخلدوني هو أن ما اعتبره نقولات وسرقة له من الأسس المتواترة في الفكر العربي الإسلامي خاصة الموسوعي، فابن خلدون متبع ومبتدع في نفس الآن، شأنه في ذلك شأن المفكرين العظام،[14] فعلى حد تعبير المفكر عبد الله العروي، "فإن الابتداع يقوم حتما على الاتباع وإلا كان جهلا إن لم يكن وحيا" مؤكدا أن أصالة ابن خلدون بالضبط في كونه نقب عن جذور فكر وأحكام المؤلفين السابقين له فكشف عن الأرضية التي وقف فوقها كل الذين سبقوه[15]،وعليه فتأثر ابن خلدون بسابقيه ومنهم إخوان الصفا لا يقلل من أصالته، بل على العكس من ذلك فإن تأثره هذا هو ما جعل المقدمة نتاج صهر خصب لأصوليات فرعية فجاءت نموذجا للتتويج الكلي والقدرة على التجريد والتنظير والطاقة في الاستقطاب المعرفي الشامل.[16]

ضمن تعريفه بإخوان الصفا يلاحظ أنه برغم حماسته وترديده للغبن الذي تعرضوا له، لم يفلح في تقديم أكثر من تسع صفحات هي بالتأكيد غير مستوفية لغرض تبديد الغموض الذي يلف تاريخ الإخوان، وبالتالي استحالة الإجابة عن الكثير من الأسئلة التي ترتبط بصميم حركتهم، فهو وإن أبرز نشأتها في بداية العصر العباسي الثاني لم يوفق في متابعة صيرورتها، ولم يقدم كافة نشطائها، كما أغفل الإشارة إلى مراكز استقرارها وانتشارها شرقا وغربا، ولم يبرز طرق تواصلها وكيفية عملها وتأليفها الجماعي، فربما حرص المؤلف على تأجيل ذلك إلى حين صدور كتابه المنوه إليه "إخوان الصفا رواد التنوير في الفكر الإسلامي".[18]

* ينطلق محمود إسماعيل في محاكمته للإبداع الخلدوني من كتاب المقدمة ولا يذكر شيئا البتة عن باقي الآثار الخلدونية باستثناء إشارة إلى كتاب "التعريف"، وهذا الأمر يدعونا إلى التساؤل حول خلاصات مثل هذه القراءة

الحرفية الأحادية، إذ ينبغي أن يغرب عن بالنا أن "المقدمة" كما وضعها ابن خلدون لا تنفصل عن التاريخ ولا خارجه فهي جزء لا يتجزأ منه، فضلا عن أنه يتعذر تكوين فكرة متكاملة عن النسق الخلدوني بدون مراعاة مختلف عناصر والمشروع الخلد وني والاعتماد على مختلف الآثار الخلدونية.

* من بين الأدلة التي يسوقها د. محمود إسماعيل لإثبات السطو الخلدوني على معارف إخوان الصفا كون تعابير المقدمة غريبة عن ابن خلدون وتنسجم في أكثر من وجه مع عصر رسائل إخوان الصفا، لكن الكتابات التي اهتمت بدراسة هذه الرسائل ونتاج أعضاء حركة الإخوان، تثبت أو وحدة الأسلوب انعدمت والأساليب الفنية والصيغ التعبيرية تباينت بين إخوان الصفا، يضاف إلى ما سبق أن ابن خلدون قد أفاد واحتك بكتابات ومصنفات سابقة ومعاصرة للإخوان (الماوردي – المسعودي – الطبري – الشهر ستاني – ابن حزم...)، فكيف يستقيم القول أمام هذا التنوع في المناهل أن ابن خلدون تأثر بل نقل لغة الإخوان، وبأي معنى وكيف توحدت إبداعات هؤلاء ولغتهم في متن المقدمة.

* يلاحظ من خلال قراءة كتاب "نهاية الأسطورة" غلبة خاصيات التعميم والإطلاقية والارتباك التي تلف بعض القضايا المعالجة، فالباحث يؤكد على أن "كل الدارسين عرب ومستشرقين رفعوا ابن خلدون إلى مصاف الفلاسفة الكبار المفكرين، ثم يعود ليكتب ومن الإنصاف التنويه بأن بعض الدارسين قد فطنوا من قبل إلى وجوه بعض السلبيات في الفكر المنسوب إلى ابن خلدون،ومن أمثلة ارتباك – إن لم نقل تناقض أحكامه – أنه في سياق تفنيد الأطروحة القائلة بأن حركة الإخوان لم تكن دعوة سياسية و لم تطمع في تأسيس دولة يستدل بأنهم لم يفردوا مباحث عن الإمامة،لكن ما يلبث أن ينسى إقراره هذا ليكتب نقيضه مؤكدا أن ابن خلدون نقل عن إخوان الصفا كما نقل عنهم ابن النفيس في كتابه "السيرة الكاملة" "ثلاثة نصوص" "أحدهما عن طبيعة العمران والثاني عن ضرورة المعاش والثالث عن الإمامة"، ولعل أقصى ما يعبر عن اضطراب معلومات د. محمود وعدم تحريه ما يكفي من الدقة هو جعل السابق (لابن خلدون) يسطو على اللاحق (لابن الزرق).

* يذكرنا تقويم الدكتور محمود إسماعيل لابن خلدون من خلال التركيز على سيرته بحملة العداء والكراهية التي تعرض لها ابن خلدون من قبل معاصريه وتلامذته المصريين من أمثال (الغيثني – البشيشي – ابن حجر – السخاوي – ابن ثغري بردي) الذين تشددوا في الحكم على حياته الخاصة ورموه بالغطرسة ، وقد نربط هذا التلاقي في الأحكام والمواقف المصرية إزاء ابن خلدون بإشكال واسع ذي صلة برغبة بعض المشارقة عامة والمصريين خاصة في تأكيد نزعة مركزية شرقية، ولعل في هذا الإطار تندرج بعض الانتقادات الحادة التي وجهت للباحث عابد الجابري بخصوص أطروحته عن تميز المدرسة المغربية الأندلسية والتي كان من أبرز أقطابها ابن خلدون.[19]

خاتمة:

وفي الاخير لا يمكننا الرد على منتقديه إلا بالقول أن "ابن خلدون" عبقرية عربية متميزة، فقد كان عالمًا موسوعيًا متعدد المعارف والعلوم، وهو رائد مجدد في كثير من العلوم والفنون، فهو المؤسس الأول لعلم الاجتماع، وإمام ومجدد في علم التاريخ، وأحد رواد فن "الأتوبيوجرافيا" ـــ فن الترجمة الذاتية ـــ كما أنه أحد العلماء الراسخين في

علم الحديث، وأحد فقهاء المالكية المعدودين، ومجدد في مجال الدراسات التربوية، وعلم النفس التربوي والتعليمي، كما كان له إسهامات متميزة في التجديد في أسلوب الكتابة العربية .

قائمة المراجع:

[1]هاشم صالح : مقال بعنوان ، بن خلدون في مرأة الغرب،مجلة البيان،نوفمبر 2006

[2]نفس المرجع

[3]مجلة البوابة الالكترونية :مقال بعنوان بن خلدون يعلم الغرب كيفية قراءة المشهد الراهن،2015/08/4.

[4]امين احمد عز الدين: بن خلدون في مواجهة سوء الفهم عند طه حسين ،ملتقى بن خادون للفلسفة والادب، اثينا 2006.

[5]نفس المرجع

[6]نفس المرجع السابق

[7]المرجع السابق

[8]د. محمود إسماعيل، نهاية أسطورة: نظريات ابن خلدون مقتبسة من رسائل إخوان الصفا عامر للطباعة والنشر ج. م المنصورة الطبعة الأولى نوفمبر 1996.

[9]جمال حيمر : مقال بعنوان ،بصدد نهاية اسطورة بن خلدون،شروط القراءة وحدود التأويل،مجلة علامات الالكترونية، نوفمبر2003.

[10]نفس المرجع

واقع اتجاهات التلاميذ نحو الدّراسة
(دراسة ميدانية بثانويتين بولاية الجلفة، الجزائر)

أ. أسيا درماش-جامعة وهران2
د.محمد عبد العزيز-جامعة وهران2

ملخص:
سعت هذه الدراسة الوصفية إلى معرفة كل من طبيعة اتجاهات تلاميذ السنة الأولى من التعليم الثانوي نحو الدّراسة، والفروق في اتجاهات التلاميذ نحو الدراسة تعزى لمتغيري الجنس والشعبة الدراسية.
صيغت أسئلة البحث في ثلاث فرضيات؛ ومن أجل اختبارها تمّ استخدام استبيان حول الاتجاهات نحو الدراسة كأداة لجمع البيانات –معد من طرف الباحثين–؛ حيث طُبق على عينة عشوائية من تلاميذ السنة أولى ثانوي بلغ عدد أفرادها (200).
توصلت الدراسة إلى النتائج التالية:
1. توجد فروق دلالة إحصائيا بين متوسط درجات أفراد العينة و المتوسط الفرضي لاستبيان الاتجاهات نحو الدراسة، وهي تدل على أنّ للتلاميذ اتجاهات ايجابية نحو الدراسة.
2. توجد فروق دالة إحصائيا في الدرجة الكلية لأفراد العينة على استبيان اتجاهات التلاميذ نحو الدراسة تعزى لمتغير الجنس وهي لصالح الإناث.
3. لا وجود لفروق دالة إحصائيا بين الدرجات الكلية للتلاميذ على استبيان اتجاهات التلاميذ نحو الدراسة تعزى لمتغير الشعبة الدراسية.

الكلمات المفتاحية : الاتجاهات نحو الدراسة – تلاميذ السنة أولى من التعليم الثانوي.

1.مقدمة :

تعد المدرسة بيئة تربوية وتعليمية هامة ومتعددة الأدوار، أهمها تكوين وإعداد الأجيال الجديدة ودمجها في الحياة الاجتماعية، هذا ما جعلها تتبوأ مكانة اجتماعية خاصة وموضوع العديد من الأبحاث والدراسات التربوية.
والعوامل المرتبطة بالمدرسة عديدة ومتفاعلة، من عوامل داخلية وأخرى خارجية محيطية، ومن العوامل الداخلية للمدرسة المتعلقة بالتلميذ تشكل طبيعة اتجاهاته نحو الدراسة أهمية خاصة في العملية التعلمية، فالاتجاهات الإيجابية عامل أساسي تتوقف عليه فعالية التعلمات المدرسية؛ ويؤكد مهروترا وآخرين (Mehrotra et al , 2009) أن ذلك سيوفر للتلميذ فرصة اكتساب مهارات ذلك التخصص بسهولة ويسر، بينما سيواجه صعوبة في اكتساب هذه المهارات إذا كانت اتجاهاته سلبية نحوها، إذ تلعب الاتجاهات الايجابية نحو الموضوعات أو التخصصات دوراً كبيراً في تنشيط سلوك الفرد نحو الإقبال عليها، مما تدّفَعه إلى الانتماء والعطاء لها والتفوق والإبداع فيها، والعكس صحيح إذا كانت الاتجاهات سلبية.(بني جابر، 2004).

العناية بدراسة الاتجاهات ليست حديثة فقد عرفه جوردن آلبورت (Gordon willard Allport) سنة (1935) على أنّه استعداد عقلي وعصبي ينتظم من خلال خبرة الفرد وما يمارسه، ولهذا الاستعداد تأثير موجه أو ديناميكي في استجابة الفرد وردود أفعاله نحو جميع المواقف والمواضيع ذات الصلة.(Fischer2011).

ويرى الشيخ عمر(1986)،أنّ مفهوم الاتجاه زاد وتنامى الاهتمام به خلال العقود الثلاثة المنصرمة نظراً لتزايد الطلب على التعليم، كما يشير سونج وجنيفر (Song and Jennifer, 2005) و وزانج (Zhang, 2007)، بأن الاتجاهات تُساعد في تحديد ميول الفرد واهتمامه وقدراته واستعداداته، لتعّمل بذلك كدوافع مهيأة وموجهة لسلوكه، فضلاً على أنها تساعد في التنبؤ به.

وما يزيد من أهمية دراسة الاتجاهات أكثر –ونخص بالذكر الاتجاهات نحو الدراسة– هو تعدد واختلاف العوامل المؤثرة فيها والتي لخصتها وصنفتها "ياسين آمنة" في صنفين هما على النحو التالي :

أولاً:العوامل الذاتية(الخاصة بالتلميذ): وتشمل الخبرة الدراسية، استقلالية التلميذ، تقدير الذات، السن، الجنس، الأصول الاجتماعية، الشعور بالفاعلية الشخصية، اكتساب المهارات الدراسية....

ثانياً:العوامل المحيطية: وتشمل كل ما يحيط بالتلميذ داخل وخارج المدرسة من عوامل أسرية كوعي الأسرة بأهمية العلم والدراسة، والمنشأ الطبقي للأسرة، أنماط التربية، المتابعة والإطلاع على ما يدرسه الابن التلميذ، وعوامل المحيط المدرسي كالنظام الداخلي للمدرسة وعلاقة التلميذ بكل من المدرسين والزملاء والطاقم الإداري، طبيعة المواد الدراسية والمنهاج الدراسي. (ياسين آمنة،2007).

ولأهمية موضوع اتجاهات التلاميذ نحو الدراسة نجد أنّ هناك العديد من الدراسات الميدانية التي تناولته نذكر منها ما يلي:

- دراسة حليمة قادري (2002) وموضوعها "اتجاهات التلاميذ نحو الدراسة وعلاقتها بالطموح المهني" وقد هدفت إلى الكشف عن اتجاهات التلاميذ نحو الدراسة وعلاقتها بالطموح المهني، ومعرفة الفروق بين الذكور والإناث نحو الدراسة ومستوى الطموح المهني؛ تمثلت عينة هذه الدراسة في (220) تلميذا (110 إناث و110 ذكور) من تلاميذ المرحلة الثانوية المرشحين لاجتياز شهادة البكالوريا الدّارسين بثانويات ولاية وهران–الجزائر؛ وتوصلت الدراسة في الأخير إلى نتائج أهمها: وجود فروق في الاتجاهات نحو الدراسة لصالح الإناث ووجود علاقة إرتباطية بين الاتجاهات نحو الدراسة ومستوى الطموح، وجود علاقة ارتباطية موجبة بين الاتجاهات الموجبة للإناث نحو الدراسة والطموح المهني المرتفع ولا توجد علاقة ارتباطية موجبة بين الاتجاهات السالبة للذكور نحو الدراسة والطموح المهني المرتفع .
- بحثت دراسة مها بنت محمد العجمي(2002) في "علاقة عادات الاستذكار والاتجاهات نحو الدراسة بالتحصيل الدراسي في المواد التربوية" لدى عينة من طالبات كلية التربية للبنات بالأحساء –بالمملكة العربية السعودية–متكونة من (500) طالبة وبيّنت نتائج الدراسة أنّ :هناك علاقة ارتباطية موجبة بين اتجاهات طالبات الكلية نحو الدراسة وتحصيلهن الدراسي، وعلاقة ارتباطية موجبة بين عادات الاستذكار لطالبات الكلية واتجاهاتهن نحو الدراسة، وأن هناك فروق ذات دلالة إحصائية بين طالبات الأقسام الأدبية وطالبات الأقسام العلمية في عادات الاستذكار والاتجاهات نحو الدراسة والتحصيل الدراسي لصالح طالبات الأقسام العلمية .
- دراسة الصامدي و المعابرة (2006) تناولت هذه الدراسة"اتجاهات طلبة المرحلة الأساسية المتوسطة نحو المدرسة بالمدارس الاساسية بدمشق"حيث هدفت إلى معرفة طبيعة اتجاهات الطلبة والكشف عما إذا كانت هناك فروق دالة

في الاتجاهات تعزى لمتغير(الجنس، الصف، نوع المدرسة والتفاعل بينهما)؛طبقت هذه الدراسة على عينة قوامها (808) طالب وطالبة، وأهم ما توصلت إليه الدراسة من نتائج أن اتجاهات الطلبة نحو المدرسة بجميع عناصرها تتصف بالسلبية ،وأنه لا توجد فروق دالة في اتجاهات الطلبة نحو المدرسة تعزى لمتغير الجنس.

- ❖ دراسة آمنة ياسين (2011) تناولت موضوع الاتجاهات نحو الدراسة من الجانب الإرشادي حيث سعت إلى البحث في "أثر استخدام برنامج إرشاد جمعي مصغر للتدريب على المهارات الدراسية، في تغيير اتجاهات التلاميذ نحو الدراسة وفي تحسين مستوياتهم التحصيلية للوقاية من حدوث التكرار كمظهر من مظاهر التسرب المدرسي"، واعتمد في هذه الدراسة على المنهج التجريبي وطبق على عينة متكونة من (32)تلميذا ممن هم متمدرسون في نهاية المرحلة التعليمية الاللزامية ومستهدفون بحدوث التكرار؛ وقد كشفت النتائج عن وجود فروق دالة بين أفراد المجموعة التجريبية والضابطة في تغيير الاتجاهات نحو المدرسة لصالح تلاميذ المجموعة التجريبية، بينما لا توجد فروق دالة في اتجاهات التلاميذ نحو المدرسة تعزى لمتغير المجموعة والجنس والتفاعل بينهما في القياس البعدي، ولا توجد فروق دالة في مستوى تحصيل التلاميذ تعزى لمتغير المجموعة والجنس في المقياس البعدي.
- ❖ وقد أكدت دراسة سيد أحمد نقاز (2012) أنّ عدم الاهتمام بالدراسة وانخفاض قيمة التعليم عند التلاميذ المتسربين كان سببا في تسربهم، وقد دعم فكرته هذه بإعطاء نسب مئوية حيث بيّن أن(72,8%) من المتسربين ذكروا أنّ سبب تسربهم هو عدم الاهتمام بالدراسة، وأن ما نسبته (76,1%) من أولياء الأمور يعتقدون أنّ عدم الاهتمام أبنائهم بالدراسة كان سببا لتسربهم، كما بيّن أن عدم الاهتمام بالدراسة يعتبر عاملا قوي التأثير في تسرب التلاميذ الذكور من المدرسة مقارنة بالإناث.

وبناءً على ما تمّ عرضه لبعض الدراسات الميدانية السابقة والتي بيّنت أهمية دراسة الاتجاهات نحو الدراسة لارتباطها بالعديد من المتغيرات الهامة بالنسبة للتلاميذ نذكر منها عادات الاستذكار والمراجعة- الطموح المهني- التحصيل الدراسي- التكرار- التسرب المدرسي ،جاءت هذه الدراسة لتكشف بعدًا من أبعاد واقع التلاميذ وإعطاء قراءة وصفية لاتجاهاتهم نحو الدراسة وذلك من خلال الإجابة على التساؤلات التالية:

1. هل توجد فروق دالة إحصائيا بين متوسط الدرجات الكلية لأفراد العينة على استبيان اتجاهات التلاميذ نحو الدراسة والمتوسط الفرضي للاستبيان؟
2. هل توجد فروق دالة إحصائيا في الدرجة الكلية لأفراد العينة على استبيان اتجاهات التلاميذ نحو الدراسة تعزى لعامل الجنس؟
3. هل توجد فروق دالة إحصائيا في الدرجة الكلية لأفراد العينة على استبيان اتجاهات التلاميذ نحو الدراسة تعزى لعامل الشعبة؟

2.أهداف البحث : تتمثل أهداف البحث الأساسية في :

- معرفة طبيعة اتجاهات تلاميذ السنة الأولى الثانوي نحو الدراسة.
- الكشف عما إذا كانت هناك فروق دالة إحصائيا الاتجاهات نحو الدراسة تعزى لكل من متغير جنس التلميذ (ذكور إناث)، والشعبة الدراسية (علوم ، أدب).

3.أهمية البحث :نلخص أهمية البحث فيما يلي:

– تبرز أهمية هذا البحث من خلال أهمية موضوع اتجاهات التلاميذ نحو الدراسة وذلك لما لها من دور فعّال في اقبال التلميذ على التعلم والانجذاب له والمشاركة الايجابية في مختلف الأنشطة المدرسية ،وهذا ما يزيد من تمسكه بكل من المدرسة والدراسة مما يساعد على الوقاية من الكثير من المشكلات والتي على رأسها التسرب المدرسي.

– كما تنبع أهمية الدراسة في مكانة مرحلة التعليم الثانوي ضمن سيرورة مراحل التعليم وكذا الأهداف المرجو تحقيقها خلال هذه المرحلة إضافة إلى دورها المانح لشهادة الأهلية للولوج إلى الجامعة.

4.حدود البحث :

– الحدود المكانية: حُدّد هذا البحث مكانيا بثانويتين من أصل (07) ثانويات متواجدة بمدينة الجلفة.

– الحدود الزّمنية: طُبق هذه البحث خلال الفترة الممتدة مابين (15-18) ديسمبر من السنة الدراسية (2015/2014).

– الحدود البشرية: شمل البحث عينة من تلاميذ السنة أولى الثانوي، وبلغ عددهم (200) تلميذ وتلميذة.

– الحدود الموضوعية: حُدّد هذا البحث أساسا بموضوع : اتجاهات التلاميذ نحو الدراسة في ضوء متغيرين هما: الجنس والشعبة.

5. المفاهيم الإجرائية للدراسة:

– اتجاه التلميذ نحو الدراسة: يقصد به معرفة واقتناع التلميذ بأهمية الدراسة والفائدة منها وهذا ما يجعله يترع نحوها و يتمسك بها أو ينفر منها، ويمكن أن يظهر ذلك من خلال تعبيره عن: أهمية الدراسة بالنسبة له وشعوره بالميل نحوها والرغبة فيها، بالإضافة إلى القيام بما تتطلبه كالواجبات المدرسية والتحضير والانضباط والسعي إلى الحصول على درجات جيدة.

– أما من الناحية الاجرائية فيقصد به: الدرجة الكلية التي يتحصل عليها التلميذ من خلال اجابته على فقرات استبيان الاتجاهات نحو الدراسة، و تتراوح هذه الدرجات بين (34-170) كأدنى درجة والتي تعبر عن الاتجاه السلبي نحو الدراسة وأقصى درجة يمكن الحصول عليها والمعبرة عن الاتجاه الايجابي.

– تلميذ التعليم الثانوي:هو كل شخص يتابع دراسته بمرحلة التعليم الثانوي التي تمتد لثلاثة سنوات وتنتهي باجتياز امتحان الباكالوريا.

6.إجراءات البحث المنهجية :

يتمثل الهدف الأساسي لهذه الدراسة ذات الطابع الوصفي في التحقق من فرضيات الدراسة وهي كما يلي:

– لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسط درجات أفراد العينة والمتوسط الفرضي لاستبيان الاتجاهات نحو الدراسة.

– لا توجد فروق دالة إحصائيا في الدرجة الكلية لأفراد العينة على استبيان اتجاهات التلاميذ نحو الدراسة تعزى لمتغير الجنس.

– لا توجد فروق دالة احصائياً في الدرجات الكلية لاتجاهات التلاميذ نحو الدراسة تعزى لمتغير الشعبة.

1.6.منهج البحث: تمّ الاعتماد على المنهج الوصفي.

2.6.عينة الدراسة : طبق هذا البحث على عينة اُختيرت بطريقة عشوائية من تلاميذ السنة أولى ثانوي المتمدرسين بثانويتين بمدينة الجلفة، وقد بلغ عدد أفرادها(200) تلميذا .

والجدول التالي يلخص خصائص العينة من حيث الجنس والشعبة الدراسية:

جدول رقم(01): توزيع أفراد العينة وفق الجنس والشعبة

	الجنـــــس		الشعبـــة الدراسية	
	ذكور	اناث	علـــمي	أدبي
عدد التلاميذ	92	108	139	61
النسبة المئوية للتلاميذ	%46	%54	%69	%31
العدد الإجمالي للتلاميذ	200 تلميذا			

يظهر من خلال الجدول أّن فئة الإناث أكبر من فئة الذكور حيث تمثل الأولى ما نسبة (54%) أما الذكور فنسبتهم أقل بكثير من الإناث فقد بلغت (46%)؛ كما يظهر أنّ نسبة التلاميذ العلميين تفوق بكثير نسبة التلاميذ الأدبيين.

3.6.أدوات الدراسة:

لجمع البيانات اللازمة تمّ الاعتماد على استبيان "اتجاهات التلاميذ نحو الدراسة" –من إعداد الباحثين– وهو متكون من (34) فقرة، موزعة بين فقرات إيجابية و أخرى سلبية من حيث الصياغة يجاب عليها وفق سلم ليكرت "Likert" الخماسي.

جدول رقم (02): يوضح بدائل الاستجابة وتقديراتها للفقرات الموجبة والسالبة

فقرات الاستبيان	غير موافق تماما	غير موافق	غير متأكد	موافق	موافق تماما
الفقرات الموجبة	1	2	3	4	5
الفقرات السالبة	5	4	3	2	1

وتتوزع هذه الفقرات على ثلاثة أبعاد هي ذاتها مكونات الاتجاه، ويلخص الجدول الموالي هذه الأبعاد كل على حدة وكذا المقصود به وعدد فقراته.

جدول رقم(03): يحدد أبعاد استبيان اتجاهات التلاميذ نحو الدراسة

أبعـــاد الاستبيان (مكونات الاتجاه نحو الدراسة)	المقصود بها	عدد الفقرات
المكون المعرفي	الوعي والاقتناع بأهمية الدراسة	12
المكون الانفعالي/العاطفي	الشدة الانفعالية اتجاه الدراسة	11
المكون السلوكي	ما يصدر عن التلميذ من سلوكات تعكس اهتمامه ووعيه بأهمية الدراسة	11
العدد الإجمالي لفقرات الاستبيان		34

4.6.الخصائص السيكومترية للاستبيان:

للتحقق من صدق وثبات الاستبيان تم تطبيقه على عينة قوامها (170) تلميذاً من تلاميذ السنة الأولى ثانوي، وتمّ الاعتماد على أكثر من طريقة في حساب كل خاصية (الصدق والثبات)، يمكن تلخص ذلك على النحو التالي:

أولاً: الصدق (Validity):

– صدق المحكمين: عُرِض الاستبيان في صورته الأولية على مجموعة من ذوي الخبرة والاختصاص بجامعة وهران وجامعة "زيان عاشور" بالجلفة وجامعة "الشهيد حمه لخضر" بالوادي، حيث قاموا بإبداء آرائهم وملاحظاتهم حول مدى مناسبة الفقرات وتمثيلها للأبعاد المنتمية إليها، بالإضافة إلى وضوح تعليمة الإجابة وكذا الصياغة اللغوية لفقرات للإستبيان ،وفي ضوء ذلك تمّ إعادة الصياغة اللغوية لبعض الفقرات، وحذف (6) فقرات من أصل (40) فقرة أجمع المحكمين على وجوب حذفها.

– صدق الاتساق الداخلي للاستبيان: تمّ التحقق منه بحساب معامل الارتباط بين درجة كل فقرة والدرجة الكلية للاستبيان، وقد اتضح من خلال قراءة معاملات الارتباط بين الفقرات والدرجة الكلية أنها ذات معاملات ارتباط تتراوح بين المتوسط والعالي وهذا ما يعكس وجود اتساق داخلي بين فقرات الاستبيان، فصدق التحكيم وصدق الاتساق الداخلي يدلان على صدق الاستبيان ويمكن الاعتماد عليهما.

ثانياً: الثبات (Reliability): تم استخدام التجزئة النصفية (Split-Half coefficient): حيث جزء الاستبيان إلى نصفين يشتمل النصف الأول الفقرات الفردية أما الثاني فيجمع الفقرات الزوجية، وقد تّمت المعالجة الإحصائية لهما لحساب الثبات وفق الأساليب الموضحة في الجدول أدناه .

جدول رقم (04): يوضح حساب قيمة الثبات بطريقة التجزئة النصفية

أسلوب حساب معامل الثبات	قيمته
معامل الارتباط بين نصفي المقياس	0,800
معامل الثبات بعد التصحيح الطولي وفق طريقة سبيرمان وبراون	0,889
معامل الثبات بعد التصحيح الطولي وفق طريقة جيتمان	0,887

جدول رقم (05): يوضح حساب الثبات وفق معامل ألفا كرومباخ:

الأبعـــــاد	معامل الارتباط	معامل الثبات وفق ألفا كرومباخ
البعد المعرفي	0,820	0,678
البعد السلوكي	0,899	0,771
البعد الانفعالي	0,645	0,756
الاستبيان ككل		0,879

وبالنظر إلى النتائج الكمية المتحصل عليها ، يتبين الاستبيان يتمتع بمعاملات صدق وثبات مقبولة إلى حد كبير.

5.6.أساليب التحليل الإحصائي (الوصفي والاستدلالي):

بهدف التحقق من صحة الفرضيات وإعطاء وصف كمي دقيق لدرجات أفراد العينة على الاستبيان استخدمنا أساليب إحصائية مختلفة لتحقيق ذلك باستخدام برنامج الحزم الإحصائية للعلوم الاجتماعية (SPSS20) وتندرج هذه الأساليب المستخدمة ضمن أسلوبي الإحصاء الوصفي والاستدلالي وهي كالتالي: المتوسط الحسابي – التكرارت والنسب المئوية – الانحراف المعياري.

–اختبار(T student Test) بأسلوبي:Independent Samples T test، One Sample Test

6.6.عرض نتائج الدراسة:

1.6.6.اختبار الفرضية الأولى:

والتي تنص على أنه: "لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسط درجات أفراد العينة والمتوسط الفرضي لاستبيان الاتجاهات نحو الدراسة "، ولاختبار صحتها تمّ استخدام اختبار(T student Test) بأسلوب (One Sample Test) للعينة الواحدة وتمّ الحصول على النتائج التالية:

جدول رقم (06) يوضح دلالة الفرق بين متوسط درجات أفراد العينة على استبيان الاتجاهات نحو الدراسة والمتوسط الفرضي له.

المتغير	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	المتوسط الفرضي	الفرق بين المتوسطين	قيمة (T)	مستوى الدلالة(sig)	DF
الدرجة الكلية على استبيان الاتجاهات نحو الدراسة	144,91	14,15	102	42,905	42,881	0,000	199

توضح القيم الواردة في الجدول أنّ هناك فروق دالة إحصائيا عند مستوى الدلالة (0.05 و0.01) بين المتوسط الحسابي والمتوسط الفرضي وتشير قيمة (T) الموجبة على أنّ المتوسط الحسابي أكبر من المتوسط الفرضي ما يدل على أنّ اتجاهات التلاميذ موجبة نحو الدراسة، فكلما زادت قيمة المتوسط الحسابي عن المتوسط الفرضي دلّت على ايجابية الاتجاهات نحو الدراسة والعكس بالعكس، لذا وبناءً على ما سبق فإن الفرضية الصفرية لم تتحقق، وبالتالي نرفضها ونقبل الفرضية البديلة القائلة: "توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسط درجات أفراد العينة والمتوسط الفرضي لاستبيان الاتجاهات نحو الدراسة".

الشكل رقم (01) التوزيع الاعتدالي للدرجة الكلية لأفراد العينة على الاستبيان.

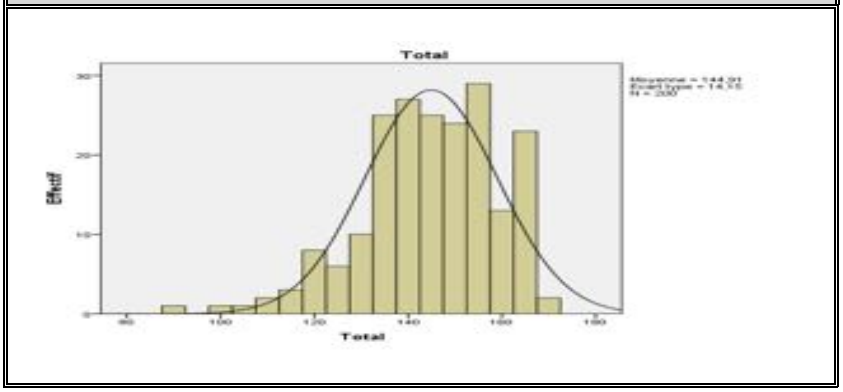

2.6.6.اختبار الفرضية الثانية:

ومنطوقها: لا توجد فروق دالة إحصائيا في الدرجة الكلية لأفراد العينة على استبيان اتجاهات التلاميذ نحو الدراسة تعزى لمتغير الجنس، وللتأكد من صحتها تمّ الاعتماد على اختبار (T) لمتوسطين مستقلين (Independent sample t test) ونتائج المعالجة الإحصائية موردة في الجدول الموالي.

الجدول رقم (07): اختبار دلالة الفرق في الدرجة الكلية للاتجاهات نحو الدراسة حسب متغير الجنس.

المتغير	المجموعات	العدد	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	قيمة (T)	Sig	DF
الدرجة الكلية على استبيان الاتجاهات نحو الدراسة	ذكور	92	141,61	15,990	-3,106	,002	198
	إناث	108	147,71	11,731			

توضح القيم الواردة في الجدول أنّ قيمة المتوسط الحسابي للإناث أكبر من قيمة المتوسط الحسابي للذكور، كما تبيّن وجود فرق دال إحصائيا عند المستوى (0.05) لصالح الإناث، وهذا ما كشفت عنه قيمة (T)حيث ذلك أن قيمة sig(0.002) أقل من(0.05)، وبالتالي فمنطوق الفرضية الصفرية لم يحقق، وهذا ما يتطلب رفضها وقبول الفرضية البديلة.

3.6.6.اختبار الفرضية الثالثة:

ومضمونها:لا توجد فروق دالة إحصائيا في الدرجة الكلية لأفراد العينة على استبيان اتجاهات التلاميذ نحو الدراسة تعزى لمتغير الشعبة الدراسية، وللتأكد من صحتها تمّ الاعتماد على اختبار (T) لمتوسطين مستقلين (Independent sample t test) ونتائج المعالجة الإحصائية نوردها في الجدول رقم (08).

الجدول رقم (08): اختبار دلالة الفرق في الدرجة الكلية للاتجاهات نحو الدراسة حسب متغير الشعبة الدراسية.

المتغير	المجموعات	العدد	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	قيمة (T)	Sig	DF
الدرجة الكلية على استبيان الاتجاهات نحو الدراسة	علوم	139	145,28	13,561	,566	,572	198
	أدب	61	144,05	15,492			

تظهر قيمة (T)أنه لا وجود لفروق دالة إحصائيا بين درجات التلاميذ العلميين والأدبيين على استبيان اتجاهات التلاميذ نحو الدراسة تعزى لمتغير الشعبة الدراسية، وهذا لأن قيمة sig (572,) أكبر من (0.05)، ومنه يمكن القول أن الفرضية الصفرية قد تحققت.

الجدول رقم(09):ملخص نتائج اختبار الفرضيات.

منطـــــوق الفرضيـــــة	الأسلوب الإحصائي المستخدم لاختبارها	الحكم على الفرضية (نتيجة اختبارها)
1. لا توجد فروق دالة احصائيا بين متوسط درجات اتجاهات التلاميذ نحو الدراسة والمتوسط الفرضي للمقياس.	(T student test) بأسلوب (one Sample T test)	رفض الفرضية الصفرية وقبول البديلة– دالة عند مستوى (0,001)
2. لا توجد فروق دالة احصائيا في اتجاهات التلاميذ نحو الدراسة تعود لمتغير الجنس.	(T student test) بأسلوب Independent Samples	رفض الفرضية الصفرية وقبول البديلة– دالة عند مستوى (0,001)
3. لا توجد فروق دالة احصائياً في الدرجات الكلية لاتجاهات التلاميذ نحو الدراسة تعزى لمتغير الشعبة الدراسية.	(T student test) بأسلوب Independent Samples	قبول الفرضية الصفرية

7.مناقشة عامة لنتائج الدراسة:

تنص نتيجة الفرض الأول على أنّ للتلاميذ اتجاهات موجبة نحو الدراسة وهذا ما عبرت عنه قيمة المتوسط الحسابي والنسب المئوية لاستجابات أفراد العينة حول الفقرات، ويفسر الاتجاه الموجب للتلاميذ على إدراكهم لأهمية الدراسة والتعليم واقتناعهم بأهميتها في حياة الفرد(90.5% بين الموافق والموافق تماما)، حيث يرون أنّها تنمي لديهم مختلف جوانب شخصيته : العقلية –الاجتماعية والنفسية(87,5% بين الموافق والموافق تماما)، كما تساهم في زيادة فرص حصولهم على العمل وتحقيق حياة مستقبلية مريحة(90% بين الموافق والموافق تماما)، كل هذا ينعكس على الجانبين الانفعالي والسلوكي من خلال الشعور بالمتعة في الدراسة وفي المدرسة ككل(75% بين الموافق والموافق تماما)، كما نجدهم يحاولون الحصول على درجات جيدة ويرغبون ويسعون للمشاركة في مختلف الأنشطة سواء داخل القسم أو الأنشطة المدرسية(82% بين الموافق والموافق تماما)، والتي تعتبر جزء متمم للعملية التعليمية يقبل عليه التلميذ برغبة منه، حيث تحقق له أهدافا تربوية مختلفة خلال الدوام الرسمي أو بعده، والهدف من هذه الأنشطة المدرسية هو تنمية خبرات التلاميذ وهواياتهم وقدراتهم واتجاهاتهم التربوية والاجتماعية المرغوبة(طيبي،2013،ص225)، وهو ما يساهم بشكل كبير في خلق جو متنوع وممتع يجعل التلاميذ يقبلون على الدراسة والمدرسة لا أن يملون وينفرون منها، وهذا ما قد بينته دراسة قمر عصام توفيق حيث وضّح أنّ قلة الاهتمام بالأنشطة الحرة في المدارس يدفع الطلاب إلى العزوف عن المدرسة(قمر،2007).

ويمكن إعطاء تفسير لهذه النتيجة من خلال الرجوع إلى الأثر الكبير للأسرة ودورها في تشكيل اتجاهات الأبناء نحو العلم والتعلم من خلال حثهم على الدراسة ومواصلتها والعمل على توفير ما تتطلبه من أدوات وظروف مناسبة للمراجعة للدراسة خاصة في البيت، وهذا ما بيّنته النسب التي عبر عنها التلاميذ حول تشجيع أسرهم لهم على الدراسة ومواصلتها وهي: التشجيع الدائم والمستمر (74.5%)، أحيانا (22.5%)، نادرا (03%)؛ أما النسب المتعلقة بتوفير الأسرة للظروف المناسبة للدراسة والمراجعة في البيت فكانت: دائما (50%)، أحيانا(41%)، نادرا (09%)؛ وتعكس هذه

النسب بطريقة مباشرة وعي أسر التلاميذ –أفراد العينة– ودرايتهم بأهمية الدراسة بالنسبة لأبنائهم ووعيهم بأهمية دورهم اتجاه ذلك.

وقد بينت النتائج المتعلقة بمعرفة عما إذا كان هناك فروق دالة في الاتجاهات نحو الدراسة تعزى لمتغير الجنس أن الإناث أكثر إيجابية في اتجاهاتهم مقارنة بالذكور، ويمكن إرجاع ذلك للصورة التي شكلتها البنت حول الدراسة والمدرسة حيث أنّهما بالنسبة لها الفرصة الوحيدة التي تساعدها على أخذ مكانة لها في المجتمع وهذا ما أسفرت عنه نتائج دراسة ز.سعادة (د.ت) حول الفشل المدرسي وعلاقته بالمعنى الذي يلحقه كلا من الذكر والأنثى للمدرسة؛ كما يمكن تفسير ذلك بأنّ الدراسة تضمن لها مستقبلها خاصة مع تواجد الظروف الاجتماعية المعقدة وفي ضوء اقتحام المرأة عالم العمل، وذلك من خلال حرصها على الحصول على الشهادات الأكاديمية، كما يمكن القول أن الذكور يعتبرون أنّ الدراسة وسيلة تسهل عليهم الحصول على منصب مهنية من خلال تبنيهم لمشاريع دراسة ومهنية ويحاولون التركيز على الكسب المادي خاصة الكسب السريع.

كما يمكن إرجاع ذلك للتشجيع المستمر للبنت من طرف الوالدين على الدراسة وحثها على مواصلتها والتمسك بها وكذا توفير الظروف المناسبة للمراجعة وأداء الواجبات المدرسية فهي كلها عوامل تزيد من مستوى اتجاه البنت نحو الدراسة والتعلم.

وقد يكون هذا الخطاب الوالدي راجع لوعي الوالدي والأسرة ككل بأهمية الدراسة أو نتيجة لأحد آليات الدفاع النفسي المعروفة بالتعويض، حيث يحاول الوالدان تعويض حرمانهم من التعلم أو عدم إكمال مسارهم الدراسي بدفع وحث أبنائهم على الدراسة والحصول على الشهادات وتحقيق النجاح العلمي،وهذا ما أكدته دراسة قادري حليمة (2002) حول تعويض الأم حرمانها من التعليم من خلال إنجاح ابنتها.

وما يبّن لنا أهمية خطاب الوالدين للأبناء ما توصلت إليه دراسة منى زعيمية (2013) من نتائج حيث أوضحت أنّ الخطاب الأسري للوالدين القائم على الاهتمام بالمدرسة والتشجيع والتحفيز وعلى الإنتظارات الإيجابية اتجاه المدرسة يؤدي إلى النجاح المدرسي للأبناء.

وقد بين الصمادي، المعابرة (2006) أن الأسر المهتمة تنمي لدى أبنائها الثقة النفس والجدية والوعي بأهمية الدراسة مما ينعكس على اتجاهاتهم نحو الدراسة.

ومن جهة أخرى يمكن تفسير ارتفاع مستوى إيجابية اتجاهات الإناث نحو الدراسة مقارنة بالذكور بارتفاع مستوى الطموح لديهن خاصة الطموح المهني، حيث أن الاتجاه الموجب لدى الإناث نحو الدراسة له علاقة ارتباطية موجبة بطموحهن المهني،وهو ما أسفرت عنه كذلك نتائج دراسة قادري حليمة(2002).

أما فيما يخص النتائج المتعلقة بالفروق بين التلاميذ العلميين والأدبيين فقد نفت وجود فروق دالة إحصائيا في الاتجاهات نحو الدراسة، ويمكن إرجاع ذلك إلى رضاهم عن التوجيه المدرسي، والذي هو عبارة عن حالة داخلية في الفرد تشير إلى تقبله لتخصصه الدراسي وتفاؤله بمستقبل حياته وتقبله لبيئته المدركة وتفاعله مع خبراتها وهذا ما يظهر في سلوكه واستجابته، فرضا التلميذ عن تخصصه الدراسي يعني وجود ميل الإنجاز الدراسي وأوجه النشاط المدرسي وتقبل ذلك (بلحسيني،2002) كما أنّ الرغبة والميل نحو تخصص الذي يدرسه التلميذ يضمن له إمكانية الاستمرار في هذا التخصص ويشير إلى مدى الرضا والسعادة التي يجدها الفرد فيه، وبالتالي ينعكس ذلك على الجانب السلوكي له والذي يظهر في

العمل بنشاط داخل القسم والمشاركة في الأنشطة المدرسية وإعطاء أهمية ومعنى للدراسة وكذا الشعور بالمتعة والارتياح داخل المدرسة.

8.خاتمة:

تساهم معرفة نوع ومستوى اتجاهات التلاميذ نحو الدراسة بالنسبة للمربيين والمرشدين التربويين والمهتمين في الوقاية من العديد من المشكلات التربوية التي تعيق السير الحسن لتحقيق المدرسة لأهدافها والتي على رأسها التسرب المدرسي وتدني مستوى التحصيل الدراسي، تدني مستوى الدافعية، الشعور بالملل والضجر في المدرسة وهذا ما يتطلب الوقوف الجدي عند هذا الموضوع ومحاولة ملامسة الواقع التربوي في ضوئه، وقد جاءت هذه الدراسة لتكشف عن طبيعة اتجاهات تلاميذ السنة أولى ثانوي نحو الدراسة، وقد أسفرت النتائج بشكل عام على أن للتلاميذ اتجاهات إيجابية نحو الدراسة، وأنّ اتجاهات الإناث نحو الدراسة أكثر إيجابية من الذكور، في حين لاتوجد فروق في الاتجاهات نحو الدراسة تعزى لمتغير الشعبة الدراسية(علوم/أدب)، ومن خلال هذه النتائج يأمل الباحثان أن يكون هذا البحث قد ساهم في تسليط الضوء على موضوع جدير بالبحث العلمي، وزاد من إثرائه وعمل على فتح المجال لإجراء المزيد من البحوث الميدانية الموسعة في المراحل السابقة والتالية لمرحلة التعليم الثانوي وكذا بناء برامج إرشادية وقائية وإنمائية –تخص التلاميذ وأسرهم– وتطبيقها لتشكيل اتجاهات موجبة نحو الدراسة والتعلم والمدرسة ككل منذ المراحل الأولى التي يلتحق فيها الطفل بالمدرسة.

قائمة المراجع:

باللغة العربية :

1. العجمي ،مها بنت محمد.(دت) علاقة عادات الاستذكار والاتجاهات نحو الدراسة بالتحصيل الدراسي في المواد التربوية لدى طالبات كلية التربية للبنات بالأحساء، مجلة رسالة الخليج العربي، العدد(89).
2. الصمادي، أحمد عبد المجيد و معابر، محمد حسن.(2006) اتجاهات طلبة المرحلة الأساسية المتوسطة نحو المدرسة، مجلة جامعة دمشق، 22(2)، دمشق،سوريا.
3. الشيخ، عمر.(1986) العلاقة بين اتجاهات الطلبة في المرحلتين الثانوية والإعدادية نحو العلم وسمات شخصياتهم، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد (5).
4. بلحسيني، وردة.(2002) علاقة الرضا عن التوجيه المدرسي بالإحباط، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة قاصدي مرباح – ورقلة، الجزائر.
5. بني جابر، جودت.(2004) علم النفس الاجتماعي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان.
6. ز، سعادة.(دت) الفشل الدراسي وعلاقته بالمعنى الذي يلحقه كلا من الذكر والأنثى للمدرسة. L'enfant et l'école Pratiques psycholoques, Revue annuelle editee par l'inst, 2, 8-10 .
7. زعيمية، منى. (2013) الأسرة، المدرسة ومسارات التعلم(العلاقة ما بين الخطاب الوالدين والتعلمات المدرسية للأطفال)،رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة قسنطينة، الجزائر.
8. طيبي، إبراهيم.(2013) خطة التوجيه المدرسي المعتمدة في الجزائر ودورها في تحقيق الذات والتوافق الدراسي والكفاية التحصيلية، رسالة دكتوراه منشورة، دط، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
9. ياسين، آمنة.(2011)أثر استخدام برنامج إرشاد جمعي في الوقاية من حدوث التكرار كمظهر التسرب المدرسي، رسالة دكتوراه غير منشورة، قسم علم النفس وعلوم التربية، جامعة وهران،الجزائر.

10. نقاز، سيد أحمد.(2012) ظاهرة التسرب المدرسي في المؤسسة التربوية الجزائرية.مجلة الحكمة، الجزائر، 23. 8-11

11. قادري،حليمة.(2002) اتجاهات التلاميذ نحو الدراسة وعلاقتها بمستوى الطموح المهني، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة وهران،الجزائر.

12. قمر،عصام توفيق.(2007) كي لا تصبح الأنشطة المدرسية مجرد حبر على ورق (أسباب عزوف الطلاب عن المشاركة في الأنشطة التربوية الحرة وسبل علاجها)،ط1، مصر المكتب الجامعي الحديث.

باللغة الإنجليزية :

1. Fischer ،Gustave-Nicolas.(2011) LA PSYCHOLOGIE SOCIALE ,unil université de lausanne .Suisse
2. Mehrotra, S., Khunyakari, R., Chunawala, S. and Natarajan, C. (2009), Collaborative learning in technology education: D&T unit on puppetry in different Indian socio-cultural contexts'. International Journal of Technology and Design Education, 19 (1), 1-14.
3. Song, C. &Jennifer, C. (2005). "College Attendance and Choice of College Majors Among Asian"-American Students. Social Science Quarterly, 85, PP. 1401-1421
4. Zhang, W. Why IS.(2007) : "Understanding Undergraduate Students' Intentions to Choose an Information Systems Major " . Journal of Information Systems Education , v18 n4 p447 458.

أثر أفلام الكرتون (الرسوم المتحركة) على سلوك الطفل

د. هنء بن حميدة

المركز الجامعي غليزان

- ملخص:

مع التطور الحاصل في التكنولوجيا والنمو المتزايد لوسائل الاعلام، وازدياد أعداد القنوات الفضائية وخاصة الموجهة للأطفال، ارتأينا التركيز في هذا المقال على جانب في غاية الاهمية وهو إبراز أثر أفلام الكرتون (الرسوم المتحركة) على سلوك الأطفال، حيث تعتبر هذه البرامج من أهم البرامج على الاطلاق في استقطاب الطفل لما تحتويه من متعة وتشويق وصور متحركة وألوان ومثيرات سمعية وبصرية، وهذا من خلال إبراز سلبيات وإيجابيات هذه النوعية من البرامج ، وما يترتب عنها من سلوكات للأطفال، وكيف يمكن للأهل تجنب عادات الطفل العنيفة التي اكتسبها من مشاهدته لأفلام الكارتون أوالرسوم المتحركة ولفت إنتباههم لسلاح ذو حدين وخطر محدق إن لم يحسنوا التعامل معه، وذلك من خلال تقديم بعض التوصيات التي من شأنها أن تسهم في الحفاظ على الطفل وعلى نموه بشكل سليم.

- الكلمات المفتاحية:

الطفل- مراحل الطفولة – أفلام الكرتون – الرسوم المتحركة – السلوك – التلفزيون – القنوات الفضائية.

Résumé:

Avec le développement de la technologie et l'augmentation croissante des médias, et l'apparition de nombreuses chaînes de télévision, destinées particulièrement aux enfants, nous avons préféré de jeter la lumière sur un côté très important , qui met en évidence l'impact des dessins animés sur le comportement des enfants. en effet, ces dessins animés sont considérés comme les programmes les plus attractifs pour l'enfant grâce a leurs contenu qui donne l'amusement , le suspens , l'animationaudio-visuelle,et les couleurs. c'est pourquoi nous voulons exposé les avantages et les inconvénients de ce type de programmes, et leursconséquences sur les comportements des enfants, et comment les parents peuvent éviter les habitudes violentesdes enfants qu'ils aientacquis en regardant les dessins animés ,et ainsiattiré leurs attentions sur l'épée à double tranchant et un danger imminent, s'ils n'arrivent pas à le contrôler. enfin, on a proposé des recommandations qui contribuentau développement de l'enfant dans un milieu sain.

Mots clés : l'enfant – l'enfance - dessins animés – le comportement – la télévision - chaines satellite

مقدمة:

يشهد هذا العصر تطورا تكنولوجيا هائلا وسريعا خاصة في مجال الإتصال، من حيث الخدمات المقدمة ومن حيث الجودة، حيث نلاحظ أن هناك دائما تحسنا وتطورا في هذا المجال، وأن هناك دائما الجديد، وكنتيجة لذلك نشهد نموا في وسائل الإعلام وازديادا في أعداد القنوات الفضائية، من بينها تلك القنوات الفضائية الموجهة للأطفال، هذه الشريحة الهامة في المجتمع والحساسة، فأطفال اليوم هم شباب المستقبل وإطاراته وهم رأس ماله الحقيقي، ولأن هذه الفترة أو هذه المرحلة العمرية هي من أهم المراحل في حياته، حيث تعتبر مرحلة الطفولة المرحلة الأولى من حياة الإنسان وأهم مراحل النمو التي يمر بها، كما تعتبر حجر الأساس في بناء وتكوين شخصيته،من خلال التلقي والإعداد عن طريق عملية التربية والتنشئة الإجتماعية، فكل ما تزرعه اليوم في الطفل تجني ثماره في المستقبل.

والإهتمام بالأطفال في هذه المرحلة ورعايتهم بالشكل السليم من كل الجوانب خاصة الجانب النفسي من شأنه أن يجعله فردا سليما وسويا في المستقبل، فالطفل يولد على الفطرة ويكون سهل الانقياد سريع التأثر هيِّنا ليِّنا، يستطيعُ المربي توجيهه كيفما أراد، وإهماله وعدم تلقينه التربية السليمة والمرجوة سيدخله في مشاكل يصعب حلها فيما بعد.

من هنا تأتي أهمية الإعتناء بالأطفال ورعايتهم من خلال تربيتهم وتلبية إحتياجاتهم بتوفيرالمأوى والمأكل والملبس والتعليم، هذا الأخير الذي من شأنه أن يتلقاه (الطفل) من خلال عدة مؤسسات للتنشئة الإجتماعية (أسرة ، روضة ، مدرسة ، مسجد ، وسائل الإعلام ...).

ويعتبر الإعلام من أهم هذه الوسائل في الوقت الراهن خاصة التلفاز نظرا لسهولة نيله واقتناءه، كما أنه ينمي الجانب الاجتماعي في الطفل حيث يتبادل مع أقرانه الحديث عما شاهده في التلفاز، كما يقوم بعملية التقليد لما يراه، وهذا أخطر ما في الأمر، إضافة إلى كونه عاملاً مهماً في صقل وجدان الطفل وأحاسيسه بما يغمره من جو الترفيه والتسلية، كما أنه مصدر للمعرفة ومزود قوي للخبرات والمهارات، وعامل مهم في إثارة خيال الطفل نظرا لما يقدمه من برامج جذابة في صورة حية وواضحة ، وخاصة تلك التي تقدم أفلام الكرتون الشيقة والمثيرة بألوان زاهية تشد النظر وتسلب عقول وقلوب الأطفال.

ونظرا لما يكتسيه الموضوع من أهمية في الوقت الراهن، ارتأيت التركيز في هذا المقال على هذا الجانب، أي إبراز أثر أفلام الكرتون على سلوك الأطفال من خلال إبراز سلبيات وإيجابيات هذه النوعية من البرامج، وما يترتب عنها من سلوكات للأطفال، وكيف يمكن للأهل تجنب عادات الطفل العنيفة التي اكتسبها من مشاهدته لأفلام الكارتون أوالرسوم المتحركة، ولفت إنتباههم لسلاح ذو حدين وخطر محدق إن لم يحسنوا التعامل معه، وذلك من خلال تقديم بعض التوصيات التي من شأنها أن تسهم في الحفاظ على الطفل وعلى نموه بشكل سليم.

وقبل هذا من الضروري تحديد بعض المفاهيم الهامة في هذه الدراسة.

1. تعريف الرسوم المتحركة (أفلام الكرتون):

الرسوم المتحركة هي مجموعة من الصور تمر بسرعة معينة لتخدع العين البشرية، لأن الصورة بها حركة معتمدة على الخداع البصري حيث أن الصورة تظل ثابتة على العين بمقدار 20/1 من الثانية، وهو كذلك أسلوب فني لإنتاج أفلام سينمائية، يقوم فيه مُنتِج الفيلم بإعداد رسوم للحركة بدلاً من تسجيلها بآلة التصوير كما تبدو في الحقيقة. ويستدعي إنتاج فيلم للرسوم المتحركة تصوير سلسلة من الرسوم أو الأشياء واحدًا بعد الآخر، بحيث يمثل كل إطار في الشريط الفيلمي رسمًا واحدًا من الرسوم. ويحدث تغيير طفيف في الموضع للمنظر أو الشيء الذي تم تصويره من إطار لآخر. وعندما يدار الشريط في آلة العرض السينمائي تبدو الأشياء وكأنها تتحرك[1].

يظل لأفلام الرسوم المتحركة جمالياتها الفنية الخاصة، حيث أنها تعبر عن عالم خيالي يبهر كل من يراه من كبار وصغار.

وبالتالي فالرسوم المتحركة هي عرض سريع لسلسلة من صور الإنتاج الفنى ثنائية أو ثلاثية الأبعاد، أو وضع الصور من أجل خلق حركة وهمية. ذلك هو الوهم البصري للحركة بسبب ظاهرة استمرار الرؤية، ويمكن أن تنشأ وتظهر في عدد من الطرق. والأسلوب الأكثر شيوعا لعرض الصور المتحركة هو بمثابة فيلم سينيمائي أو برنامج فيديو، على الرغم من وجود عدة أشكال أخرى لعرض الصور المتحركة[2].

تستخدم الرسوم المتحركة في إنتاج القصص الدرامية القصيرة والأفلام الكوميدية الهزلية، التي تخاطب الأطفال ، من خلال قصة تحرك فيها مجموعة من الرسوم الثابتة الملونة، مصحوبة بالصوت والمؤثرات البصرية الأخرى، التي تجذب الطفل وتبهره،كما يستخدمها أيضا فنيو الدعاية للإعلان عن السلع في الوسائل المرئية المختلفة (في الراديو والتليفزيون)، بالإضافة إلى ذلك يقوم منتجو الأفلام التعليمية بالاعتماد على نوعيات خاصة من الرسوم المتحركة للمساعدة في شرح الأفكار

الصعبة، أو الموضوعات التي يستحيل توضيحها في مشاهد واقعية، ويمكن الجمع أيضاً بين الرسوم المتحركة ومشاهد الحركة الحقيقية التي يتم تصويرها سينمائياً.

" وفي تعريف آخر هي سلسلة كاملة من الرسوم التي يختلف كل واحد منها عما يليه اختلافاً طفيفاً ، بحيث تكون تلك الاختلافات في مجموعها التدرج الطبيعي للحركة المطلوبة. تصور تلك الرسوم كل في إيطار خاصبها، بحيث تكون متتالية، وتعطي عند عرضها فيما بعد إيهاماً بالحركة، اعتماداً على مبدأ احتفاظ العين بالرؤية."[3]

2. تعريف السلوك :

هو النشاط الذي يعبر عنه الفرد من خلال علاقاته بمن حوله،أي كل تصرف يقوم به الفرد إما سلبا أو إيجابا،و"كل ما يصدر عنه من نشاط أو تصرف سواء كان جسميا أو عقليا وسواء تم هذا النشاط أو التصرف بطريقة شعورية أو لا شعورية"[4]،والسلوك له قواعد طبيعية ومادية مبرمة طبقا للخريطة الوراثية المرسومة لكل فرد وفقا للترتيب الوراثي البيولوجي وصولا إلى هندسة الجينات .

3. خصائص السلوك:

3 .1.السلوك الانساني سلوك مسبب: أي أنه نتيجة لبعض المؤثرات والمثيرات سواء كانت بيئية أو وراثية.

وعلى ذلك يختلف الناس في سلوكهم تبعا لتصوراتهم أو تفسيرهم لهذه المؤثرات أو المثيرات، ويتوقف ذلك على خصائصهم البيولوجية وخصائصهم الشخصية، ومستويات تعليمهم والثقافة التي ينتمون إليها والظروف الموجودة في الموقف الذي يتصرفون فيه.

وقد تكون أسباب السلوك جسمانية أو مادية أو معنوية أو اجتماعية، كما قد تكون هذه الاسباب معروفة لدى الانسان أو مجهولة، فقد يكون السبب موجودا في العقل الباطن ولكن الفرد لا يعرفه أو لا يريد أن يعرفه. وقد تكون أسباب السلوك أسبابا حقيقية أو وهمية، حيث يتخيل الانسان أنه يعرف الاسباب وراء إحداثه تصرفا أو سلوكا معينا ولكنه قد يكون مخطئا في ذلك حيث أنه قد يختلق سببا وهميا وليس حقيقيا[5].

3 .2. السلوك الانساني سلوك موجه:أي أنه ليس سلوكا عشوائيا، بل يتم لتحقيق هدف معين وهو محاولة اشباع أي من رغبات وحاجات هذا الكائن الانساني وتحقيق التوازن له.

وقد يهدف السلوك إلى تحقيق ميزة (أي تحقيق بعض الجوانب الايجابية أو تفادي بعض الجوانب السلبية).وقد تكون أهدافا ذاتية كتحقيق احترام الذات، أو اهدافا اجتماعية أو أهدافا قومية. وكذلك قد تكون هذه الاهداف أهدافا حقيقية أو خيالية.

3 .3.السلوك الانساني سلوك مدفوع:أي أن هناك دافعا أو حافزا معينا وراء إتجاه هذا السلوك نحو وجهة معينة دون أخرى، هذا الدافع أو الحافز قد يؤدي بهذا السلوك إلى أن يكون ضعيفا أو قويا في اتجاهه نحو هدف معين[6].

. 4العوامل المؤثرة في تشكيل السلوك: يمكن تقسيم العوامل المؤثرة في تشكيل السلوك كالتالي:

4 .1.العوامل الشخصية: وهى تلك العوامل التى يتركب منها الفرد وتؤثر فى سلوكه وتنقسم إلى قسمين:

أ- المكونات الفسيولوجية (الجسمية):

وهى المكونات الحيوية والأكيدة لسلوك الفرد، التى تميزه عن الحيوان والجماد، وتتمثل هذه المكونات فى الشكل العام، مثل الطول، القصر، شكل الوجه والأعضاء، لون البشرة.

وهذه المكونات يرثها الفرد من الوالدين والأجداد بنسب متعارضة تقررها قوانين الوراثة، ولا ينكر أحد أن الهيئة الخارجية للإنسان تؤثر فى شخصيته وسلوكه مثل: شكل الوجه إن كان مقبولاً أو غير مقبول من قبل الآخرين (الجمال- القبح) وطوله وقصره، حيث يبدأ الفرد علاقاته الأولى مع الآخرين من خلال شكله الخارجى قبل أن يتكلم أو يعبر عن مشاعره، وقد يصدر الأفراد حكماً عليه من خلال شكله الخارجى. كما أن شكل جسم الفرد يلعب دوراً فى اختياره لمجال معين من التعليم أو الرياضة أو حتى المهنة فى بعض الأحيان. وقد يحرم الفرد من النجاح فى الحياة بسبب شكل جسمه، مثل عدم القدرة على النجاح فى مهنة التدريس، أو عدم القدرة على الالتحاق بمجال عسكرى.

ب- المكونات العقلية والنفسية:

وهى المكونات أو العمليات النفسية التى يعتمد عليها سلوك الفرد أكثر مما يعتمد على المكونات الفسيولوجية (الجسمية)، لأن الإنسان يبدأ منذ لحظة ولادته بمرحلة التعليم والإدراك والمزاج والثقة بالنفس، وهى مثل الصفات الجسمية قد يكون للوراثة دور كبير فى تكوينها.

وجميع هذه المكونات –الجسمية والنفسية- تكون شخصية الفرد، لذلك فهى تلعب مجتمعة دوراً فعالاً فى فهم السلوك الإنساني[7].

4 .2.العوامل البيئية (المواقف):

البيئة هى العامل الآخر فى السلوك الإنسانى. وهذا العامل يشتمل على مثيرات متعددة، كالضوء والأصوات والروائح والأشخاص. ولا شك فى أن جميع هذه المثيرات (المواقف) لها تأثير كبير على سلوك الفرد.

والبيئة -كعامل فعال يؤثر فى السلوك الإنسانى- لا تشمل على هذه المثيرات الموقفية فحسب بل تحتوى أيضاً على عوامل فيزيولوجية وعوامل اجتماعية-حضارية تحيط بالإنسان وتؤثر فيه منذ ولادته حتى مماته.

أ- البيئة الفيزيولوجية (المادية):

وتتمثل فيما يحيط بالفرد من ظواهر حية وغير حية ليس للفرد أى دخل فى وجودها، مثل التضاريس والمناخ والنباتات الطبيعية والموارد والثروات الطبيعية والسكان، التى تؤثر فى تركيبة الفرد المادية.

كما أن المصادر والثروات –سواء الطبيعية أو تلك التى تتكون بواسطة الإنسان نفسه – ذات تأثير على الإنسان مادياً ونفسياً فالماء والطعام والعلاج عوامل مهمة فى تركيب الإنسان المادى. كما أن حرمان الإنسان من هذه المصادر له تأثيره فى سلوكه وإحباطاته النفسية وتكيفه النفسى مع بيئته.

وتوزيع السكان فى البلدان له تأثيره فى سلوك الأفراد. كما أن نقص السكان فى بلد ما عامل مؤثر فى نقص القوى العاملة بهذا البلد، الأمر الذى يجعل استقدام القوى العاملة من بلاد أخرى حاجة ماسة، وذات تأثير إيجابى وسلبى فى التفاعل السلوكى بين هؤلاء الأفراد.

ب- البيئة الاجتماعية والثقافية والحضارية:

نقصد بالبيئة الاجتماعية والثقافية والحضارية تلك المؤثرات الاجتماعية والثقافية والحضارية التى يتوقعها الإنسان فى بيئته، كالعادات والتقاليد والقيم والأعراف والمواقف والاتجاهات وأنماط السلوك الثقافية التى يتعلمها الإنسان فى بيئته ويتقبلها كأنماط اجتماعية وحضارية فى أثناء سلوكه اليومي، وكذلك الجماعة التي ينتمى إليها والطبقة الاجتماعية وجماعة العمل.

إن الفرد يتعلم هذه الأنماط الاجتماعية/ الثقافية منذ مراحل حياته الأولى، بدءاً بالمنزل حيث الأهل والأخوة والأخوات والأقارب، ومروراً بالمجتمع حيث الأصدقاء والزملاء، وكذلك من خلال النشاطات اليومية التى يمارسها فى عمله، أو من

الجماعات التي ينتمي إليها كالأندية أو الجمعيات، كما تأتي هذه الأنماط معاً، ويتعلمها الإنسان من المدرسة والقـــراءات ومن الديانة التي يعتنقها وكذلك من النظم والسياسات المعمول بها في بلده[8].

5.الطفولة:

الطفولة هي حجر الأساس في بناء المجتمعات الحديثة، فالطفل هو الثروة الحقيقة لأيأمة، وثقافته هي اللبنـــة الأولى لثقافـــة الإنسان والمجتمع، لذا يحرص كل مجتمع متقدم على أن يتمتع الطفل بكل أســـباب السعادة والرفاهية والتثقيف والـــتفكير السليم .

" وتعرف الطفولة بأنها تلك المرحلة العمرية التي يقضيها الصغار من أبناء البشر منذ الميلاد إلى أن يكتمل نموهم ويصلوا إلى حالة من النضج"[9].

تعرف الطفولة أيضا بأنها تلك المرحلة التي يعتمد فيها الطفل على غيره في تأمين متطلباته الحياتية، وتعد من أهم مراحل التكوين ونمو الشخصية،"بل هي المرحلة الحاسمة في تكوين شخصية الإنسان، فقد شدد علماء النفس والتربية وأجمعوا على التأثير الحاسم للتربية في السنوات الأولى على الطفل، إذ لاحظ بعض الباحثين أن سمات وخصائص الشخصية إنما تتحدد في السنوات الخمس الأولى من عمر الطفل"[10].

وهي فترة إعداد وتدريب الطفل للقيام بالدور المطلوب منه في الحياة، ومن هنا كانت حاجة الطفل شديدة لملازمة أبويـــه في هذه المرحلة من مراحل تكوينه.

وقد اختلف العلماء والتربويون على تقسيم مرحلة الطفولة، لكن التقسيم الشائع لدى علماء نفس الطفل هو :

"1ــ مرحلة الرضاعة ، وهي من الولادة حتى السنة الثانية .

2 ــ مرحلة الطفولة المبكرة ، وتمتد من السنة الثالثة إلى السنة السادسة .

3 ــ مرحلة الطفولة المتوسطة ، وتمتد من السنة السادسة إلى التاسعة .

4 ــ مرحلة الطفولة المتأخرة ، وتمتد من التاسعة إلى الثانية عشر"[11] .

وكل مرحلة من هذه المراحل تمتاز بخصائص انفعالية تختلف عن المرحلة الأخرى تظهر من خلال سلوك الطفل.

5 .1. خصائص مرحلة الطفولة[12]: ويمكن تصنيف الخصائص حسب فترتين عمرتين :

5. 1 .1.خصائص الفترة الممتدة من 2-5 سنوات أي مرحلة ماقبل المدرسة والتي تضم مرحلتي الرضاعة ومرحلة الطفولة المبكرة.

5. 1 .2.خصائص الفترة الممتدة من 6-12 سنة أي مرحلة التحاق الطفل بالمدرسة والتي تضم مرحلتي الطفولة المتوسطة والمتأخرة.

5. 1 .1.خصائص الفترة الممتدة من (2-5) سنوات: وتتمثل خصائص مرحلة ماقبل المدرسة فيما يلي:

أ-الخصائص العقلية: تتلخص الخصائص العقلية في مرحلة ما قبل المدرسة في الخصائص التالية:

*الواقعية عند الطفل:أي أنه يعيش بواقعية خاصة من نوعها والتي تختلف بدورها عن واقعية الكبار، ويميل الطفل في هـــذه المرحلة إلى مزج الأحلام بالواقع وإسقاط مشاعره وأحاسيسه في كل ما يراه حوله.

*حب الاستطلاع:حيث تتسع مدارك الطفل فيكتسب خبرات ومعلومات عن العالم الخارجي عن طريق استعمال الحواس وربطها ببعضها مثل اللمس والنظر والسمع، وكذلك عن طريق التفكير في حل مشكلاته اليومية.

*الإحيائية وخصوبة الخيال والميل إلى التفكيك والتركيب: ويقصد بها إعطاء الأشياء والكائنات من حوله صفة الحياة، وكأنها تحس وتشعر وتفرح وتحزن وتتألم مثلماً يحس ويشعر. ويتجاوز حدود الزمان والمكان بخياله الخصب، كما تكون لديه رغبة وميول لفك الأشياء وإعادة تركيبها ثانية للتعرف عليها وإدراك سرها واكتشافها.

ب- الخصائص الجسمية:

هناك فروق فردية بين الأطفال مما يجعل نموهم مختلفاً فيما بينهم اختلافاً كبيراً، فكل طفل له شخصيته التي هي نتاج عوامل وراثية وبيئية تجعل منه شخصاً مختلفاً عن غيره من الأطفال. والخصائص الجسمية لهذه الفترة هي:

-سرعة النمو الجسمي والحركي:يحدث نمو الطفل سريعاً في الفترة الأولى من حياته ثم تقل سرعة النمو في المراحل التالية .

-نمو العضلات الكبيرة قبل العضلات الصغيرة:نتيجة لنشاط الطفل الزائد وسيطرته على جسمه وقدرته على الجري والتسلق والقفز تنمو عضلاته الكبيرة الضرورية لتلك الأنشطة نتيجة لاستخدامه لها باستمرار، ثم تأتي عملية اهتمام الطفل بالأعمال والمهارات اليدوية الدقيقة التي تتطلب نمو العضلات الدقيقة في مرحلة متأخرة.

ج- الخصائص الانفعالية:

الخصائص الانفعالية للطفل في هذه المرحلة تتلخص في تعرض الطفل لأزمات نفسية حادة ونوبات غضب شديدة، لأن هذه الفترة تتميز بأنها فترة قلق وصراع انفعالي داخلي عميق، والطفل في هذه المرحلة يمر بمرحلة انتقال بين الاعتماد على الأم وبين الاستقلال الذاتي ومحاولة إثبات شخصيته، ويميل إلى العناد والإصرار على الرأي، فيحاول أو يعارض بعض الأوامر ليختبر نفسه وقدرته على الاستقلال.وهناك خصائص انفعالية أخرى تميز مرحلة الطفولة وهي:

-سرعة الاستجابة للمثيرات -كثرة الانفعالات وسرعتها-الخوف.

د- الخصائص الاجتماعية:

يعمل الطفل في هذه المرحلة على تكوين علاقات اجتماعية مع الآخرين، ويفضل اللعب مع فئات قليلة العدد، كما أنه يميل إلى الزهو والخيالات ويغلب عليه حب الظهور، ويبدأ اتجاه التعاون في هذه المرحلة في الظهور عند الطفل، كما أنه في هذه المرحلة تغرس في نفوس الأطفال الكثير من القيم والاتجاهات الأخلاقية والاجتماعية، وفيها أيضاً تتعدد مفاهيم الصواب والخطأ والخير والشر وذلك عن طريق الآباء، ويزداد تفاعل الطفل في هذه المرحلة مع الوسط المحيط، ويكون مستعداً لتعلم النظم التي تجهزه لكي يكون عضواً في المجتمع، ويكتسب العادات والتقاليد الموجودة في هذا المجتمع، وكذلك يصبح أكثر قدرة في أن يضع في اعتباره شعور الآخرين ويقبل أهداف الجماعة[13].

5. 1 .2.خصائص الفترة الممتدة من 6-12 سنة: أي مرحلة التحاق الطفل بالمدرسة وتتميز بمايلي :

أ-الخصائص العقلية:

وتتمثل الخصائص العقلية في هذه الفترة في أن الطفل يأخذ في الانتقال من مرحلة الخيال واللعب الإيهامي إلى مرحلة الواقعية أو الموضوعية، فاتصاله بالعالم المحيط به يزيد من مدركاته الحسية لعناصر البيئة التي يعيش فيها، كما أن القوى العقلية تأخذ في النضج كالتذكر والتفكير والربط والقدرة على التصور، كذلك تزداد قدرة الطفل على الانتباه الإرادي ولكنه يحتاج إلى معاونة من حيث مراعاة مدة الدرس واستخدام وسائل الإيضاح التي تعينه على فهمه لموضوعات الدروس وذاكرة الطفل في هذه المرحلة ذاكرة قوية قادرة على استيعاب الكثير مما يصل إليها، وقادرة أيضاً على الاحتفاظ بالمعلومات أطول مدة ممكنة، وتساعد قوة الذاكرة على الاستفادة من كثرة التمرن والتكرار مما يؤدي بالطفل إلى إتقان كثير من المهارات الحركية والعقلية.

وفي هذه المرحلة يستطيع الطفل التفكير باستخدام المعلومات التي يدركها إدراكاً مباشراً ،كما يصبح أكثر مرونة في استخدام هذه المعلومات، كذلك يصبح أكثر تركيزاً على استعادة الأحداث الحقيقة في صورة فكرة، كما أنه يتسم بالقدرة على إدراك التحويلات والتي تؤدي إلى تغير الشيء من حالة إلى حالة أخرى كما أنه يتميز بالتصنيف للأشياء، وأيضاً القدرة على التسلسل التي يقصد بها القدرة على ترتيب الأشياء تبعاً لمتصل كمي كما أنه يستطيع أن يتعامل مع الزمان والمكان بسهولة.

ب – الخصائص الجسمية:

تتميز هذه الفترة بنمو جسمي بطئ وموحد تقريباً، وتتغير فيها نسب الجسم، فيتناقص سوء توزيع النسب الشائعة في المراحل السابقة للنمو بالرغم من أن الرأس يظل أكبر نسبياً إذا قورن بباقي أجزاء الجسم، وفي هذه المرحلة يفقد الطفل معظم أسنانه اللينة، وما إن يبلغ نهاية هذه المرحلة تكون قد تمت معظم أسنانه الثابتة، وخلال هذه الفترة تتسطح الجبهة وتبرز الشفاه ويكبر الأنف، ويأخذ شكلاً محدداً، وهذه التغيرات تبدل من مظهر الطفل في مرحلة الرضاعة والطفولة المبكرة، وكذلك بالنسبة لوزن الطفل في هذه الفترة تكون الزيادة فيها بطيئة وموحدة.

ج– الخصائص الانفعالية:

يكون الطفل في هذه المرحلة في حالة شبه مستديمة من التطور الانفعالي بل التهييج الشديد، وتعكس استجاباته الانفعالية كل من حالة جهازه العضوي وحساسية هذا الجهاز للتأثر بما يحيط به، كما أن الطفل في هذه المرحلة يكون عديم القدرة على تحويل سلوكه أو تعديله،كما أن الأطفال الضعاف في الأداء الحركي يكونون هدفاً للاضطرابات المزاجية،وبذلك تتصف هذه المرحلة بعدم الثبات الانفعالي والتقلب المستمر.

الطفل في هذه المرحلة يميل إلى فهم ذاته من خلال المصطلحات الخاصة بميوله مثل حبه للأصوات والورود وغيرها من الأشياء التي ترتبط برغباته وميوله كما أن مفهومه عن ذاته يتضمن وصفات متغيرة ترتبط بسمات شخصيته والدوافع والقيم السائدة في المجتمع. ولعل أشهر الانفعالات في هذه الفترة تتمثل في الخوف والغضب والغيرة والاستطلاع والسرور، فبالنسبة لانفعال الخوف يلاحظ أنه في الوقت الذي تتناقص فيه المخاوف المستثارة من الأشياء المحسوسة تزداد المخاوف من الأشياء المتخيلة في الظلام مثل الجن والعفاريت والموت وما يرتبط بها، كما تظهر أنواع جديدة من المخاوف مثل الخوف من أن يوصف الطفل بأنه مختلف فيتعرض للسخرية من أقرانه، والخوف من الفشل في المهام التي يقوم بها وبذلك تظهر بوادر القلق في هذه المرحلة والتي قد تعود إلى المشكلات في المدرسة، أو المشكلات المرتبطة بالتوافق الشخصي والاجتماعي والمشكلات الصحية، أما انفعال الغيرة فإن الطفل الذي يشعر بالغيرة من أخوته داخل المترل قد ينقل هذا الشعور إلى زملائه في الفصل، وخاصة الذين يظهرون التفوق أو الشعبية بين التلاميذ، وبالنسبة لانفعال الاستطلاع فيتسم في هذه المرحلة بأنه أقل قوة من المرحلة السابقة،ويلجأ الطفل في هذه المرحلة إلى الأسئلة للحصول على مزيد من المعرفة والمعلومات كما أنه يتعلم القراءة التي تزداد أهميتها بالنسبة للحصول على المعارف والمعلومات[14].

د– الخصائص الاجتماعية:

تتميز هذه الفترة بمجموعة من الخصائص والسمات الاجتماعية حيث أنها تشمل تطور علاقات الطفل بالأطفال الراشدين وبالجماعة وبالثقافة، وهذه العلاقات بهذا الشكل تصبح الدعامة الأولى للحياة النفسية والاجتماعية للطفل الذي يتأثر بالأفراد الذين يتفاعل معهم، والمجتمع الذي يعيش في إطاره، وبالثقافة التي تسيطر على أسرته ومدرسته ووطنه، وتبدو آثار هذا التفاعل في سلوكه واستجابته المختلفة وفي نشاطه العقلي والانفعالي وفي شخصيته النامية والمتطورة، ويتم اتصال

الطفل بالجماعات المختلفة التي تؤثر في نموه وتوجه سلوكه، وأولى هذه الجماعات هي جماعة الأسرة التي تتكون من أبيه وأمه وأخوته، ثم تتسع إلى جيرانه ثم إلى زملائه في الفصل، ومن هنا تنشأ علاقاته بالمجتمع الخارجي.

6.التلفزيون و الطفل:

يلعب الإعلام في عصرنا دوراً هاماً في صياغة الأفراد والمجتمعات، ذلك أنه أصبح أداة التوجيه الأولى التي تَرَاجَع أمامها دور الأسرة وتقلص دونها دور المدرسة، فأصبحت الأسرة والمدرسة في قبضة الإعلام، يتحكم فيها، توجيهاً للأدوار، ورسماً للمسار، خاصة مع تطور التكنولوجيا ومع امكانية الحصول على جهاز التلفاز بسهولة – فقد نجد في الأسرة الواحدة أكثر من جهاز– هذا الأخير الذي دخل معظم البيوت " واجتذب أكثر الناس،سواء كانوا مدفوعين إليه للإستمتاع أم لقتل الوقت، أم كانوا يلتمسون فيه بديلا عن النشاط الواقعي الذي يرمون إلى تحقيقه عبر هذا الطريق أو ذاك"[15]،"فقد أصبح للإرسال التلفزيوني مكانة متميزة بين وسائل الإعلام وخصوصا بعد انتشار الفضائيات، وقد قامت إحدى المؤسسات العلمية بحصر عدد الدراسات والبحوث المتعلقة بمدى تأثير البث التلفزيوني في السلوك الإنساني، وتكوين الرأي العام، فوجدت أن عددها تجاوز 2300 دراسة "[16]، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على أهمية هذا الجهاز وفعاليته في التأثير على الأفراد وفي تشكيل سلوكهم وفي تكوين الرأي العام لديهم، باعتباره وسيلة اتصال ضرورية ومصدراً مهماً من مصادر التنشئة الاجتماعية لما له من تأثير مباشر على سلوكيات النشء خاصة. ويعتبره الباحثون الأب الثالث أو الأب الروحي للطفل، وقد اكتسى التلفزيون هذه الأهمية لقدرته على" نقل المعارف والمعلومات والخبرات بالصورة الحية، والتي تتكون مشاهدها من الصوت والصورة المتحركة بلونها الطبيعي، في صورة واقعية قريبة من مدارك الأطفال، لأنها تخاطب السمع والبصر...كما يتفوق التلفزيون على كل وسائل الإعلام"[17].

فعن طريقه يمكن تقديم المعلومات والأفكار والسلوكيات التي يصعب نقلها للطفل عن طريق الكلمة المكتوبة، أو الصورة، أوالصوت إذا استعمل كل منهم لوحده، كما تتجاوز مشاهد التلفزيون بالطفل حدود المكان والزمان، وتتخطى حاجز الأمية حيث أن نسبة كبيرة من الأطفال تشاهد التلفزيون قبل تعلم القراءة و الكتابة.

وقد بينت الدراسات الجارية في مجال الإعلام والسلوك عند الأطفال بأنهم يعشقون الصور التليفزيونية ويتأثرون بقيمها ومعاييرها بصورة شعورية أو لاشعورية. وكشفت بعض الدراسات أن أغلب الأطفال يميلون إلى تقبل جميع الأفكار والمعلومات والقيم التي تقدمها وسائل الإعلام ويتذكرون هذه المواد بشكل أفضل.

ومع كثرة الفضائيات الغربية منها والعربية ومع تنوع البرامج والأفلام الهادفة وغير الهادفة أخذ (التلفزيون) يشد انتباه الأفراد بدرجة كبيرة " لما له من جاذبية متميزة تعكس ما له من خصائص وسمات تميزه عن سائر وسائل الإعلام الأخرى"[18]، خاصة فئة الأطفال التي تقضي مدة طويلة في مشاهدة برامجه،باعتبارها فئة تنشد اللهو والترفيه، قابلة للانقياد والتوجيه.

فوجدت هذه الشريحة في التلفاز بديلاً مؤنساً عن أُمٍّ تخلت أو أبٍ مشغول، لأنه يقدم المادة المرئية والمسموعة والمقروءة معاً.

وهو إلى جانب ذلك (التلفزيون) له "دور هام لاسيما في المرحلة المبكرة من حياة الطفل والتي تمتد من ثلاث سنوات إلى ست سنوات، إذ يعمل كمدعم قوي وكمنشط لعملية التعلم في كل من الفصل الدراسي وفي المترل"[19].

فهذه الوسيلة تأثر بشكل كبير على عقول الأطفال وعلى جوانب حياتهم الانفعالية والاجتماعية، حيث لا يخفى على أحد ما لها من عظيم الأثر على أخلاق وسلوك الأطفال، فقد " باتت تلعب دورا مهما في صياغة العقول والتوجهات والمعتقدات"[20].

"و قد بينت دراسة أجريت لمعرفة أسباب مشاهدة الأطفال للبرامج التلفزيونية، أنها تشمل حاجتهم إلى مشاهدة البرامج ليتحدثوا عنها في المدرسة في اليوم التالي، وحاجتهم للضحك والفكاهة، ورغبتهم في تغيير المزاج أو الانفعال، ورغبتهم في مشاهدة العنف المتقن الذي يقدم بطريقة فنية، وإشباع الفضول لديهم للعلم والمعرفة في مختلف الجوانب، وارتباطهم وتعلقهم ببعض الشخصيات التي تظهر بشكل منتظم على شاشة التلفزيون، ورغبتهم في الشعور باليقظة والاستثارة.كما يشاهد بعض الأطفال البرامج التلفزيونية بحكم العادة ولإضاعة الوقت، ومشاهدة الإعلانات التلفزيونية"[21].

فأصبحت مشاهدة التلفزيون ثاني أهم النشاطات في حياة الطفل بعد النوم، بل أثبتت إحدى الدراسات أن نسبة 30% من أطفال أحد أكبر المدن الإسلامية من حيث عدد السكان يقضون أمام شاشات التلفزيون وقتاً أطول مما يقضونه في مدارسهم.

"ولهذا الجهاز عدة خصائص أهمها:

1-الإستحواذ

2-التميز الفني بالصورة والحركة.

3-التكرار

4- القدرة على الإلتقاء بالجماهير

5- تحديد الإختيار"[22].

أما بالنسبة للوظائف التي يقوم بها للطفل فهي كالتالي:

"1- الوظيفة الترفيهية (التسلية و المؤانسة).

2- الوظيفة المعرفية.

3- الوظيفة النفسية و الإجتماعية .

4- الوظيفة التربوية."[23]

7. أثر الرسوم المتحركة على الطفل :

مع تزايد عدد القنوات الفضائية خاصة تلك الموجهة للأطفال مثلspacetoon, mbc3،طيور الجنة وبراعم وغيرها من القنوات التي تهم هذه الشريحة، ازداد معدل المشاهدة لدى الأطفال حيث " تشير إحدى الدراسات في هذا المجال إلى أن الطفل الذي تجاوز عمره سن الثالثة يقضي سدس ساعات يقظته اليومية أمام الشاشة الصغيرة، فإذا بلغ سن السادسة تكون المدة التي يقضيها في متابعة برامج التلفزيون معادلة لتلك المدة التي يقضيها في المدرسة، وقد تفوقها ...وتصبح للطفل برامجه المفضلة، والتي يرغب في مشاهدتها "[24].

ومن أهم البرامج التي تعرض على هذه القنوات والتي لها دور كبير في جذب الأطفال وشد انتباههم،برامج الرسوم المتحركة أو أفلام الكرتون حيث بينت دراسة أن الرسوم المتحركة تمثل نسبة 88% مما يشاهده الأطفال.

إن أهمية دراسة أثر الرسوم المتحركة على الأطفال لا تأتي فقط من كونها تشكل النسبة الأعلى لما يشاهدونه، بل تأتي كذلك من أن عددا كبيراً من الآباء والأمهات لا ينتبه لخطورة أثرها على الأطفال، فيلجأ إلى شغل أوقات صغاره بها هرباً

من مشاهد الفضائيات الفاضحة، والتي تتنافى مع قيمنا وأخلاقنا إلى ملاذ أمين يحافظ على صفاء أذهان أطفالهم من المشاهد المخلة بالحياء وإلى مكان يجد فيه الأمن على أبنائه، أو ربما يرغب الأهل في توفير نوع من الراحة والهدوء في المنزل،وهذا ما أكدته إحدى الأمهات معبرة عن استيائها:"إن جهاز التلفاز يرتفع صوته بشكل غير مقبول أثناء عرض مسلسل أبطال الديجتال، ويمتنع أبنائي (6 – 9) سنوات أثناء مشاهدتهم عن الأكل أو مجرد الردّ على أي سؤال"، كما صرح أحد الآباء في نفس السياق " فور صدور أية حركة تنبئ عن استمرار طفلي في اللعب والصراخ، أدير التلفاز على إحدى القنوات، لا إرادياً أجد طفلي ممدداً على الأرض وبصره إلى التلفاز، في حالة أشبه ما تكون بالتنويم المغناطيسي".

وتأتي كذلك أهمية دراسة الرسوم المتحركة من سرعة تفاعل الأطفال مع مادتها وشدة حرصهم على متابعتها، وزيادة ولعهم بتقليد أبطالها، كما صرحت به هذه الأم:"إن أبنائي يتابعون المسلسل أكثر من مرة في اليوم، وبمجرد انتهائه يبدأ الشجار والعنف بينهم تقليداً لحركات أبطال الديجتال".

وفي الواقع اختلفت الآراء حول مدى تأثير الرسوم المتحركة على نفسية الطفل وعلى شخصيته، فمنهم من هو مناصر لهذه البرامج ومؤيد لها، ومنهم من هو معارض ويبالغ في تصوير أثرها السلبي على الأطفال، ولكن في النهاية يتفق الجميع على أن هذه البرامج هي سلاح ذو حدين، فلا أحد ينكر إيجابيات الرسوم المتحركة مع وجود سلبيات لها طبعا، وعلى المختصين وضع استراتيجيات لتقليص سلبياتها والحد منها ومضاعفة ايجابياتها، ويفهم من ذلك أن للرسوم المتحركة أبعاد إيجابية كما لها أبعاد سلبية، وهو الأمر الذي يغفل عنه الكثير من الأولياء معتقدين أن تلك الرسوم لا تعدوأن تكون عاملا ينشغل به الطفل عن الخارج، أوبإعتبارها ذلك الحصن المنيع الذي يقي الطفل من أخطار العالم الخارجي، إلا أن الخطر الأكبر هوعدم الانتباه إلى طبيعة تلك البرامج التي تقدم إليهم.

8.التأثيرات الإيجابية للرسوم المتحركة على الطفل:

1- "توسيع أفق التفكير لدى الاطفال، حيث أظهرت النتائج أن الأطفال قادرون على التعلم المعرفي من الكارتون، وأنهم قادرون على استخدام مستوى عال من مهارات التفكير العليا لقبول معلومات معرفية محصلة من الكارتون"[25].

2- غرس القيم الإيجابية في نفوس الأطفال كقيم التعاون والصداقة والأمانة والأخوة.

3- توضيح بعض المفاهيم التي يركز عليها الأطفال كالخير والشر والصدق والكذب.

4- تنمية المعرفة والقدرة على الابتكار والتفكير.

5- تساعد الطفل على اكتساب الصفات الانسانية الجيدة وتنمي شخصيتهم.

أي أن هناك رسوما متحركة تنضوي على معايير تتوافق وقيم إسلامية، ولا يكون وراء عرضها مجرد التسلية، وهي تساهم في ترسيخ القيم التربوية الصحيحة لدى الأطفال.

6- " من شأن بعض الرسوم المتحركة أن تعزز وتزيد من شعور الانتماء لدى الطفل إلى الجماعة، باعتبار أن الجوالجماعي عامل جوهري في تحقيق الصحة النفسية "[26].

7- زيادة وإثراء خبرات الطفل، أي تحقيق جانب المنفعة إلى جانب المتعة والتسلية من خلال بعض الرسوم.

8- تثير الخيال الواسع للطفل بما تقدمه بعض الرسوم من شخصيات خيالية تحاكي الواقع أحيانا، كما توسع من مدارك الطفل إلى جانب التثقيف و التعليم و الترفيه.

9- " تنمي الجانب اللغوي والمعرفي، إذ لها دور فعال في تنمية هذين الجانبين، فتزيد المحصلة اللغوية لدى الطفل بحيث يتكون لديه رصيد من المفردات والقدرة على تركيب جمل ذات معنى تصل إلى المستمع بطريقة صحيحة، وبالتالي فهي فعالة في إكساب الطفل خاصة طفل ما قبل المدرسة بعض جوانب النمو المعرفي واللغوي"[27].

10- تلبي بعض احتياجات الطفل النفسية وتشبع له غرائز عديدة مثل غريزة حب الاستطلاع؛ فتجعله يستكشف في كل يوم شيئا جديداً، وغريزة المنافسة والمسابقة فتجعله يطمح للنجاح ويسعى للفوز.

ولكن رغم هذه الإيجابيات ورغم الدور الكبير الذي تقوم به الرسوم المتحركة في جذب اطفالنا وشد انتباههم، والقدرة على إمتاعهم، إلا أنها لا تخلو من سلبيات لا يمكن غض الطرف عنها .

9.التأثيرات السلبية للرسوم المتحركة على الطفل: أهمها ما يلي:

1-" تأثير بعض الرسوم المتحركة على نفسية الطفل وسلوكياته، خاصة تلك التي تحوي في طياتها عنفا وعدوانا، الأمر الذي من شأنه أن يؤثر على اتجاهات الطفل ويجعله يتقبل العنف على أنه سلوك جيد، خاصة بالنسبة للأطفال الذين لا يميزون بين الواقع والخيال، فيكون التأثير عليهم أشد"[28].

وهوما يؤدي بالأطفال إلى تقليد حركات بعض الشخصيات الكارتونية المجسدة لجوانب عدة من خوف وعنف وإجرام، كما "يجعل الطفل يشعر بأن الحياة مليئة بالتنافس والصراع والإجرام والموت، فيتصورأن عالم الشاشة هومرآة صغيرة لعالم الحقيقة، وبالتالي تتسلل فكرة العنف إلى نفوسهم"[29].

وتزداد الخطورة إذا ما لجأ الأطفال إلى تقليد تلك الأفعال العنيفة أوالإجرامية الموجودة في أفلام الرسوم المتحركة، بل قد يكتسب الطفل تبعا لذلك معلومات عن كيفية تنفيذها.

وقد يتعدى الأمر ذلك للدرجة التي يعتقد فيها الطفل بأن مايقوم به من أفعال سلبية هي عبارة عن أمور إيجابية في نظره مثل تصور الفعل الإجرامي بطولة، أوتصور الإجرام شجاعة، ففي السنوات الثلاثة الأولى للطفل نجد أنه يخزن كل ما يراه ويسمعه في ذاكرته، مما يؤدي إلى تنامي العنف في نفسه ويتجسد ذلك من خلال سلوكه وتصرفاته، الأمر الذي يجعله يمارس العنف مع إخوته أو أقربائه في البيت وحتى مع زملائه في الشارع أوفي المدرسة كالضرب مثلا بقصد اللعب و التسلية أحيانا، أو حسب الموقف الذي يواجهه أحيانا أخرى. وهو الأمر الذي من شأنه أن يزعزع بعض القيم والفضائل المرغوبة.

2- إثارة الشعور بالخوف والفزع من المواقف الرهيبة والنهايات التعيسة والأحكام الظالمة، وهوما يؤدي بالطفل إلى القلق والنوم المتقطع والأحلام المخيفة، خاصة بالنسبة للأطفال الذين يصعب عليهم الفصل بين الواقع والخيال.

3- إن متابعة الطفل للتلفاز وتلقيه لأكثر خبراته منه تجعله يتقبل كل ما يرد فيه دون مناقشة أوتفكير ناقد، وهذا من خلال استمراره في تلقي ما يشاهده عن طريق الأصوات والصور والرسوم والحركات والأضواء والظلال، بحيث تبدو له جاهزة دون أن يتاح له التفاعل الإتصالي، ومن هنا يضعف التلفاز قدرة الطفل النقدية بتقديمه الحلول جاهزة، كما يعيق النمو المعرفي الطبيعي.

4- "إن ارتفاع نسبة موضوعات الخيال في برامج الموجهة للأطفال، ومنها الرسوم المتحركة مقارنة ببرامج الواقع تجعل الطفل يعيش في عالم الأوهام والخيالات بعيدا عن الخبرات الواقعية"[30].

5- طول مشاهدة الطفل لهذه الرسوم المتحركة تؤدي إلى إفساد عقل الطفل، وإصابته بالبلادة والكسل والخمول، إلى جانب ابتعاد الطفل عن ممارسة هواياته في القراءة واللعب والتسامر مع الأهل والأصدقاء، وبالتالي تتسبب في إضاعة

وقت الطفل، إذ رغم إسهام الرسوم المتحركة أحيانا بالترفيه، إلا أنها من ناحية أخرى تساعده على الاسترخاء وجعله عنصرا سلبيا أحيانا أخرى، إضافة إلى تأثيرها على تحصيله الدراسي.

6- إضعاف انتماء الطفل لبيئته ووطنه، لأن أغلب ما يشاهده ويتربى عليه في الرسوم المتحركة من بيئة وأشخاص مجتمع لا ينتميان لمجتمعنا لا لغة ولا قيمة ولا ثقافة.

وهذا راجع إلى قلة الإبداع وقلة الإنتاج المحلي في إنتاج الرسوم المتحركة، مما يفتح الباب على الاستيراد من الدول الغربية عنا لغة وثقافة، الأمر الذي يؤثر سلبا على الأطفال، لكونها لا تعكس الواقع ولا القيم العربية، على اعتبار أن تلك البرامج تأتي حاملة لقيم البلاد التي أنتجتها وتعكس ثقافتها، وأهدافها المسطرة لها، الأمر الذي يسهم في تشكيل صراع نفسي وشخصي لدى الطفل بين ما تعلمه في الأسرة والمدرسة، وما تقدمه تلك البرامج من قيم وأفكار مستوردة، متضمنة نماذج من العنف والسلوك المنحرف كقصص "البانتان" ، و"سلاحف النينجا" و"ملك الدينصورات" و"الباتوغان" و"الفتيات العجيبات" و" أبطال الديجيتال" وغيرها، حيث أن أغلب هذه الرسوم المتحركة من إنتاج اليابان أو الولايات المتحدة الأمريكية.

وبما أن تأثير التلفزيون عموما صعب المقاومة، فإن جهود الأسرة والمدرسة تذهب أدراج الرياح خاصة في غياب البديل.

7- الإضرار بالصحة، فمن المعلوم أن الجلوس لفترات طويلة و كثرة النظر لشاشة التلفاز لها أضرارها على العينين.

8- تقليص درجة التفاعل بين أفراد الأسرة، حيث أن أفراد الأسرة كثيراً ما ينغمسون في برامج التلفزيون المخصصة للتسلية لدرجة أنهم يتوقفون حتى عن التخاطب معا.

10.اقتراحات وتوصيات :

نظرا للآثار التي تخلفها الرسوم المتحركة على الطفل، وجدنا أنه من الضروري أن نقدم حلولا للتخفيف من هذه الآثار باقتراح أبرز الخطوات التي يمكن أن تقي الأطفال من كل ما من شأنه أن يزعزع شخصيته وقيمه وبالتالي سلوكه وهي كما يلي:

1- البعد عن إنتاج أو إعادة إنتاج ما فيه زرع للخوف في قلب الطفل، إذ أنه في مرحلة مهيأ فيها نفسيا لتقبل هذه المثيرات والتأثر بها، ولأن بقاء الطفل معرضا لهذا النوع من الأفلام يجعله يُكوّن نظرة جانبية عن الحياة، وأن المخاوف الناجمة عن العنف تجعله يعتقد بأن العنف هو الوسيلة الوحيدة لحل مختلف النزاعات.

2- إن بناء شخصية الطفل من خلال الرسوم المتحركة ينبغي ألا تكون عناصر بنائها متسمة ببث القيم من خلال جرعة كبيرة من البكاء، فهذا لا يبني إلا شخصية ضعيفة غير قادرة على تحمل الصعاب، وإنما تبث القيم من خلال القوالب المرحة والأفكار التفاؤلية السعيدة.

3- ينبغي تجنب المبالغة في القصص الخيالية رغم أهميتها في اتساع خيال الطفل وخصوبة تفكيره، حتى لا يؤدي ذلك إلى تشويه الحقائق المحيطة به، وحتى يتمكن الأطفال من تنمية ميولاتهم نحو أشياء حقيقية في المجتمع الذي يعيشون فيه.

4- ضرورة تدشين حملات توعوية على مستوى دولي لتبيان أثر الرسوم المتحركة على الطفولة، يستهدف فيها الآباء بالدرجة الأولى والعلماء وأصحاب رؤوس الأموال، حملة منبثقة من حقائق ومشاهدات تكفل تجاوب الجميع معها.

5- قد لايتمكن الطفل من التمييز بين ما هو واقع وما هوخيال وخاصة في سنواته الأولى، وهنا يأتي دور الأسرة والمدرسة في التوضيح.

6- تفعيل دور الأسرة في انتقاء برامج الأطفال المفيدة المعززة للقيم العربية الإسلامية، كذلك البرامج الهادفة والشاملة التي تسهم في تنمية ثقافة الطفل وتطوير قدراته اللغوية والاجتماعية والوجدانية، وتنمي لديه القيم الدينية والمهارات الاجتماعية المطلوبة.

وبالتالي تجنبهم كل القيم السلبية، كذلك ينبغي عليها تحديد وقت وحجم المشاهدة لدى الطفل.

7- "ضرورة مراعاة هذه البرامج لطبيعة الطفل وخصائصه العمرية والجسمية واللغوية والثقافية والاجتماعية والمعرفية"[31].

وبما أن "الطفولة هي فترة تهيئ الإنسان لاستقبال القيم والعقائد، فإنه لابد من التنبيه على أهمية بناء أساس قوي للفرد المسلم وبذا نتمكن من غرس العقيدة الصحيحة التي من خلالها يستطيع الطفل نقد وصد ما يخالفها عندما يكبر"[32] .

8- ضرورة زيادة الإنتاج المحلي للبرامج الموجهة نحو الطفل –ومن ضمنها الرسوم المتحركة–والتخلص من التبعية للبرامج الأجنبية، على أن يكون ذلك متماشيا مع خصائص الطفل وحاجاته ومطالب نموه، من أجل ضمان تواصل مع قيمنا العربية و الإسلامية.

9- وضع خطة محددة ليوم الطفل وأوقات فراغه بما يفيده بإيجاد بدائل تربوية تشغل وقته وتكسبه المهارات المختلفة وتنمي مواهبه،كتعويده على القراءة الحرة، وتوفير القصص المصورة المناسبة، مما يقلل من ساعات جلوسه أمام التلفزيون والألعاب العنيفة.

10- نشر الوعي اللازم الذي يبين مخاطر ومضار ومساوئ المكوث الطويل أمام الشاشات صحياً وفكرياً واجتماعياً.

خاتمة :

حاولنا أن نقدم هذه الدراسة بأسلوب محايد، حيث عرضنا هذه الظاهرة ببعديها السلبي والإيجابي دون تضخيم للظاهرة وفي الوقت ذاته دون التقليل من خطورتها، ويمكن القول في الأخير بأن تأثير الرسوم المتحركة على الأطفال كبير وخطير، ذلك أن لها إيجابيات وسلبيات، تعمل كل واحدة منها عملها في الطفل، غير أن تفعيل دور الأسرة والمسجد والمدرسة و حسن استغلالهم بحيث تتكامل أدوارهم، يمكن أن يقلل من خطرها.

كما أن حسن استغلال واستثمار حب الأطفال لهذه النوعية من البرامج بانتقاء ما هو هادف وتربوي، وذلك بتظافر جهود الأهل والمختصين – من علماء نفس وتربية وإجتماع، وباحثين والقائمين على الإعلام خاصة الموجه للطفل ومنتجين ومبدعين وممولين– من شأنه أن يؤدي إلى تنشئة الأطفال بشكل سوي وسليم.

قائمة المراجع والهوامش:

[1]بحث أثر الرسوم المتحركة على الطفل ، http://sondosbirat.wordpress.com/2011/05/15/ تاريخ الزيارة 10-03-2012 .

[2]بحث أثر الرسوم المتحركة على الطفل،نفس المرجع السابق.

[3]فهد بن غزاي العتيبي. مشاهد العنف في الرسوم المتحركة وانعكاساتها على رسوم الأطفال.colleges.ksu.edu.sa/Arabic. تاريخ الزيارة 10-03-2012 .

[4]د. كامل علي متولي عمران." مقدمة في العلوم السلوكية ". الدار العربية للنشر. القاهرة. 1992. ص 17.

[5]د. كامل علي متولي عمران . نفس المرجع السابق ص 20-21.

[6]نفس المرجع السابق ص 21

[7]د. إبراهيم بن عبدالله بن عبدالرحمن الزعيبر. " سلوك الأفراد ".

http://faculty.mu.edu.sa/ialzuaiber/The%20behavior%20of%20individuals . تاريخ الزيارة 2014/01/20.

[8]د. إبراهيم بن عبدالله بن عبدالرحمن الزعيبر. " سلوك الأفراد ". نفس المرجع السابق.

[9]صالح ذياب هندي:أثر وسائل الإعلام على الطفل، دار الفكر، ط3، 1998 ، ص 33.

[10]يحي محمد نبهان:الأساليب التربوية الخاطئة وأثرها في تنشئة الطفل. اليازوردي، الطبعة العربية، 2008، ص:37

[11]محمد الشناوي وآخرون .التنشئة الإجتماعية للطفل. دار الصفاء. عمان .ط1 .2001. ص46

[12]د. موسى نجيب موسى معوض. " الطفولة..تعريفات وخصائص". www.alukah.net/social/0/44786/. تاريخ *الزيارة* 2013/11/10

[13]د. موسى نجيب موسى معوض. " الطفولة..تعريفات وخصائص". نفس المرجع السابق.

[14]د. موسى نجيب موسى معوض. " الطفولة..تعريفات وخصائص". نفس المرجع السابق.

[15]د. إبراهيم ياسين الخطيب وآخرون .أثر وسائل الإعلام على الطفل. دار الثقافة. ط1. 2001. ص57.

[16]د.فارس عطوان .الفضائيات العربية ودورها الإعلامي .دار أسامة .عمان .الأردن. ط1. 2009 . ص 93.

[17]د.محمد معوض. إعلام الطفل .دار الفكر العربي. القاهرة. 1998. ص 111.

[18]صالح ذياب هندي . مرجع سبق ذكره ، ص34- 35.

[19]إيناس السيد محمد ناسة، الإعلام المرئي وتنمية ذكاءات الطفل العربي، دار الفكر، ط 1 ، 2009، ص 46.

[20]هدى بنت محمد الغفيص : أثر الرسوم المتحركة على القيم العقدية للأطفال.
http//www.abegs.org/aporta/article/show details§ id=937

[21]دور التلفزيون في التنشئة الإجتماعية www.yamup.com/uploader/files/7461.doc
تاريخ الدخول 2012/03/15

[22]صالح دياب هندي.مرجع سبق ذكره. ص 35- 36.

[23]محمد عبد الرزاق إبراهيم ويح و آخرون . ثقافة الطفل. دار الفكر. عمان .الأردن .ط2. 2007 . ص :254- 255.

[24]د.محمد معوض. مرجع سبق ذكره. ص 112.

[25]إيناس السيد محمد ناسة. مرجع سبق ذكره .ص53.

[26]سهير كامل أحمد، شحاتة سليمان محمد:تنشئة الطفل وحاجاته بين النظرية والتطبيق، مركز الاسكندرية للكتاب، 2007 ، ص:97.

[27]إيناس السيد محمد ناسة. مرجع سبق ذكره. ص:52-53

[28]مجدي أحمد محمد عبد الله، الاضطرابات النفسية للأطفال، الأعراض والأسباب والعلاج، دار المعرفة الجامعية-الاسكندرية، 2003، ص:265

[29]هادي نعمان الهيتي:الإعلام والطفل، دار أسامة، الأردن، عمان.ط1، 2008، ص:113-114

[30]صالح ذياب هندي . مرجع سبق ذكره. ص 40.

[31]إيناس السيد محمد ناسة.مرجع سبق ذكره . ص:54

[32]هدى بنت محمد الغفيص:أثر الرسوم المتحركة على القيم العقدية للأطفال. مرجع سبق ذكره.

الخطاب التداولي في المقام والتحليل
(المقامات الحريرية نموذجا)

سمية حسنعليان
أستاذة مساعدة في اللغة العربية وآدابها
جامعة أصفهان

الملخص:
من أحدث المناهج المهتمة بتحليل النصوص الأدبية هو التداولية التي تعتبر منهجا في تحليل الخطاب أكثر منه اتجاه نقدي، لضمها كل الاتجاهات الأخرى كالنقد النفسي والاجتماعي و... إذ تستفيد التداولية منها في صياغة التأويلات الممكنة لنص ما؛ لأنها تتعامل مع اللغة في بعدها التخاطبي ــ التواصلي وتكشف عن القدرات الإنسانية للتواصل اللغوي.
ومن جهة أخرى فمن الضروري الاهتمام بما عندنا من النصوص الأدبية و.. في تراثنا العربي من منظور الاتجاهات النقدية والتحليلية الحديثة للكشف عن حقائق هذه النصوص وأسرارها في أبعادها المختلفة .. ومن هذه النصوص التي تستحق الدراسة والبحث هو المقامات الحريرية.
وانسياقا من هذا ينطلق هذا البحث من افتراضات مسبقة تدور في مجملها حول إمكانية التحليل التداولي لنص قديم وقد اتخذ من المقامات الحريرية فضاءا تطبيقيا مستخدما المنهج الوصفي ــ التحليلي، والنص هذا ينتمي إلى الخطاب النثري وتحديدا النثر العباسي، ولكنه ليس نثرا بحتا، بل نثر جمع بين الشعر والنثر وفيه سمات تجعل قوة الشعرية تزداد قوة وشدة فيه.

الكلمات الأساسية: الحريري، المقامات، التداولية، الخطاب، الإقناع

1ــ المقدمة:

لقد تعدد وجهات النظر وزواياه في تحليل النصوص الأدبية في العصر الحديث فلا تقف عند حدود ضيقة. فمن أحدث المناهج التي تهتم بتحليل النصوص وتستند إلى اللسانيات هو التداولية (Pragmatique) التي ظهرت بعد المناهج الأخرى المعتمدة على اللسانيات في تحليلها كالبنيوية والشكلانية والأسلوبية و.. وكلها تهدف إلى تقريب النصوص الأدبية إلى العلمية والموضوعية أكثر. وبما أن كل منهج ظهر بعد آخر ليسد ثغرات ما قبله ونقائصه فظهرت التداولية بعد البنيوية لتكون لها بديلا وخلفا.

ولقد تعددت المصطلحات التي تحيل إلى المفهوم التداولي كأنه حدثت فوضى في هذا الحقل .. منها: البراغماتية، والذرائعية، والتداوليات، وعلم التداول، وعلم المقاصد، والسياقية، والمقامية وعلم التخاطب، والتداولية و... وهذا الأخير هو الأكثر شيوعا في اللسانيات الحالية.

فالتداولية كمنهج لتحليل النصوص ترتكز على تحليل عملية التلفظ، فالخطاب قبل كل شيء هو النشاط التلفظي وانسياقا من هذا ظهرت سمة هذا المنهج في التحليل كما ظهر إجماع في تعريفها بأنها دراسة الكلام.

ومن جهة أخرى فمن النصوص الأدبية التي أصبحت بؤرة اهتمام كثير من الباحثين طوال العصور وتتألق في سماء الأدب العربي بألفاظها الناصعة وأسلوبها الخلاب في جذب الأسماع والأفئدة هو المقامات. وهي التي نشأت في القرن الرابع

الهجري على يد بديع الزمان الهمذاني وبلغ هذا الفن ذروته على يد الحريري وأصبح الكتاب الكثيرون بعدهما يقلدونهما في هذا الفن حتى بلغ عدد هؤلاء الكتاب إلى أكثر من 15 كاتب. منهم: الزمخشري (ت 538ه)، السرقسطي (ت 538ه)، السهروردي (587ه)، ابن الجزري (ت 597ه)، الشاب الظريف (ت688ه)، ابن الصيقل (ت 701ه)، الدمشقي (ت 728ه)، العطار (ت 1250ه)، شهاب الدين الخفاجي (1069ه)، أحمد البربير (ت 1226ه)، نقولا الترك (ت 1244ه)، الشهاب الآلوسي (ت 1270ه)، ناصيف اليازجي (ت 1871ه)، أحمد فارس الشدياق (ت 1801ه)، إبراهيم الأحدب (1308ه) (الكك، 1960م، 45).

ومن هذا المنطلق يستهدف هذا البحث دراسة المقامات الحريرية بمنظور تداولي حجاجي جديد ليحقق الأهداف التالية، مستغلا القراءة التأويلية في ضوء هذه الأفكار الجديدة:

ـــ دراسة نص أدبي قديم نفيس من منظور منهج جديد.

ـــ الكشف عن آليات الإقناع في خطاب المقامات الحريرية.

ـــ معرفة مدى قدرة النظرية الحديثة في التحليل اللساني على التعامل مع الخطاب في نص قديم.

وأما المنهج الذي توخاه البحث فهو الوصفي ـــ التحليلي كما أنه قد أخذ على عاتقه الاستناد إلى المفاهيم الإجرائية للتحليل التداولي للخطاب بالمراجعة إلى المراجع التي تمثل المنهج التداولي. وتكمن أهمية هذا المنهج في رؤيته إلى النص أو الخطاب بشكل أكثر شمولية.

أما بالنسبة إلى خلفية البحث فلا يفوتنا أن ننبه على أن هذا البحث فيه نوع من الجدة والدراسات التطبيقية في هذا المجال محدودة فلا نكاد نعثر إلا على القليل منها:

بلاغة الخطاب الإقناعي لمحمد العمري؛ البلاغة والاتصال لجميل عبد المجيد؛ والحجاج في القرآن الكريم لعبد الله صولة؛ وإستراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية لعبد الهادي بن ظافر الشهري و...

ونلاحظ أن حظ القرآن في هذه الدراسات أوفر ولكن لم نعثر على دراسة تطبيقية في المقامات الحريرية.

2ـــ الخطاب والتداولية والإقناع:

قد ورد في تعريف الخطاب بأنه هو «الكلام الذي يقصد به الإفهام إفهام من هو أهل للفهم والكلام الذي لا يقصد به إفهام المستمع فإنه لا يسمى خطابا» (الكفوي، 1998م، 419). وظاهر من هذا التعريف أن التواصل وليد الخطاب. و يعرّف الخطاب عند المحدثين بأنه كل كلام تجاوز الجملة الواحدة سواء كان مكتوبا أو ملفوظا (الرويلي والبازغي، 2002م، 155). ولا شك أن هناك عدة خصائص وسمات للخطاب منها المجتمعية والتوجيهية والفعل والتأثير والتفاعلية والسياقية و... (موميد، 2007م، 87) .. كأن هذه الأسيقة المقامية المتنوعة أثرا كبيرا على الخطاب بوصفه نسقا تفاعليا.

أما التداولية فلا نحصل على هذا مصطلح وإشارة إليه في المعاجم العربية القديمة ولكنهم تناولوا فعل «دول» الذي اشتقت منه التداولية. قال صاحب لسان العرب: «دول: الدولة والدولة: العقبة في المال والحرب سواء ، وقيل: الدولة، بالضم، في المال، والدولة، بالفتح، في الحرب، وقيل: هما سواء فيهما، يضمان ويفتحان، وقيل: بالضم في الآخرة، وبالفتح في الدنيا، وقيل: هما لغتان فيهما، والجمع دول ودول .. يقال: صار الفيء دولة بينهم يتداولونه مرة لهذا ومرة لهذا، والجمع دولات ودول. وقال أبو عبيد: الدولة، بالضم، اسم للشيء الذي يتداول به بعينه، والدولة، بالفتح، الفعل» (ابن منظور، دول).

كما نجد في القاموس المحيط: «تداولوه: أخذوه بالدول ودواليك أي مداولة على الأمر أو تداول بعد تداول» (الفيروزآبادي، 1995م، دول).

وبالرجوع إلى المعاجم الأخرى نلاحظ أنها لم تخرج من الإطار الذي قد أتى به ابن منظور عنها في لسان العرب.

ومن معاني التداول ما تأخذه الأيدي هذه مرة وتلك أخرى ولا يقتصر الأمر عليها وإنما ينتقل إلى الأمر المناقش بين الناس. ويكون تداول الكلام جامعا لمعنيي التواصل والتفاعل في مدلول النقل والدوران ويتمظهر التفاعل في مدلول النقل والدوران في استخدامهما التجي على معنى الحركة بين الفاعلين (عبد الرحمن، 2005م، 243).

وأما تعريف التداولية من منظور اصطلاحي فقد تعددت التعاريف لها إليك بعضها فيما يلي:

«التداولية هي دراسة الاتصال اللغوي في السياق، أو هي مجموعة البحوث اللسانية المنطقية التي تهتم بدراسة استعمالات الكلام وتبحث في مطابقة الأشكال الدالة للسياقات المرجعية؛ أو هي نسق معرفي استدلالي يعالج الملفوظات ضمن سياقاتها التلفظية والخطابات ضمن أحوالها التخاطبية؛ أو هي دراسة استعمالات الكلام كظاهرة استدلالية وتداولية واجتماعية في الوقت ذاته و...» (انظر: ابن ظافر الشهري، 2004م، 22؛ صحراوي، 2004م، 25).

كما ورد في تعريفها: «دراسة استعمال اللغة في الخطاب شاهدة في ذلك على مقدرتها الخطابية وهو خط تحليل اللغة العادية حيث تهتم ببعض الأشكال اللسانية التي لا يتحدد معناها إلا من خلال استعمالها» (أرمنكو، 1986م، 7).

ولعل من أهم عناصر التداولية هو الحجاج لأنه باب رئيسي فيها ومجل غني فيها يشترك مع العديد من العلوم الأخرى كالمنطق والبلاغة الفلسفية ويخضع ظاهريا وباطنيا لقواعد شروط القول والتلقي وتبرز فيه مكانة القصدية والتأثير والفعالية ومن ثم قيمة ومكانة أفعال الذوات المتخاطبة (الحباشة، 2008م، 7).

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن البعد التداولي في الخطاب الحجاجي يظهر في مستويات كمستوى أفعال الكلام، ومستوى السياق، ومستوى الحوار أو التحاور (أعراب، 2001م، 101). ومن هذا المنطلق من العبث أن نصور الحجاج بدون أي قصد ونتيجة ولعل المقصد الأساسي في الخطابات التي نواتها الحجاج هو الإقناع (Persuasion).

وتتفق المعاجم اللغوية في التعريف لكلمة (قنع) بأنها: «قنع: قنع بنفسه قنعا وقناعة: رضي ورجل قانع من قوم قنع، وقنع من قوم قنعين، وقنيع من قوم قنيعين وقنعاء ... ويجوز أن يكون السائل سمي قانعا لأنه يرضى بما يعطى قل أو كثر ويقبله فلا يرده فيكون معنى الكلمتين راجعا إلى الرضا. وأقنعني كذا، أي: أرضاني» (ابن منظور، «قنع»). وإن الدلالة المعنوية لكلمة الإقناع عند أهل اللغة هي رضى النفس (باطاهر، 2006م، 19).

3ـــ الحريري ومقاماته:

أما الحريري فهو أبو محمد محمد بن القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري الحرامي البصري من أدباء البصرة وكان عالما بكثير من العلوم العربية والدينية كالفقه والحديث واللغة و.. وكان من ذوي اليسار فضلا عن علمه الواسع.

وله عدة مؤلفات منها: المقامات التي ألفها على غرار بديع الزمان الهمذاني، درة الغواص في أوهام الخواص الذي بين فيه أغلاط الكتاب فيما يستعملونه من لألفاظ بغير معناها في غير موضعها، وكتاب ملحمة الأعراب في صناعة الإعراب وهي أرجوزة شعرية. .. وكذلك له رسالتان السينية والشينية اللتان التزمتا بالحرفين السين والشين ولم تخلوا منهما .. ظل الحريري في البصرة موضع تقدير أهل العلم، وجاء وضعه للمقامات فارتفعت منزلته وازدادت مكانته حتى توفي في 6 رجب 516 هـــ (انظر: الحموي، 1980م، وابن خلكان، 1977م).

والمقامة لغة هي: «موضع القدمين والمقام والقامة بالضم الإقامة والمقامة بالفتح: المجلس والجماعة من الناس .. واستعملت الكلمة مجازا لتعني القوم الذين يجلسون في المجلس .. ومثل هذا تسمية العرب جماعة من الناس نديا، .. ووردت كذلك في القرآن اسما لموضع القيام كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة 2: 125]، كما استخدمت لتعني الحديث الذي يدور في المجلس إضافة إلى مدلولها على ما يقام من خطبة أو عظة أو ما شابهها وتعني كذلك مجلس السادة» (ابن منظور، قوم). وكانت تدل على القصص والمواعظ والأحاديث حتى تبلورت أخيرا في شكلها الفني عند بديع الزمان الهمداني في القرن الرابع للهجرة فأصبحت مجموعة حكايات قصيرة جمعت بين النثر والشعر و«أصبحت مصطلحا أدبيا كانت تطلق على نوع من الكتابة الفنية على شل أقصوصة منمقة في ألفاظها وأسلوبها فيها شيء من الحوار وتعتمد في الغالب على راو واحد وبطل أديب محايد يراد بها وصف حالة نفسية أو مفارقة أدبية أو مسألة دينية أو قضية علمية وتنطوي على لون من ألوان النقد أو التهكم والسخرية أو التصحيح والتقويم أو الثورة» (رشيد، 1989م، 327).

ومع أن كُتّاب المقامات قد ازدادوا طوال العصور المختلفة بعد بديع الزمان وعرف هذا الفن رواجا كبيرا وغزت كل البلدان وأصبحت منتشر الصيت واستمرت في الوجود إلى عصرنا الحاضر ولكن جميع دارسي المقامات المختلفة قد أثنوا على الحريري ومقاماته وقدرته الهائلة اللغوية وتفننه في الأساليب وقيل: «لم يبلغ كتاب من الكتب ما بلغته هذه المقامات التي أبدع إنشاءها الأستاذ الرئيس أبو محمد القاسم بن علي الحريري من نباهة الذكر وبُعد الصيت واستطارة الشهرة» (الشريشي، 1969م، 1: 3).

كتب الحريري 50 مقامة وزين كتابه بذكر مقدمة وخاتمة وقد ذكر في المقدمة هدفه عن إنشاء هذه المقامات مشيرا إلى فضل بديع الزمان عليه وسبقه وقال: «فأشارَ مَنْ إشارتُه حُكْمٌ، وطاعَتُه غُنْمٌ إلى أنْ أُنْشِئَ مَقاماتٍ أتْلو فيها تِلْوَ البَديعِ، وإنْ لَمْ يُدْرِكِ الظّالِعُ شَأوَ الضَّليعِ ... هذا معَ اعْتِرافي بأنّ البَديعَ رحِـــمَهُ اللهُ سَبّاقُ غاياتٍ، وصاحِبُ آياتٍ وأنّ الـــمُتَصَدّيَ بعدَهُ لإنْشاء مَقامةٍ، ولوْ أُوتيَ بَلاغَةَ قُدامَةَ لا يَغْترِفُ إلا مِن فُضالَتِه، ولا يَسْري ذلِك الـــمَسْرى إلا بِدَلالَتِهِ» وهذا لو دل على شيء ليدل على روح التواضع في هذه الشخصية الكبيرة. ومن الخير أن نذكر أسماءها هي: الصنعانية، الحلوانية، الدينارية، الديماطية، الكوفية، المراغية، البرقعيدية، المعرية، الإسكندرية، الرحبية، الساوية، الدمشقية، الزورانية، المكية، الفرضية، المغربية، القهقرية، السنجارية، النصيبية، الميافارقية، الرازية، الفراتية، البغدادية، القطيعية، الكرجية، الرقطاء، الوبرية، السمرقنئية، الواسطية، الصورية، الرملية، الطيبية، التفليسية، الزبيدية، الشيرازية، الملطية، الصعدية، المروزية، الصحارية، التبريزية، التنيسية، النجرانية، الخضرمية، الشتوية، الرملية، الحمصية، الحجرية، الحرامية، الساسانية، البصرية.

ومعروف أن هدف الحريري من إنشاءها هو الهدف اللغوي وتعليم الناشئة اصطناع الأساليب اللغوية والبلاغية. ولغني من الذكر أن المقامات قد عرفت أنماط مختلفة من التلقي أبرزها هذه الثلاثة هي: «التلقي الإحيائي والتلقي الاستبعادي والتلقي التأصيلي وفي كل حقبة تايخية تكون السيادة والغلبة لنمط على آخر... ففي الأول يجهد المتلقي من أجل إحياء المقامات وبعثها تفسيرا وشرحا وتحقيقا وطباعة، وبعده يبدأ التلقي الاستبعادي كرد فعل للتلقي الإحيائي مهيمنا على مساحة القراءة منذ العقد الأول من القرن العشرين، وما كاد العقد السادس من القرن العشرين يكتمل حتى لاح في الأفق تباشير نمط جديد أسميناه بالتلقي الـــتأصيلي» (كاظم، 2003م، 49 بتصرف).

ولا شك أن مشروع قراءة المقامات «مشروع خطر ومليء بالمجازفة فالشارح محكوم عليه بأن يتطرق إلى ميادين متنوعة يكون معجميا حين يوضح معنى الألفاظ الغريبة ويكون جغرافيا حين يصادف اسم مكان، ومؤرخا حين يصادف شخصية تاريخية ويكون بلاغيا حين يسمي الصور البلاغية و..» (كيليطو، 1993م، 165).

4ــ تحليل المقامات الحريرية ودراستها في الخطاب التداولي:

وفي هذا القسم من البحث سندرس المقامات الحريرية بالمنهج التداولي وسنشير إلى أهم النقاط في هذا المجال:

4ــ 1ــ اختار الحريري في كثير من المقامات أو قل كلها إستراتيجية يقدّم فيها الراوي (الحارث بن همام) نفسه بصفته صاحب الحكاية والشاهد على الأحداث. فالمقامات الحريرية بنيت على المستوى التخاطبي الذي يكون فيه قطبان للتخاطب ألا وهما الراوي والقارئ وكل طرف يؤدي دورا خاصا في المقامة ويغطي هذا المستوى بناء كل المقامات. إليك بعض المقدمات للمقامات:

ــ رَوى الحارثُ بنُ همّامٍ قال: مَرَرْتُ في تَطْوافي بشيرازَ، على نادٍ يَسْتَوقِفُ الــمُجْتازَ، ولوْ كان على أوْفازٍ فَلَمْ أسْتَطِعْ تَعَدّيهِ، ولا خَطَتْ قَــدَمي في تَــخَطّيه فَعُجْتُ إليْهِ لأسْبُكَ سِرَّ جَوْهَرِهِ، وأنظُرَ كيفَ ثَمَرُه مِنْ زَهَرِهِ فإذا أهْلُــهُ أفْــرادٌ، والعائِجُ إلَيْهِمْ مُفادٌ وبَينَما نَحنُ في فُــكاهَةٍ أطْرَبَ مِنَ الأغاريد، وأطيَبَ مِنْ حَلَبِ العَناقيد إذ احْتَــفَّ بنا ذو طِمْــرَين، قَد كاد يُناهِزُ العُمْرَين .. (المقامة الشيرازية).

ــ رَوى الحارِثُ بنُ همّامٍ عَنْ أبي زيدٍ السَّروجيّ قال: ما زِلْتُ مُذ رَحَلْتُ عَنْسي، وارْتَــحَلْتُ عَنْ عِرْسي وغَرْسي أحِنّ إلى عيانِ البَصرَةِ، ولا حَنينَ الــمَظْلومِ إلى النُّصرَةِ لِــما أجمَعَ عَلَيْهِ أرْبابُ الدِّرايَةِ، وأصْحابُ الرِّوايَــةِ مِــنْ خَصــائِصِ مَعالِــمِها وعُلَمائِها، ومَآثِرِ مَشاهِدِها وشُهَدائِها وأسْألُ اللهَ تَعالى أن يوطِئَني ثَراها، لِأفوزَ بمَرْآها ... (المقامة الحرامية).

نلاحظ أن السارد (الحارث) في المقامات يبدأ الحديث عن نفسه واصفا حاله حتى يظهر له الشخصية الثانية (البطل/ أبو زيد).

هذا الخطاب ــ أي مستوى الخطاب الإني ــ الذي يحدث بين شخص ونفسه لوحات ذات بعد خاص في المقامات حينما يتحدث صاحب المقامات عما يسمى بالفعل الذاتي التداولي الذي ينم عن قراءة للذات من داخل الذات. وقد يشير السارد إلى هذا النوع من التفاعل بقوله «قلت في نفسي» ..إليك نموذجا:

ــ ... فَقُلتُ في نَفسي: لَعَلَّ غَرْسَ التَّمَنّي قد أثمَرَ، ولَيْلَ الــحَظِّ قَد أقْمَرَ فَــنَــهَضْتُ إليْهِ عَجْلانَ، وقلتُ له: مَنِ الطّارِقُ الآن .. (المقامة الفرضية).

وإذا أراد الراوي أن ينقل كلام الشخصيات (أبو زيد، أو القاضي، أو الغلام، أو زوجة أبي زيد و...) يستعمل تقنيات خاصة وينتقل إلى المستوى التخاطبي الثاني الذي يكون فيه قطبا التخاطب تلك الشخصيات. «وهناك فرق أساسي بين المستوى التخاطبي الأول وكل المستويات التي تتولد فالمستوى الأول هو فاعل على الإطلاق أما ما دونه فمفعول الأول هو الذي يبدع النص وكل ما فيه أما ما يتفرع عنه فهو من خلق الأول وتصوره» (فرانسيس، 2001م، 87).

فنلاحظ أن في المقامات الرحبية، البغدادية، الشيرازية، التنيسية و... تدخل شخصيات أخرى غير الراوي وأبي زيد (البطل) في الحادثة وكأن الحارث (السارد) وقف جانبا وينقل للمخاطب ما يراه بدقة كافية ولا ينسى حتى وصف حالاتهم وما ينوي الشخصيات في قلوبهم ..كما قال في المقامة الــ 47: «حتى آلَ ذا عيشَةٍ خَضْراء، وحَقيبةٍ بَجْراء فَازْدَهاهُ الفرَحُ عندَ ذلِكَ، وهَــنَّأَ نَفْسَهُ بما هُنالِكَ» (المقامة الحجرية).

4ـ 2ـ من أهم المركزات في التداولية هو نظرية التواصل .. فالخطاب التداولي ينسق عملية التواصل المعرفي بما يكفل الخطابات المتعددة الاتجاهات والأبعاد وذلك بحكم تداولية المعرفة الخطابية التي تنشطر إلى مجموعات فهمية قد تكون رافدا لخطاب المعنى الإني المحكوم بالذاتية والنرجسية وخطاب الحواس التداولي المرهون بخصائص المعرفة التي تتحد فيها الذات مع الأنا المتميز بالمركزية المعرفية المتساوية مع مفعولات الخطاب التداولي المتقمص للشخصية المتروية والمحفزة للاشعور الفردي الغارق في متاهات الطابوهات والخلل النفسي المتدفق في اتجاه واحد لا سبيل للخروج عنه .. ويظهر ذلك في شخصية صاحب الخطاب إزاء خطابه المتدارك والمنفعل في الاتجاهات التداولية الحتمية والممانعة لسلوكات الآخر والمقامات تضمنت أجزاء ومساحات من الفعل التداولي لخطاب خضع للحضور الإني المتميز كما سبق لنا ذكر بعض نماذجه. وإليك بعض النماذج الأخرى:

فهنّأتُ نفسي بمَورِدِهِ، وابْتَدَرْتُ اسْتِلامَ يدِهِ (القامة الحلوانية). فتهنئة الشخص نفسه يدخل في خطاب الذات.

قال أبو زَيْدٍ: فلمّا حَلَّ أُنشوطَةَ نَفْثِهِ، وقَضى الوَطَرَ مِنَ اشْتِكاء بَثِّهِ ناجَتْني نَفْسي يا أبا زَيْدٍ، هذهِ نُهْزَةُ صَيْدٍ، فشَمِّرْ عَن يَدٍ وأيْد (المقامة الحرامية) .. فمناجاة النفس مع أبي زيد تندرج ضمن هذا النوع من الخطاب.

4ـ 3ـ وبالنسبة لخطاب التداولية المفكك فهو الخطاب الذي يسير وفق هواجس الأنا الفاعلة مع الأنا الآخر المستقبل لعملية التواصل وهنا تأتي العملية الغيرية التي تحقق هدف الذات الفاعلة مع الذات المتحدة مع النص والمستوعبة حسب فهمها وإدراكها لهذا النص والمسألة حينئذ تتجاوز حدود المبدع إلى الذات الصانعة للنص بعد تداوليته وفتحه على مكونات النص الشكلية والمعرفية حسب الفهم والتصور وهذا ما يجعل الخطاب التداولي مثار مكابدة معرفية تفتح الآفاق أمام المتلقي لصناعة فهم جديد وبآليات معرفية عديدة المعارف ومتنوعة القراءات وهذا له مساحة واسحة في مقامات الحريري التي تنشطر بين أيدي القراء إلى محطات تداولية بعيدة المعارف متعددة المفاهيم وفق خطابات تداولية ممنهجة فكرا ومعنى.

ومن هنا تظهر لنا أهمية الحوار بوصفه نشاطا يبرز الاستعمالات اللغوية في إطار تفاعلي بين المبدع والمتلقي وقد اهتمت المقامات الحريرية بالعتبة الحوارية كثيرا وهذا جلي في الألفاظ الدالة علية من مثل «قال، قلت، أخبرني، سألت و...».

في الحقيقة الحريري المبدع يتواصل مع المتلقي بنصه في المقامات ويتم هذا التواصل عبر تواصل آخر موجود في النص وذلك ما يجري بين السارد (الحارث) والبطل (أبو زيد) وهذه التخاطبات في الغالب آلية تضمينية تتيح للمتلقي كشف بعض مقاصد المبدع.

ولعل من أهم الآليات التي استخدمها الحريري على لسان الشخصيات في المقامات في تنشيط العتبة الحوارية هي الاستفسار/ عملية طرح السؤال. ونذكر نماذج من هذا الأمر في المقامات المختلفة كي يتوضح الموضوع أكثر:

في المقامة القطيعية يبدأ الحوار بين الشخصيات بعد أن قرأ أبو زيد شعره وطرح الحاضرون سؤالهم:

فإنْ وَصْلاً ألذَّ بــهِ فــوَصْــــلٌ وإنْ صَرْماً فَصَــرْمٌ كالطَّـــــلاقِ

قال الحارِثُ بنُ هَــمّام: فاسْتَــفْهَمْنا العابثَ بالــمَثاني، لِــمَ نَصَبَ الوَصْلَ الأوّلَ ورَفَعَ الثّاني .. (المقامة القطيعية).

أو بُنيت المقامة الطيبية على 100 سؤال يسأله الفتى الفقيه عن أبي زيد الذي ظهر فقيها عالما وإليك بعض الحوار الذي جرى بينهما: «وقال: إني حاضَرْتُ فُقَهاءَ الدُّنيا، حتى انْتَخَلْتُ منهُمْ مِئَــةَ فُــتْيا فإنْ كُنتَ مِــمَّنْ يَرغَبُ عَنْ بَناتِ غَيرٍ، ويَرْغَبُ مِنّا في مَيْر فَاستَمِعْ وأجِبْ، لتُقابَلَ بما يَــجِبُ فَقال: اللهُ أكبرُ، سيَبينُ الــمَخْبَرُ (29)؛ ويَنكَشِفُ الــمُضمَرُ، ﴿فَاصْدَعْ بما تُؤمَرُ﴾» (المقامة الطيبية).

أو قد خطب أبو زيد خطبته الشهيرة بالرقطاء بعد سؤال السارد (الحارث) (المقامة الرقطاء).

أو قرأ الرسالة في المقامة القهقرية بعد هذا السؤال: «فَقال: أتَعرِفونَ رِسالةً أرْضُها سَماؤُها، وصُبحُها مَساؤُها نُسِجَتْ عَلى مِنْوالَين، وتَــجَلَّتْ في لَوْنَين، وصَلَّتْ إلى جِهَتَين، وبَدَتْ ذاتَ وَجْهَين إنْ بَزَغَتْ مِنْ مَشْرِقِها، فَناهيكَ بِرَونَقِها وإنْ طَلَعَتْ مِنْ مَغْرِبِها، فَيا لِعَجَبِها» (المقامة القهقرية).

أو سأل أبو زيد محدثه عن رأيه في الزواج في القامة الخضرمية والتي تسمى البكرية أيضا: «فَــتَــيَمَّنْتُ بِمَنْظَرِهِ البَهيجِ، واسْتَقْدَحْتُ رأيَهُ في التَّزويجِ فَقال: أوَتَبْغيها عَوانا، أم بِكْراً تُعانى فَقُلتُ: اخْتَرْ لي ما تَرى، فقدْ أَلْقَيتُ إليكَ العُرى» (المقامة الخضرمية).

فنلاحظ أن السؤال هو الذي يجعل الحوار ينمو في كل من المقامات التي سبقت الإشارة إليها.

ولكن مما علينا أن ننبه عليه هنا أن أبا زيد في بعض المقامات يبدأ بالسؤال ولكنه لا يريد الجواب من متلقيه وإنما «فاتحة للدخول في الاستثنائي والخاص وهو يعرف مسبقا أنه استثنائي وخاص ولذلك لا يمكن أن يسأل الإتيان بمثل ما سيأتي وإنما بغية التنويه إلى الشكل الاستثنائي الخاص» (إسماعيل، 2007م، 50).

والمتأمل في المقامات وقارئها سيحصل على أنماط كثيرة متنوعة من هذه الأشكال الخاصة الاستثنائية منها: المقامة التي سميت بالرقطاء وهي الرسالة التي تقرأ من اليمين إلى الشمال فتفيد المعنى وإذا قُرئت على العكس فلها معنى أيضا.

أو جاء في المقامة الشعرية بأبيات لها قافيتان أو نراه يلعب بالألفاظ ويأتي بأبيات خالية من النقط مثل:

واسْــــعَ لإدْراكِ مَــحــــــلٍّ سَــــــما عِمــــــادُهُ لا لِـــــادِّراعِ الــمِــــــراحْ

أو بالأبيات المنقطة مثل:

شَــــغَفَتْني بِجَفْــــنِ ظَبْــــيٍ غَضــــيضٍ غَــــنِجٍ يَقْتَضــــي تَغَــــيُّضَ جَفْنــــي

أو بالأبيات الأضياف ذوات الكلمتين إحداها منقوطة والأخرى بدونها:

إسْــــمَحْ فَــــبَثُّ السَّــــماحِ زَيــــنٌ ولا تُــــخِبْ آمِــــلاً تضَــــيَّفْ

ولا تُــجِــــــزْ رَدَّ ذي سُــــــؤالٍ فَــــنَّ أم في السُّــــوالِ خَفَّــــفْ

أو الأبيات المطرفة التي يشبه صدرها عجزها مثل:

سِــمْ سِــمَةً تَــحْــسُــنُ آثــارُهــا واشْــكُرْ لِــمَنْ أعْطــى ولــوْ سِمْسِــمَهْ

وكلها قد وردت في المقامة الحمصية.

4ـ 4ـ أما الخطاب التداولي المفترض فهو الذي يحمل سياقات الدلالة والتصورات نحو قيم ذات معاني ودلالات يسوقها الكاتب المتداول للخطاب حسب الرغبة والطلب المفترض للمقام والتحليل وتلك من عتبات الخطاب التداولي المفترض وفي المقامات الحريرية ما يبعث على هذا النوع من الإخبار والمكاشفلة والتأمل والتصورات ...

فلعله يصح تسمية المقامات الحريرية بوصفها نصا أدبيا بالحدث الكلامي، لأنه يرتبط بالتفاعل بين الأطراف المتخاطبة وهذا التواصل والطاقة التفاعلية بين المبدع والمتلقي يؤدي إلى الكشف عن الفعل المركزي وسلسلة الأفعال الكلامية المتضافرة فيه تساعد في إنشائه. وتظهر قيمة المقامات الإنجازية بوصفها حكايات قصيرة مضاهية القصة في هذا الحدث الكلامي وهو الذي يعطي المقامات قوتها الإقناعية أي فعالية المقامات التداولية من خاصيتها الحكائية.

وخطاب هذا النص الشهير يتكون من موقفين متناظرين يفرضهما أبو زيد ليختار حدا من حدودهما .. وشخصية البطل (أبو زيد) في المقامات محاطه بالتحول والتقلب الدائمين بحيث يؤطر هذا التحول الثنائيات ونلاحظ أنه يتقلب بين الوعظ ونقيضه ويتسق مع الدين حينا وينقضه حينا آخر ويظهره بصورة مشوشة حتى نصل إلى المقامة الأخيرة ويتوقف البطل عن الغربة والتحول والتلون والتناقض و.. ليتسق مع الدين والإيدئولوجي بعيدا عن الكذب والخدعة والمكر وكأنه يتصالح مع الدين والثقافة والمجتمع والدهر لينتهي السرد هكذا ويختتم التشويش والتناقض. «التناظر في مقامات الحريري متجسد في موقفين متناقضين فالسروجي واعظ في مقبرة أو سفينة أو مسجد أو على صخرة في طريق الحج ولكنه أيضا يدعو إلى المغامرة والمقامرة واحتساء الخمرة بعد انفضاض مجالس الوعظ وفي كلا الخطابين له مبرراته» (إسماعيل، 2007م، 102).

4ـ 5ـ وما لا يفوتنا هنا أن ننبه عليه هو أن نصا أدبيا كالمقامات يستوعب أن يتحمل في ثناياه ألفاظا وعبارات في خطاباته تؤدي إلى سوء الفهم أو الأثر السلبي واجتنابا مما تحدثه هذه الاستخدامات غير المألوفة نلاحظ أن الحريري يلجأ إلى الشرح «الذي يلعب دورا أساسيا في مختلف التفاعلات التخاطبية كما يسمح في الوقت نفسه بالتعبير عن نفس المضمون بطرق عدة» (الباهي، 2004م، 107).

كما استخدم الحريري هذه الإستراتيجية في عدة مقامات منها: المقامة الطيبية، الوبرية، التبريزية، الحجرية ...إذ شرح وفسر الألفاظ والأمثال والأحاجي والألغاز التي أودعها تلك المقامات.

كما قام بشرح الألفاظ في المقامة الطيبية عندما برز أبو زيد فقيها أجاب عن مائة مسئلة فقهية منبها المخاطب إلى معنى المفردات التي استخدمها النص بمعنى آخر لأن هذه المعاني للألفاظ في هذه المقامة تجلت وفق معطيات سياقية وعملية الشرح هذه من قِبل الحريري تتأسس على إقامة العلاقة بينه وبين القارئ المتميز .. فالشرح «نشاط واع ينفذه المتكلم وفقا للشروط التي ينتج النص ضمن حدودها وهو أيضا نشاط يتفاعل فيه المتكلم والمتلقي» (ناظم، 2002م، 50).

ولتوضيح الفكرة نورد قسما من نص المقامة الطيبية:

«فَقال: ما تَقولُ في مَنْ تَوَضَّأَ ثمّ لَـــمَسَ ظَهْرَ نَعْلِهِ، قال: انتَقَضَ وُضوءُهُ بفِعلِه (النعل الزوجة).

قال: فإنْ تَوَضَّأَ ثمّ أتْكَأهُ البَرْدُ، قال: يُـــجَدِّدُ الوُضوءَ مِنْ بَعْدُ (البَرْدُ النَوْمُ).

قال: أيَمْسَحُ الـــمُتَـــوَضِّئ أُنثَيَيْهِ، قال: قد نُدِبَ إلَيْه، و لَمْ يوجَبْ علَيْهِ (الأنثيان الأذنان).

قال: أيجوزُ الوُضوءُ بما يَقْذِفُهُ الثُّعبانُ، قال: وهَلْ أنْظَفُ مِنهُ للعُرْبانِ (الثُّعبانُ جَـــمعُ ثُعب وهو مَسيلُ الوادي والعُرْبان جَـــمعُ عُرْب).

قال: أيُستَباحُ ماءُ الضِّرير، قال: نعَمْ ويُـــجتنَبُ ماءُ البَصيرِ (الضَّـــرير حَرْفُ الوادي والبَصير الكَلب)». (المقامة الطيبية).

كما يستعين الحريري في شرح الألفاظ والأمثال و.. بالتمثيل لشدة عنايته بالمتلقي والتأثير في نفسيته كا أشار إلى هذا الموضوع العالم الجليل القدر الجرجاني إذ قال: «فأنت إذا مع الشاعر وغير الشاعر إذا وقع في نفسك غير ممثل ثم مثله كمن يخبر عن شيء من وراء حجاب ثم يكشف عنه الحجاب» (الجرجاني، 1998م، 100).

واعتماد الحريري هذا بالتمثيل في شرحه هو يوفر فرصة التعامل والفاعل بين المبدع والمتلقي إذ يؤثر في نفسيته أكثر ويقرب المعنى إليه. وكا أنه قد استشهد بالقرآن لبيان أن فيه مثل ما في كلام العرب من اللفظ المختلف ومجاز المعاني. كما تم استشهاده بالشعر العربي .. إليك بعض نماذج:

وَقَولُهُ: «وَثَبَ إلى النّاقَةِ فَرَحَلَها»؛ يَعني شَدَّ عَلَيهَا الرَّحلَ، وَبه سُمِّيَتِ الرّاحِلَةَ لأنَّها فاعِلَةٌ بِمَعنى مَفعُولَةٍ، كَقَولِه تَعالى: ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي مَرضيَّةٍ، و ﴿مِن مَّآءٍ دافِقٍ﴾ أي مَدفُوقٍ، والرّاحِلَةُ تَقَعُ عَلى النّاقَةِ وَالجَمَلِ، وَدُخُولُ الهاء فِيها لِلمُبالَغَةِ، مِثلُ داهيَةٍ وراويَةٍ .. (المقامة الشتوية).

وأما قَولُه: «يشكُو إلى غَيرِ مُصَمِّتٍ» فَهُوَ مَثَلٌ يُضرَبُ لِمَن لا يَكتَرِثُ بشَأنِ صاحِبه ولا يَعْبأ باسْتِمرارِ شِكايتِه لأنَّهُ لَو أشْكاهُ لَصَمَت وأمسَكَ عَنِ الكَلامِ وَ مِنهُ قَولُ الرَّاجزِ تُخاطِبُ جَمَلاً لَهُ:

إنَّكَ لا تَشكُو إلى مُصَمِّتٍ فَاصْبِر عَلى الحَمْلِ الثَّقيلِ أو

(المقامة الحجرية)

كما هو جلي واضح أن الحريري قد بنى العتبة الإفهامية على الشرح والتمثيل مراعاة للمخاطب/ المتلقي.

4ـ 6ـ العناصر المشاركة في المقامات الحريرية تنقسم إلى عنصرين: الأول العنصر الأصلي والثاني هو الفرعي.

في الأول يمكننا تسمية الحارث بن همام (الراوي) وأبي زيد السروجي (البطل).

وفي الثاني نجد عدة مشاركين وهم مختلفون في المقامات المختلفة. إليك بعض هؤلاء المشاركين في العنصر الثاني في المقامات المختلفة:

ـ القاضي: في المقامات المعرية، الإسكندرية، الرقطاء، الصعدية، التبريزية، الرملية و...

ـ الفتى: في المقامات الصنعانية، الحجرية و..

ـ المرأة (زوجة أبي زيد): في المقامة التبريزية.

ـ الأمير: في المقامة الرازية.

ـ الوالي: في المقامة المروزية.

4ـ 7ـ أما بالنسبة إلى الإطار الزمكاني في المقامات الحريرية فلا يفوتنا أن نذكر أن حادثة كل مقامة قد وقعت في مكان خاص ومن هذا المنطلق قد سمى الحريري كثيرا من مقاماته باسم الأمكنة التي قد جرت الحادثة فيها كما قد سبقت بنا الإشارة إلى أسماء هذه المقامات ومن هذه الأمكنة هي: الشيراز، البصرة، المرو، الكرج، التنيس، التفليس، البغداد، الريّ، و...

وندرك من تلك العناوين للمقامات ومن هذه الأسماء أنها تتفاعل مع الأمكنة بصورة مكثفة.

وأما الإطار الزماني فبما أن «الإطار الزماني من المنظور التداولي يتجاوز كونه مجرد لحظة إنتاج الخطاب إلى سلسلة الوقائع والأحداث التي قد يوجد لها صدى في الخطاب بمعنى أن الخطاب يخضع إلى تأثيرات اجتماعية وسياسية من خلال بعض الوقائع والنظم الاجتماعية والسياسية والتقاليد الاجتماعية والخصائص العقلية للمجتمع الذي أنتج فيه الخطاب» (فريدة، 2005م، 104)، ففي الحقيقة لا نحصل على تاريخ محدد من خلال سلسلة الأحداث التي تحدث في المقامات ولا توجد إشارة إلى الزمن بالسنة وإن كانت هناك بعض الإشارات إلى الأيام كيوم الجمعة في المقامة السمرقندية ...

والجدير بالذكر أن الليل ميدان رحب في المقامات الحريرية وفي ثلاث عشرة مقامة عند الحريري يحضن الليل الحكاية العجيبة وهذه المقامات هي: الحلوانية، الكوفية، القهقرية، السنجارية، السمرقدية، الطيبية، الشيرازية، الملطية، الصعدية، التبريزية، التنيسية، الخضرمية، الشتوية.

ولكن نظرا إلى تأثير الأحداث الاجتماعية وغيرها في المنتجات الأدبية فكثرة المكدين وشيوع ظاهرة الكدية في المجتمع الذي عاش فيه الحريري جعلت المؤلف يختار هذا الموضوع أساسا لمقاماته. وجاءت المقامات ثرية بالموروث الشعبي إذ

وظفه الحريري بألوب ناجح وفعال. إليك بعض هذه العادات والطقوس التي كانت سائدة في المجتمع وقد أشار إليها الحريري في المقامات:

الإشارة إلى مظاهر التبالات الاجتماعية على الشخص وما يرافقها في الأزياء والملابس: «كَلِفْتُ مُذْ ميطَتْ عنّي التّمائِمُ، ونيطَتْ بيَ العَمائِمُ بأنْ أغْشى مَعانَ الأدَبِ، وأُنضيَ إليْهِ رِكابَ الطَّلَبِ لأعْلَقَ منْهُ بِما يَكونُ لي زينَةً بَينَ الأنامِ، ومُزنَةً عِندَ الأُوامِ» (المقامة الحلوانية).

ذكر طقوس الموت في المقامة «الصنعانية»: «حتّى أدّتْني خاتِمَةُ المَطافِ، وهَدَتْني فاتِحةُ الأَلْطافِ إلى نادٍ رَحيبٍ، مُحتَوٍ عَلى زِحامٍ ونَحيبٍ فَوَلَجْتُ غابةَ الجَمْعِ، لأسْبُرَ مَجْلَبَةَ الدَّمْعِ فَرَأيتُ في بُهْرَةِ الحَلْقَةِ، شَخْصاً شَخْتَ الخِلْقَةِ عَلَيْهِ أُهْبَةُ السّياحَةِ، وله رَنَّةُ النّياحَةِ».

بيان مظاهر العيد كلبس الألبسة الجديدة وإقامة الاحتفالات و.. في برقعيد في المقامة التي سميت بهذا الاسم: «أزْمَعْتُ الشُّخوصَ مِنْ بَرْقَعيدَ، وقد شِمْتُ بَرْقَ عيدٍ فكرِهتُ الرِّحلَةَ عنْ تلكَ المَدينَةِ، أو أشهَدَ بها يوْمَ الزّينَةِ فلمّا أظَلّ بفَرْضِهِ ونَفْلِهِ، وأجْلَبَ بخَيْلِهِ ورَجْلِهِ اتّبَعْتُ السُنّةَ في لُبسِ الجَديدِ، وبرَزْتُ معَ مَنْ برَزَ للتّعييدِ وحينَ الْتَأمَ جمْعُ المُصَلّى وانْتَظَمَ، وأخذَ الزِّحامُ بالكَظَمِ».

تناول الحياة الزوجية والخلاف والطلاق في (المقامة المعرية).

زيارة القبور كموروث إسلامي: «آنَسْتُ مِنْ قَلْبي القَساوَةَ، حينَ حَلَلْتُ بساوَةَ فَأخذْتُ بالخَبَرِ المَأثور، في مُداواتِها بزِيارَةِ القُبورِ فلمّا صِرْتُ إلى مَحلّةِ الأمْواتِ، وكِفاتِ الرِّفاتِ رَأيتُ جَمْعاً على قَبْرٍ يُحْفَرُ، ومَجْنوزٍ يُقبَرُ» (المقامة الساوية).

ومثل هذه المظاهر كثيرة قد ذكرها خير الله سعيد في بحثه عن هذا الموضوع (http://www.nizwa.com).

4ـ 8ـ مما لابد لنا الإشارة إليه هو أن العتبة التوجيهية إذ هي من عتبات التداول ولها علاقة وطيدة بالتواصل التفاعلي وعلى القارئ المتميز والناقد المحلل الكشف عن مقصدية الخطاب بالعلم بالعلاقة بين طرفي الخطاب. ومما يهم المحلل في العتبةالتوجيهية هو السلطة إذ «التوجيه يرتبط بسلطة المرسل والتي قد تكون مكسبا في حقل من الحقول الاجتماعية أو الوظيفية وغيرها وقد تكون موجودة قبل التلفظ بالخطاب وتتبلور بالانتماء إلى درجات متفاوتة في سلم العلاقات العمودية بين طرفي الخطاب» (ابن ظافر الشهري، 2004م، 226).

فنورد هنا قسما من نص المقامة الساسانية إذ أحضر أبو زيد ابنه وأوصاه بوصايا هامة ليعدّ ابنه أن يكون مكديا حاذقا عالما بأنواع الطرف والظرف و.. إذ قال: «يا بُنيَّ إنهُ قد دنَا ارْتِحالي مِنَ الفِناء، واكْتِحالي بِمِرْوَدِ الفَناء وأنتَ بحَمْدِ اللهِ وليُّ عَهْدي، وكَبْشُ الكَتيبَةِ السّاسانيَّة مِنْ بَعْدي ومِثْلُكَ لا يُقرَعُ لهُ العَصا، ولا يُنَبَّهُ بِطَرْقِ الحَصى .. وإني لأُوصيكَ بما لَمْ يوصِ بهِ شَيْثُ الأنْباطَ، ولا يَعْقوبُ الأسْباطَ فَاحْفَظْ وَصيَّتي، وجانِبْ مَعْصيتي واحْذُ مِثالي، وافْقَهْ أمْثالي .. يا بُنيَّ إنَّ الارْتِكاضَ بابُها، والنَّشاطَ جلبابُها والفِطنَةَ مِصباحُها، والقِحَةَ سِلاحُها فَكُنْ أجْوَلَ مِنْ قُطرُبٍ، وأسْرى مِنْ جُندُبٍ وأنشَطَ مِنْ ظَبْيٍ مُقمِرٍ، وأسْلَطَ من ذِئْبٍ مُتَنَمِّرٍ واقْدَحْ زَنْدَ جَدِّكَ، بِجدِّكَ واقْرَعْ بابَ رَعْيِكَ، بِسَعْيِكَ وجُبْ كُلَّ فَجٍّ، وخُضْ كلَّ لُجٍّ وانْتَجِعْ كلَّ رَوْضٍ، وألْقِ دَلْوَكَ إلى كُلِّ حَوْضٍ ولا تَسْأمِ الطَّلَبَ، ولا تَمَلَّ الدَّأَبَ» (المقامة الساسانية).

فغني عن الذكر أن السلطة الغالبة في هذا النص السلطة الأبوية وتم التوجيه في النص الذي ورد أعلاه بآليات وفّرتها اللغة لأن اللغة «تنطوي على علاقات استلاب قاهرة ليس النطق أو الخطاب تبليغا كما يقال عادة إنه إخضاع فاللغة توجيه

وإخضاع» (ابن ظاف الشهري، 2004م، 224). وهذه الآليات في النص الذي أوردناه هي النداء والأمر و.. وكأن أبا زيد استخدمها للتقريب الأكثر بينه وبين ابنه من خلال صيغ التصغير:

النداء: إذ هو مرحلة تنبيهية وذكر أبو زيد «يا بنيّ» بصيغة التصغير التي تجعل المتلقي يتأثر أكثر ويكتسب العاطفة بقوة قبل العملية التوجيهية الصريحة. كما أن أبا زيد قد خفف من السلطة الأبوية لدية باستخدامه هذه الصيغة.

الإخبار: إذ زود المتكلم ابنه بتجارب قد تم تحصيلها في حياته والحرفة التي مارسها .. من هذه الجمل هي: «إنَّ الارْتِكاضَ بابُها، والنَّشاطَ جلبابُها والفِطنَةَ مِصباحُها، والقِحَةَ سِلاحُها».

الأمر: و هو مرحلة التوجيه الصريح واعتمد المتكلم عليه بعد المرحلة التنبيهية. خلال الأفعال: «احْفَظْ، وجانِبْ، واحْذُ، وافْقَهْ، وكُنْ، واقْدَحْ، واقْرَعْ، وجُبْ، وخُضْ، وانْــتَجِــعْ، وألْقِ و...»

فنلاحظ أن الأفعال التوجيهية ترتبط بالسياق الذي يفرزه ويتم التوجيه وفق الأودات المختلفة والآليات المتنوعة توفرها اللغة كالأمر والإخبار والنداء و..

ولعله من نافلة القول أن نذكر أن القارئ المتميز لنص أدبي مثل المقامات يوفر لنفسه بعض الإستراتيجيات التي تمنحه القدرة على أن يعبر مسارات تأويلية ومنها استرجاع السيناريوهات التناصية وهو مفهوم استعمله إيكو و أدخله ضمن موسوعة القارئ إذ قال: «إن أي نص لا يقرأ بمعزل عن الاختيار الذي يتولد لدى القارئ من مقاربة نصوص أخرى ذلك أن الكفاية التناصية تمثل حالة من الترمز العالي خاصة ومن شأنها أن تصوغ سيناريواتها المخصوصة بها» (أيكو، 1996م، 102).

4ـــ 9ـــ يصور السرد في المقامات الحريرية كيفية محاولة أبي زيد في إقناع المخاطبين ومن تجمع حوله من الناس ليجعلهم يهبون له بعض المال .. فمن آليات الحريري في هذا المجال في مقاماته هي البلاغة التي أضافها كعنصر فعال إلى نصه ولا تعين هذه البلاغة في زخرفة المقامات ولا تضيف المحسنات فقط بل في بعض الأحيان تهب النص القيمة البرهانية .. ومن السملم أن «للأشكال البلاغية وظيفة في موقف انتصالي محدد قابلة للتغيير في السياقات التي تظهر فيها إذ يمكن ملاحظة بعض الأشكال اللغوية التي يمكن في سياق محدد إدراجها ضمن نظاق الأشكال البلاغية وفي سياق أخر إخراجها من نطاقها .. » (بوسنة، 2012م، 117). كما أن الحريري جعل خطابه في المقامات قالبا للأنساق المتعددة والنسق هو «مجموعة من العلاقات تنتج داخل نص معين ومن نص لآخر قد نسرد العناصر التي يتكون منها الأغراض البلاغية والأدب والوظيفة الاجتماعية للنص والأفق الثقافي و..» (كيليطو، 1983م، 76).

أما الأشكال البلاغية التي وردت في المقامات الحريرية كثيرة جدا حتى لا يمكن حصرها في هذا المختصر ومن أهمها هي [ولا يخفى على قارئ المقامات أن هذه المحسنات تتوفر فيها بكثرة مفرطة]:

الترصيع: البحث عن القوافي الداخلية أدى إلى كشف ظاهرة الترصيع في المقامات وهو أن يكون البيت مسجوعا إذ نلاحظ أن الترصيع متوافر إلى حد كبير فيها. ونموذج الترصيع البارز في المقامة البغدادية وقد سبقت لنا الإشارة إلى بعض أبياتها مثل:

يــا خاطِــبَ الــدُّنيا الــدَّنــيّةِ إنّــهــا شَــرَكُ الــرَّدى وقَــرارَةُ الأكــدارِ

السجع: فالسجع سمة رئيسية للمقامات الحريرية إذ نراه يلتزم التوازن الصرفي بين الفقرات أو الوحدات الإيقاعية فالألفاظ تنساب بشكل بديع جميل حتى يحصل على توفيق كبير في جذب القارئ والسامع بهذا الأسلوب الخلاب.

كأن الحريري شاعر بارع إذ قدرته على إنشاد الشعر جعله أن يمزج نثر مقاماته بكثر من الأبيات الشعرية حتى تكاد ألا تخلو مقامة من الشعر وهذه الطاقة الشعرية جعلت الحريري ألا يلجأ إلى أشعار الآخرين ف يإنشاء المقامات كما اعترف بهذا الموضوع في مقدمته إذ قال: «و لَمْ أُودِعْهُ مِنَ الأشْعارِ الأجْنبيّــةِ، إلا بَيْتَينِ فَذَّينِ أسّسْتُ علَيْهِما بُــنْــيَــةَ الــمَقامَة الــحُلْوانيّةِ، وآخَرَينِ تَوْأَمَينِ ضَمَّنْــتُــهُما خَواتِمَ الــمَقامَةِ الكرَجيّةِ» (المقدمة).

التشبيه والاستعارة: أهمية هذه المحسنات كالتشبيه والاستعارة والمجاز و.. في الأعمال الأدبية إلى حد كبير حتى تُعتبر كلها «ضربا من الاستعارة القصوى فدلالتها تتجاوز الملفوظ ذاته وترتكز على مواصفات مضمرة خاصة وعلى عقد واقع بين الكاتب والقارئ إنها طريقة مخصوصة في اللعب مع اللغة» (بلانشيه، 2007م، 149). قد ورد هذا التعريف في كل عمل أدبي فما بالنا في المقامات التي نُشئت لقصد اللعب مع اللغة وتعليم الناشئة كيفية صياغتها. قد استخدم الحريري كثيرا من التشبيهات والاستعارات ليهب نصه نوعا من الخيال والجمال. وهذه الصور التشبيهية قد تناثرت بين النص المقامي وتأخذ مساحات نصية كبيرة منها.

الاستشهاد (الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف): واستشهاد الحريري بالقرآن الكريم وتضمين الحديث الشريف الكثيرَين إن دل على شيء ليدل على معرفة المؤلف على المصادر الإسلامية والموروث الإسلامي وهذا الاستشهاد يظهر في صور مختلفة متنوعة: مباشرة وغير مباشرة و.. الاقتباس من الألفاظ أو العبارات أو الشخصيات القرآنية أو المفاهيم والمعاني القرآنية ..

المثل: ولبيان أهمية المثل يكفينا قول الجرجاني في ذكر أهمية المثل لبيان المعاني إذ قال: «واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو أبرزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أبهة، وأكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشبّ من نارها..فإن كان مدحا كان أبهى وأفخم..وإن كان اعتذارا كان إلى القبول أقرب وللقلوب أخلب، وإن كان وعظا كان أشفى للصدر وأدعى إلى الفكر...» (الجرجاني، 1998م، 102).

إليك بعض النماذج من الأمثال في المقامات الحريرية في الجدول التالي:

المثل	عدد المقامة والفقرة فيها	دلالة المثل
حتى نَأمَنَ حَصائِدَ الأَلْسِنَةِ [رب رأس حصيد اللسان]	خ: 13	يضرب عند الأمر بالسكوت والتزام الصمت
لا يُدْرِكِ الظّالِعُ شَأوَ الضَّليعِ	خ: 33	الأعرج لا يصل إلى مستوى القوي
أَخْبَطُ مِنْ حَاطِبِ لَيْلٍ	خ: 37	أن الذي يكثر الكلام يأتي بالخطأ ولا يدري، مثله مثل حاطب الليل؛ ربما ينهش و لم يعلم
جالِبِ رَجْلٍ وخَيْلٍ	خ: 37	يضرب للمستعد التام
قدامة (مثل في البلاغة)	خ: 55	يضرب للتناهي في البلاغة والفصاحة
كالباحِثِ عَنْ حَتْفِهِ بِظِلْفِه	خ: 60	يضرب للذي يلحق الأضرار بنفسه لعمله ويصبح من الخاسرين
والجادِعِ مارِنَ أنْفِهِ بِكَفِّهِ	خ: 60	يضرب للذي يلحق الأضرار بنفسه لعمله ويصبح من الخاسرين

ونَــفَخْتَ في غَيرِ ضَرَمٍ	2: 42	يضرب للعمل الذي لا جدوى له
عِندَ الامتِحانِ، يُكرَمُ الرَّجُلُ أو يُهانُ	2: 55	الامتحان (الاختبار/ البلاء) هو الذي يُري حقيقة الإنسان
أنْجَزَ حُرٌّ ما وعَدَ	3: 49	أي لينجز الحر بوعده، فهو أمر في صورة الخبر
سَحَّ خالٌ إذ رَعَدَ	3: 49	يضرب لأهمية الوفاء بالوعد وضرورته
الشّرْطُ أمْلَكُ [الشَّرْطُ أَمْلَك، عَلَيْكَ أَمْ لَكَ]	3: 74	يضرب في الاحتراس عند معاملة الناس ووجوب تبيين الشروط بين المتعاقدين، وذلك أكثر فائدة وأسلم عاقبة

و...

المقابلة: لم يقتصر الحريري في مقاماته على استخدام الطباق الذي يقع في المردات بل تجاوزه إلى توظيف ما هو أوسع ألا وهو المقابلة إذ ورد في تعريفها بأنها: «أن يأتي المتكلم بلفظين متوافقين فأكثر ثم بأضدادها أو غيرهما على الترتيب» (حسين، 1983م، 49). ونماذج هذه المحسنة البديعية عنده كثيرة منها:

ونَعوذُ بِكَ مِنْ شِرَّةِ اللَّسَنِ، وفُضولِ الــهَذَرِ، كما نَعوذُ بكَ مِنْ مَعَرّةِ اللَّكَنِ، وفُضوحِ الــحَصَرِ (المقدمة).

المقابلة ظاهرة بين شرة اللسن وفضول الهدر، وبين معرة اللكن وفضوح الحصر.

كل هذه الآليات التي أشرنا إليها تجعل نص المقامات تعتمد على تزواج بين الطاقة التخيلية بالطاقة الإيقاعية. والأولى تتضمن التشبيهات والاستعارات والأمثال و... ولاحظنا أنهما ليستا عنصرين منفصلين عن بعضهما بل نجد الإيقاع يسري في ثنايا الأنظمة التخيلية. كما أن التخيلات تساعد على خلق جو إيقاعي داخل النص.

وفي ثنايا هذه التعددية من الآليات التداولية نجد صدى صوت المؤلف الثقافية في معارف مختلفة واضحة؛ إذ يدل على المجتمع المنفتح الذي كان يعيش فيه الحريري فضلا عن منهج المؤلف في اقتناء هذه المعارف الذي اعتمد على وفرة الاستشهادات.

4ــ 10ــ ومن العتبات الأخرى الهامة في التداولية هي الإقناع ولكن من الضروري العلم بهذا الموضوع أن أدوات الإقناع تختلف قوة وجزالة وكذلك أن «الاستعمال الإقناعي للغة ليس شيئا مضافا إلى اللغة بل إنه موجود في نظامها الداخلي» (عبقري، 1986م، 47). فنلاحظ في نص المقامات أن سعي أبي زيد ومحاولته في إقناع الآخرين بقبولهم بأنه فقير بال ليعطوه من عطاياهم وصلاتهم تظهر بآليات مختلفة تندرج ضمن العتبات التداولية الأخرى.

ومن هذه الآليات البلاغة التي سبق ذكرها في هذا البحث وهذا ينطبق مع الغاية المنشودة لأنشاء المقامات ألا وهي تعليم الناشئة صناعة الكتابة.

ونلاحظ أن أبا زيد في عمله هذا يستعين بالمظاهر الخارجية لتساعده في إقناع المخاطبين وذلك كلَبسه الملابس البالية، أو التظاهر بالعرج، و.. مثلا في المقامة الدينارية نراه يدعي العرج كي يشفق غيره عليه عندما اعترض عليه الحارث (السارد) رد عليه هكذا:

تعارَجْــــــتُ لا رَغبَــــــةً في العَــــــرَجْ ولكِــــنْ لأقْــــرَعَ بــــابَ الــفــــــرَجْ

وأُلْقــــيَ حبْلــــي علــــى غــارِبــــــي وأســــلُكَ مَسْــــلَكَ مَــــن قــــد مَــــرَجْ

فـــإنْ لامَـــني القـــومُ قلـــتُ اعـــذِروا فلـــيسَ علـــى أعْـــرَجٍ مِـــنْ حَـــرَجْ

(المقامة الدينارية)

أو في المقامة الكرجية يتظاهر بالعرى وأنه ليس عنده ما يحفظه من البرد القاسي في ذاك الشتاء كي يهبه الناس المال واللباس و..: فَاضْطُرِرْتُ في يومٍ جَوُّهُ مُزْمَهِرٌّ، ودَجْنُهُ مُكْفَهِرٌّ إلى أن بَـرَزْتُ مِنْ كِناني، لِـمُهِمٍّ عَناني فإذا شَيخٌ عاري الـجِلدَةِ، بادي الـجُرْدَةِ وقَدِ اعْتَمَّ بِرَيْطَةٍ، واسْتَـثْـفَر بِفُوَيْطَةٍ (المقامة الكرجية).

4ـ 11ـ ومن نافلة القول الاهتمام بموضوع هام وهو أن هناك طبقات مختلفة من المعاني للسرد المتخفي والقارئ المتميز هو الذي يتمكن من كشف الأقنعة عن النص ليحصل على المعاني. فمن الخطأ أن نتصور أن المقامات أنشأها الحريري للمتعة اللغوية فقط، بل ضمنها كثيرا من المعاني والحكم والقيم و.. والقارئ الذي يريد المتعة اللغوية فالمراد حاصل له، والذي ينوي إزالة القناع عن المعاني والحكم فعليه أن يكون واعيا حذرا لأن كثيرا من الحكم التي ضمنها الحريري مقاماتِه فهي متخفية أو قُلْ هي مقلوبة. لأن نصوص المقامات هي «النصوص المخاتلة تقدم الحكمة على مستويين: الأول عميق بعيد الدلالة وإزاحة القناع عنه منوطة بقارئ استثنائي يدرك المعنى المكنون من شمولية المقامات وأبعادها المتدشابكة .. والثاني ظاهر الدلالة بارز المعنى واضح الكلمات مشوش للأنساق الثقافية والقواعد المعيارية ميال إلى الباطل مجانب للصواب .. وإنها حكمة مقلوبة» (إسماعيل، 2007م، 60). إليك بعض النماذج منها:

قال أبو زيد ناصحا ولده في المقامة الساسانية: يا بُنيَّ إني جَرَّبْتُ حَقائِقَ الأمورِ، وبَلَوْتُ تَصاريفَ الدُّهورِ فَرأيْتُ الـمَرْءَ بنَشَبِه، لا بنَسَبِه، والفَحْصَ عن مَكسَبِهِ، لا عَنْ حسَبِهِ وكُنتُ سَمِعْتُ أنّ الـمَعايشَ إمارَةٌ، وتِجارَةٌ وزِراعَةٌ، وصِناعَةٌ فَمارَسْتُ هذِهِ الأرْبَعَ، لأنظُرَ أيُّها أوفَقُ وأنفَعُ فَما أحْمَدْتُ منها مَعيشَةً.. ولَمْ أرَ ما هوَ بارِدُ الـمَغْنَمِ، لَذيذُ الـمَطْعَمِ صافي الـمَشْـرَبِ ، وافي الـمَكْسَبِ إلا الـحِرفَةَ التي وَضَعَ ساسانُ أساسَها ، ونَوَّعَ أجْناسَها ...(المقامة الساسانية).

«فالمتلقي الأول الجمهور الذي يروي له الراوي المعلوم لا يعرف شيئا عن الوصية غير ما نقله له الراوي .. والمتلقي الثاني وهو الراوي المعلوم يعرضها على المتلقي الأول مستنكرا لأنه يعرف تقلب الباث للحكمة وتحولاته» (المصدر السابق، 52).

الخاتمة والنتائج:

ظهرت عدة نتائج في هذا البحث الذي انطلق من أسس نظرية للتحليل التداولي للخطاب ليقترب من المقامات الحريرية؛ منها:

ـــ انطلق الحريري في خطاباته على لسان أبي زيد على عملية ليؤثر أبو زيد في النفوس التي تسمع كلامه على اختلاف مشاربها وتفاوت طبائعها ليستقطبهم نحوه ويقنعهم بأنه فقير بال.

ـــ المقامات تضمنت أجزاء ومساحات من الفعل التداولي لخطاب خضع للحضور الإني المتميز.

ـــ يقوم السمتوى التخاطبي الأول بإبداع النص في كل المقامات وذلك أن المقامات كل متكامل فتصدر عن سلطة سردية أحادية.

ـــ يفتح الفعل السردي في المقامات الحريرية للقارئ نافذة تطل على المقامات كلها ويهيئ له اعتبار المقامات خطابا واحدا رغم مظهره التعددي.

ـــ السرد المعتمد في المقامات الحريرية أقرب إلى شعرية الكتابة المرموزة الخلابة منه إلى بلاغة الإقناع.

ـــ يستخدم أبو زيد في الكثير من المقامات خطابا واعيا مستهدفا عاطفة المخاطبين أكثر من عقلهم؛ ليحرضهم على البذل.

ـــ الألفاظ التي تدل على التخاطب مثل «قال، سمعت، أخبرني و..» تومئ إلى فكرة التفاعل.

ـــ السرد المتواصل للأماكن والعادات والطقوس الاجتماعية و.. يشكل فعل كلام إنشائي تفسيري يهدف إلى إنارة عملية التواصل أكثر؛ كأن الحريري أراد أن يقترب إلى القارئ من جراء ذكر هذه الجزئيات.

ـــ للسلطة الأبوية دور بالغ في إنتاج خطاب أبي زيد في القمامة الساسانية وتأويله.

ـــ استخدم أبو زيد في هذه الخطابات عدة آليات مختلفة منها البلاغية كالترصيع، والسجع، والتشبيه، والأمثال، والمقابلة و.. كذلك الحوار و...

ـــ قوة هذا المنهج التداولي تساعد القارئ والمحلل للبحث عن أجوبة للأسئلة المختلفة التي تجول في ذهنهما وتدفع النص أن يبوح بالأسرار والرموز.

المصادر والمراجع

ـــ القرآن الكريم.

ـــ ابن خلكان، أحمد بن محمد. (1977م). وفيات الأعيان. بيروت: دار صادر.

ـــ ابن ظافر الشهري، عبد الهادي. (2004م). إستراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية. بيروت: دار الكتاب الجديد.

ـــ ابن منظور، محمد بن مكرم. (د.ت). لسان العرب. بيروت: دار صادر.

ـــ أرمنكو، فرانسوار. (1986م). المقاربة التداولية. تر: سعيد علوش. الرباط: مركز الإهداء القومي.

ـــ إسماعيل، يوسف. (207م). المقامات مقاربة في التحولات والتبني والتجاوز. دمشق: اتحاد الكتاب العرب.

ـــ أعراب، حبيب. (2001م). الحجاج والاستدلال الحجاجي؛ عناصر استقصاء نظري. مجلة عالم الفكر. العدد 1. المجلد 30.

ـــ الباهي، حسان. (2004م). الحوار ومنهجية التفكير النقدي. المغرب: دار إفريقيا الشرق ـــ الدار البيضاء.

ـــ الجرجاني، عبدالقاهر. (1998م). أسرار البلاغة في علم البيان. بيروت: دار الكتاب العربي.

ـــ الحباشة، صابر. (2008م). التداولية والحجاج؛ مدخل ونصوص. دمشق: صفحات للدراسة والنشر.

ـــ الحموي. شهاب الدين ياقوت. (1980م). معجم الأدباء. ط3. بيروت: دار الفكر.

ـــ الرويلي، ميجان؛ البازغي، سعد. (2002م). دليل الناقد الأدبي. المغرب: الدار البيضاء.

ـــ الشريشي، أحمد بن عبد المؤمن. (1969م). شرح مقامات الحريري. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. بيروت: المكتبة العصرية.

ـــ الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب. (1995م). القاموس المحيط. تح: يوسف الشيخ محمد البقاعي. بيروت: دار الفكر.

ـــ الكفوي، أبو البقاء. (1998م). الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية. بيروت: مؤسسة الرسالة.

ـــ الكك، فيكتور. (1960م). بديعيات الزمان. بيروت: المطبعة الكاثوليكية.

ـــ أيكو، أمبيرتو. (1996م). القارئ في الحكاية التعاضد الـــتأويلي في النصوص الحكائية. ترجمة أنطوان أبو زيد. بيروت: الدار البيضاء.

ـــ باطاهر، ابن عيسى. (2006م). أساليب الإقناع في القرآن الكريم. عمان: دار الضياء.

ـــ بلانشيه، فيليب. (2007م). التداولية من أوستين إلى غوفمان. ترجمة صابر محمود الحباشة. اللاذقية: دار الحوار.

ـــ بوسنة، فتيحة. (2012م). انسجام الخطاب في مقامات جلال الدين السيوطي مقاربة تداولية. د.م: منشورات مخبر تحليل الخطاب ـــ دار الأمل.

ـــ حسين، عبد القادر. (1983م). فن البديع. القاهرة: دار الشروق.

ـــ رشيد، ناظم. (1989م). الأدب العربي في العصر العباسي. بغداد: دار الشوون الثقافية العامة.

ـــ صحراوي، مسعود. (2004م). الأفعال الكلامية عند الأصوليين دراسة في ضوء اللسانيات التداولية للغة العربية. مجلة نصف شهرية. العدد 10. الجزائر.

ـــ عبد الرحمن، طه. (2005م). تجديد المنهج في تقويم التراث. المغرب: الدار البيضاء.

ـــ عبقري، يوسف. (1986م). الإقناع والمغالطة. مجلة دراسة أدبية. العدد 5. السنة 3.

ـــ فرانسيس، مريم. (2001م). في بناء النص ودلالته نظم النص التخاطبي الإحالي. دمشق: منشورات وزارة الثاقفلة.

ـــ فريدة، موساوي. (2005م). المقام في الشعر الجاهلي. رسالة جامعية لنيل درجة الماجستير. جامعة الجزائر.

ـــ كاظم، نادر. (2003م). بحث في أنماط التلقي لمقامات الهمذاني في النقد العربي الحديث. البحرين: وزارة الإعلام والثقافة.

ـــ كيليطو، عبد الفتاح. (1993م). المقامات، السرد والأنساق الثقافية. تر: عبد الكبير الشرقاوي. د. م: الدار البيضاء ـــ دار توبقال.

ـــ ـــــــــ. (1983م). الأدب والغرابة دراسات بنيوية في الأدب العربي. بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.

ـــ موميد، نبيل. (2007م). «حد الخطاب بين النسقية والوظيفية». مجلة علامات. العدد 89.

ـــ ناظم، عبد الجليل. (2002م). البلاغة والسلطة في المغرب. المغرب: الدار البيضاء.

http://www.nizwa.com .. خير الله سعيد في بحث معنون بـــ «المظاهر الفولكلورية في المقامات الحريرية».

فهرس الموضوعات

د . عبد الرحمن بن محمد بن غنيم الحازمي .....جامعة شقراء

حديث عبد الله بن مسعود ﷺ : كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير– رواية ودراية – 01

د.الكر محمد.....جامعة الجلفة

بنية الحضارة و أطروحاتها بين مثالية الحوار و واقعية الصدام..... 20

أ. الاخذاري بن صالح.....جامعة الجزائر03

أ. شرفاوي مصطفى .....جامعة الجزائر03

مسار تمويل التنمية الريفية في الجزائر منذ الاستقلال إلى غاية 2012..... 40

أ.حمزة الدامي ..... جامعة عنابة

" أنواع جريمة اختطاف الأطفال و دوافع ارتكابها " 51

أ. بلعمري فاتح..... جامعة المسيلة

حملة اللورد إكسموث على مدينة الجزائر سنة 1816في عيون رحّالة محلي وقنصل أجنبي 65

د.بن غربي ميلود ..... جامعة الجلفة

الوضع الجيوبوليتيكي للجزائر ودوره في بلورة توجهات السياسة الخارجية..... 76

أ.بوغنجور فوزية..... جامعة وهران1

أدب المرأة وخصوصية الإبداع– اشتغال متميّز على اللّغة –..... 83

أ. حورية بولعويدات.....جامعة قسنطينة 3

مقاربة فكرية لثنائية: الانترنيت والهوية..... 91

أ. يحياوي حمزة .....جامعة الجزائر 1

اللجان الدائمة في البرلمان الجزائري..... 105

أ. دربال مديحة.....جامعة سطيف2

قراءة في حكم المحكمة الدولية لقانون البحار في قضية خليج البنغال..... 119

د. بوشيبة بوبكر.....جامعة الجلفة

النقد التوثيقي في الرحلة المغربية..... 139

د. ساسي سفيان.....جامعة الطارف

أغاني الألعاب الشعبية للأطفال – دراسة في الموروث الثقافي الشعبي لمنطقة الطارف–..... 147

د.سعد الدين بوطبال..... جامعة خميس مليانة

تحليل نفسي اجتماعي للجماعات المنحرفة والإجرامية في أحياء السكنات الاجتماعية بالجزائر. 162

أ.صونيا حسيني.....جامعة باتنة

صورة لإعجاز النص القرآني في لغة الفكر الإسلامي المعاصر..... 173

د.محمد السعيد عقيب.....جامعة الوادي
صدى اغتيال النقابي التونسي " فرحات حشاد"5ديسمبر1952 في الصحافة الجزائرية 190
لينا نظمي الخشاني.....الاردن
قانون حق الحصول على المعلومات ومدى معارضته للمعايير الدولية..... 203
د.جلود رشيد..... .....جامعة الجلفة
نقد فكر بن خلدون مابين الانصاف والتحيز..... 215
أ. أسيا درماش.....جامعة وهران 2
د.محمد عبد العزيز.....جامعة وهران 2
واقع اتجاهات التلاميذ نحو الدّراسة (دراسة ميدانية بثانويتين بولاية الجلفة، الجزائر)..... 224
د. هند بن حميدة .....المركز الجامعي غليزان
أثر أفلام الكرتون (الرسوم المتحركة) على سلوك الطفل..... 236
سمية حسنعليان .....جامعة أصفهان
الخطاب التداولي في المقام والتحليل (المقامات الحريرية نموذجا) 250